أمير حسين
المأوى
رواية

المَأوَى

الكتاب : المأوى

المؤلف : أمير حسين

تصميم الغلاف : أمير حسين

تدقيق لغوي : سمية محمد

رقم الإيداع : 2014/20322

الترقيم الدولي : 3-92-6436-977-978

الطبعة الأولى : 2015

للنشر والتوزيع

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-35860372-02 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

المَأوَى

ولا يَأوِي الروحَ مِثل رضابِ العُمر

رواية

أمير حسين

إهداء إلى أمي

كلمة لا يوضع خلفها فاصلة، ولا نقطة، لأنها فوق قواعد النص وخارج حدود الأبجدية.

مصفوفة حقائبي على رفوف الذاكرة
والسفر الطويل.. يبدأ دون أن تسير القاطرة!
رسائلي للشمس.. تعود دون أن تمس!
رسائلي إلى الأرض..ترد دون أن تفض !
يميل ظلي في الغروب دون أن أميل!

أمل دنقُل

لا أقسى من أسر الروح

حين تصبح حبيسة جسد يقيد انطلاقها
بحبال اليأس المرير .. ويسجنها بين قضبان الضلوع
تهفو أن تخفق بجناحيها بين سماء الخيال الممتد
فيهوي بها جناح مهيض .. ويأسرها عزم وهين
ينبت حلمها في أحضان صخرة أوشكت على السقوط
فيشدها البدن الكسيح .. ويدفنها جرف قعير

أمير حسين

(البحر)

ساحل الإسكندرية: فبراير ٢٠٠٧

امتطي الموج عالقاً به كسمكة علقت بصنّارة صيد، مُسبلاً ذراعيَّ المنهكين بالماء، يحملني لوحٌ خشبي هو آخِر ما تبقى من قاربي الغارق، يتمايل اللوح من تحتي تمايل الشجر مع هبَّات الرياح تارة، ثم يكاد يلفظني مثل فرس بريّ مع لطم الموج له تارةً أخرى، مضت ليلتان وأنا على تلك الحالة، ذابتْ أصابعي وأكل المِلح معدتي، تستفزني صفعات الموج لوجهي بكل وقاحة، وتحاصرني تيارات المد الهائج بطنينٍ مخيفٍ يصمُ هديرهُ آذاني.

لم أعد أعشق رائحة البحر، ولا استَمْتعَ بنسيمهِ المُنعش، بعد أن التهبت عيناي واكتوى أنفي بملحه اللاذع، وصارت الريح العليلة التي تسبح فوق سطحه بمثابة هبّه سَموم تُهَيّجُ الأمواجَ ضدّي وتُحَمِّس العواصف والزوابع لاقْتلاعي عن ملاذي العاري، وكأنها تَستَكثَرَ عليّ التّشَبُّثَ بأمل واهن كخيوط العنكبوت.

ضَجَّتْ أذناي بصوت موجاته المتلاطمة التي تلاطف بعضها بعضاً مرّة، ثم تعود لَتنخَرط متعاركة بصخب مرّات، تحملني عالياً كأنها تكرمني وترفع من شأني حتى إذا اختلتُ بالعظمة هوت بي إلى قاع اللُجة مهزوماً مدحوراً، كما صرتُ أبغض زرقته، وزرقة تلك السماء التي تأوي تحت قبتها سربًا من المتآمرين، تلك السحب الكئيبة التي لم تَكْتَفِ بمشاهدة مأساتي بصمتٍ

متواطئ، بل راحت تذرف مطرها فوق رأسي متصنعة البكاء، وهي تضمر لي في باطنها الشر وتَتَعمَّد إغراقي. الوقت هو الآخر يتَلَذَّذ بمُعاناتي، يمر علىَّ رتيب بطيء، ثم يرحل في لا مبالاة تناسب طبيعته السلبية وعقاربه الروتينية.

حتى طيور النورس التي منحتني بعض الأمل وحلّقت فوق رأسي لبضعِ ساعات، نعبت فيها بِملء حواصلها طالبةً النجدة، اختفت، ولم أعد أسمع صياحها، بعد أن جرفني الموج بعيدًا عن شاطئ البحر، أعذرها ولا شك، بوصلتها لا تحتمل الابتعاد عن مصدر غذائها، ولا تفهم أن فِراقها وأد بداخلي جنينَ الأمل الذي كان في طوره الأول، فالنوارس تصحب مراكب الصيد، واختفاؤها يعني أنه لا يوجد قوارب بالجوار، ولا بقايا تنتظر على موائد الأمل.

لا أعرف على أي مسافة أنا من الشاطئ، كل ما أعرفه أن الأرضَ هناك باتجاه تلك الغيمة الكثيفة التي تشبه حِصَان طروادة، وتحمل بين ثناياها فيلقًا غادرًا من الأمطار، وأن ضفافها لازالت أبعد من أن تحتمل عضلاتي الضامرة وقواي الفاترة العَوم إليها، خاصة أنني حاولت في البداية وجدّفت الموجَ على جانبي اللوح الخشبي بذراعيَّ في مجاهدة، لكنّي كلّما كنت أتقدم متراً كان التيّارُ يشدني إلى الخلف أمتارًا، وكأنه يلقنني درسًا قاسيًا ويعاقبني على عصيان أوامره، ولذلك توقفت عن المحاولة مفضلًا الاحتفاظ بما تبقى لدي من طاقة لأواصل صراعي الملحمي مع البحر، حيث لم أذق الطعام منذ حُبست هنا، وذلك الماء المالح لا يروي ظامئ ولا يستقر بجوف عَطْشَان.

يكفيني ذلك الشعور السخيف بالعطش وأنا بين جنبات الماء، وأعتبره مزحه سخيفة لا تضحك أحدا، ولا يمحو ركاكتها إلا هطول المطر حين يغشاني، فأصنع من شفتي السفلى جرابًا لأعبئ حلقي بمائه العذب، وصارت تلك هي

ميزته الوحيدة والتي لا تقاس بحجم العذاب الذي يسببه لي، بعد أن أصبحتُ محاصرًا بين ماء السماء وماء البحر.

لكن يبقى اليأس هو الحصار الأشد، فاليأس يتراءى لي مثل جدار شاهق علق بمُخَيِّلَتِي حيثُمَا وليت وجهي ليحجب عني الأمل، يمنعني حتى أن أبصر قارب صيدٍ قد يُنَجِّيني من الموت في اللحظة الأخيرة مثلما يحدث بتلك الأفلام الخيالية، لكن لا شيء هنا سوى الواقع، والهزيمة، وسوء المصير. انتظر بفَرَاغِ صبر نهاية حزينة، ومصير محتوم، فالغرق قادم لا محالة، والموت صَيَّاد صَبُور.

أعرف أنني أسبح بين شباك الموت، وأنه قريبا سيلمّ غزله ليحصد غنيمته، وأشعر أن نهاية رحلتي ستكون هنا، تحت تلك البقعة الداكنة، وبين يدي صديقي اللدود وعدوي الصدوق، البحر، لا أدرى من ذا الذي غازله يومًا أو ذكره في أشعاره وقصائده ،أكاد أقسم أنه لم يعلم حقيقته أبدًا، ولم يرى وجهه القبيح بعد، ولا أعرف ما علاقته بالعاشقين واجتماع الأحبة، لو قُدّرت لي العودة سأقودُ حملةً ضد كل هؤلاء المُضَلّلين الذين وصفوه بالسحر والجمال، كلهم كاذبون مخادعون، البحر لا يُعبّر إلّا عن الفِراق، معزوفةَ الوداعِ الحزينة التي تصفّر داخل أذان المسافرين، و تصحبهم إلى رحيلهم الأخير حيث النهاية الأبدية، حيث الموت. البحر مقبرة، جبّانة كبيرة بطنها ملآنة بأرواح كانت يومًا ملأ السمع والبصر، ثم بين أنفاس وأخرى ذابت في ملحه وسكنت أحشائه.

أُفكّر في تلك الأنفُس التي أهلكها البحر بسطوته، وتلوح لعيني هياكلهم المتآكلة فأفهم وبوضوح لماذا يتعجلونني أن ألحق بهم إلى القاع بلا شاهد قبر ولا حتى جنازة، فقلوبهم مليئة بالحقد تجاه كل من نجا من ذلك الخضم القعير، يحسبون من نجا منه آمنًا على نفسه، ولا يدركون أن البحر يمهله

حتى يقتات الموت عمره على مهل، فالموت وطن يرحل إليه كل المُسافرين مهما اختلفت دروبهم ومسالكهم، والبحر خادمه الأمين، على أية حال أشعرُ بساحله يزحف علي روحي، نعم لست أنا من يقترب من الموت، بل هو الذي يتعجلني وكأنه يرفض وجود شيخ مثلي بين الأحياء، وهذا كل ما يهمه، لا يعنيه الفارق بين عمري المعدود بالأيام وبين عمر ذاكرتي، يحاسبني على ما قطعته عقارب الزمن من مسافة داخل ميناء وجودي، ولا يعتد بما احرقَتْه من أنفاسي واستهلكته وقودًا لرحلتها، فأنا وبحساب ما عشته حقيقة من أيام لازلت طفلاً تمتلأ صفحة ذكرياته بالكثير من المساحات العذراء والتي لم يخدش بكارتها حتى مرور النسائم.

لكن المثير، هو أن تكون نهايتي هنا، بين لُجَّة مُتلاطمة، أو في بطن حوت جائع، وليس بين وسادات سرير المرض، لم أتصور للحظة، وتحت أسوأ الظروف، أنني حين أموت، ستضن الأرض بكل اتساعها على جثماني الهزيل بحفنة تراب تؤويه.

* * *

(آلام)

ساحل الإسكندرية ١٩٧٧

لم أكن أعلم يومها سر ذلك المنزل الذي اشتراه والدي من صديقه اليهودي العقيم "موريس"، والذي قرر فجأة أن يهجر الإسكندرية ويرحل مع غيره من بني جنسه، بعد أن شعروا بالخوف والجزع، نظرًا لاضطراب وضعهم وقتها بمصر.

رأيت موريس مرة واحدة، ورغم أنني كنت وقتها لم أتجاوز الخامسة من عمري، إلاّ أن ذاكرتي ظلت تحتفظ بهذه المقابلة في أحد زواياها المختبئة داخل تلافيف مخي المليئة بالتفاصيل والأحداث المختلطة. أذكر أن شجاراً حاداً دار ليلتها بين ظلّي أمي وأبي على ضوء الشموع، وشاهدته عبر زجاج باب حجرة الضيوف المغلق، والذي كنت ألعب أمامه بالصالة، والتقطت سماعات أذني بوضوح تام بعض العبارات عن منزل ترفض أمي العيش به باستماته دفعتها للبكاء والصراخ، بينما يُصِرّ أبي على ذلك بلا أدنى استعداد للتراجع.

رافقت والدي في الصباح لزيارة مكتب موريس -والواقع بالدور الأول بذات المنزل-لإتمام الاتفاق، ورحتُ أمرحُ في ردهات البيت الواسعة والتي بدت لي وقتها ملعبَ كرة خالي من الجمهور، وبالطبع قمتُ باستغلال الموقف كما ينبغي ولم أترك مربعًا إلّا وعبثتُ فيه بكرتي الصغيرة، وصنعت صخباً

شديداً وأنا أعلّق على مهاراتي في تصويبها نحو الجدران، ولم ارتجع إلّا عندما سقطتْ كرتي على سلم المنزل الخارجي، وراحت تتدحرج حتى هبطت عند باب غرفة الحارس وصدمته ثم ارتدّت في عنف.

وقتها فتح رجلٌ مخيف -طويل العنق والأنف حاد القسمات -باب الغرفة ومدَ رأسه خارجها وظل يرمقني بعيون جاحظة بثت الرعب في قلبي وجَمَّدَتني في مكاني، تبادلنا النظرات للحظات ارتجفتُ فيها خوفًا، حتى أغلق الرجل الباب، فخرجت من صدمتي وانسحبت هارباً، وتركت كرتي الصغيرة عائداً إلى حيث تركت أبي احتمي بين قدميه، وهو جالس إلى مكتب موريس يوقع بعض الأوراق بقلمهِ الأنيق ذو الحبر السائل.

رمقني ذلك الشيخُ ذو الشعر الفضّي والطول الفارع بعيون فاحصة، ثم دار حول مكتبه، وانحني يلف كفي الصغير بكفه الخشن البارد، مُعانقًا عينيّ بنظرة لم ولن أنساها، كانت عميقة اخترقتني كشعاع من الضوء يقطع سماءً مظلمة فلا هو ينتهي ولاهي تضئ، وقتها رأيت انعكاس قَسَمَات وجهي البريئة داخل عينيه الزرقاوين ذواتي البريق، والذي كان لا يناسب تلك التجاعيد المتشابكة، والتي كانت تسرحُ في وجهه كالأخاديد العميقة، وتخفى بداخلها آلاف الذكريات والأحداث. نظرت إلى أبي خائفاً فأومأ لي برأسه مطمئنًا، ومنح موريس نظرةَ امتنان، فابتسم الرجل وقرّب شفتيه من أذني وهمس لي بعدة أرقام متتالية لم أفهمها، كنت حينها على ما أظن أعرف الأرقام الأحادية فقط فبدت لي تلك الأرقام المركبَة مجرد كلمات لا أعرف معناها وربما أدرسها لاحقا. بعدها أمسك الرجل كتفيَّ ونظري في عينيّ مرّة أخرى، وراح شعاع نظراته يسبح داخل حدقتي بهدوء شعرت معه بارتياح ما.

لا أذكر شيئاً بعدها إلّا مشاهد مشوهة تقطع ذاكرتي ذهابًا وإيابًا بومضات خاطفة عن صرخات أمي وبكائها. نور يتبعه ظلام، ظلال وأضواء، خطوط بيضاء تعبرها سيارة مسرعة تنهب طريقاً مظلما، ثم تتوقف الذكريات بغتة وبلا استئذان وكأنها فيلم قديم اقْتصت منه أهم لقطاته، وتعود لتتواصل بعد أن أفقدت العرض تسلْسله الطبيعي، تبًا لذكريات الطفولة، لا ندري أبدا لماذا نتذكر أحداثاً وننسى أخرى، ما الذي يعلق بذاكرتنا البريئة كالشوكة المغروسة بالصوف وما الذي يتبخر كالكحول.

تعود ذاكرتي لتواصل وَميضُها المتتابع في كياني فأجدُني أسيرُ في حجرةٍ من حجرات منزل جدتي القديم، أمرُّ بين أقدام عمّاتي وخالاتي المُتشحات بالسواد أقلّب في الوجوه بعيون حائرة باحثًا عن أمي وأبي، الكل متواجد إلّا هما! الكل يتهامس بكلمات مُشفقة لا أعرف معناها "يتيم"، "رحمهم الله"، يتأسفون ويمسحون برأسي، قلّبت عينيَّ فيهنْ أراقبهن، فإذا بالدموع تنهمر على الخدود، خالتي ليلى كانت تخفي عينيها بكفّيها اللذيْن تسرّبَ من تحتهما خطين هما مزيج بين دموعها وكحلها الأسود وشفتاها كانتا ترتّجفان، وعمتي سعاد كانت تنْتحب وصدرها ينتفض بينما اكتفت خالتي مُنى بكشطِ دُمُوعها الثقيلة من على خدها بمنديلها الأبيض ... صوتُ القرآن المجوّد يصدح بالمكان ويشق الصمتَ، ولا صوت غيره إلّا قليل من الأنين الذي عجزت الصدور عن احتوائه فهرب بحثا عن أفقٍ أرحبْ.

تخللت الجلوس واقتربتُ من جدتي التي كانت تجلس في آخر الغرفة سائلاً إياها عن أبي وأمي، وأنا أرفع رأسي إليها في حيرة، فضّمتني بحرقة شعرت معها بلفحة كلسعة الموقد، غير أنها لم تجبني، فقط اعتصرت أهدابها المتقصفة دمعة مريرة أخرى لتلحق بمجري الدموع الذي حفر خدها. أبي وأمي لن يعودا، هذا ما فهمته لاحقا وهذا ما طَوَتهُ ذكرياتي.

عِشتُ مع جَدتي لفترة لم أتوقفُ فيها يومًا عن السؤال عن صورة لأبي وأمي، وعمّا جرى لهما ولا إجابة. فأنا اليتيم الذي لا يذكر حتى كيف كان يبدو والديه. كلهم كانوا يتعللون دائما بأن الصور فُقَدت حتى مللت وتوقفت عن الطلب. حياتي مع جدتي كانت رتيبة هادئة أو لنقل مملة. كُنتُ طفلاً انطوائياً بشكل كبير. لا أشارك الآخرين اللعب والمرح، ولا حتى الأنشطة المعتادة. حتى كرة القدم التي كنت أحبها لم أعد أعيرها اهتماماً مثل ذي قبل. الشيء الوحيد الذي كنت أفعله هو القراءة. كنت ألتهم بعيني كل ما يقع تحت يدي من الكتب والمجلاّت والروايات والتي كانت موضوعاتها أكبر كثيراً من استيعابي وقتها. والغريب أن هذا لم يزعج جدتي ولا خالاتي بل على العكس تماما. كانوا دائما ما يرددون الأمثلة المعتادة كنوع من الإطراء والمديح للهدوء والاتزان. غير أنني لم أكن صامتاً ولا انطوائياً تعقلاً بقدر ما كنت افتقد أي معنىً للحياة ، أعيش فقط. كما أن هناك شيء آخر بشأني جعل كل الأطفال يتجنبونني. لقد كنت صامتاً لا أتكلم أو بمعنى أوضح أُعاني الخرس مع الغرباء. ولأن ذلك يعد في ثقافة الشرق من علامات الأدب وحسن التربية فقد تسبب في استئثاري بحب المعلمين، وتسبب أيضًا في ارتفاع درجة كراهية زملائي لي. لذلك كنت أتعرض أحيانًا للعنف والضرب المُبَرح ولازمتني المشاكل باستمرار.

لكن كل شيء تَغَيّر بانْتقال خالتي ليلى للعيش معنا بمنزل جدتي، بعد أن تم نقل عمل زوجها الأستاذ منصور من القاهرة إلى الإسكندرية. وقتها تعلقتُ بسهام ابنة خالتي، والوحيدة التي كانت تجعلني أتكلم وأعبّر عن نفسي، كانت شديدة الإعجاب بقوة ذاكرتي وقدرتي على الحفظ. وتتباهي بذلك أمام صديقاتها، واللواتي كن يرمقنني بنظرات تحمل الريبة كلما وقعت

أعينهنْ عليّ، وكأنهن لا يصدقن أن ذلك الفتى النحيل الأخرس-من وجهة نظرهن-يمكنه أن يمتلك تلك الصفات التي كان تحدثهم عنها.

بقيت على حالتي تلك، حتى أَتَمَّمت دراستي الابتدائية إلى أن جاء ذلك اليوم الذي عدت فيه من الاختبارات لأجد كل ما تبقى من عائلتنا مجتمعاً في حجرة نوم جدتي، يلتفون حولَ سَريرها المنير، وعرفت أنها تحْتضِر، الكل بللته دمُوعه الغزيرة، والكل يعرف أنها مسألة وقت وستفارقهم إلى الأبد، لكن بلا شك لا أحد يدرك حجم فراقها الأليم مثلي أنا، فمنْ لي غيرها؟ وحدها كانت تمنحني الحنان المفقود دون منٍ أو جميل، لثاني مرة سأفقد الحنان والدفء والأمان بعدما فقدت أمي وأبي، انحدرت مني دمعة أسيفة حزناً عليها وأنا أقف صامتاً أشاهدها تشهق وتنطلق من صدرها آهة واهنه، ثم يرتفع رأسها لأعلى قليلا ويشخص بصرها ثم تهبط لتعانق وسادتها للمرة الأخيرة. الكل بكى وصرخ وسقطت أنا في غيبوبة قيل إنها استمرت أسبوعين أو أكثر.

أفقت من الغيبوبة لأجد ثلاثة من الأطباء يتهامسون من حولي بمصطلحات إنجليزيه، وعلى وجوههم انحفرت علامات التعجب وبجوارهم خالتي ليلى وزوجها في حالة ذهول، حتى أنهما التفتا نحوي بدهشة حقيقية، ثم أشاحوا بوجوههم على الفور بعدما لاحظتُ أنا رد فعلهم– محاولة بدت فاشلة منهم لإخفاء أمر غامض عني– لكنني وكعادتي لم أسأل ولم أهتَّم.

مضى عام كامل تقلّصت فيه زيارات أقاربي لي حتى انقطعت تماما، وكأنهم كانوا ينبذونني أو يقطعون صلتهم بي عن قصد، وفي أحد الأيام عدت من مدرستي لأجد خالتي ليلى تبشرني بأنها قدمت أوراقي بأحد المنح الدراسية المقدمة من الحكومة الألمانية، وأنها ستصحبني في الغد لإجراء بعض الاختبارات التي يجب تجاوزها للقبول.

كنت رافضًا لذلك وبشدة، لكنّي بالنهاية مغلوبٌ على أمري، لذلك استسلمت وخضت الاختبارات، وبالفعل حققت العلامات المطلوبة وتم قبولي بالمنحة. وهكذا قررت خالتي -ودون رغبة مني –إرسالي للسفر خارج مصر لإكمال دراستي بحجه أنني متفوق وأن تفوقي يثير حسد الآخرين ويعرضني للعنف. شعرت يومها أنها تريد إبعادي عن سهام بعد أن نمت في قلوبنا نبتة حب صغيرة، ولسبب ما، لا أعرفه ولا أفهمه، قررت تفريقنا. لازلت لا أنسى أبدا الدموع التي ذرفتها سهام عندما كنت أدخل صالة المغادرة بالمطار مودعاً إياها للمرة الأخيرة، وشعرتُ بأن قلبي يحترق من أجلها، لكنّي بقيت متماسكاً لا أعرف كيف! فقط منحتها ابتسامة أخيره، وغادرت أجرُّ حقيبتي، وأجرُّ معها ذكريات طفل عاش أيامه يخسر كل من يحبهم ويحبونه، وفتى يرفض الحنان أن يرق من أجله، فتى لم يبق له من الدنيا إلّا حقيبة سفر، وآلام

* * *

(بَتْر الذكريات)

وصلت ألمانيا الغربية وهناك كانت بداية حياتي الجديدة، درست الهندسة الميكانيكية وعشقتها حيث وجدت بها إجابات واضحة عن الكثير من الأسئلة العلمية التي حيرتني حينما كنت طالبًا.

ولمّا تخرجت عملت بأحد المؤسسات البحثية وطوال فترة دراستي وعملي، كنت أرفض وبشدة الرد على اتصالات خالتي أو خطاباتها عقابًا لها على طردي. كنت أشعر داخل قراره نفسي أنها ألقت بي غريبًا موتوراً على قارعة الطريق، ودون شفقة أو رحمة، لذلك رفضت العودة إلى مصر رغم محاصرتي منها ببرقيات تستجدي العودة، وحتى حينما قرَرَتْ بيع المنزل اكتفيتُ بإرسال تفويض بالبيع ولم أتصل بها أو أرد على خطاباتها، وبالفعل تم بيع المنزل وتحويل المبلغ إلى حسابي في ألمانيا والذي أرسلت إليها رقمه في برقية.

ومرّت الأيام وأنهيت دراستي، وغيرتُ عنواني، وقطعتُ صِلَتي بكل عائلتي التي أصبحت أبغضها حنقًا على قسوة خالتي وإهمال أقاربي لي، ولم أكتف بذلك بل حصلت على الجنسية الألمانية كي أبتر كل الأذرع التي تمتد بداخلي وتشير بأصابعها نحو الجنوب، بل واجتثثت كل جذور شجرة الشرق العجوز التي نبتت بذرتها داخل طينة طفولتي، منعت نفسي من متابعة كل أخبار وطني القديم، بحلوها ومرها بانكساراتها وانتصاراتها وكنت أرفض الحوار بشأن

أحوال بلدي مع أي من الأصدقاء، وبذلك استأصلت ذكرياتي الخبيثة التي آلمتني أورامها قبل أن تتدهور حياتي على إثرها واضطر إلى البتر الشامل.

اشتهرت بالتركيز والتفاني في عملي حتى أطلق عليّ أصدقائي الألمان لقب" الماكينة"، تصور الألمان يصفونك بهذا!، متعتي الوحيدة كانت العمل والإجازات كانت بالنسبة لي مجرد ضيف ثقيل الظل، ولذلك التصق بي لقب آخر ألا وهو " المتقوقع" فلم أكنْ أغادر منزلي أبدًا لأي سبب، ولم تكن لي صديقة مثلهم، وكنت ابتعد عن الاختلاط بالغرباء وأرفض إقامة أي صداقات جديدة، فقط أقرأ، وأمارس رياضة السباحة والتي اكتشفت أنني مميز بها حينما وجهني المدربين في المدرسة لاحترافها بعد أن أثبتت كل مقاييسي الجسدية أنني مؤهل لذلك، كما كنت أشغل وقتي أيضًا بكتابة بعض الخواطر الفلسفيّة والتي كانت كلها تدور حول معنى واحد "عشق العزلة"، وأحاور فيها شخصًا واحدًا " أنا"، وهكذا فرضتُ على نفسي سياجًا حازمًا من العزلة ولم أسمح لكائنٍ من كان أن يخترق ذلك السياج أو حتى يحاول الاقتراب منه.

مرّ كل شيء بانتظام مثل بندول ساعة حائطي المزركش، حتى اليوم الثاني من يناير ١٩٧٧ عندما خرجت لممارسة الجري في الممشى القريب، مغلفاً بملابسي الرياضية الثقيلة، وعدت وأنا أتصبب عرقًا ثلجيًا -رصّعَ جبهتي بحبات بارده-لأجد ليزا ساعية البريد الشقراء ذات النمش، تنتظرني أمام منزلي، وبيدها مظروف صغير مُرسَل بالبريد الجوي السريع، وعلى شفتيها ابتسامة روتينية جمّدها البرد. وقّعتُ لها بالاستلام ومنحتها ابتسامة ودودة فعادت لتحتمي بسيارتها وترحل.

دلفتُ إلى منزلي، وخففت ملابسي، ثم أسرعت أفض المظروف لأستكشف محتوياته، لم يكن ما به خطابًا عاديًا، بل كانت قُصاصة مُقْتطعة من باب

الحوادث بجريدة الأخبار المصرية، وبها صورة متوسطة الحجم، تجمعني وامرأة جميلة بصالون منزلنا المباع، ويجاورها عنوان مخيف خُط بالرقعة السميكة: "جريمة غامضة بالمنزل المجهول"

(استيقظت الإسكندرية على فاجعة جديدة تخص ذلك المنزل المجهول بمنطقة الساحل، حيث قتل أحمد عزت المصري زوجته حنان توفيق عبد الرحمن بدم بارد ثم انتحر. انتقلت الشرطة لموقع الحادث إثر بلاغ مقدم من والدة المجني عليها، وعُثر على الجثتين ملقتين داخل قبو عميق في المنزل، وبمعاينة جثة الزوجة وجد أنها لامرأة بالعقد الثاني من عمرها ومطعونة في قلبها بخنجر حاد، وهو ذات السلاح الذي يستقر بقلب الزوج، مما يؤكد أن الزوج قتلها ثم انتحر، هذا وقد تم نقل الجثتين إلى المشرحة تحت إشراف النيابة وبحضور كلا من ...)

استنكرت وأنا أرى ملامحي في مرآتي المواجهة قد اقتضبت بشدّة من الغضب -والذي لم أشعر به منذ فترة ليست بالقليلة! - ما هذا العبث ؟!

سأعود حالا وأقُاضي تلك الجريدة الكاذبة.

عدت لأفحص صورة الرجل الجالس بالخبر عسى أن يكون الأمر مجرد تشابه بالأسماء، إلّا أنها كانت فكرة سخيفة، فالرجل الجالس كان أنا، نفس ملامحي، جبهتي العريضة، عيناي الواسعتان، حاجباي الكثان والمقترنان فوق أنفي الأنيق المستدق، فمي الواسع ذو الشفاه المضلعة والمقلوبة لأعلى قليلا، فكي المستطيل، شعري الفاحم الكثيف والمتنافر مثل أسلاك متداخلة، هذا بالإضافة لنحافتي وطولي الفارع، وحتى الملابس التي يرتديها، هي نفس ملابسي، البنطالون الأسود والقميص المخطط.

دققت في تاريخ الإصدار فوجدت جزءًا منه غير ظاهر بالقصاصة (يناير-١٩٧٧)! تَهَكَّمَت على الخبر! أي عبث هذا! أنا حتى لست متزوجاً. تفحصت الصورة مرّةً أخرى فوجدتني بمثابة زوج يجلس بجانب زوجته الحَوراء، ومن خلفنا يظهر جزءٌ من تلك اللوحة التي لازلت أذكرها منذ أيام طفولتي، وتحديداً بعد أن سكنّا ذلك البيت الذي اشتراه أبي. لَوحة تحمل وجه امرأة في جسد أفعى، تتسلق رجلاً شبه عاريًا، وذيلها يدور حول صدره يعتصره، وهو يصرخ من الألم وقد انحفر تعبير العذاب على كل قسمات وجهه بعد أن غرست نابيها في رقبته.

عدت لأراجع اسم المرسل -والذي فاتني أن أقرأه في البداية-فكانت صدمتي هذه المرّة أكبر، تسمّرت في ذهول كتمثال روماني خالي من الحياة، "موريس سمعان"! مستحيل! المفترض أن الرجل ترك مصر منذ عقود، والمظروف يحمل طوابع البريد المصرية، انتابني صراع نفسي بين رفضي للأمر وبين فضولي البشري، وانتهت المعركة بالطبع وكما يحدث دائماً لصالح الفضول، ولم يأت صباح الثالث من يناير إلّا وكنت أجلس بأحد مقاعد طائرة "لوفت هانزا" مُتّجهًا إلى القاهرة وبصحبتي حقيبة صغيرة وبداخلها ملابسي ومن ضمنها القميص المخطط الذي لا أدري لماذا أحضرته لكن هكذا فعلت.

وصلت مطار القاهرة لأجد الجو دافئًا مقارنة بألمانيا، حتى أنني فكرت في أن أتخفف من معطف المطر الذي أرتديه، إلّا أنني نفضت الفكرة عن رأسي لأنني سأعود لألمانيا سريعًا، ولا داعي لأن أغير نظام حياتي من أجل يوم واحد بالطبع. اتجهت إلى منفذ بنك مصر، وطلبت من الصرّاف استبدال ألفا من الماركات الألمانية لما يقابلها بالجنية المصري وفوجئت حينما منحني مائة وسبعون جنيها فقط، نظرت إلى المال مستغربًا ثم غادرت شبّاكه

الزجاجي، وانطلقت مباشرة إلى مقر جريدة الأخبار، وهناك عرضت الخبر على مسئول التحرير فقابله بسخرية: هذا الخبر لم يصدر أمس ولا أول أمس ولا يمت للجريدة بصلة. قالها ومرر لي ثلاث نسخ من الأعداد التي تم إصدارها في الأيام الثلاثة الأُول من يناير، وبحثت داخل صفحات الحوادث، ولم أعثر على الخبر بالفعل فسألته: وماذا عن الصحفي؟

-تقصد يسري الكاتب! لا أحد يعمل لدينا بهذا الاسم يا عزيزي.

-هل أنت متأكد؟

-بالتأكيد، ويمكنك السؤال عن ذلك بقسم شئون العاملين؟

-ولا حتى من المراسلين؟

-ولا حتى من المراسلين. قالها وهو يهز رأسه نفيا.

شعرت بقليل من الارتياح، وغادرته معتذرًا وأنا ألوم نفسي كثيرا على هذا التصرُّف الأحمق، وتصديقي الساذج لتلك المزحة السخيفة، تمشَيت في إحدى الطرقات المؤدية لباب الخروج، والتي تمر بالعديد من المكاتب فإذا بأذني تلتقط اسم يسري، توقفت لأجد باب شئون العاملين على يساري وعلى عتبتهِ يقف شابان يتجادلان عن إمكانية قبول أحدهما بالوظيفة بينما الآخر يائس من ذلك. ساورني الشك بل ملأني كبئر ملئوه الطوفان وبدأ يفيض على لساني، فلم أتحمل وسألت أحدهم بريبة: يسري الكاتب.

أشار إلى زميله الذي يقف أمامه، والتفت نحوي فاذا به شاب في أوائل العشرينيات من عمرة.

-هل تعرفني؟ سألني مندهشا !؟

مررت له الجريدة فقرأ الموضوع ثم استنكر: أظنه تشابه أسماء أنا أقدم أوراقي لتوّي. وأشار إلى مظروف كبير فتحه بإصبعه فوجدت بداخله مجموعة من الشهادات الخاصة به والصور المتنوعة. تفرست ملامحه للحظات وأنا أحاول استيعاب الموقف ثم اعتذرت له عن سوء الفهم: آسف على ازعاجك. أظنه تشابه أسماء بالفعل.

غادرته بحيرة أكبر من التي أتيت بها، بعد أن عادت نيران الشك لتستعر بداخلي تجاه الخبر. لو قُبل تعيين ذلك الشاب الآن، سيصبح محررًا بقسم الحوادث عن قريب. والخبر الذي وصلني لم يَظهر به يوم الإصدار. يا الله هل يمكن أن تكون رسالة من المستقبل أرسلها رجل من الماضي؟

توقفت قليلاً لأفكر بعد أن ارتوت بذور الشك بما يغلي في صدري من ماء الحيرة. خطر ببالي أن أراجع أرشيف الجريدة وتحديدًا يوم ٢٧-١-١٩٥٥، وهو تاريخ وفاة أمي الذي رأيته في وثيقة وفاتها ذات مرة، عندما كنت أعيش مع جدتي رحمها الله، وحفظته عن ظهر قلب.

سألت عن قسم الأرشيف، فوجدته آخر الرواق فانطلقت إليه مباشرة وقابلني بمدخله موظف الأرشيف، وكان يستمع إلى أم كلثوم عبر أثير الإذاعة فاستأذنته: من فضلك أريد نسخة من عدد الأخبار ٢٧ يناير ١٩٥٥.

خفض صوت الراديو ثم سألني: الآن؟

- وهل هناك ما يمنع؟

حاول التهرب في تكاسل: الموضوع قد يستغرق وقتا طويلاً، مرّني غدا وستجده.

- لا يمكنني الانتظار، سأسافر الإسكندرية بعد قليل.

رماني بنظرة ضيق، وكأنني أفسدت عليه متعة الاسترخاء، وفتح أحد الأدراج، وأخرج منه استمارة ممتلئة بالأسئلة ومررها لي قائلا: قم بتعبئة تلك الاستمارة إذاً.

- قلم من فضلك؟

عقّد جبينه ثم أعطاني قلمًا متهالكاً ومقيدًا من رأسه في فتيل مربوط بالمكتب، وملئت به الاستمارة، ثم بدأت رحلة البحث عن الخبر. بذلت مجهودًا خرافياً، وأنا أفتش بنهم بين الأعداد القديمة يعاونني في ذلك الموظف، حتى وجدناه فاختطفته من الملف ثم قلّبت صفحاته سريعاً حتى وصلت إلى صفحة الحوادث، وهنا هوى قلبي بين قدمي، فبأول الصفحة كانت هناك صورة لأبي ومن خلفه نفس اللوحة، بذات المنزل والعنوان والتفاصيل تقريباً:

(انتحار طبيب قتل زوجته بالإسكندرية

عثرت الشرطة على جثتين لطبيب مشهور وزوجته في منزلهما بالإسكندرية. ثبت أن الطبيب ويدعى عزت المصري قد قتل زوجته إيمان مصطفى بدم بارد وختم خطيئته بقتل نفسه وبنفس سلاح الجريمة، وبسؤال الرائد نزيه شوقي عن تفاصيل الحادث، أجاب أن الجثة الأولى لسيدة أرِسْتُقْراطية في منتصف العشرينيات من عُمُرها وأنها وُجِدتْ ملقاةً داخل المنزل ومصابة بطعنة نافذة إلى القلب، كما أن سلاحَ الجريمة الذي انتحر به الطبيب هو ذاته الذي اسْتَعْمَله في قتل زوجته، وهو خنجر أثريٌّ عتِيقُ الطراز، وقد انتقلت الشرطة إلى موقع الجريمة صباحًا إثر بلاغ ...) كتب: كمال رشدي

صدمتي كانت مرّكبة، انفتحت أمامي كل ستائر الزمن السوداء دفعة واحدة، كاشفة عما وراءها من أحداث مظلمة كان الماضي قد آثر أن يخفيها

بين أحشائه ليسَري عني، وليمنح المستقبل فرصة للتواجد بحياتي، لكنه قرر فجأة ودون سبب أن يجّترها داخل فمي لأتجرع مرارتها. عرفتُ الآن - ولأول مرة-لماذا أخفى عني أهلي كل ما يدل على هوية أبي وأمي طوال تلك السنوات، لقد دفنوا سرهما بذات القبر الذي دفنوا به جثمانهما، وكتبوا على شاهده، ماضي يطلب النسيان، ولأن الأسوأ دائما ما يلحق بقطار المصائب، فقد كانت تنتظرني صدمة أخرى ربما أشد فتكاً من سابقتها، لقد كان أبي هو أنا أو أنا هو أبي نفس الملامح، نفس القسمات، نفس الوجه والجسد، الفارق الوحيد كان العمر، وكأننا توأمان بمعنى الكلمة مع مراعاة فارق الزمن، أجزم أن هذا ما سوف تكون عليه ملامحي بعد سنوات، لو قدرت لي الحياة! كيف جِئت أشبهه إلى هذا الحد؟ هل كُتِبَ لنا نفس المصير؟! مثلما نحمل نفس الصورة.

نيران الاستنكار تأكل صدري بشراهة، ودخانها يرتفع ليّضيق عليّ أنفاسي وأنا صامت وزائغ، ذاكرتي لا تحملُ أياً من تلك الأحداث رغم أنها من ذلك النوع الذي يحرث لنفسه مجرىً عميقاً بالنفس ويزرع أشجاراً تمتد جذورها بعيداً في باطن الروح، طفل يرى أبوه يقتل أمه ثم ينتحر، بالتأكيد لن يغادر مشهد مثل هذا ذاكرته حتى لو غادرته ذاكرته نفسها.

مرّ الوقت ببطء وأنا على تلك الحالة، أعاود قراءة الخبر مرة تلو الأخرى محاولًا استيعاب الموقف، وفي كل مرة كان اليقين يزداد والشك ينسحب، نفس الجريمة، بنفس طريقة القتل ونفس طريقة الانتحار، انتهزت فرصة عودة الموظف للاستماع للراديو وانتزعت مربع الخبر من الصفحة ثم أعدت العدد لمكانه وخرجت.

سألت عن الصحفي كمال رشدي، والذي كتب الخبر، وعرفت أنه ترقى إلى منصب رئيس قسم الحوادث بإحدى الطبعات المسائية للجريدة، صعدت

فوراً إلى مكتبة فوجدته مزدحمًا بالمحررين الذين تحلّقوا حول الرجل وهو جالس بينهم يؤدي عمله.

رجل بدين كرشه يتدلى فوق حافة مكتبه المكتظ بالأوراق والنسخ، لكنه كان نشيطاً ومثيرًا للإعجاب، يتابع الشاردة والواردة، يضيف تعليقات بالقلم الأحمر على بعض المسودات، ويصحح البعض الآخر لغوياً، يوافق على هذا ويرفض ذاك، والأهم أنه كان ذو ذاكرة حادة، تجلّت في تعليقاته على الأخبار وربطها بأحداث قديمة.

كان يوبخ أحد المحررين على نقله لعنوان خاطئ داخل أحد الاخبار ويتوعده بالخصم إن تكرر الأمر، حينما رآني أقف أمام مكتبة مباشرة، فقطع عمله، وصوب بصره نحوي ثم استفسر: خيرًا يا عزيزي؟

مررت له الخبر المقطوع فالتقطه ومر ببصره عليه ثم عدل نظارته وقال: لا أفهم؟ ماذا بالخبر؟!

- أريد أن أعرف المزيد من التفاصيل عن تلك الحادثة.

-لماذا؟

-أنا أحمد ابن الطبيب عزت المصري.

ذُهل الرجل وسكتَ قليلاً كأنه لا يجد ما يقوله لي، يواسيني أم يسألني لماذا تنبش بالأمر؟ وكيف تجهل ما حدث؟! لكنّه حينما تكلم، اختار الإجابة المباشرة: هذا الخبر بُلغ لي هاتفياً ومن الضابط شخصياً، وحصلت على مزيدٍ من البيانات عنه من ملف القضية بمديرية أمن الإسكندرية وقتها.

-وما هو ذلك المزيد؟

- القضية كانت محاطة بالعديد من الأسرار، منها أن سلاح الجريمة فُقِد، وأيضا مكان حدوث الجريمة كان مجهولًا، لأن الطب الشرعي أثبت أنّ الجثتين تم نقلهما إلى البهو وأن الجريمة لم تحدث به، كما أنه توجد أسرار أخرى لم يتم الكشف عنها مثل اختفاء المعاون المساعد للضابط.

-ومن تظنه يعرف كل تلك الأسرار؟

-الضابط المحقق بالتأكيد. قالها وهو يعيد لي قصاصة الخبر فأسرعت أدسها في جيب معطفي وسألته: وأين أجد هذا الضابط؟

أراح خده على كفه وأجاب في شرود: الحقيقة أن هناك شيء غامض يخص هذا الضابط؟

-غامض؟!

- نعم، هذا الضابط فعل شيئًا غير مسبوق بتاريخ الشرطة، وعقبَ انتهائه من التحقيق بالقضية مباشرة.

استعر الفضول بداخلي فسألته: ماذا فعل؟

-استقال من الخدمة فوراً، وكما تعلم لا أحد يستقيل وهو ناجح ولازال برتبة رائد.

ترك الذهول ملامحه ليستقر بملامحي أنا، لا أحد يستقيل برتبة رائد بالفعل، لماذا فعل ذلك! عقلي ما يزال يرفض كل شيء، حاولت أن أعاند الحقائق الواضحة والدلائل التي لا تقبل الشك، لكني وكعادتي رفضت أن أخدع نفسي بمبررات واهية، فالحقيقة كالبريق الصافي تستطيع رؤيته بوضوح على بعد آلاف الفراسخ، والأكاذيب كالوهج الواهن يملأ المكان من حولك لكنه ينقشع سريعا كالغيوم.

* * *

(الطريق)

توجهت كالسائر نوماً إلى الإسكندرية قاصداً المنزل وقد ترعرعت نبته الشك بداخلي وصارت مثل ليلاب غمر صدري وطوّق عنقي. ركبتُ قطار "القاهرة الإسكندرية" الرديء -مقارنة بأمثاله في ألمانيا-وراح يتأرجح بي وكأنه سينقلب على جانبه، ثم يعود فجأة ليعتدل وكأن شيئاً لم يكن، ثم يكرر ذلك وهكذا دواليك، شعرت أن القضبان هي التي تعاني في جرّه بذراعيها وكأنه يأبى السير. تمامًا مثلما أحاول جر ذكرياتي من عمق بعيد لتطفو إلى السطح حتى انتشل ما تبقى من حطامها وانتشل معه نفسي من ضياع قادم ولا شك.

وكان الأمر مرهقًا، وكأن قاع ذكرياتي أعمق مما تصورت أو أنه فارغٌ بالفعل، وكررت المحاولة وغصت بمياهي مرةً بعد أخرى لكني عدت بالقليل المشوّه، فبقيت زائغاً، أحاول محاصرة ما طفا إلى السطح من بقايا واستجوبها بقسوة، لعلها تخرج كل ما عندها من اعترافات قد تفيد في فهم الموقف، لكنني حصلت فقط على مشاهد مرتبكه مشوهه، وكأنها حلم رمادي لرجل يعاني الربو في ليله مغبره.

هبطت من القطار خالي الوفاض لأستقل تاكسي أوصلني إلى مكان تجتمع به بعض عربات الخيول، وطلب مني السائق استكمال الطريق بإحداها بحجة أنه غير ممهد، ووافقت على الفور، فقط لأتخلص من ثرثرته.

في البداية حاولت إقناع أصحاب العَرَبات الجيدة والخيول القوية لكنهم رفضوا جميعاً، وبلا سبب واضح، ودون حتى مناقشة السعر، الوحيد الذي وافق وبإيماءة من رأسه، ودون مناقشة السعر أيضا كان ذلك السائق الطاعن بالسن صاحب العربة المكسورة والحصان الكهل، والذي بدا عاجزًا حتى عن تحريك أذنيه لتفريق ما تجمع حولهما من ذباب، وقد برزت عظام قفصه الصدري بشكل حاد لتنبئ عن أجل قد حان قريبا، وربما اليوم، وربما لن يصل بنا أبدًا، كان ضعيف بطيء، تطغي صلصلة الأجراس المتدلية من رقبته على صوت دقاته الواهنة على الأرض.

وظلت العربة تترنح قاطعة الطريق في تؤدة وعجلاتها تصَر بتثاقل، وظل السائق صامتًا وأنا جالس خلفه أتابعه هو وحصانه المسكين بملل، كنّا نمشي تجاه البحر، عرفتُ ذلك عندما بدأ صوت هدير الموج يتسلل إلى مسامعي وبدأ أنفي يلتقط رائحة اليود بشكل أوضح.

وصلنا إلى بقعه ما يبدو أنها قريبه من المنزل، عندما بدأ الحصان يصهل وبعصبية ملحوظه، ولمحت من مكاني عينه اليمنى تبرق بشكل مخيف ثم توقف فجأة، وراح يزفر وينفض رأسه يمينا ويساراً، وحرَنَ رافضاً المُضي قدماً، ما كل هذا النشاط الذي دبَّ فيه فجأة وكأنه حمارُ العُزير! سألت السائق عن سبب التوقف فتجاهل سؤالي بفظاظة شديدة، ومدّ يده لي بعُلبه بها نذر قليل من العملات المعدنية، فنظرت إليه في بلاهه وأنا أسقط قطعة بداخلها وأسمع قلقلتها تشق الصمت حولنا.

أدهشني أنه لم يسألني حتى عن قيمتها، وانتظر حتى ترجلت عن العربة، ورحل عائداً أدراجه دون كلمة واحدة، تابعته مستغربًا ثم نفضتُ كتفيّ واستدرت أكمل طريقي.

مشيت تجاه البحر والذي تبَدّى لي بوضوح ولم يعد يفصل بيني وبينه سوى بعض المباني المهجورة وصف من النخيل. تلفتُ يمينا ويسارا أحاول تحديد مكان المنزل من موقعي إلا أنني لم أجده وبينما كنت أتلفت، اخترق أذني بغتة صوت أرجل تمخر الرمال من خلفي، استدرت استطلع الأمر فرأيت مجموعة من الكلاب الضآلة تجري نحوي مباشرة، توجست خيفة وتجمدت في مكاني متصنعًا الثبات، لأنني لو جريت سيطاردونني ويمزقونني إربًا، وتابعتهم حتى توقفوا على مسافة قصيرة منيّ وانتظروا حتى تقدمهم الألفا.

كان أكبرهم حجما، وأسود فاحم فروته كثيفة. اقترب مني حتى أصبح على بعد خطوتين فمد رقبته لأعلى وزمجر في وجهي مجعداً شفتيه ومكشراً عن أنيابه. عيناه السوداوان كانا يرسلان لي نذيرًا واضحًا بالهجوم، ومع تهديده تصاعدت حدة الزمجرة من القطيع كله، وانبرت الفكوك تصطك، وبدأت أعصابي تنهار.

ثباتي الزائف كان يبعث له برسالة مفادها أنني لا أهابه، وربما استفزه ذلك أكثر، فرفع قائميه الأماميين ونبح حتى ظننت أنه سيهاجمني لكنه لم يفعل، بل هبط ورفع رجله اليسرى لأعلى وراح يتبول وينثر بوله حولي حتى غمر حذائي.

دار بذهني أنه يريد طردي وإبعادي عن منطقة نفوذه بغريزة البريّة التي تسكن كل الحيوانات، أو ربما أراد ضمّي للقطيع! لا أدري. المهم أنني انتظرته حتى أنهى عرضهُ السخي وأفرغ كل حمولته من السائل الأصفر ذو الرائحة الزنخة، وتأكد أنني قد استوعبت رسالته، وأنني غير مستعد لإثارة أية مشاكل، فانسحب وتبعه القطيع مذعِناً، وبلعهم العدم في ثواني معدودة.

برحيلهم استقرت أنفاسي المضطربة وعدت لأواصل مسيري، قطعتُ قرابة المائتي متر مدفوعًا بالشغف، حتى بدأ المنزل يلوح لي بكامل تفاصيله تحت ضوء الغروب.

بناء متهالك، لكنه يقف شامخاً في تلك المنطقة المتعزلة من الساحل، ومن خلفه يمتد البحر وتتلاطم أمواجه في عنف لتضرب الشاطئ وتسيل عليه فتغسله، اشتّم في رائحة البحر كثيراً من اليود، ويتسرب إلى أنفي رذاذه المنعش، وأشعر بسيمفونية حزينة في صوته، يبدو أنه شاهد لم يستجوبه أحد، رغم أنه يعرف الكثير وبطنه ملآنة بالأسرار والتي لم يبح بها بعد، وقد لا يفعل.

انسحب موجه متراجعاً أمامي كعبدٍ أمام سيدِهِ، وكأنه يسمحُ لي بالاقتراب، أو هكذا فهمت، لا أدري لماذا بدأت تنتابني الرهبة كلما اقتربت من هذا المنزل، وقد قطعت كل تلك المسافة من أجله. ما تبقى من النهار غائم كلوحة رمادية رسمت بريشة فنان كئيب، والرعد يقصف محاولاً تحذيري، لكن شيء ما بداخلي يصّر على الاستمرار، دنوت أكثر فظهر لي، كان يخرج من كوخه كالشبح ويصيح ملوحًا بذراعه: انتظر لا تقترب.

رجل أعرج مثل رُبّان موبي ديك، ونحيف يتسربل بقميص مهترئ يرفرف حول جسده كالراية، اقترب مني وهو يتأبط عكازه ويتوكأ عليه حتى أصبح أمامي مباشرة، عيناه جاحظتان مثل عين السمكة، وأنفه طويل، وشفتاه غليظتان وفكه بارز ونحيل.

-من أنت؟ سألته بدهشة وأنا أواصل تفحصي لملامحه المريبة فأجاب: أنا الحارس.

-ولماذا لا أقترب؟

-أوامر أصحاب البيت.

ألقيت نظرة على المنزل الذي بدا لي مهجوراً تماماً وسألته: هل يسكنه أحد؟

-لا.

-لماذا؟

-يأتون بالصيف فقط.

-أريد زيارته لدقائق.

انتفض كالمصعوق، وصاح كاشفًا عن أسنانه الصفراء المُتهدِّمة: هذا المنزل مسكون يا بك. ثم مال وهمس: أسمع الشياطين تصرخ وتعوي بين جدرانه كل ليلة. رميت بصري ناحية كوخه الخشبي البسيط، كان خالياً إلّا من بعض الأغطية والبطانيّات الصوف، وموقد صغير، وبالطبع نَارَجيلة المزاج، لا أنكر أنني أصبحت أخشى الدخول لكن الأمر يتعلق بحياتي ومستقبلي فعدت أسأله:

-ولماذا تحرسه طالما تخافه بهذا الشكل؟ نفض رأسه نفياً وقال: لم أدخله ولا مرة منذ حرسته.

سألته: ما اسمك؟ فرد: خادمك جاسر.

- أسمع يا جاسر، سألتقط بعض الصور وأرحل فورًا. قلتها وأنا أبرز له ورقة من فئة العشرين جنيهًا، فنظر إلى يدي الممدودة في لا مبالاة ورمى حقيبة كتفي بنظرة شك ثم قال: هل أنت من هؤلاء؟

- من تقصد؟

-الصحفيين؟

-لا، أنا اهتم بهذا المنزل فقط.

- ولماذا؟

- أمرٌ شخصي.

-إذاً لا يمكنني السماح لك بالدخول فأنت لست من العائلة المالكة للعقار.

لم يكن هناك مفر من مصارحته فقلت: سكنت هذا البيت يوماً ولي به ذكريات، اسمح لي بنصف ساعة فقط وأعدك سأخرج بعدها مباشرة.

سألني بفضول وهو يضيق عينيه: متى سكنت هنا؟

-منذ أن كنت طفلاً مع أبي عزت المصري أنا أحمد عزت المصري.

لا أدرى لماذا برقت عيناه الذابلتان فجأة، وحدق بي بجرأةٍ مريبةٍ، ثم رفع رأسه للسماء يتأمل الغيوم التي كانت تتشابك، واستدار عائدًا لكوخه دون أن يضيف كلمة! وتابعته حتى غاب داخل كوخه وأغلق بابه خلفه. يا له من مُرِيب تصرفه أوقد بداخلي نار شكٍّ أذهبت برودة الجو!

خرجت من افكاري عنه، واستدرتُ إلى المنزل، مرآه ينذر بالخطر، قاتم وكئيب يقبض القلب، طلاؤه أبيض مشوّه وجدرانه متآكلة، تتقدَّمه حديقة مهجورة ويقود إلى مدخله درج رخامي محاط بدرابزين حجري عتيق، انتابتني حالة من التأهب بعد أن أصبحت انفرد به وعلى عتبته، وجهر هاجس بداخلي بإحساس الخوف الذي كنت أكبته داخل قلبي حتى لا يمنعني من الدخول، وبدأ يقرع حجرات قلبي ويجبرني على أن افتحها لاستقبال رسالة من الشك مفادها أن رحلتي مع هذا المنزل ستطول وربما أكثر مما أتصوّر.

* * *

(المنزل)

لم تكد قدمي اليمنى تمس السلمة الأولي في الدرج، حتى أطلق الرعد هزيمة فاتحاً أبواب السماء، لترسل المطر الذي انصب على الأرض في تزامن مثير، وكأنني وطئت ذراع ماكينة ري فانطلقت تعمل، هي إشارة ما إذاً. عنادي يتجاهلها تجاهل الصخر للطماتِ الموج، لهفتي للتأكد من أمر موريس، وغرفة الصالون، واللوحة التي ظهرت خلفي بالجريدة وأبي وأيضا الحادث، أقوى من أي رسالة أو إشارة.

سرقت نظرةً إلى المنزل كدليل صريح على فهمي لرسالته التهديدية، وأيضا لا مبالاتي بها، فصفعتني إحدى العواصف الطائشة بحبات المطر الثقيلة وغمرت وجهي وملابسي، تجاهلتها وأكملت صعودي على درجات السلم الرخامية القديمة، عنيد أنا ربما هذا سر نجاحي، ويبدو أنه سيكون سبب نهايتي.

أصبحت على عتبة الباب الخشبي الموارب، مددت أصابعي كي أدفعه برفق فلم يتحرك مع دفعتي البسيطة، زدت من قوتي فزادت مقاومته، لابد أن مفاصله قد صدئت. كررت المحاولة وبكل ما أوتيت من قوة فلم أحرك فيه قيد أنملة، كان فولاذي وكأنه جدار وليس مجرد باب. الفُرْجَةَ التي به لا تسمح بمروري. دفعته براحتيَّ غارساً قدمي بالأرض وجاهدت في ذلك حتى انتفخت عروقي، وانْسَحَبَ جلدي حولها كالوتر المشدود، لكنه أيضًا لم يستجب. توقفت قليلاً ألتقط أنفاسي وأنا أنظر إليه في ذهول! أي باب

هذا؟ تراجعت إلى الخلف وراقبت كوخ الحارس حتى لا يرى ما سأفعله، بالتأكيد لن يغامر بالخروج في هذا الجو العاصف من أجل مراقبة أخرق مثلي.

وثبت راكلًا الباب بقدمي فأصدر قرقعة عالية للغاية لم ينجح صوت المطر في إخفائها، والتَوَى كاحلي قليلاً وتألمت، وظل الباب جامداً في بلادة مثل مصارع غليظ، استشطتُ غضبًا، وضربته براحتي بعصبية يائسة، فانفتح على مصراعيه وبمنتهي العنف. أصابني الذهول، كان ما حدث مستحيلا، ضربةُ راحتي له تشبه صفعة فتاه لحبيب أغضبها. ولم تكن أبدًا لتؤثر فيه خاصة بعدما عجزت ضرباتي العنيفة السابقة عن إحداث أي تأثير. قبضت عليه وحركته للداخل والخارج فدار على مفاصله وحزّ المدخل الخشبي بقوس غائر!

شيء واحد يدور بعقلي ويفزعني، لابد أن أحدهم حاول منعي من الدخول في البداية، وقاومني من خلف ذلك الباب، ثم تراجع وسمح لي بالدخول لسبب ما؟ من يا ترى؟ لو كان بشريا لرأيته بالتأكيد فالباب موارب، وجدت الفكرة الأخيرة مخيفة، هل أصدق رواية الحارس عن الجان الذي يسكن العقار ويمرح فيه؟ ولما لا؟ حتى الغرب يعترف بذلك والأمثلة كثيرة، مصحة ويفرلي هيلز، منزل وايلي، قاعة رينهام، إلى آخر القائمة.

نفضت الفكرة عن رأسي مؤقتا، وجُلت بصري في بهوه الواسع أتأمَّل تفاصيله بفضول. في مواجهتي تماما وبمنتصف الجدار المقابل نافذة ضخمة مكسورة الزجاج، ويَعترِضُ طريقي إليها وعلى مسافة ثلاثة أمتار من المدخل صالون مذهب للاستقبال، ومن خلفه طاوله يستقر فوقها تليفزيون وهاتف وجراما فون قديم.

وعلى يسار تلك النافذة المقابلة -ومن الخارج للداخل-ثلاثة غرف، الصالون، المكتب واستراحة الضيوف، وعلى يمينها يدور السلم الحلزوني مستنداً إلى الجدار ثم يتسع ليهبط في وسط البهو تماما محتضنًا بالدَّرَابزين الأيمن بيانو عتيق، ومن خلف البيانو وتحت السُلم يفتحُ بابٌ صغير، أما على يمين السلم والبيانو فتمتد طاولة طعام مستطيلة وكلاسيكية بطول ستة أمتار، وعلى يمينها ردهة بعرض ثلاثة أمتار تفصل بين طاولة الطعام والجِدار الأيمن للمنزل، والذي تفتح به غرفتين، الأولى متواضعة تبدو للخدم، والثانية غرفة مطبخ وبالجدار الفاصل بين الغرفتين مدفأة مزخرفة الحلق ومن فوقها تستقر مرآة بيضاوية إطارها من الفضة الخالصة.

بالأركان تَنْتَثِرُ قطع التماثيل المتنوعة والتي يبدو أنها سكنتها لتحتمي بظلالها، لا أدري لماذا أشعر أنها تحملق بي كما أحملق أنا بها، وتبادلني الفضول والشك، بالتأكيد أنا هنا الغريب الذي اقتحم خلوتها.

بالركن الأيمن يستقر تمثال من الأبنوس لعَبْد يحمل ماعونًا به مجموعة من الثمار ويقدمها لسيده، بدوت وكأنه أنا ذلك السيد المنشود. أما بالأيسر فتقف منحوتة رُمْزِيّه من المرمر لامرأة رومانية، وتحت النافذة المواجهة قطعة لقرد بابون بشع يكشرُ عن أنيابهَ في وجهي وكأنه يُهّدَدَني.

العواصف الممطرة تتلاعب بالنوافذ التي تصطك بدوي عالي، وتصفع الجدران من الداخل والخارج، فاسحة المجال لريح عاتية تَئِنُّ باختناق كأنها تحتضر. كل شيء من حولي يدعو للخوف، لكنّي لازلت أعاند كأي ساذج في فيلم رعب مبتذل يصرّ على الاستمرار رغم معرفته بوجود الخطر.

الفارق الوحيد أنه لا تمثيل هنا، فقط الحقيقة، الصورة والحادث وموريس وذلك الصحفي يسري الكاتب وأبي، تفاصيل كثيرة قلبت حياتي رأسًا على عقب وأَجْهَزَت عليَّ إجْهاز فيلق جنودٍ على ناسِك لا حول له ولا قوة.

لازلت أرى القليل من التفاصيل على بَصِيَص نور رمادي متسلل يبث الرهبة على البهو. تجولت بالمنزل أتَفحَّصه، الأبواب كلها سميكة وحلوقها مزينة بزخارف أنيقة لكنها متهالكة بطبيعة الأمر، فالمنزل مهجور من زمن بدليل أن أكوام الرماد متجلدة بالمدفأة، وسطح المرآة تكسوه طبقة كثيفة من الغبار، تقدَّمت نحو المرآة، ورسمت بها خطاً غائرًا بإبهامي فكشف لي جزءًا من وجهي ثم صعدت الدرج الحلزوني المفضي للطابق الثاني والذي يلفه رواق يدور مع دَرَابزين الدرج وتفتح به ثمانية غرف متجاورة يتخللها حمامين وشرفة أمامية بارزة، وكل الغرف متماثلة عدا تلك المقابلة لمخرج السلم تماما فهي أوسع وبها حمام داخلي وتبدو وكأنها غرفة النوم الرئيسية.

لازلتُ لم أستدع أي ذكريات عن ذلك المنزل؟! رغم أنني أتجول به، هبطت إلى البهو ثانية، وقد انتقل جنين فضولي إلى طوره الثاني فالمنزل يزّداد رَهْبَةً بمرور الوقت، أشعر وأنا بين أحشائه أن روحي تفرّ إلى أقصى زاويا جسدي خوفًا، ربما تعرف ما لا أعرفه وترى ما لا أراه.

قَلْبُ المنزل مُوحِشٌ مثل بطن جبل، الجدران نهشتها الرطوبة وقرضها الرذاذ المالح، وطلاؤه الرمادي يحرك إحساس الرعب الكامن في نفسي، كما أن البرودة المُعشِشة به تبددّ مزيدًا من حرارة الحياة بأوردتي، وثمة شعور مُرِيب يساورني بأن هناك من يتبعني كظلي، يتنفس مع زفرات الليل ويراقبني في صمت.

ضرب الرعد السماء بهزيم مدمدم، وتعاقب البرق الخاطف صابغًا البيت بلون فضي مرعب، تلاه صوت قرقعة آتية من خلف ظهري، درت على كعب حذائي أتفقد سبب ذلك الصوت فارتعت.

رأيت شَظَايا زجاج النافذة المكسور تُقْتلع من إطارها عنوه، علّقت بصري بها متسائلا: هل يمكن أن تنتزع الرياح الزجاج هكذا؟ تسلل إليَّ توتر محمل بالخوف فصرفتُ نظري عن مشهد الزجاج الذي كان يواصل رحلة مغادرته للنافذة ببطء، وزفرت محاولا استعادة دمي الهارب.

تقدّمت ناحية غرفة الصالون والتي على يمين المدخل مباشرة، فتحتها ومددت رأسي أطلُّ بداخلها دون أن أدخلها، لم يكن بها ما يثير أو يفيد سوى نافذة واحدة كبيرة تطل على حديقة المنزل المهجورة بالإضافة للعديد من اللَّوْحَات الزيتية التي تزيِّن الجدران وبالطبع لَوْحة المرأة الثعبان كانت إحداها. وكانت مُخيفة ترتعد لها الأبدان. ابتلعت ريقي وتحسست عنقي وكأنني أنا ذلك الرجل الذي كانت الأفعى تعتصره وتغرز نابها في رقبته، وتصورت نفسي أجلس تحتها أنا وزوجتي نلتقط صورة عائلية لنا قبل وفاتنا، يا الله وكأننا لم نجد خلفية أبشع منها.

أغلقت الغرفة وتحركت تجاه مكتب موريس أو ما كان مكتبه يوماً ما؟ دفعت الباب بحذر قطة تمس بقدمها النهر ودلفت إلى الداخل فإذا الغرفة مضاءة بقِنديل بدائي! منْ ذا الذي يتولى إضاءة المكان؟ أهو الحارس؟ لكنّ المفترض أن الرجل لا يدخل المنزل مطلقًا، أو هكذا زعم، لابد أنه يكذب وأن وراءه ما وراءه.

التفاصيل واضحة تحت ضوء اللهب المتراقص للقِنديل، أمامي مباشرة تفتح نافذة ضخمة ومغلقة وعلى يساري مكتب عتيق الطراز ومن خلفه

يمتلأ الجدار بمكتبة مكدسة بالكتب القديمة المتيبسة، ويزيِّن الجدران الأخرى العديد من اللَّوْحَات التشكيلية والتي كانت كلها عادية إلّا واحده، تلك التي تملأ الجدار الأيمن المواجه للمكتب.

لَوْحَةُ زيتية لامرأة تجلس على كرسي ملكي مُتَسَرْبِلة في رِداء طويل-ربما كان موديل السنة وقتها-وتعلق بين خصلات شعرها زهرة قرمزية وتزين صدرها بسلسلة غليظة تنتهي بحجر فَيْرُوزِي إطاره على شكل نجمة داوود ومن الذهب الخالص.

كانت فاتنة، لكنّ جمالها يتوارى خلف نظرتها النارية التي تلاحقك أينما ذهبت، فعلى قدر حُسنها كان الشرر يتطاير من عينيها دونما سبب، كأنها تُهَدِدك بنظرة حارقة، يبدو أنها كانت زوجة ذلك المسكين موريس، بدأت اتعاطف معه، تبًا لها لو كانت زوجتي لقتلتها بكل سرور، فقط لأتخلّص من نظرتها. لماذا لَوْحَات المنزل مُخيفة هكذا؟ وما الداعي لبقائها بالمنزل رغم تعاقب المُلاَك على العقار أم أنها أَثَرِيَّة وتمثل ثروة ؟!

خرجتُ من أفكاري حول تلك اللَّوْحَةُ بصعوبة بعد أن انْطَبَعَت نظرة المرأة في مُخَيِّلَتي كبقعة الشمس، بحثت عن شيء يمكن أن يقودني للتعرف على تاريخ هذا المنزل العتيق والذي يأبى إلّا أن يطاردني حتى بعد سنوات عمري التي مرت. عبثْت بالأوراق القديمة، ونفضت الغبار عن الكتب التي تحتل سطح المكتب، سعلت مثل مدخن سجائر متسلسل وأنا أقلب في الصفحات بحثاً عن شيء مفيد، ولا جديد، لا قصاصات تدل على تاريخ المنزل، ولا أوراق تتحدث عن وقائع حدثت به، ولا شيء يتعلق بالحادث.

فتشتُ الأدراج، وبَعثَرت الأوراق حتى اكتشفت درج صغير أسفل سطح المكتب. فتحته فوجدت بداخله لوحتين ملفوفتين ومُتداخلتين من الورق

المقوّى. فردت الأولى بحذر لأنها كانت مُتَّيبسة فانبهرت، يا الله!. وجدت بانتظاري مفاجأة بديعه. فاللوحة تحمل تصميمًا هندسيًا مرسومًا بدقة متناهية، ويعبر عن آلة تتكون من ثلاث اسطوانات نحاسية متدرجة الأحجام. الكبيرة بالأسفل والصغيرة بالأعلى بينما يحرك كل أسطوانة ترس خاص بها وتدور كل الاسطوانات حول محور أو عمود من الحديد يقف على قاعدة مربعة طول ضلعها متر، ومثبته بأرض الغرفة بأربعة مسامير مبرومة، ويبرز من المحور ترس له يد خشبية أنيقة لابد أنها للتشغيل، الآلة قديمة ولا شك، لكن تصميمها فريد ودقيق بما لا يتناسب مع قدمها!، أكاد أجزم أنّي لم أرى مثلها ولم تسجل في مرجع علمي، تتبعت مسارات التروس لكني عجزت عن فهم الهدف منها وأثارت بداخلي الكثير من التحدي، خاصة مع وجود تدريج من الأرقام يدور بشكل متتابع فوق حافة كل اسطوانة من اسطواناتها.

عادت السماء تزخُّ الأرض بحمولة جديدة، وأضاء البرق الساطع غرفة المكتب التي راحت تنير وتظلم في تلاحق، ورأيت -ومن خلف زجاج النافذة- الرياح تحمل المطر بين ثناياها وتصبّه فوق رأس المنزل في غضب، لكن ما بداخلي من فضول كان يطرد الخوف بعيداً.

نسيتُ كل شيء حولي حتى وقْع المطر وهجوم الليل، وأطلت النظر إلى اللوحة أحاول تصور الهدف من تلك الآلة في مُخيّلتي، بدت لي فتاة غامضة مثيرة، تجلس أمامي وتحرك قدمها في دلال لإغرائي، وتدعوني لتفحص تفاصيلها المتشابكة، أي ماكينة تلك؟ مجموعة من الأسطوانات والتُروس تدور حول محورها بسرعات مضطردة تزداد مع الحركة عند تحريك الذراع فذلك التُرس الكبير يدور دورة كاملة حول المحور محركاً الأسطوانة الأكبر ثم يتْبعه الأوسط والذي يبدأ في الدوران لنصف دورة يجذب بعدها التُرس

الأصغر والذي يدور دورتين قبل أن يحرك الاسطوانة الأخيرة، تبدو لي بلا هدف كلعبة كبيرة ليس أكثر، لكن يبقى هذا غير منطقي، لماذا احتفظ موريس بتلك المخطوطة إن كانت مجرد لعبه! هل هي آلة حاول تصنيعها لغرض ما ولم تكتمل.

متتالية الأرقام التي تدور حول الاسطوانات أصبحت تثيرني بشدة، ما هو الهدف منها؟! تأملت الأرقام المحفورة على الاسطوانات، فوجدتها تتكرر بكل أسطوانة، تبدأ من الصفر وحتى الرقم ٩، نحيت اللوحة الأولى جانباً وفردت الأخرى، وانتابني الفرح، كانت خريطة لمكان الآلة، سأراها، سألتقي بتلك العذراء الميكانيكية وأداعبها بأناملي ، هكذا تشير الخريطة، فالماكينة توجد بسرداب قديم أسفل المنزل كما هو مخطط بالرسم.

- ماذا تفعل؟

قطع ذلك الصوت الرَخِيمٌ الصمت، فاستدرت في ذعر، ورأيته يقف عند باب الغرفة شاهراً سلاحه.

* * *

(السرداب)

كان الحارس جاسر، وكان يقف على قدمين سليمين، وبين يديه تستقر بندقية مُتهالِكة فُوّهتها منبعجة وكأنها من بقايا الأسلحة الفاسدة في حرب ٤٨. بدا لي أكثرَ طولًا، بعد أن منحه ظله الممتد على الأرض تأثيراً عميقًا، لكنني رغم ذلك لم أخشاه، بل صحت به مستنكراً: أنت!

رد ببرود: نعم أنا.

-لماذا دخلت إلى هنا! ألم تقل إنك لا تدخل المنزل أبدا؟ ثم أشرت نحو قدميه مردفاً في سخرية: ولماذا تتظاهر بالعرج؟! لصالح مَنْ تلعب تلك اللعبة السخيفة؟

قاطعني بصوت عميق يجمع بين التحذير والاستجداء: غادر قبل فوات الأوان. أدهشني رده بشدة ولم أفهمه! لماذا يصرُّ على تحذيري؟ أم أنه يستفيد من صنع هالة من الرهبة حول المكان للتخلص من المتُطفلين!

أجبته معانداً: لن ارحل.

– الأمر ليس كما تظن، أرجوك يا أحمد، اهرب، أنت في خطر ولا قِبَل لك بما ستواجه، أخشى عليك.

أدهشتني لكنته الناصحة، وكأنه يعرفني كصديق أو قريب، زممت شفتي أفكر في صمت، وأنا أحدق به من مكاني، ولاحظت أنه يخشى دخول الغرفة

لسبب ما! حسمت أمري وأشرت له بالدخول: اجلس ودعنا نتحدث بشكل أوضح.

صَوَّبَ بصره ناحية لوحة زوجة موريس فأدرت وجهي ناحيتها، ووقر بقلبي أنها تخيفه لسبب مجهول! عدت لأكلمه، فلم أجده، درت حول المكتب وخرجت لأبحث عنه، أين ذهب وكيف اختفى بتلك السرعة! لا أدري!، ربما يعرف الكثير من السراديب هنا، ذلك المريب غمرني بالألغاز ورحل .

تجاهلته وعدت إلى الغرفة مجدداً، والتقطت لوحتَي الخريطة والرسم الهندسي ثم حملت القنديل البدائي وخرجت إلى البهو، وتجوّلت به مسترشداً بالخريطة على ضوءِ اللهب المتراقص والذي كان بمثابة شمعة في مسرح مظلم، قطعتُ البهو يصاحبني صوت دقّات حذائي على بلاطه كبير الحجم ورائحة احتراق كريهة صاعدة من فوهة القِنديل.

ماءُ المطر لازال يتصبب بالخارج، والعاصفة تنثر رذاذة ليسيل عبر النافذة المكسورة للداخل، والتماثيل الرابضة في الأركان تتابعني بحقدٍ يتجلى لي عندما يدق الرعد السماء، ويضئ البرق المنزل بومضاته الخاطفة، وكأنه كاميرا تلتقط مشاهد مرعبة لمنزل مسكون. درت حول البيانو وفتحت الباب الصغير الذي يفتح أسفل السّلم الحلزوني، فأصدر صرِّيفًا عميقًا وولجت إلى الداخل وأصبحت داخل ممر أو نفق من المفترض أنه يُفضي بالنهاية إلى درج القبو، كما يقول الرسم. شعرت بالقلق من كثرة ما أرى من الشقوق والتجاويف التي تملأ جدرانه، ربما تسكنها الحيّات والفئران، تقدمت بحذر مقلباً عيني به ومرّت اللحظات ولم أصل للطرف الآخر، وكأنه يتباعد كلما اقتربت. الظلام يحيطني، ولهب القنديل يكاد يكشف لي مترًا واحدا، ويرسم نوره مع شقوق الجدران ظلالاً مخيفة و أشكالاً ذات مغزى، يترجمها عقلي

بقرون وعيون، آذان وأنوف، أو هكذا أراها أنا، ربما لو رآها غيري ما كانت تعني له شيئا.

إلّا أن مزاعم ذلك الحارس المريب راحت تتبخر، على الأقل مؤقتا، فالمكان ملئ بالسكون، خالي من أية أصوات، إلّا وقعٌ رتيبٌ لقطرات ثقيلة تسربت إلى المكان، ربما بفعل المطر أو ربما البحر، تابعت سيري مستَأنسًا بذلك الإيقاع، حتى ازداد صداه عمقاً، وساورني الشك حول إمكانية احتمال السقف، فرفعت القنديل لأعلي أتفحص الجدران، ولامستها بأناملي فوجدتها حجريةً، على خلاف جدران البهو الأسمنتية، يبدو أن بنية المنزل مزيج إذاً.

وقبل أن أرفع أناملي عن السقف، شق الصمت صوت أنين واهن عبرتني معه ريح باردة، وخمد مع مرورها لهب القنديل حتى كاد ينطفئ، ارتعت وخفضت المصباح ودرت حول نفسي دورة كاملة أحاول اكتشاف منفذ الهواء الذي تسبب فيما حدث، ولم أجد شيئا، النفق مصمت تمامًا، عدت أوجه القنديل أمامي، فانخلع قلبي، لمحت ظلاً مخيفًا مرّ من أمامي بسرعة خاطفة، وأظلم على إثره ضوء القنديل للحظة اجتاحتني فيها موجة صقيع اقشعر لها شعر رأسي، تسمرت في مكاني من الخوف، وأنا أتساءل هل رأيته حقا؟ أم أنها مجرد هلوسات أفرغها عقلي أمام عيني بفعل الرَهْبَة والظلام؟

حاولت السيطرة على جسدي المرتعش، وأقنعت نفسي قهراً بأنني واهم، ثم تحركت بأقدام مترددة، ومددت يدي بالقنديل استطلع ما تبقى من الطريق فوجدت نهاية الممر قد انكشفت أمامي فجأة وكأن بابه هو الذي اقترب مني!، كيف لم أره منذ البداية؟ أم أن الظلام كالنار يأكل بعضه بعضًا. تقدمت حتى أصبحت على عتبته، فمددت يدي بالقنديل أتَبَيّن أسفل

قدميَّ. ورأيت سلّما حديديًا ينحدر من المدخل إلى القاع، نزلته بحذر متشبثًا بدرابزينه وبالقنديل، حتى لامست قدماي الأرض وهنا زفرت زفرة ارتياح.

وعلى ضوء القنديل رأيت الماكينة رابضة بمنتصف القبو تنتظرني بشغف، وحولها تنتشر العديد من أدوات الصيد. شعرت بالإثارة، فعلّقت القنديل بمشجب بارز وجدته مثبّتا بالجدار، وتركت اللوحتين على الأرض، ثم توجهت ناحية الماكينة، وأسرعت ألامس جسدها النحاسي الأملس. أنا وهي وضوء القنديل، وكأننا حبيبين، تنقصنا فقط مقطوعة لبيتهوفن لنتألق في رقصة حالمة، كم هي نيرّة وبهيّة، تسطع بالظلام وكأنها صنعت اليوم، مسحت سطحها برقة فارس يمسح ظهر جواده بعد رحلة طويلة، وتفحصت بأناملي تدريج الأرقام الذي يدور حول حواف اسطواناتها المصنوعة بحرفيّة، وبالطبع ربط عقلي بين تلك الأرقام وبين المتتالية التي لقنني إياها موريس حينما كنت صغيرًا.

أسدلت دلوا عبر بئر ذاكرتي العميقة حتى لامس القاع، ثم رفعته لأنبش ما في جعبته، فمنحتني الرواسب أربعة أرقام متسلسلة ٤٨٧٣، وحيرني ذلك، نظرًا لأن اسطوانات الماكينة ثلاثة فقط، ترددت قليلا محاولًا فهم سر الرقم الرابع، لكني تعجلت وقررت أن أختار منها ثلاثة أرقام وأجرب، وما المانع؟ لن أخسر شيئاً.

اخترت الأرقام ٤٨٧، وأدرت كل اسطوانة ليصبح الرقم المطلوب محاذيًا لمؤشر الترس المشبوك بها، وحانت لحظة التشغيل، قلبي تدق بقاعه طبول الشغف، وأنفاسي تضطرب كأنني مقبل على شيء سيغير حياتي عن أكملها، وفضولي مجنزرة ساحقة لا يقف أمامها شيء.

قبضت على ذراع التحريك الممتد من المحور -الذي يحمل الأسطوانات- وأدرته للأمام برفق، فبدأ الترس الأول ينفث الغبار عن نفسه ويتحرك بتثاقل مصدراً صريراً عاليًا، تابعته بمتعة من يشاهد ابنه الصغير يخطو خطوته الأولى، ودار الترس ودارت معه الأسطوانة، وانتزِعتُ من مكاني انتزاعا.

جذبني ذراع الماكينة الفولاذي بعنف، ودرتُ مع حركة التُّرس السريعة كالرحى وأنا أحاول بكل ما أوتيت من قوة إفلات الذراع، لكنّي عجزت من شدة سرعته، ودار كل شيء من حولي حتى فقدت الإحساس بالمكان، اغمضت عينيّ محاولاً تخفيف حدة الدوران لكن دورتي الدموية أصبحت تلّف مثل إطار سيارة تالف، حتى معدتي الخالية أخذت تعتصر ذاتها لتفرغ حمولة ليس موجودة من الأصل، رأيت ضوء القنديل الواهن يدور معي برغم أن أجفاني مغلقة، ازداد الخلل، ترنحت كسِكّير، شعرت برأسي يغادرني ويدور وحده خارج نطاق جسدي، والمشهد يظلم مثل نهاية فيلم حزين، لم أعد أرى شيئا.

حل الصمت، والسكون، وطالا، انتابتني إغفاءات متقطعة ومشاهد مختلطة تتابعت على عقلي سريعًا ثم اختفت بغتة.

لا أدرى كم غبت عن وعي، لكني أفقت منها مضطجعًا على أريكة جلدية بغرفة مكتب موريس، ورأيته بحلته البيضاء الأنيقة وعقدة عنقه الحمراء وشعره الفضي المصفوف بعناية، جالساً إلى مكتبه المليء بالغبار في تناقض مثير، وكان يُدخّن غليونه ويتأملني وكأنه كان ينتظرني! خرجت كلماتي واهنه ثقيلة، فلازلت مُشوّشاً بسبب الدوَارُ: موريس!

-أهلاً أحمد.

اعتدلت وسألته مستنكراً وأنا أتأوّه: كيف عدت ومتى؟ ماذا عن الخريطة؟ والخبر؟ وكيف عرفت بما سيحدث لي؟ وهل تعرف شيئاً عن جريمة أبي؟

ترك مكتبه واعتدل بطوله الفارع واتجه نحوي في خطوات بطيئة واثقة واضعاً يده بجيبه: ستعرف كل الإجابات في حينها يا أحمد.

-اعذرني سؤالي سيبدو فظًا، لكنني أراك لازلت على قيد الحياة، كما أنك تبدو مثلما رأيتك عليه سابقاً، وكأن عمرك لم يتقدم يوما.

-نعم الكل يظن ذلك، لكن العمر لا يقاس بالسنوات.

- بماذا يقاس إذّا؟

-بالحياة.

-وما الفارق؟

-الفارق كبير يا أحمد، ما تحيياه هو عمرك الحقيقي وما سوى ذلك، هي لحظات ساقطة ضآلة لا تُحسب من زمنك كالنوم مثلاً.

- وماذا عن الخريطة والخبر الذي أرسلته إلي؟

لم يجبني وأدار دفّة الحديث: أحمد أنا في حاجة اليك.

-ماذا تقصد.

-أقصد أنني اخترتك تحديداً لمهمة وهدف نبيل، أنت المُخَلِص يا احمد.

- مُخَلِص؟

-نعم ستخلّص البيت من شر كبير يعبث بمقدرات أبرياء.

-لماذا تتحدث بالألغاز لماذا لا توضح لي كل شيء دفعة واحدة.

توترت عضلات وجهه فجأة وراح ينظر خلفي ثم غمغم: ليس الآن.

وراحت صورته تهتزّ وكأنها قناة تليفزيونية يعبث الهواء بإرسالها ثم انقطعت وعاد الظلام ليغمر كل شيء.

- أحمد استيقظ يا حبيبي.

طارت العبارة إلى مسامعي كأنها آتية من خلف جبل، جفوني ثقيلة تزن طناً أحاول فتحها قسراً فتعاندني، أطرافي تسري بها قوافل النمل، وحلقي آنية فخارية جافة، لا أستطيع القيام من رقودي، استسلمت لحالتي قليلا، حتى انْدَفَعت الدماء المحبوسة تتدفق إلى خلاياي، وبدأت جفوني تستجيب برغبتها وارتفعت ببطء، وليتني ما حاولت فتحها، فلهب المصباح يسطع في وجهي ويؤذيني رغم خفوته، وأنا على ظهري راقد بطرف الحجرة مثل سلحفاة انقلبت على صدفتها.

اعتدلت وضلوعي تئنّ من الألم، لابد أن تلك الماكينة اللعينة قذفتني كمطرقة الأولمبياد، بدأت انتبه لذلك الصوت الناعم الذي يمس أذني مثل نسيم الصباح، رفعت بصري المشوش ناحية مصدره فاذا بها امرأة في صورة هالة نور بيضاء يحيط بها مدارٌ أسود.

لازال بصري زائغا، ولا أستطيع تحديد ملامحها بدقه، والدَّوَارُ يلف رأسي بعمامته لكن عقلي بدأ يعمل، منْ هي يا ترى! تساءلت وأنا أتابع سحرها الأبيض ونحرِها اللؤلؤي الذي تتدلي منه سلسلة ذهبية رقيقة.

-هل أنت بخير؟ لماذا نمت هنا؟

تحسسْت رأسي الذي تضربني بداخله مطرقة مزدوجة وسألتها: أين أنا؟ وأين موريس؟ وأين المكتب؟

-موريس! من هو موريس؟

غمرتني الدهشة وأشرت بعيدًا: موريس سمعان كنت أكلمه بحجرة المكتب و ... ضحكت بدلال وقالت: كيف تكون بالمكتب وأنت أمامي هنا يا حبيبي.

-حبيبك؟ لكنني لست موريس!

-مسحت شعري هامسةً في حنان: بالتأكيد أنت لست موريس، أبكَ شيء؟ هل سقطت؟

- لا، ولكني كنت أكلمه ثم ظهرتي أنتِ فجأة.

- أحمد لا عليك انس الأمر وقمْ معي الآن.

-أحمد! هل تعرفينني؟

-هل تمزح؟

وضعت رأسها تحت إبطي، وطوقت خصري، ثم حملت ذراعي على كتفها، وصعدت بي درجات سلم القبو. وأنا أتحامل على قدميّ شبه المخدرتين، محاولًا ضبط اتزان رقبتي التي كانت تترنح فوق رأسي. التقطت شبكيتي صورًا مهتزة ومتداخلة وأنا أسير معها حتى عبرتْ بي النفق عائدة إلى البهو، وحين دخلته تسربت إلى أنفي رائحة طلاء نفاذة كأنه صُبِغَ اليوم؟

-أين أنا؟ سألتها بصوت خائر.

- أنت في بيتنا يا احمد.

- من أنتِ؟

-من أنا؟! أنا حنان.

بدأت الرؤيا تتضح تدريجياً ونحن نصعد السلم الحلزوني، انسللنا أسفل ستائر حريرية تكسو ممر الرواق بالطابق الثاني، لا أذكر أنها كانت موجودة من قبل، لونها زاهي ورائحتها جديدة.

ولم أكد أعبرها حتى رأيت نفسي عن بعد من خلال المرآه المُعلّقة بجوار الغرفة المواجهة للرواق، وارتج كياني. وقفت أمام المرآة كالمشلول، فما رأيته كان صادمًا، رأيتني أنحف بكثير مما كنت عليه، ووجهي تكسوه الزُرقة وكأنني عدت من الموت، وكنت مرتديًا ملابس أخرى غير التي دخلت المنزل بها، والأدهى أن من تقف بجانبي هي ذاتها المرأة التي جمعتني بها صورة الجريدة، زوجتي، والتي يفترض بي أن أقتلها هذا الشهر ثم انتحر، حولت بصري أقرأ تاريخ اليوم بإجمالية التقويم المعلقة بجوار المرآة فقابلتني فاجعة أخرى، كان تاريخ اليوم هو (١٢-يناير-١٩٧٧)، وهذا يعني أن الزمن تقدم بي لتسعة أيام كاملة، متى تزوجتها؟ وكيف؟ وأين؟ ولماذا لا أذكر شيئاً عن تلك المدة من حياتي؟

* * *

(ملينيا)

رافقتها مستسلماً إلى داخل غرفة النوم الواسعة، وأجلستني إلى أقرب مقعد بها وجَلَست بجانبي، ثم راحت تمسح شعري بأناملها الرقيقة وأنا جامد الوجه، متحجر العينين، أتأمل في حيره تفاصيل الغرفة البسيطة، سرير النوم المسبوك من الحديد والمرتبة المنتفخة المضطجعة فوقه ويفترشها الحرير الأحمر، الدولاب البنّي باهي الطلاء، والمستقرة بجواره تسريحة حنان المتلئة بأدوات التجميل، وذلك الكرسي الهزاز الذي ينظر نحو المدفأة الرابضة ببطن الجدار الأيسر ومن فوقها تستقر ساعة حائط عتيقة، بالإضافة للنافذة الوحيدة الضخمة والتي تفتح بالجدار المواجه للسرير تماما، بينما يغرق كل ذلك في مزيج من العطور الساحرة ورائحة الأثاث الجديد.

صدري يغلي كالمَرْجَل، ويضربُ رأسي صداعٌ بشع، كأن يدًا من فولاذ تقبض على أوعيتي الدموية، والألم ليس محتملا، غير أن عقلي لم يتوقف عن التفكير، لم أعد أفهم شيئاً! كيف قفز عمري هكذا؟ هل كانت تلك الآلة هي آلة الزمن؟ هل استطاع موريس أن يجسد نسبية اينشتين في آلة؟ لكن لماذا اختارت الآلة هذا التوقيت لترسلني إليه؟ أنا لم أضبط الأرقام على تاريخ محدد أنا فقط أدرتها! ثم أين كنت طوال الأيام الماضية، الصداع يقتلني والتساؤلات تضع الأُنشُوطَة حول رقبتي وتشدها! لماذا لم أذهب إلى الماضي مثلا؟ أو إلى مستقبل آخر؟ ثم أنا لا أعترف بالنظريات الافتَرَاضيَّة في العلم،

لا أعترف إلّا بما أثبت التطبيق إمكانية حدوثه، على الأقل في هذا التوقيت! ربما في المستقبل سيتمكن العالم من إيجاد طريقة، لكن حتى الآن لا يوجد ما يعرف بآلة الزمن! مستحيل علمياً أن يصل رجل مثله إلى آلة مثل تلك دون تجارب عديدة ومعامل، ولابد أنه كان سيُذكر في كل المراجع، وستّسجل محاولاته، أو على الأقل سَتُفتضح بطريقة ما، وأيضًا لا يمكن أن يكون ما حدث مجرد مصادفة، فالصُدَفُ لا تحدث كثيراً في عالم الأرقام، أنا في مأزق حقيقي، مأزق يتعلق بحياتي وحياة تلك المرأة التي أمامي.

عُدتُ أتطلع إليها وقد شغلني مصيري عن تأمل ذلك الملاك الذي يجلس أمامي مُسَّبلاً عينيه، كانت مثالاً صارخاً للجمال والعذوبة. غطّت ابتسامتها البراقة على خيوط الشمس القرنفلية الهادئة، والتي تسَلّلت من النافذة لتمنح أسنانها البيضاء المرتبة كقطع الكريستال الصغيرة بريقًا متلألأ، أمّا شفتها فوسادة حمراء مكتنزه، صنعت من رحيق حديقة من الورود القرمزية المتشبعة بالندي، وعلى وجنتيها مسحه وردية خافته رسمت بريشه فنان حالم دقيق الأصابع، عيناها بئران من العسل متفجران داخل محيط من اللبن الصافي يحدهما ليل مكتحل، ووجها قمر خرج عن مداره فالتف حوله شعرها الحريري مثل فضاء المجرة الأسود، يعانقه ويحتضنه، ثم ينسدل كشلال من الذوائب على كتفيها اللتين انحسرت عنهما منامتها البيضاء كاشفة عن جلد من الحرير الأبيض، تُنِير بداخله مصابيح حمراء خافته، حورية بمعنى الكلمة، لم أرى مثلها من قبل ولا في أوروبا.

تَأمّلتها لفترة طويلة وأنا سارح في جسدها الأبيض البَضّ، والذي جَسّدت منه الظلال الخافتة لوحه يعجز الحُسن عن وصفها، كل هذا الجمال أمامي وأنا أعاني! بائس أنا! تَنَهّدت لأفرغ من صدري رماد أنفاس محترقة أوقدتها

نيران الحيرة وخَرجَت هي عن صمتها وكلمتني: هل أنت بخير الآن، تشعر بتحسن؟

–نعم لكني لازلت مشوشاً. لا أذكر شيئا، ولا أدري ماذا حل بي.

تأملتني بعيون ملئها العطف، وهمست تبثني السكينة: لا عليك، المهم أنك بخير، ما يحدث لك طبيعي للغاية بسبب انشغالك الزائد عن الحدّ بتلك الآلة.

سألتُها حائرا: منذ متى وأنا على هذه الحالة؟

- منذ أول ليلة في زواجنا.

-أول ليلة! عجيب! ومنذ متى ونحن زوجين؟

رأيت في عينها شيئاً من الضيق الأُنثَوي، لكنها أجابت في هدوء يناسب رقتها: منذ ليلتين.

-هل أنت متأكدة أننا تزوجنا؟

رمتني بنظرة تجمع بين الضيق والدهشة وقالت: ماذا تعني؟

-هل صدرت وثيقة زواجنا؟

-نعم.

-هل يمكنني أن أراها؟

قامت في ذهول لتفتح أحد أدراج مرآة التزَيّن، وأخرجت منها وثيقة رسمية قدمتها لي، وقرأتها، وكانت وثيقة زواجنا بالفعل وممهورة بتوقيعي الحقيقي، نفس خطّي وأسلوبي.

أطرقت برأسي خجلاً وأنا أحك جبهتي بأصابعي ثم عدت أسألها: لماذا لا أذكر شيئاً مما تقولين.

جزعت قائلة: ماذا تعني؟

-أعني أنني لا أذكر شيئًا من ذلك.

-أحمد! أرجوك.

-اقسم لك لا أذكرك.

قلتها، وشعرتُ بالحرج، فحاولت إصلاح ما أفسدته واستدركت: أقصد ربما أصِبْت بفقدان ذاكرة مؤقت، وأحتاج لأن أسترجع معكي كل الأحداث التي خضتها خلال تلك المدة المنقضية، خاصة مسألة زواجنا، كيف تقابلنا؟، متى؟، أين؟

أصيبت بصدمة مفاجئة، بدت واضحة على قسماتها التي تعكرَ صحوها، وظلّت جامده لفترة تحاول أن تتمالك أعصابها، لكنها بالنهاية تَنَهّدت وقالت محاولة إرضائي: حسنًا تقابلنا في ذات الليلة التي دخلت فيها المنزل، عندما أبلغني الحارس أن رجلاً غامضاً تسلل إلى المنزل ولم يخرج، فحضرت للتفاهم مع ذلك المتسلل أو طرده من منزلي.

-منزلك !!! هل تقصدين أنك تملكين هذا المنزل؟!

-بالتأكيد، وإلّا كيف نعيش به إذاً؟

-وماذا حدث بعدها؟

-وجدتك بغرفة المكتب تجلس ساكناً، وعيناك مفتوحتان عن آخرهما، تحوم بنظراتك في الغرفة وتقلبها في الجدران من حولك، دون أن يطرف لك

رمشاً وكأنك نصف نائم. في البداية خفتك بشدة، لكني خمّنت أنك أحد هؤلاءِ الذين ينامون بعيون مفتوحة فهززت كتفك، وبالفعل استفقت وتكلمنا. عرفت بعدها أنك كنت أحد مُلأك هذا المنزل والذي اشترته والدتي وسجلتهُ باسمي فبدأت اطمئن لك، وحدثتني عن قدومك من ألمانيا ومحاولاتك لاسْتَعَادة ذكريات طفولتك، واعتذرت لي عن دخولك منزلي بهذه الطريقة الفَجُة حسب وصفك، وتعاطفت معك وعرضت عليك البقاء بالمنزل لعدة أيام ثم صرنا نتقابل كل يوم، وخلال خمسة أيام فقط وجدتك تطلب يدي للزواج.

-خمسة أيام!

- نعم، ورغم أنه كان طلباً مفاجئاً إلّا أنني قبلت، كنت مُنجذبة نحوك منذ أول لقاء لنا، والحقيقة أنك اقتحمت عالمي كأُنْثَى دون اسْتئذان وتفتحت لك بقلبي كل المناطق المغلقة، كل شيء فيك كان حلم يتَجَسَد أمامي لذلك فرحت بشدة ووافقت على الفور، ذهبنا بعدها إلى أمي وطلبتَ يدي منها مشترطاً أن نتزوج بأسرع وقت ممكن، وبالفعل تم الزواج وها نحن يجمعنا بيت واحد.

-تعنين أننا تعرفنا وتزوجنا في أسبوع واحد فقط؟

-نعم، أسرع وأجمل زواج.

وقامت مرة أخرى، وأحضرت صوراً متعددة لحفل زفافنا وقالت: هذه صور حفلة زفافنا، دقق النظر بها لعلك تتذكر.

انفَجَرَت المفاجأة داخل قاعي مثل مصباح مُتَشقِّق صدمته مطرقة، كانت الصور تجمعني بها في حفل زفافنا داخل المنزل، وحولنا لفيف من الحضور

لكن ليس بينهم من أعرفه، عدت أسألها: لكن المنزل كان قديمًا ومتهالكًا حينما دخلته، كيف تم ترميمه بتلك الصورة في هذا الوقت القليل.

-لم نرممه نحن فقط ألصقنا ورق الحائط، وصبغنا غرفة النوم والسلم وركّبنا ستائر.

-وأين حقيبتي التي أتيت بها؟

-في الدولاب. قالتها وقامت لتفتح دفّة الخزانة الوسطى من الدولاب، وحملت حقيبتي الصغيرة، وأحضرتها لي. فتحتها وفتشتها سريعًا فوجدت بها أوراقي وجواز سفري وملابسي البسيطة، بالإضافة للخبر الذي كان مطويًا كما هو داخل جيب الحقيبة الصغير مما يعني أنها لم تفتش بها ولم تقرأه.

تلاعبت الوساوس برأسي، لابد أنني جننت بالفعل، ما الذي فعلته بنفسي وبها، كيف أتزوجها وأنا أعرف أن مصيرنا مظلم وأن أصابعي ستصبغ بدمائها في يوم ما من هذا الشهر؟ ما الذي دفعني للزواج منها، أي عبث أفعل، بل أي أخرق أنا؟

تأمّلتها مشفقاً عليها وملأت وجهي بملامحها الصافية وكأنني أعذِب بها نفسي، قاسي جداً أن تكون واحداً ممن يغتالون البراءة، تلك المسكينة ستنال مني ما لا تستحق، سرحتُ في رحلةٍ خلأبةٍ بين ملامحها، وزاغ بصري مع قسماتها وشعرت وكأن الدماء تتخثر داخل قلبي، ثم دارت الغرفة من حولي وبدأ يتكرر ما حدث لي عندما دارت بي الآلة، تخلخلت دورتي الدموية، ورأيت عدة نسخ من وجه حنان تدور حول رأسي، وانقلب المشهد رأسًا على عقب، السرير أصبح ملتصقاً بالسقف، الأرض خاوية والكرسي الهزاز يسبح في الهواء، و تسلل إلى مسامعي صوت شقشقة عصافير لا أدري من أين أتت، ثم ذاب المشهد كله أمامي ورأيتني هناك، في الباحة الخلفية

للقصر، أنتظر أمام الحوض الرخامي المستدير، والذي يتموّج بداخله الماء العذب المُعطّر بالقرنفل، مددت رأسي أطل بها فوق سطح الماء أتأمل ملامحي التي نسيتها.

تغيرتُ قليلاً عمّا كنت، ترعرعتْ على وجهي لحية سوداء منحتني وقارًا دعمه عمق عينيي السوداوين، وبقي أنفي مرفوعاً في إباء يناسب كبريائي كفارس، غير أن بشرتي البرونزية شابها قليل من سمرة الشمس التي منحتني إيّاها هذه البلاد، قوامي كما هو وربما أفضل، مَمْشُوَق وعضلاتي مَفتولة، وذلك بفعل محافظتي على كل تمارين وتدريبات القتال، ومازال ثوبي القصير ونعل الجُنْدِيَّةُ السميك ذو الرباط المعقود عكسياً يَحْتفَظّان لي بقدر كبير من هيبة الجندي الإسبرطي، فقط رأسي كان حاسراً دون خوذة.

رفعت رأسي أتأمَّل البَاحَة، حيث تنتشر التماثيل الإغريقية كحراس للعظمة، لا أدري لماذا أشعر أنها خاليه من الحياة رغم جبروتها فهي صَمَّاءُ العينين ملامحها قاسية، لا تعكس روح صانعيها بل تَضجُّ بالبرودة، بعكس تماثيل تلك البلاد التي نُقِّشَت بها أدق التفاصيل وتنطقُ بحضارة كاملة سيبقي أثرها مع مرور الزمن.

جلتُ أمتعُ بصري بالبَاحَةِ التي كانت روضة غناء، تنتثر بها الزهور البيضاء مثل تيجان فضية تزين خضار الأرض الخصبة، وتُكلل هامات العشب، وتلهم الطيور التي كانت تغرد في رحلة الغروب المعتادة وهي تودع النهار بتراتيلها التي تمسُ شغَاف القلوب.

ووسط هذا المشهد الرائع رأيت ملينيا تخرج من باب الوصيفات، تخطو بقدميها الصغيرتين فوق العشب اليانع القصير، مرتدية ثوبها الأبيض البرّاق، وهي تشع بهاءً بوجهها المستدير كالقمر، وملامحها العذبة التي تنطق

بالحسن، تنساب جَدِائل شعرها النُحاسيُ مثل شلال متدفق ينبع من منابت رأسها ويلتف حوله أكليل الزهور ليطوق جبهتها الناصعة.

جمالها أخاذ وعيناها بحيرتان رائقتان، تحتضنان الزُمُرُد المتوَهِّج، وبشرتُها صافية بيضاء مثل الحليب، أمّا أنفها فصغيرٌ مثل حَبَّةُ لؤلُؤ هجرت مَحَارَتَها لتسْتَقرَّ بوجه تلك الجميلة، شفتاها قرمزيتا اللون، وتضيئان الليل بعقدين صغيرين من اللُؤلُؤ حينما تَبْتَسم، أما عُنُقُها فيختال مغرداً مثل عصفور بمَوْسِم التزَّاوج، ولما لا وهو يحمل منحوتة إغريقية فريدة، ذراعاها ملفوفان وبيضاويان مثل بشرتها، أناملها بَضَّة وصغيرة، أظافرها مُنَّمقة، وأصابع قدميها مصفوفة ومنتظمة وكأنها صبت بقالب من الزبد يمر منه مشبك نعلها الرقيق، أما جسدها فأكاد أقسم إنه خالٍ من العظام وكأنها أسطورة للجمال.

ملينيا آلهة البراءة والحسن، تملك كلاهما بنعومتها البادية في ملامحها الساحرة، والصَّارِخَة في جسدها الفتَّان، تَّمِيمَة إغريقية من نسل العظماء، تستحق أن تنازع إفروديت على لقبها بكل جَدَارَة، بل وتَسْحَقَّها في أي مقارنة للبهاء.

اقتربت مني في رفقٍ والحيرة تترقرق في صفحة ملامحها البريئة، والقلق يتماوج في كيانها ويفيض في عينيها، تسترق النظر نحو الباب الخلفي في توتر شَدِيد مثل شخص على حافة الموت، وتقدمتُ سريعًا نحوها واسْتَقْبَلتها بخِفَّة هَدَّأَتْ من لُجَّة حَيْرَتُها قليلا:

- حبيبتي ملينيا افتقدتكِ حدود السماء، وكاد جنون لهفتي إليكِ أن يُمزّق أوْصالي. قلتها وأنا احْتَضَن راحتها البَضَّة بين كفيَّ الخشنين، والتقت

أنفاسنا. ونظرتْ في عيني بجذلٍ وقالت بصوت حنون كأنه آلة وتريه ذات شجن:

- الشوق فاض بجَوَانِحي أنا، غيابك عني نار تحرق ذاتي وخوفي من عدم مجيئك أرّق نومي وبثَّ السُهْدَ في دمائي. فسرى كالجَحِيْم الذي لا يهدأ إلا برؤياك يا حبيبي.

ومسَّت بكلماتها حنايا قلبي ففاض لساني معبراً:

- ليس الأمر بيدي كما تعملين فأنا أفكر كثيراً قبل الحضور، خشية أن يرانا أحدهم ويشى بنا وينتهي أمرنا، تباعين أنتِ بسوق الرقيق وأعلَّق أنا على مَشأنِقهم.

- لا أطيق غيابك، فأنا أنبض بخلجات قلبك، في قربك وطني ومع كل طلّة إلى محيّاك أولد من جديد، وفي بعدي عنك تتوارى لذة العيش خلف ستائر الغربة، وتتبخر أزهى معاني الحياة واحترق داخل أتون الشوق.

-أما قلبي فيتلو كل ابتهالات الحب حين يلقاك، ويسكن قبر الأسى في فراقك.

تأملت عينّي وقالت: أعشق حينما أضع خدي على صدرك أتنفس رائحتك ويغمرني فيض احساسك.

سحرتني كلماتها فعانقتها بحنو واشتياق، فقط الحضن هو ما يروي ظمأ قلبين محروميَن مثل قلبينا، واختبأنا خلف أحد أشجار القصر وجلسنا برفق وحدثتها عن قلقي: أشعر برائحة خيانة فيلوباتور تملأ الأجواء، وتُزكّم الأنوف يا ملينيا، نحن مُقَاتِلون، وندرك تلك الأمور على بُعد فراسخ، ومللنا وعود العودة الزائفة إلى بلادنا.

تَلفتتْ حولها ثم همستْ: أنت محق، القصر ملئ بالدَسائِسَ والكل يتكلم عن خلاعته وبطشه بالإضافة لوحشيتهِ مع الوصيفات في المُخدَع، وتدور حاليًا بالقصر مؤامرة يخطَط لها سراً بين فيلوباتور ووزيره والمجلس الاستشاري للحرب حول أخوه، وهناك همسات تتعلق بأنه اعتقل مولاتي الملكة الأم برنيكي والتي كانت تشعر بنيته في الإنتقام منها بالفعل، ولذلك منحتني رسالتين وطلبت مني إيصالهما للقائد ماجاس إذا حدث لها أي مكروه، وها هي قد اختفت هي والقائد ماجاس ولم أعد أدري ماذا أفعل.

-كنت أتوقع غدره فالرجل الذي قتل عمّه، لن يتورع عن القيام بأي فعل مشين، حتى لو كان الحنث بعهد أبيه، والتربص بأمه وأخيه، يجب أن أبلغ الملك كليومينس بهذا كي نستعد لأية بادرة غدر.

-لا تقلق سأطلعك على كل ما يستجد داخل القصر وكل ما تهمس به جدرانه يا بانتيوس.

-وماذا لو لم نتقابل ثانية يا ملينيا؟

-لا تقل ذلك، سنتقابل وسأقضي بقية حياتي بين أحضانك.

-وماذا لو اعتقلنا؟

-إذا تَغَيَّبَت عن لِقائك لثلاثة منازل، فاعلم أنني عاجزة عن الخروج من القصر، وأن ثمة حالة من الإستنفار تدور بداخله، وحينها سأكتب لك بردية وأرسلها مع الحاجب ليضعها خلف حاوية رسائل العشاق بمكتبة الإسكندرية، انتظرها مني بُعيدَ الغروب أو عندما يبتْسم القمر.

-أخشى أن يعرف أحدهم أنك تشين بما يدور في القصر.

-لا تقلق فأنا حذرة للغاية.

-لكننا في خطر ويجب أن نسرع بالرحيل من هنا ولو هاربين يا ملينيا.

ردت في حزن: حينها سيكون أي مكان ترحل إليه هو مكاني أيضا أنا وهبتك جسدي خالصًا لك، وروحي إمارَةَ لن يحكم فيها سواك، ودون قربك الموت.

فاضت المشاعر بداخلي وتعانقنا واستَلْقينا على العُشب الأخضر وبدأت شفاهنا رحلة الجنون.

-ما أشهى شفتيك يا ملينيا، وكأنهما صنعتا من رحيق الزهور.

انسلت من بين احضاني، ودفعتني بكلتا يديها بعيدا قائلة: ملينيا؟! من ملينيا؟، كانت حنان زوجتي، وكانت حزينة تتجمع على طرف عينها دمعة مجروحة، وحينما استوعبت الموقف تَحَسَّست رأسي الذي كان يؤلمني وكأني أفقت لتوي من ضربة قضيب حديدي وقلت: آسف لقد كان حلماً.

اغرورقت عينيها بالدموع ودفنت رأسها بين راحتيها وقالت: لم يكن حلمًا، بل كنت تقبلُني وعيناك مفتوحتان وتنطق باسم امرأة أخرى.

ذهلت وقلت حائراً: تعنين أنني لم أكن نائما؟

-بالطبع لا.

وكان جوابها صاعقاً بالنسبة لي.

* * *

(المساء)

قضيت ما تبقى من يومي قابعاً في غرفة النوم، أقنع حنان -والتي لا أشعر نحوها بأية عاطفة أو رابطة-بأنني لا أفكر بأخرى، وأن ملينيا هذه ليست صديقتي في ألمانيا، ولا أعرفها، وأنها مجرد خيالات اقتحمتني فجأة فارضة نفسها على مُخَيِّلَتي.

وتَقَبَّلت تفَسَّيري والشك يعتمر بداخلها ويَنْضحُ على حوافِ عينيها الواسعتين، واللتين ضاقتا في محاولة يائسة للفهم، ولكن بالنهاية مَرَّ الأمرُ بسلام ودون أن تتضاعف الخسائر بيننا، فلا أقسى على زوجة من أن ينكرها زوجها، وفي ذات الجلسة تكتشف خيانته لها، أمر كفيل بأن يقصم ظهر أي امرأة كانت.

لذلك فضلت أن أكون رحيمًا بها، واكْتَفَيتُ بما قلته، وأخفيت عنها بقية التفاصيل التي مرت بذاكرتي وكأنها حقيقة مجردة بعد أن تصورت في البداية أنها مجرد حلم شتوي طاف بوسادة مراهق في ليلة باردة.

عاشقان ينْزعان نفسيهما من إحدى صفحات التاريخ، ويقْتَحَمان خَلْوَة أفكاري دون سابق معرفة، أمر لا يمكن تفسيره، لماذا أنا؟ ومن هما؟ ولماذا في هذا التوقيت؟ أنا حتى غير مهّتم بالتاريخ ولا بأحداثه، لا أنكر أن التاريخ ممتع للكثيرين، وأنني قارئ نَهِم، لكنني غير مهتم بقراءته لأنني لا أحب الماضي ولا ذكرياته.

حل المساءُ كاسياً بعتمته الأفق ونافثاً برودته في جدران المنزل، أوت حنان إلى الفراش متعبة، ولم تمض دقائق حتى غَطَّت في نوم عميق، بينما طرحتُ جسدي بجانبها أحاول أن أنال قسطاً قليلاً من النوم لأرخي أعصابي المشدودة، ولكني عجزت. حطّ الأرق ترحاله عند رأسي ونصب خيمته على ملامحي. الحيرة لازالت تَمُور بداخلي، وموجات الشك تقاذفني مثل قارب يبحر بلا ربان.

أشعر أن عاصفة لئيمة تهب على حياتي التي كابدتُ لسنواتٍ في تحصينها بسياجٍ من العزلة، بداخلي حدس يوسوس لي أنها تحمل بين ثناياها لقاحات مرسلة، لتحيَّ الماضي الراكد في قاعي، تنفض غبار ذكرياتي الأليمة لتثيره كي يرتفع ويملأ أقصى حدود أفقي، وجل ما أخشاه هو أن أرزح مرة أخرى تحت وطأة أثيره الكثيف، فلن يسعني حينها إلا أن اختنق وأسعل وربما أموت، لكن لماذا؟ ما هو المهم في تلك الذكريات الكئيبة؟

شبكت بين أصابعي وتوسدت كفيَّ وقطعت مع حيرتي مسافة غير معلومة ثم توقفت حينما شق البرق جبين السماء وأضاء غرفتنا، وحسناً فعل، فالتيار الكهربي مقطوع، وفحم المدفأة تحول إلى تراب، وكل ما بالغرفة مصبوغ بزرقة يتوهج بها قنديل معلق بركنها الأيسر.

أطلقت زفرة حررتُ معها فيضاً من الهموم التي جثمت على صدري، ثم اعتدلت وتأملت حنان التي كانت تتمدد بجانبي على سريرنا، طارحة على حناياها المتماوجة بطانية خفيفة. لم أتصور للحظة أن امرأة يمكن أن تكون ساحرة وهي نائمة بهذه الصورة. حنان، الفتّنة والبراءة حينما يمتزجان. تستفز ملاكك وشيطانك في آنٍ واحد، بل تجبرهما على التصالح من أجل الحصول عليها. قيثارة مثيرة، لحنها واهن يأسرك ضعفه.

ورغم ذلك بداخلي صراع محتد بين جيشي التصديق والإنكار، شيء بداخلي ينكرها رغم كل الأدِلَّة التي ساقتها لي لتثبت زواجي بها، وشيء أخر يصدقها لأنني أعلم علم اليقين أنني كنت سأفعل أي شيء من أجل أن أبقى بالمنزل ولا أغادره، حتى لو كان هذا الشيء هو الزواج من حنان، لكن لماذا لا أذكر الأيام التسعة الفائتة وكأنها محيت عن قصد من ذاكرتي! يبدو أن لتلك الماكينة دخل فيما جرى لي.

غادرت سريري، وألقيت بنفسي على الكرسيّ الهزاز، وبدوره رحب بي وبدأ يهدهد جسدي ويهدهد معه أفكاري التي كانت تتناوب الوميض داخل رأسي.

موريس ... حنان ... جاسر ... ملينيا ... بانتيوس، وماذا بعد؟ من أي صفحات التاريخ أتاني ذلك البانتيوس!

خطرت بذهني فكرة بدت جيدة، ويمكن أن تفسر ما يحدث، خرجت إلى الرواق، وعلقت بأناملي أحد القناديل، ونزلت الدرج الحلزوني مسرعاً باتجاه غرفة المكتب.

الليل كئيب مُقبض، وصفير الرياح بالخارج يثير الرَهْبَة، السكون والوحدة يَعتكفان بكل الأركان، التماثيل تتململ من إزعاجي لها وتتابعني في حقد، الخوف كامنٌ خلف الظلال، وهدير البحر لا يتوقف وأنا محاط بكل ذلك.

فتحت باب غرفة المكتب فصرّ في تزامن مع هزيم الرعد وبرقه الساطع، وقابلتني زوجة موريس بنظرتها المخيفة، لماذا بقيت اللوحة كما هي؟!، كان يجب التخلص منها وفوراً، أشحت بوجهي عنها، ثم وضعت القنديل على المكتب، ورحت أُفتِّش بين الكتب عن العناوين التاريخية علّني أعثر على قصة ذلك الفارس وحبيبته، ومضى الوقت وأنا أبحث بجهد شغوف دون

فائدة، ولا كتاب واحد بالمكتبة كلها يتكلم عن التاريخ، وذلك على الرغم تنوع الكتب وضخامة حجم المكتبة.

وجدت كتباً عن الطب أظنها تخص أبي، وأخرى عن الجواهر والحَلْي ربما تخص موريس، وأخرى متنوعة بالإضافة لروايات عديدة، لكن خلت المكتبة تماما مما أبحث عنه.

الكتاب الوحيد الذي، كان يمس التاريخ ومن بعيد هو مسرحية تدعى "يهودي مالطا" من تأليف "كريستوفر مارلو" ويرجع تاريخها إلى عام ١٥٩٠، وكانت بالرَف الأسفل من المكتبة، محشورة بين كتابين بدينين تحاول أن تجد لنفسها مكاناً بينهما. انتزعتها بأناملي كي أخلصها من مأساتها فتنَفسَتْ الصعداء وانتفش بدنها المنكمش. غلافها ليس جذابًا، مجرد العنوان واسم المؤلف. نفضت عنها الغبار ثم جلست إلى المكتب، وفتحتها أقرأ صفحاتها الصفراء بتمعن. بدأتُ بمطالعة توزيع أدوار أبطال المسرحية، ثم استرسلتُ حتى وصلت إلى فقرة بالفصل الأول تصف مكتب المحاسبة الذي يملكه التاجر اليهودي: "...وفي منزلة كومة من اللآلئ والاحجار الكريمة جاءته مجاناً ويبيعها بالوزن، أجوله الأوبال الناري، الزُمُرُدُ، حجر العشب الأخضر، اليَاقُوت الجميل، والألْماسُ ذو البريق ..."

وتوقفت عن القراء حينما أفسد استرسالي تماوج السطور فوق الصفحات، فركت عيني عدة مرات لأستعيد بؤرة تركيزي، لكن الكلمات استمرت تتلوى كالأفعى ثم بدأت تغادر سطورها وتسيل بين الهوامش، وقبل أن يرتد إليَّ طرفي، انهارت، انفجرت حروفها وتناثرت من حولي كالشظايا، أصابتني حالة من الدوران صحبها صداع مرير طنّ برأسي كآلاف الأجراس، وتعطل سمعي وكأنني أتعرض للقصف، ثم طاف أمامي ظل كثيف حجب عني الرؤية للحظات، وقبل أن أفهم ما يحدث أنقشع الظل، وعادت الحروف المنفصلة

تتجمع في نسق جديد، تحوّرت معه صفحة المسرحية لما يشبه الفاتورة النقدية، في حين غمر غرفتي بريقُ الذهب، وتقلّص مكتبي الكبير إلى أخر صغير الحجم، ووجدتني جالسٌ إليه خلف نافذة معروضات دكاني بالصاغة، أضع نظارة دائرية العدسات، تتدلى على أرنبة أنفي في استرخاء، وينسدل من ذراعيها سلسلة ذهبية.

وكان الليل قد حل، وكنت أدقق في قيمة فاتورة نقدية بتاريخ اليوم، الثاني عشر من يناير ١٩٤٧، والمسجل بها صنف إسورة ذهب بندقي المنشأ، وثلاثة خواتم وحلق، بقيمة ٤٤ جنيه بالمصنعيّة، وكنت أفرّ بين سبابتي وإبهامي ما حصّلهُ كميل صبي الدكان من جنيهات، وأعجبني أن كلها من ذلك النوع الجديد الذي يحمل صورة الملك فاروق، وبينما أنا منشغل بذلك، اقتحمت المحل امرأة متدثرة بعباءة سوداء تلف جسدها بالكامل، وتغطي فمها بلثام، وبمجرد دخولها وضعت على الأرض سلة مغطاة بوشاح من القماش وجلست القُرْفُصاء بجانبها وقالت: اشترْ مني هذه الأغراض يا خواجة، سترك الله في الدنيا والآخرة، أنا محتاجة للمال وأعول أيتام.

نهرها مساعدي كميل مشيحًا لها بالانصراف: لمّي أغراضك وارحلي يا امرأة لا نشتري المخلفات، هذا محل مصوغات.

رَميتهُ بنظرة غضب من فوق نظارتي لتدخُّله فيما لا يعنيه، فتراجع منكمشاً، لازال غرٌ ساذج، لا يعرف أن الألْماس يُسْتخْرج من الوحل، تباً له ولأمثاله من المتعجلين الذين لا يعرفون كيف يستفيدون من كل شيء ويحولونه إلى منافع، لِتتُ للمرأة قائلا وأنا أُضيِّق حدقتي محاولاً سبْر أغوارها: ماذا تبيعين أيتها المرأة؟

أشارت إلى السلة قائلة: كل الخير يا خواجه، مُدْ يدك عاين بضاعتنا.

قمت من خلف مكتبي الصغير، وتخللت نافذتيّ المعروضات حتى أصبحت أمامها، فمسحتها بنظرة فاحصة محاولاً استبيان ما يظهر من ملامحها والتي وشت بعمرها، كانت لاتزال بعَقْدَها الرابع، لا تنتشر حول عينيها أيةَ تجاعيد وصوتُها نقي وليست به حشرجة كالعجزة، اقتربت منها محافظاً على مسافة مقبولة -مثلما أفعل مع كل زبائني خوفًا من الأوبئة -حتى التقطت أرنبة أنفي رائحتها ورائحة أغراضها. لم تكن تشبه رائحة القرويات اللواتي تختلط بملابسهن روائح الزبد والجبن وجلود الماشية وتعلق بها بقايا القش وآثار دخان الأفران البلدية فتأكدت أنها من أحد الحواري المجاورة بالمدينة. نبشت السلة بأصابعي فإذا بداخلها كتب وصكوك ولفافات قديمة بالإضافة لمخطوطات مطْوية من الجلد معقودة برباط مفتول، سألتها؟ من أين لك بهذه الأغراض؟

قالت في فخر لا يناسب فقرها الذي تفضحه ملابسها المهترئة:

-ورثتها كابرًا عن كابرٍ، أبي كان شيخُ حارة، وورثها عن جدي، ولم أكن أعرها اهتماما حتى نصحتني جارتي ببيعها حينما ضاق بيَ الحال، وقالت لي إنها أثرية ويمكنني بيعها بالصاغة، غير أنني أدور بالسوق منذ الصباح ولم يبّل أحدهم ريقي أو يبدي أي رغبة في شرائها ولو بجنيه واحد، بل صرفوني وأهانوني وزهدوا في بضاعتي مثلما فعل هذا.

وأشارت إلى كميل، ثم أردفت تستجديني: سترك الله اشتري مني هذه الأشياء أو قايضني عليها.

أثار كلامها فضولي فالتقطت إحدى الملفوفات وشممتها، فامتلأ منخاري برائحة جلد البقر الطبيعي المخلوط برائحة الملح ومواد الدباغة القديمة وتأكد لدي أنها أثرية بالفعل، لكنه ليس دليلاً على أنها قيّمة. أعدتها للسلّة،

ولفت نظري لفافة صغيرة تستقر بقاع السلّة تائهة وسط الكتب والوثائق، وكانت بحجم بكرة الخيط.

يثيرني دائما ما خف وزنه وصغر حجمه، واللفافة الصغيرة تعني أن الأمر تشوبه السِّريَّة، وكلما كان الشيء غامضاً زادت قيمته. التقطها وفردتها أمامي فإذا بها لفافتين متداخلتين.

حشرت عدستي المكبرة بين جفنّي عيني اليسرى، وأغلقت اليمنى أتفحص اللفافة الأولي فاكتشفت أنها أصلية بالفعل. كانت بمثابة خريطة لمكان ما بالإسكندرية، حيث ظهر فيها البحر وجزيرة فاروس، لكنها لا تفيد في شيء، مجرد خريطة قديمة لمكان مجهول لا أكثر ولا أقل. رميت بها في السلة في إهمال ورفعت الثانية أتفحصها، كانت رسالة، لكنها مكتوبة بلغة قديمة عجزت عن قراءتها. ألقيت بالمخطوطة الثانية في السلة. فتوسلت لي المرأة بعد أن شعرت بزهدي في بضاعتها.

-اشتر مني يا خواجه ولو بجنيه.

توقفت أمامها قليلا، أدرس الأمر وأديره داخل رأسي، دفع المال دائماً يحتاج إلى قرار جريء، أكره أن أُخرِجَ المال من جيبي مثلما أكره أن يفك أحدهم رهنيته، والمال هنا يعني أي مال، القليل منه عندي مثل الكثير، عبثت بطرف لحيتي الصغيرة، وارتفع حاجبي الأيسر محاولاً اتخاذ ذلك القرار القاسي، بينما دعاء المرأة وتذللها لي يتصاعد ويحاصر تفكيري، حتى كدت أفقد صوابي وأصرخ فِي وجهها لتسكت، لكنني لم تراجعت وتركتها تدعو لي، لن أخسر شيئا من دعائها طالما كان مجانياً.

-اشترها يا خواجة، تكن لك ثواباً وأجراً بالدنيا والآخرة، جعل الله إطعامك الأيتام في صحيفة أعمالك.

-حسنا سأخذ السلة كلها بجنيه.

-أوافق.

دسست سبابتي وإبهامي في شق صدريتي القماش القصيرة، والتي أرتديها يومياً وكأنها جزءاً لا يتجزأ مني، وأخرجت جنيهاً وتأملته قليلاً، وأحسست أن أناملي ترتعش من التردد ثم حسمت الأمر، ومددت أناملي بالجنيه نحوها فاختطفته سريعاً قبل أن أعود في قراري، وقامت من جلستها ودعائها لي يتواصل.

- نجح الله مقاصدك يا خواجه، وفَرّجَ كربك وأزال همك.

شعرت بقليل من الحسرة مع رحيل المرأة وبين أصابعها مالي، ورمقني كميل صبي الدكان بنظرة تأنيب، مجمعًا ملامحه في وسط وجهه من الضيق لإهداري مالي. بخيل كميل، شَحيحٌ مثل مطر الصحراء، وتلك هي أهم ميزاته، وسبب تمسكي به أيضا، يحافظ على مالي ربما أكثر مني، ليس لأمانته، بل لكرهه الشديد لإخراج المال من أي خزانة أيًا كانت، مبدأه في الحياة ما يدخل لا يخرج إلّا بانتزاع الروح.

أنتزعت نفسي من أفكاري تجاهه سريعًا وقلت: كمييييل، ابتسم يا حبيبي.

أعاد توزيع ملامحه في وجهه بانشراح فجّ، فتجاهلته، وجلست إلى مكتبي، وفردت المخطوطتين، ثم جذبت عدسة مكبرة ومررتها عبر سطحيهما واحدة تلو الأخرى، وفكرة واحدة تتعاظم داخل رأسي، لابد أن أزور صديقي عميت، هو الوحيد الذي لديه الخبرة لفك طلاسمها، شيء ما يحيك في صدري تجاه تلك الرسائل الصغيرة، شيء غامض، يتعلق بالمال، وحدسي لم يكذب يوماً تجاه ما يخص المال، هذه الجلود تحمل سراً كبيرا، وإذا عرفته سأغرق في بحر من الثراء.

عكَّر كميل صفو أحلامي وقال وهو يشير إلى ساعة الحائط: موعد إغلاق الدكّان، أخرجت ساعة جيبي (الجاليت) والمعلقة سلسلتها بصدريتي، وضربت قرصها بأظفري فانفتحت على مصراعيها، ودققت النظر بها للتأكد من الوقت وانتابني الضيق، لقد حان موعد الإغلاق بالفعل، أطبقت دفتي الساعة، ودسست الملفوفات في شق صدريتي وأشرت لكميل المتعجل دائماً بالشروع في إغلاق الدكان، وخرجت خلفه لأتابعه بتركيز هو يحكم إغلاق دُفَّتَيْ الباب الغليظ، ويؤمنْ عارضته الحديدية بعدة أقفال، ثم تأملت لافتة المحل التي كانت تحمل اسمي "نعوم روفائيل". شعرت لحظتها أن هذا الاسم الذي أحمله سيصبح أهم اسم بالقطر المصري، لا أدري لماذا، لكن حدسي ينبئني بذلك.

تحركتْ حروف اللافتة مرة أخرى، وتناثرت في تنافر ثم تجمعت من كل حدب وصوب، مُشَكلّةً اسمًا آخر وهو "باراباس" التاجر اليهودي الثري بطل قصة يهودي مالطة، عاد كل شيء إلى ما كان عليه، نور القنديل الواهن، المكتب الكبير، صوت المطر المتقاطر والممتزج بهدير البحر، وحتى زوجة موريس ونظرتها المخيفة، الوحيد الذي لم يعد كما كان هو أنا، ما يحدث لي يعصف بكياني وسيؤدي بي في النهاية إلى إحدى المصحّات العقلية، في يوم وليلة أجدني قد تزوجت، وأزور صفحات من التاريخ، وأسمع وأري وأتكلم كأنني فارس إسبرطي، ثم تختم الحيرة بأن أَزْفَلَ في جسد صائغ يهودي بخيل!، هذا جنون بكل ما في الكلمة من معنى، شعرت أنني بحاجة ماسة إلى النوم، لأن الأرق سيزيد حالتي سوءاً، فقطرت أقدامي جراً وصعدت إلى غرفة نومي وبداخلي عزم الكون على أن انتزع من براثن النوم كل ما أستطيع لكي استعيد توازني.

* * *

(نعوم)

أفقت لأجدني ملقى على وجهي مثل كومة مهملة من العظام، مطروحًا بين جنبات ركن مظلم وبارد كالثلج، احتجت إلى الكثير من الوقت ليبدأ الدم الحارّ رحلة سريانه بين أوصالي المتجمدة، وأتمكن من أن أعتدل، أدهشني أنني أرتدي قميصاً قصيراً لا يغطي أبعد من فخذي، ومنقوشة به مستطيلات متباعدة كأنه صنع للمرضى، احتضنت كتفيّ من الوحشة والخوف، واستقمت ومفاصلي تأكل بعضها مصدرّة صوت احتكاك مقزز، درت حول نفسي أتفقد هذا المكان الموحش فلم أعرفه، البرد قارس والعتمة شديدة ولا أري أبعد من خطوة، مددت يدي أمامي كالأعمى، خوفا من أن أصطدم بشيء، ومضيت حافي القدمين أخطو على الأرض الباردة محاولًا الوصول لشيء ملموس، لكني كنت كمن يغوصُ في لجةٍ من الظلام، كلما أتقدم أكثر أغرق أكثر، أعرف أنه نفق ولا أدري كيف؟، أرهفت سمعي فتسرب إلى أذني صوت خرير رائق، وكأنني أسفل قناة أو نبع، تقدمت متلمسًا موضع قدمي، ثم توقفت مع صوت احتكاك كالشرر شق الصمت البليد، وتَوَهُّجت معه جذوة من النار حول رأس عود ثقاب بددت العتمة، ومن خلفها رأيت وجهًا مخيفًا يَرمَقُني بعيون حمراء، جفلت وقفزت مرتداً إلى الوراء، وانطفأ عود الثقاب لثانية ثم اشتعلت بدلًا منه شمعة نصف ذائبة، ومن خلف شعلتها المتراقصة كان وجه نعوم الدميم يحدجني بنظرات نارية من عينيه الجاحظتين ويطرح عليّ سؤالاً بلهجة حادة: ماذا تفعل هنا؟

-هنا؟ أنا لا أعرف أين أنا؟

بدا وكأن لعابه يسيل من شدقيه كالذئب، وضوء اللهب قصير العمر يتراقص بين وجهينا وقال: في منزلي.

-منزلك عن أي منزل تتحدث! لم يعد منزلك بعد أن رحلت.

-أنا لم أرحل.

-بل رحلت.

- لم أرحل والدليل هو أنت.

-لا أفهمك ماذا تريد مني؟

-أريد ممتلكاتي.

-ممتلكاتك!

-نعم. وأمسك بتلابيبي قائلاً بشراسة وهو يَضَعُ وجهه أمام وجهي مباشرة وتغمرني رائحته الكريهة: جسدي الذي سرقته روحك، أريده الآن، وجذب ذراعي وكأنه يصطحبنِ معه، فدفعته بكلتا يدي لأبعده: ابتعد عني، أنت مجنون.

صرخ وهو يطوق جذعي بذراعيه، ويجذبني كأنني تمثال أو غرض اشتراه: تعالَ معي هذا جسدي، أنت سرقته مني يا لص، أعده لي، لن أتركك.

تملصت منه وصرخت أسُبه: أنت حيوان حقير، لا يمكن أن أكون أنا هو أنت، لست مثلي ولستٌ مثلك، لا تشبهني ولا أشبهك.

تمعّر وجهه وقال: أنا صاحب هذا الجسد يا محتال.

-كيف تجرؤ أن تتفوه بهذا الكلام، وأنت واقف أمامي، هل لك جسدان أيها المعتوه؟

-بل ما تراه هي روحي وأنت جسدي ولابد أن تعود الروح إلى الجسد.

قالها ثم أخرج لفافة جلدية صغيرة وفردها أمام وجهي وأشار لها بأصبعه الطويل بارز العظم: اقرأ بنفسك، هذه وثيقة ملكية لجسدك.

صرفت بصري عنه، وقرّبت رأسي لأقرأ ما باللفافة، فوجدتها فارغة، وكانت خدعه، بمجرد أن حولت بصري عنه ركلني بقدمه فاندفعت إلى الخلف بعنف، ثم هويت في بئر سحيق وضحكاته الساخرة مني تتواصل وتتردد بأذني وأنا أواصل السقوط حتى ارتطمتُ بقاع البئر، فصرخت وضجَّ جسدي بآلاف الآلام، ورأيته يمد رأسه الكريه من فتحة البئر وظلال جذوة الشمعة تتلاعب على ملامحه وقال لي: وأخيرًا، ردت إلى بضاعتي، وراح يسد فتحة البئر بألواح ودُسُرٍ ... وزَلْزلتْ طرقاته قاع نفسي وصرخت وابتلعت الحفرة صراخي.

* * *

(١٣- يناير- ١٩٧٧)

أفقت مذعورًا بداخلي وحشة وقلبي منقبض، أتلّمس جسدي وأتحسس المكان من حولي بأصابع لم تستَرِدَّ كامل إدراكها بعد. رفعت أجفاني الثقيلة بتوجس فعرفت أنني لازلت بغرفتي وعلى سريري، يا الله، كان كابوسًا بشعًا، قلبي يقصف حنجرتي بضربات عنيفة، أنفاسي تتلاحق، والعرق البارد يفيض من جبهتي وبقعة كثيفة منه تفترش صدري.

اعتدلت وجذبت كوبَ الماء المستقر بجانبي على الطاولة، وابتلعت منه جرعتين بأنامل مرتعشة، كنت أحاول السيطرة على انفعالي، لكنّي لم أنجح في ذلك، وبقيت هشًا لا أقوى على التحكم بجسدي ولفترة ليست بالقليلة.

الألم منتشرٌ بأوصالي وكأنني سقطت سقوطاً حرًا بالفعل، وضوء الغرفة باهت، رغم نجاح شعاع الصباح في التسلل من خلف الستائر الشفيفة، وحنان ليست بجانبي. استطلعت ساعة الحائط فاكتشفت أنها تتجاوز العاشرة صباحًا بقليل، لقد نلت قسطًا لا بأس به من النوم.

تبًا لذلك الصانع البخيل، اخترق حياتي بفجاجة وغلظة، وأتاني مرتين وبحضور كئيب وطاغٍ كأنه شيطان لعين حضر على جسد ممسوس.

غادرت سريري وتدثرت بمعطف النوم، ونزلت إلى بهو المنزل لأجد حنان تقف فوق أحد كراسي السفرة الخشبية منتصبة على رؤوس أصابع قدميها، وشعرها الطويل المتماوج يتهدل على خصرها، وكانت تعلق لوحة لأحد المسارح الرومانية على الجدار بين غرفتيّ الصالون والمكتب وتدقها بطرقات خفيفة حتى تثبتها.

هل تسببت طرقاتها في ذلك الحلم الكئيب الذي راودني؟ لا أدري! حييتها: صباح الخير.

التفتت نحوي، ونزلت عن الكرسي بخفه، ثم ابتسمت قائلة: أحمد صباح الخير يا حبيبي، وأشارت إلى اللوحة وأردفت: ما رأيك في هذه اللوحة؟

- جميلة، لديك ذوق راقي.

ابتسمت فَرِحة بإطرائي وقالت: هل أعد لك الإفطار؟

-لا سأبدل ملابسي وأغادر.

-إلى أين؟

- سأذهب إلى الشهر العقاري.

-خيرًا؟

- سأستفسر عن بعض مُمتلكات العائلة العقارية.

- بالتوفيق يا حبيبي، هل تحب أن أطهو لك نوعاً محدداً من الطعام على الغداء؟

-لا سأترك لك الاختيار.

قلتها، وخرجت من المنزل لأهبط السلم المفضي إلى حديقة المنزل المهجورة، وعبرتها فقابلني على اليسار كوخ الحارس الخشبي. قادتني قدماي إليه، ودفعت بابه المتهالك -والمصنوع من عدة عارضات خشبية متلاحمه-فصرّ بصوتٍ عالٍ وانفتح أمامي، لأجده خالياً تماماً إلّا من عكاز الحارس، المريب.

* * *

(الحاج)

استقبلني موظف الشهر العقاري بترحاب روتيني مشوب بريّبَة مبعثها الحالة المذرية التي كنت عليها، لا شك أنه قد لاحظ العبوس الذي كان يعتري ملامحي، بعد أن اضطرب نومي على إثر موجات الصداع التي صارت تهاجمني ليل نهار، وأصبحت تتلذّذ بحرماني من الراحة. اضطررت لمنحه مبلغاً من المال من أجل أن أنال اهتمامه، وأسرع يدس الأوراق النقدية في درج مكتبه وهو يتلفت حوله، ثم دبَّ فيه نشاط مفاجئ وتوجه معي إلى حيث يحتفظ بنسخ الصكوك.

بحثنا عن تلك التي لها علاقة بالمنزل وسط زخم من العقود وبالنهاية وجدناها داخل خزانة قديمة، حينها تفاجأت بأن المنزل لا يُعرفْ تحديداً من الذي بناه ولا متى تم بناؤه، فأقدم الصكوك الموجودة تشير إلى نقل ملكية المنزل لحيازة رفيق باشا الخازن دار، والذي مُنَح إليه المنزل على سبيل الهبة من الخديوي عباس حلمي الثاني، وتحديدًا في ١٩١١، وتعجب الموظف وهو يمطّ شفتيه، حيث أن ذلك ليس معتاداً لكنه هزّ كتفيه بقلة حيلة، وهم بإغلاق الخزانة، فأشرت له بالانتظار وسألته: من الذي ملك المنزل بعدها؟

التقط دفتر تاريخ الملكية ودقّق النظر فيه ثم قال لي في برود شديد:

-رفيق باشا الخازن دار تلته عصمت هانم لاظوغلي ومنها إلى ورثتها ثم شخصين يهوديين يدعى الأول عميت صوفير، والثاني نعوم روفائيل بعدهما انتقل إلى ...

قاطعته واشرأب عنقي أتأكد من الاسم بالدفتر لدرجة أن الرجل قلق من تصرفيَّ. قلت: نعوم!

-بالضبط. نعوم روفائيل منشا.

كان الاسم يمثل تحولًا رهيباً في حكايتي. ويثبت أن ما أراه حقائق ووقائع، وليست مجرد أضغاث أوهام. ذلك اليهودي الذي رأيت نفسي مكانه أو بشكل أدق، كنت أنا هو. كان شخصية حقيقية لحم ودم.

حاصرتني الغربة كأنني كائن رخو غادر محارته في ليلةٍ عاصفة. كنت على أمل أن ما أراه أوهام سأفيق منها عاجلاً. لكن حقيقة وجود نعوم نسفت ظنوني. واشتبكت الأحداث بسببها داخل رأسي بفوضوية مثل بكرة خيط مبعثرة يحتاج ترتيبها إلى صبر ومجاهدة. تركت الموظف يمط شفتيه من غرابة تصرفاتي، وغادرت زائغاً أفكر فيما عرفته. بينما اسم نعوم يتردد داخل رأسي.

وقادتني قدماي هذه المرة، ودون أن أشعر إلى الصَّاغة. لم أدرك كيف وصلت إلى هناك! ولا ما الذي حملني على زيارتها. يبدو أنني أردت أن أعاين ذلك العالم الذي تجلي لي في ذكرياتي أمس رغم أنني لم أزره يوماً من قبل. تمشيت داخل الشوارع الضيقة، وجلت ببصري أفتش عن المحل الذي رأيتني أجلس به كأنني نعوم، وبالنهاية وجدته. كان بالركن الأيسر على ناصية الشارع، أو كما يقولون هنا قمّة الشارع. محل صغير الحجم، لكن موقعه مميز، وبالطبع تغيرت لافتته إلى اسم آخر "مجوهرات الحاج". وذلك منطقي لأن نعوم إما رحل عن مصر أو مات أو ربما باع المحل لمالكه الجديد. اتجهت إلى المحل، ودخلت لأسال الرجل الوقور، والذي كان يجلس

بالداخل منشغلاً بوزن إسورة من الذهب، ويناديه العديد من الرواد بالحاج:

-أعتذر عن تَطَّفلي لكن لدي سؤال يتعلق بالخواجه نعوم.

زاغَ الرجل ببصره قليلاً، وكأنه يستدعي ذكرى قديمة، ثم مَطٌ شفتيه وهزَ رأسه نفياً وقال: لا أعرف هذا الاسم.

-الخواجه نعوم اليهودي ألا تعرفه؟

-لا.

-المالك القديم لهذا المحل في الأربعينيات.

-عزيزي نحن نملك هذا المحل أباً عن جد، وجدي الأكبر هو من أنشأه منذ أكثر من خمسين سنة.

قالها وعاد ليتحاور مع زبائنه، فشعرت وكأنني مارسو -غريب ألبير كامو- والذي كان يعيش حياته لا يبالي بشيء ثم فجأة وجد نفسه محاطًا بالمشاكل. كانت صدمة عنيفة لي وأفقدتني القدرة على النطق لعدة دقائق بعد أن غادرت المحل، وازدادت وطأتها حينما عاندت وسألت العديد من أصحاب المحلات الأخرى، وخصوصًا الشيوخ وكبار السنّ، ونفوا جميعًا معرفتهم بنعوم، وبذلك أصبحت تائهاً ربما أكثر من أي وقت مضى.

* * *

(أنين)

ليلة قاسية عشتها بعد لقائي بالحاج والذي أنكر وجود نعوم، لم يعرف فيها النوم طريقه إلى عيني، وكنت إذا أغمضت جفني ورحت في سِنة من النوم أفيق بعد وقتٍ قليل فزعاً، وأنا أركل الهواء خوفًا من كابوس جديد يحمل وجه نعوم البشع، تلك العبارة اللعينة التي قالها الحاج لي صنعت تيارات هادرة من الحَيرَة المُدَمِّرة عصفت برأسي فذهب النوم إلى غير رجعه، هل نعوم حقيقة أم سراب؟ ولماذا كل ما بحياتي يؤكده شيء وينفيه آخر؟

خرجت عاقدًا العزم على أن أطيل الجلوس أمام البحر لعلّه يواسيني، وحملتني قدماي إلى الخوض به كالمأخوذ، وسبحت إلى أبعد نقطة ممكنة حتى خارت قواي، فعدتُ للمنزل قرب منتصف الليل وألقيت بجسدي المُنهَك على أقرب مقعدٍ فيه ولحقَتْ بي حنان بعد أن اكتشفت غيابي، فنزلت تبحث عني مذعورة وجلست إلى جواري -بعيون غلبها النعاس- وسألتني بصوت دافئ: ماذا بك يا أحمد؟

ولم أجد ردًا، لا أفهم ما الذي يحدث لي! وما هي تلك النوبات التي تغشاني، الأمور تزداد تعقيداً ولم أعد أعرف بأي المشاكل يجب أن أهتم؟ هل أبحث وراء من أراهم في ذكرياتي أم أركز مع ما ينتظرني وينتظر زوجتي من مصير مظلم.

هي لا تفهم أن بداخلي بركان هادر يطل من فوّهته وحش بشع يشهر أنيابه منادياً: ستقتل زوجتك أيها اللعين، مسكينة هي، تسري عني وتحاول أن

تعيدني الطريق السليم، وربما لو عرفت ما سأفعله بها لتوقفت عن مساعدتي أو بادرت بقتلي.

استهلّت كُتل الغيوم تفتح أكياسها في كرم، وراحت تنزف المطر رويداً رويداً حتى انهمر، ضرب زجاج المنزل بسياطه من كل جانب وثقب بساط الموج بقطراته المسترسلة صانعاً صوتاً يجمع بين الهدير والوقع، صعدنا إلى غرفة النوم، ونامت حنان بعد أن شعرتْ بتحسن حالتي، واصطنعتُ النوم بجوارها، إلاّ أنني لم أفعل، بقيت مستيقظًا، وبعد دقائق غادرت سريري، ووقفت خلف نافذة المنزل أشاهد المطر الذي كان يغسل كل شيء، ذاكرتي مثل قرص عجلة القمار تدور وتدور ولا أعرف عند أي رقم ستتوقف، كل ما أعرفه أنني أتحول في لحظة مباغتة إلى آلة عرض، كأنني انتقل إلى قاعة سينما كل شيء فيها مظلم، إلّا المشهد الذي أكون أنا أحد أبطاله، بعدها تحدث لي حالة انتقال شاملة تتراجع فيها شخصيتي تماما لتفسح المجال أمام الشخصية الأخرى، والتي أعيشها بكل جوارحي وانتقل معها من زمن إلى زمن آخر، وأظل تحت سيطرتها ريثما تقرر ذكرياتي إنهاء العرض، دون أية إرادة مني.

وبمجرد توقف العرض أعود أحمد كما كنت، لكن تبقى إرهاصات الشخصية التي عشتها مترسبة بداخلي، إلى أن يزول خِدرها مع الوقت، أحمد هو الوحيد الذي أتذكر الاخرين في وجوده، والقنطرة التي تتقاطع عندها كل الرحلات.

لازالت السماء ترّشق كلاً من الأرض والبحر بالمطر، والذي تقاطر مثل النثيث، وسال على نافذة المنزل حتى حجب الرؤية، القمر مقبور والليلة حالكة، والأفكار تؤازره وتمطر بداخلي.

هل يبثّني هذا المنزل ذكريات وقصص لأخرين؟ لكن كيف؟ ولماذا هؤلاء بالتحديد؟ لماذا لا أملك ذكريات لغيرهم؟ المنزل سكنه الكثيرون؟ كما أن تلك الفكرة غير علمية، ولا مقنعة، وأنا لا اقتنع إلّا بالمبررات العلمية، وتحديداً فيما يخص الشواهد الواضحة وليس العقائد، ثقافتي بها مزيج من الشرق والغرب بنيتها من خلال قراءاتي في كل صنوف الأدب والفكر و ...

آه ... آه ...

ما هذا الصوت؟

انقض على مسامعي نحيبٌ أسيف لرجل يتعذب أو ربما امرأة، وكان آتيًا من البهو، خرجت من غرفة النوم أتتبعه وكان آخذًا في التصاعد.

آه ... آه ...

هل تحمل العواصف المرسلة ذلك الصوت من بعيد وتلقيه داخل أذني، قطعت سلم المنزل في قفزات سريعة، معلقًا أذني بالصوت أحاول تحديد مصدره، لكن الرعد قصف السماء وشتت تركيزي.

انتظرت في البهو ريثما تنتهي جلجلة الرعد، لكن مع انتهائها ازدادت حدة المطر، وعلا صوته مبددًا أملي في تحديد مصدر النحيب الذي سمعته. رفعت ستائر نافذة البهو أتأمل الحال بالخارج، فرأيت البيت كرضيع وضع تحت الصنبور، السيول تصبُ جامّ غضبها على رأسه وتحرمه حتى من التقاط أنفاسه، كأنها تعذبه ليعترف كذبًا بجريمة لم يفعلها.

يئستُ أن يعود الصوت فقررت الصعود، ولم أكد أضع قدمي فوق سلّمة الدرج الأولى حتى ارتفع الأنين مرة أخرى، رفعت قدمي فزعًا خشية أن أكون

قد دهست شيئًا، وحينها صرخ، وشقت صرخته كل أرجاء البيت، الذي ارتج وكأن قنبلة ألقيت به.

وكان الصوت آتيًا من هناك، من حيث ترقد الماكينة، حملت قنديلًا، ودرت حول البيانو وعبرت الباب الصغير، أغمضت عيني ودخلت الدهليز خائفًا -بسبب تجربتي الأولي معه-ثم هبطت السلم وأصبحت أقف أمام الماكينة؟ ولم أجد أحدًا هناك، وجدت كل شيء غارقًا في السكون والمكان خاليًا تمامًا من أي شيء.

درت حول نفسي في جنون أبحث عن سبب ذلك الصوت ولم أجده، كل شيء هادئ مستقر في مكانه، ولا صوت إلّا صوت المطر، وهدير البحر. لقد اختفى الصوت كأنَّ صاحبه يخشى أن يجهر بآلامه في مثل هذا الطقس الغاضب.

* * *

(١٤- يناير- ١٩٧٧)

على غير المتوقع جاء الصباح هادئًا وكأن السماء أفرغت كل ما لديها أمس وجفّت مدامعها، غير أن صفوف من السحب كانت تمتد عبر الأفق وينسدل من بينها ستارة كثيفة من الضباب.

انشغلت حنان بالأعمال المنزلية المرهقة، والتي استهلكت طاقتها بشدة، وهذا متوقع، لأن ترتيب منزل مثل هذا أمر يحتاج إلى فريق من النساء لكنها كانت ماهرة بحق، وأثارت براعتها إعجابي، كنت أتصور أن فتاة بمثل جمالها وثرائها ستكون مرفهة واعتمادية للغاية لكنها أذهلتني بنشاطها. حتى طاجن اللحم بالخضار الذي أعدته لنا كان شهياً مثلها، وجود فاتنة مثل حنان على سفرة الطعام يمكن أن يوصف كفاتح للشهية بلا شك.

وبرغم اعجابي بها كرجل تتجّسد أمامه أنوثة صارخة بمثل فِتْنَتها، إلّا أنني لا أحمل لها تلك العاطفة المعروفة بالحب، والتي شملتني عندما أحببت سهام ابنة خالتي، فعلى مستوى الإحساس لازال ذلك الحاجز الفاصل بيني وبين حنان لم يرتفع مثله مثل ذلك الضباب المسدل من السماء.

سألتها عن جاسر الحارس فأخبرتني أنه فرّ هاربًا مُذ دخلت المنزل وأقسم أنه لن يحرسه ولا دقيقة إضافية مهما كانت المُغْرَيات، وتذرع بأن المنزل مسكونٌ بالجَانّ.

تذكرت كلماته عندما طلب مني مغادرة المنزل بشكل ناصح وودود:" الأمر ليس كما تظن، أرجوك يا أحمد، ارحل، أنت في خطر ولا قبل لك بما ستواجه، أخشى عليك"

هل كان يعرف شيئًا عمّا سوف يقع لي؟ لكن أنّي لرجل مثله أن يدرك مستقبلي؟

-هل تعرفين عنوانه؟ سألت حنان مستفسرًا.

-تقصد جاسر؟

-نعم.

-لا.

-كيف؟ ألم توظفينه لحراسة العقار؟

-لا كان يحرسه قبل أن تشتريه عائلتي، وأبقيناه في وظيفته.

وكانت مفاجأةجديدةً لي، هذا يعني أن أبي هو الذي عَيَّنه على حراسة المنزل، ويفسر أيضا سماحه لي بالدخول عندما أخبرته باسمي، وأيضًا نصيحته الخالصة التي أسداها لي باعتباره يعرف أبي، لكنّه لا يفسر الهدف من النصيحة نفسها، ولا سبب ادعائه العرج، عدت أسالها: هل كان جاسر أعرج؟

-لا.

بحثت عن تفسير مقنع لتصرفاته، واهتديت إلى سبب واحد، أن جاسر افتعل مسألة العرج لبث حالة من الرهبة حول شخصيته، وذلك لإبعاد المُتطفّلين أمثالي.

قضيت ما تبقى من يومي بغرفة المكتب، أستأنس بالأشعة الباهتة التي تسلّلت من النافذة، وأبحر بين سطور الكتب، وأنا أرشف القهوة التركية الرائعة والتي أعدتها حنان بمهارة تحسد عليها.

السماء التقطت أنفاسها بعد أن تفرقت الغيوم وتبخر الضباب، وأصبح الجو صحواً. يغشى الأسماع فيه صدحُ النوارس الممتزج بهدير البحر، الشيء الوحيد الذي لم يهدأ هو حيرتي، كيف انقلب كل شيء بحياتي رأساً على عقب هكذا، سؤال ربما تعانده كل إجابات الكون، الصوت الذي سمعته بالأمس لصراخ رجل يعذب كان كفيلاً بإيقاظ حي كامل إلّا أن حنان لم تسمعه، أصبحت أشك أنني واهم، إلّا أن ذلك أعاد لي اهتمامي بالماكينة مرة أخرى.

قبيل الغروب جذبت مجلداً متخصصاً في هندسة الميكانيكا، والتقطت اللوحة التي تحمل رسم الآلة والتي وجدتها بنفس المكان الذي عثرت عليها به أول مرة، وهبطت إلى القبو مستأنسًا بالقنديل، وكانت الأجواء مختلفة تماماً، ولم أصب بأي ذعر وأنا أمر من الدهليز الذي اكتشفت أنه مجرد غرفة مستودع تمر طوليًا لما يقرب العشرة أمتار أسفل المنزل.

وقفت أمام الماكينة في حيرة، أنقل بصري بين الرسم وبينها، لازلت لا أفهم الهدف منها، ما السر الذي تخفينه أيتها الشقراء؟

تتأنق أمامي ملساء تبرق بلون الذهب على ضوء شعلة القنديل، واسطواناتها مستقرة، تدور حول نفس المحور المثبت بالأرض، وتدريجها يؤشر على ذات الأرقام دون أي تغيير، جال بخاطري أن أجرب رقماً جديداً وأديرها، لكنني تراجعت، أعترف بأنني أصبحت أخشى تلك الخطوة، لن أعبث بها وأدخل في مغامرة غير مأمونةٌ العواقب، ربما نقلتني إلى المستقبل لأستيقظ وقد قتلت حنان، بدت الخاطرة الأخيرة مخيفة وبشدة، ودفعتني بالنهاية ألّا أجازف، سأصبر ريثما أفهم، هكذا قررت.

عدت أدرجي بعد أن أصابني الإرهاق وكذلك حنان وأوينا إلى فراشنا ومرت الليلة بسلام.

* * *

(١٥- يناير- ١٩٧٧)

عند الرابعة عصراً حملت كرسي البحر والمِظَلَّة وحاوية أدوات الصيد ومشيت تجاه الشاطئ، كان قُرص الشمس القرنفلي قد توهج بالسماء وغشي الأفق، معلناً بسط نفوذه على الحياة هنا بتلك المنطقة المنعزلة من الساحل، ما أفعله يبدو جنونيا بالنسبة لآخرين، فأنا مُقبل على قتل زوجتي، ومن في مثل حالتي لن يغامر بإضاعة دقيقة من عمرة، بل سيغتنم كل لحظة فيها للحيلولة دون حدوث تلك الجريمة، لكني كنت في أمسّ الحاجة لاستعادة تركيزي، في حاجه للاتزان، للاستفاقة الكاملة، والصيد هو الحل، الصبر سيمنحني ما أريد، الإرهاق والحشد الذهني الذي أعانيه باستمرار، وتصارع الأفكار بداخلي كفيل بإصابة ذاكرتي بخلل شديد، لن يعالجه إلّا حالة من الصفاء والهدوء، بعيدا عن ضجيج التساؤلات التي تستهلك طاقتي استهلاك القاطرة القديمة للفحم، لابد أن أتوقف عن التفكير قليلا، وأعتبرها استراحة محارب أتزود بها لأكُمل رحلتي مع مصيري المنتظر.

توقفت عند حافة الشاطئ، حيث كان زَبَد البحر يلاعب الرمال المغسولة برغوته، وقمت بدق رمح المظلة ثم حفرت بعمق وثبتها جيدا، ولمّا انتهيت فردت الكرسي تحتها، وأخرجت الطعم من الحاوية، ولقّمت خطّاف السنّارة بقطعة من الجمبري الصغير، والذي كان طازجا وخادعا بشدة، ويوحي بأن الأسماك ستلقمه في ثواني معدودة.

رفعت الصَّنَارة للخلف من فوق كتفي ثم طوّحتها للأمام بقوة محررًا الخيط الذي طار بعيدًا، ثم سقط بالخطاف في نقطة عميقة من الماء، وبدوره طفا الغمَّاز الأحمر الكبير فوق الموج الذي راح يسبح به بعيدا، رفعت رأس الصَّنَارة لأعلى، ثم لمَّمت بكرة الخيط مثبتاً موضع الغمّاز حتى أصبح الخيط مشدودًا كالوتر، وأصبح جاهزًا للصيد، فغرزت يد الصُّنارة بين مقعدي والحاوية وجلست تاركًا قبعتي الصغيرة تنزل على وجهي، وفردت قدميّ عن آخرهما في استرخاء، وانشغلت أتابع اهتزازات السن كل حين.

طال الوقت دون أن يَخْفِقَ سن الصَّنَارَة، واستمر هواء البحر البارد يلفح وجهي حتى ثملت، ورأيت البحر يزداد أمامي تموجا وانحني الخط الأبيض الفاصل بين السماء والبحر، انبعج قرص الشمس مثل مح بيضة مكسورة، وغشت بصري غيمة بيضاء كثيفة طافت بالموج فهدأ وتحول البحر المصطخب إلى بحيرة هادئة تسرح مد بصري، وينمو على ضفافها العشب وتقف بها طيور اللَّقْلَقُ على قدم واحدة، وتحلق فوقها النوارس وعصافير الجنة.

بدأت أسمع صوت خرير الماء وتغريد العصافير، وأشمُّ رائحة البحيرة الرطبة وندى عشبها اليانع، كانت بحيرة مربوط، وكعادتي حضرت قبل مليليا لأستقبلها، آويت إلى ظل شجرة وارفة هرباً من شمس الظهيرة المُتَوَهِّجةُ، وجلست مسنداً ظهري إلى جزعها المتين، تلفني أحضان السكون، ويؤنسني صوت العصافير الهاجِعة التي غاصت داخل أجنحتها ودفنت مناقيرها تحت بطونها لتَقِيل فوق أغصان الشجر، وعلى الجانب الأيسر من مكاني وبمحاذاة بحيرة مريوط كانت تجري ترعة كانوب متعرجة عبر المدى، تشق الأرض الخضراء بمائها العذب الرقراق وعلى ضفافها المزدهرة الزاهية يتنشر الكروم الأحمر البديع وأشجار البرتقال والليمون، سرحتُ في بساطها

الذي يحمل طيور الإوز البري والبطّ الملون وهي تنساب فوقه وتثقبه بمناقيرها كل حين باحثة عن طعام، ومن حولها تنبض دوائر متتابعة بثّني ذكريات مريرة عن شطر عمري الهارب بوجعه وهزائمه. ناجيت الماء أساله عن مستقبلي المجهول، يا من تصل الأحبة وتُلقَىْ في قلبك تعاويذ الأمنيات ألا ترحم عزيزا ضلت به الخُطى؟

أما يكفيك أنك حملتني على وجهك مثل شراع قديم ممزق أو زَبَد هالك على حافة صخرة ملساء؟ ليتني هويت إلى قاعك صَدَفةً ضالّة وما نجوت فارساً مقهور الوجدان، مننت عليّ منة البَغايا على النُبلاء بحياة يملأها الكدر، يطول عتابي ويطول تجاهلك حتى صرت مهيض الجناح.

أخرجني من مناجاتي صوت عربة تتوقف فاستدرت ورأيتُها تهبط منها، حبيبتي ملينيا، خفق قلبي طرباً لمحيّاها، وحده وجهها يطفو بي حين تغرقني الأحزان، اقتربت مني في دلال وابتسمت بثَغْر مشرق يبعث على البهجة وقالت: كيف حال فارسي؟

اندفعت ملهوفاً نحوها وعانقتها وكأني استعيد الأمان المفقود، وتوسدت صدري برأسها تضمني باشتياق، ثم تشابكت أيدينا ومشينا على حافة الموج الذي كان ينسحب خجلاً من عاشقين تجاوزا السماء عشقا.

ولمحت صدفةً تشبه نصف هلال فالتقطتها وعلقتها في العقد الذي يتدلى من عنقها المَرْمَرِي، وضمّت العقد إلى صدرها بحرارة شديدة، فتسللت لي الغيرة، وقالت ملينيا في عاطفة: لن أخلعه حتى الموت.

وضعت يدي على كرز شفتيها حتى لا تأتى على ذكر الموت، فأزاحت يدي قائلة في غنج: أيَخجِلُ بطل مثلك من ذكر الموت؟

- أنا لا أخشى على نفسي بل عليكِ، لو نفذ سهم الموت إليكِ يوماً، سيخلع مع ضربته حبة فؤادي.

-أتدرى يا حبيبي لماذا يَهَابُ الناس الموت؟ يخافونه هرباً من الوحدة وأنا لا أعرف مذاقها منذ التقيتك، بجوارك لا أخشى شيئا، ولا حتى الموت، فهو لم يعد يرهبني، همة الفرسان فيك تجعلني قوية، وجريئة عليه.

اختنقت بداخلي الكلمات، وقلت وكأنما روحي على طرف لساني: كم أشعر بالذل وأنا أجعلك تهربين بدلا من أن أمنحك مفاتيح القصور، تستحقين أن أخضع الممالك صاغرة أمام أهدابك الساجية، لكن ها أنا ذا أفر مثل جرذ حقير لا يعرف طريقاً إلا أنفاق الأرض المهجورة التي لا يزورها نور ولا يحفل بساكنيها أحد، لا أدري بأي عار موصوم أنا، وبأي تعويذة لُعنتُ!

أجابتني وهي تحتضن ملامحي بنظرة حنان: لا تتحدث هكذا أنت فارس وستظل أميري وسيدي، وأنت أعلم مني أن الحرب سِجَالٌ وخسارة معركة لا تعني الهزيمة، وحديثك اليائس هذا يمزقُ شرايين قلبي، ويلقي بي في أرض خَلاء تائهة بلا سند، أعلم أنك أشجع الشجعان، ولكنه القهر يا سيدي، وضربات القدر التي تنال منّا من حيث لا ندري، أرجوك ابق لي شُعْلة الأمل التي تُنير لي ظلمات روحي.

وجدت في كلماتها بلسمًا شافيًا لتلك النّدُوبِ الغائرة في جدار عمري، وأسندَتْ رأسها إلى كتفي فآثرت الصمت، وكتمت وجعي لكيلا أنزع آخر نبتة أمل في نفسها، مثلها لا تستحق أن أزرع خنجر خوفي في دمائها، بل تستحق أن أروي زهرة إحساسها من فيض حبي.

غَيرتْ دَفَّة الحديث وأخبرتني عن رغبتها في زيارة العرّافة وحاولت إثنائها ولكني عجزت، غلبتني سهام دلالها النافذة إلى حنايا الفؤاد، ومشينا معًا نحو القارب الذي سيحملنا إلى الضفة الأخرى حيث كهف العرافة.

وكان القارب ينتظر عند حافة البحيرة مضطجعًا في خمول على جانبه الأيسر وكأنه يستريح من حر الظهيرة، دفعته هوينا إلى بِساط الماء، فَشَقَه وتهادى على سطحه إلاّ حافته المحدبة والتي بقيت تشرف على اليابسة.

ارتقيت القارب في خفه ومددت كفي لملينيا فاستندت عليها وارتكزت بقدمها الصغير على حافة القارب وهي تلَملم ثوبها بأناقة ثم صعدت لتستقر بداخله.

شرعت أجدف، وانساب بنا القارب عبر بساط الماء، وراح يترك ظلاله على خَدِّ الموجات الهادئة، التي كانت تلمع تحت قرص الشمس البرتقالي في زهو واعتداد، وابتعدنا حتى غابت الأرض، واحتضنتنا البحيرة من كل جانب وتغير لونها الفيروزي إلى الأزرق الداكن، وأنا جالس إلى مقعد التجديف وهي أمامي، تظللنا السماء الصافية ويداعبنا النسيم العليل، تصحبنا أجنحة طيور النورس محلّقة فوقنا، تغني وتغرد وهي تناجي الموج الذي كان يلاطف قاع القارب، أن يا موج كن رفيقاً بالعاشقين، فيستجيب لها بشجن ويعانق مجدافينا.

ملأت عينيّ بنعيم الجنة الذي أراه أمامي متجَّسداً في وجه ملينيا الصافي المنير، وخلفها يمتد الموج الأزرق معانقاً السماء عند المدى، لم نتكلم، فقط تلاقت أعيننا، وباحت بكل ما في دواخلنا من إحساس، لم أتصور يوماً أن الصمت قد يحمل كل هذا الفَيْض المُتدفِّق من المشاعر الدَافِئة والحب الجارف، هي أيضا كانت تَبُثني الشوق عبر صدرها الذي كان ينبض بالحب،

يرتفع ويهبط مع خفقات وِجْدَانٍ عاشق، وفؤاد يتمنى اللقاء، ليتني أطير معها ونهاجر مثل سرب الإوز البري التي يعبر فوق رؤوسنا الآن، نمتطي السحب ونلتحف السماء و نقتنص من معين الزمن لحظات لا تنضب من السعادة، بجوارها أكون مثل طفل يركض في رياض طفولته ولا يبالى، إن أجمل ما في الحب أنه يحرِّر ذاك الطفل الذي يعيش داخل روحنا ويترك له العنان لأن يمرح ويخرج كل طاقته ليَشعَّ بها للآخرين، يمنحهم البسمة، والبهجة ونقاء الروح، أومنُ أن الشيخوخةَ تستمدُ طاقتها من طيفِ الطفولة وأن سرَّ الحياةِ يولد بين ثغري طفل ضاحك.

نسيتُ في صحبتها كل شيء، فالمكان عندي حيث هي، والوطن إلى جوارها، عند حيزها ومع رائحتها وبصحبة دقات قلبها. يكفيني ابتعادنا عن أي نظرة مسمومة أو آذان قد تتطفل على همساتنا، نهلنا من نسيم الحب كيفما طاب لنا، ومرقت شمس الظهيرة مثل برتقالة ناعسةً تبتسم في حنان، وتغافلت عنى حينما توقفت عن التجديف قليلاً، وجلستُ بجانب أميرتي و أسندت رأسي لكتفها، تاركًا عمري كله يغفو مستريحاً من كل شقائه، ودّعتُ معها كل خفقة خوفٍ أوجعتني يوما، ورشفت كأس الطمأنينة عن آخره، حتى أقبل العصر يتهادى مثل موجة رائقة، وحمل النسيم خصلة من شعر ملينيا فمسَّت وجهي مساً خفيفاً أفاض بداخلي كل موجات الهوى، ثم عدتُ لأجدف عندما غفت هي لمّا مسّ النسيم وجنتها، وبقيتُ على حالي حتى اقتربت ضفة النهر الأخرى و حل الغروب، وشحب الأفق.

أفقت على سقطة عنيفة لصِّنَارَتي فوق حاوية الطُعْم، فانتفضتُ وتملّكت مِقوَدها سريعاً قبل أن تُجرَّ إلى البحر، كان الخيط يُشَدُ بقوة وشعرت أنه سيتمزق وسن الصِّنارة منثنيّ عن أخره، ثمة صيد كبير قد علِقَ بالخطاف وينتظر شدّتي، حاولت أن ألم الخيط بكل ما أوتيت من قوة فعجزت، وراح

الصيد يدور بالخيط دورة دائرية في البحر، ثم جذب الغمّاز وهبط به إلى القاع وشدّني معه، اندفعت رغمًا عني وخضت البحر، وآلمني ذراعي وأنا أحاول سحب الصيد. كان يجبرني على التحرك للأمام مع ذراع السنّارة، ولكني قاومت بشدة وقصّرت طول الخيط لأقصى حدٍ ممكن، حتى أصبح مثل وتر قيثارة، وبدأت أرفعه لأعلي ومع رفعتي، طلّت من فوق الموج بعض الأعشاب البحرية الخضراء ولمع من بينها ظهر السمكة الفضي بالمياه الداكنة، علمتُ لحظتها أن السمكة سحبت خطاف صنّارتي ليشتبك بالعشب، فأخذت أخضّ السنارة العالقة يميناً ويساراً محاولاً تخليصها ولا فائدة.

ثبّتُ ذراعها بالرمال، وخلعت ملابسي، ثم اخترقت موج البحر الفَيْروزي، وتحملت صدمة برودته، وسبحتُ إلى الغمّاز، وبوصولي عنده قلبتُ جسدي رأساً على عقب بانسيابية وغطست أضرب الماء برجليّ مُتجهاً للقاع، لاستكشف ذلك الشيء الذي علق به الخطاف، ولم أصدق ما أراه، كان ما ظهر لي بالعمق خياليُ وصادم، يستحيل وجوده بالبحر، ولا بأي مكان آخر بالحياة البحرية، انتفضت واتسعت عيناي رعبًا حينما رأيته يتقلب أمامي أسفل العشب، وانفلتت مني صرخة مكّتومة أسرعت بعدها أخفق الماء بذراعيّ لأصعد إلى السطح سريعا، ولم آنس إلّا حينما تبدّت لي بقعةَ الغسَق وهي تسطَع من تحت بساط الماء حاملةً ليَّ الأمان، وارتفعت نحوها حتى وصلت السطح فاخترقته برأسي وشهقت وأنا أملأ رئتي بالهواء البارد.

اندفع هواء البحر يشق صدري مثل نصل خنجر آلمني بقسوة، كنت أحاول استيعاب الصدمة فما رأيته يعلق بخطاف الصنّارة كان أكثر ما يمكن أن يُخيف إنسان بهذه الحياة، كان جمجمة، جمجمة بشرية، بقيتُ طافياً على السطح، ألهج بآيات من القرآن إلى أن سكنتْ نفسي، وزغت ببصري قليلاً

أسترجع ما رأيته، كيف يوجد شيء مثل هذا بالبحر؟ عاد فضولي ليواصل حصاره لقلعة تفكيري، وهزمني عنادي، واتخذت قراري بالغوص مرة أخرى، لا بسبب الجمجمة. لكن بسبب ما رأيته يستقر بقاع البحر، لمحت سلسة غليظة من الحديد تَتَلوَّى مثل ثعبان بين أعشاب البحر المُنتثِرة فوق تبات رمال القاع.

غطستُ إلى القاع المجعّد، وحينما وصلته حررت السمكة التي نفضت نفسها هاربة كالريح، وأزحت الجمجمة بطرف أصابعي فسبحت بعيداً عني، ثم تتبعت السلسلة فوجدتها تتصل بأسطوانة من الحديد قطرها يزيد عن متر وتسد فتحة ما بقاع البحر. لم أجد معنى لوجودها بمكان مثل هذا، إلاّ إذا كان وراءها سر ما، استقمت وغرزت قدمي بالرمال ورحت أجذب السلسة مقاوماً جرف تيارات الماء لي، لكنها كانت قاسية وغليظة، وزاد من مناعتها الضغط الشديد فعجزت عن رفعها، كانت مثل سَدّاد الحوضِ المطاطي عندما يمتلأ بالماء.

صعدت إلى السطح مرة أخرى فوجدت الليل يغزل خيطة الأسود بالأفق وسبحت إلى الشاطئ ومنه للمنزل، نزلت إلى السِرْدَابِ وأحضرت مِطْرَقة واسطوانة أكسجين صغيرة، وعدت لأسبح باتجاه الغماز، وعندما وصلت إليه وضعت قناع الأكسيجين على أنفي وغطست إلى حيث تستقر الأسطوانة، فرّقت بين قدمي بمسافة خطوتين وغرزتهما برمال القاع ورحت أضرب حوافها بالمِطْرَقةِ، وخرجت الضربات واهنة بفعل كثافة البحر، لكنها بدأت تؤتي ثمارها بالحواف الصدئة التي راحت تتفتت على إثر الطّرقات، ولم أكن أحتاج لأكثر من ذلك، واصلت طرقها إلى أن تحررت الأسطوانة، فأمسكت السلسلة بقبضتي، ثم بدأت أشدّها بعزم حديدي حتى انفتحت كاشفة عن نفق قديم، وكما الدخان اندفع الماء العَكِرَ يصعد

من النفق ويمتزج بماء البحر صانعاً ما يشبه الرغوة البنية. ابتعدت قليلاً عن ذلك الصديد. ثم عدت وانسللت داخل الحفرة بجرأة. كان أمراً جنونياً لكنني كنت قد وصلت إلى أقصى درجات الفضول لمعرفة ما يقود إليه هذا النفق، وكان الماء بداخلة بارد كالثلج وأبرد بمراحل من ماء البحر المُتجدِّد. وكنت أنتفض وأنا أنساب بجزعي بين أركانه الضيقة مستنداً إلى جدرانه المُغَلَّفة بالطحالب والمنتشرة بها رائحة العطن.

وانعطف بي النفق مرتين يميناً ويساراً واتسع قطره حتى وصلت إلى آخره، وكانت بانتظاري مفاجأة غير سارة. كان النفق ينتهي بأسطوانة أخرى تبدو مثل بوابة مستديرة، لكن بلا سلسلة وتفتح من الجهة الثانية. حاولت فتحها، لكن لا أمل، عدت من حيث أتيت وأغلقت الأسطوانة الأولى ثم صعدت إلى السطح، وخرجت إلى الشاطئ غارقاً بالماء الذي كان يقطر بين حنايا جسدي. نزعت أسطوانة الأكسيجين الصغيرة وتوقفت قليلاً متكئاً بذراعيّ على ركبتي ألتقط انفاسي. فحصت ساعتي لمعرفة الوقت، فاكتشفت أنه قد مر قرابة ثلث الساعة. وبحكم أن الزمن هو المسافة ومع مراعاة بطء الحركة أثناء السباحة. فذلك يعني أن النفق يمتد إلى بقعة ما تقع هناك، أسفل المنزل. وهذا يقودني إلى احتمال منطقي واحد، أن ذلك النفق يستخدم للصرف.

لَّملمت أغراضي ومشيت أمخر الرمال عائداً إلى المنزل ورفعت رأسي أطالعه فوقع بصري على ظل كثيف يقف خلف أحدى النوافذ المواجهة للبحر مباشرة، ويراقبني في صمت.

عدت إلى المنزل فزعاً. وطرحت الأدوات أرضًا، ثم صعدت إلى غرفة النوم ودخلتها لأجد حنان جالسة إلى الكرسي الهزاز وبين أناملها يستقر كتاب أعرفه جيدًا. مسرحية يهودي مالطا. اقتربت منها شبه متسللاً، والماء لازال

يقطر مني على الأرض الخشبية، وأحست بي فالتفتت وتهللت أساريرها حينما رأتني، وقامت عن الكرسي بلهفة ومنحتني عناقاً حاراً -بلل ملابسها وهي تشّب على أنامل قدميها ثم قالت مبتسمة: هل استمتعت بالبحر؟!!!

رميتُ المسرحية التي بين يديها بنظرة شَّكّ وقلت: لحدٍ ما؟

-أين هو صيدك إذًا؟

-لم أرْزَقْ بشيء هذا اليوم، ربما في يوم لاحق.

-لا عليك الصيد يحتاج إلى الصبر.

-نعم أصبتِ.

- على أية حال ستحتاج إلى الاغتسال من ملح البحر فورا. قالتها وأحضرت لي منشفة وملابس جافة، ورتبتها داخل غرفة الحمام، وقالت وهي تمنحني ابتسامة رقيقة: الحمام جاهز يا حبيبي.

-أشكرك.

-سأذهب لتحضير العشاء ريثما تنتهي من اغتسالك. إذا احتجت شيئاً ناديني.

-سأفعل.

وهبَطَتْ إلى غرفة المطبخ، تاركةً لي تساؤل مُرَيِّب! لماذا هذه المسرحية تحديداً؟ هل هي مجرد مصادفة؟ الشكّ يحاصرني حصار الجيوش ويأسر أنفاسي. جَمُدْت في مكاني للحظات أصوب بصري تجاه نافذة غرفة نومنا، ثم ودون أن أشعر تحركت متصلبًا حتى أصبحت أمامها وفتحتها فاندفع الهواء البارد يغشاني، مددت رأسي أتطلع خارجها وأدرت وجهي يميناً ويساراً

حتى تأكدت، كانت هي، النافذة التي تفتح بمنتصف المنزل تماماً، والتي رأيت الشبح الغامض يراقبني من خلفها، وهذا له احتمال واحد، أن منْ كانت تراقبني هي حنان، زوجتي ... أو التي تَدَّعي أنها زوجتي.

بالحمّام وقفت تحت سيل الدُش الكثيف، عارياً إلّا من أفكاري ولحظات شرودي، الماء يضرب جلدي بخيوطة المتواصلة محاولًا إنعاش ذهني المتصلب، وينسج شرنقة من القطرات الندية على جسدي لإحياء عمري المتيبس. يعشق الماء الأجساد تماما كما تعشقه هي، وربما أكثر، يزهو فرحًا حينما يمرح بين حناياها، هل يمكن أن نغسل أفكارنا فتعود بريئة كما نغسل أجسادنا فتتطهر؟ احتاج إلى تَنقّية ذكرياتي لأزيل عنها ما رانْ من خَبَث، وأنظفها من كل أدران تفكيري المنحرف، فتعود ناصعة نقية وأرى ما أخفاه عني وحلها المتجلّد طوال تلك السنوات، لازالت بقايا هويتي العالقة بها تتَشَبُّث بأنفاس أخيرة رغم أن الغرق يحيطها من كل جانب، ولا أيادي تمتد لها داخل ذلك الخِضَمُ الثائر من المجريات، والكل يغمس رأسي بالماء لتغرق بذكرياتها بأفكارها بملامحها المُشوُّهة وكآبتها السوداء.

أنهيت حّمامي وخرجت بملابس جافة، وعدت أتطلع من خلف النافذة إلى البحر الذي كان زَبَده يفور على الرمال، وسرحت معه، فورانه يماثل ما بداخلي من تساؤلات تطرح نفسها على شاطئ عقلي، وتصيبني بصداع مرير، التفاصيل المحيطة بي أكثر ازدحامًا وصخبًا من الموج، أنا منطوي على نفسي منذ زمن، وروتيني للغاية، يرهقني بشدة أن يضجً عقلي بكل هذا، جريمة أبي الماضية وجريمتي المستقبلية، زواجي الغامض، ملينيا وبانثيوس ، نعوم ... أمور من المستحيل أن يربط بينها إلا شيء واحد ... الجنون و ... ما هذا؟ ...

ما الذي تفعله حنان؟ لماذا تمشي تجاه البحر هكذا في البرد؟ وبخطواتٍ مُتَصلِّبة؟ وما هذا الشّال الأخضر العجيب الذي يحيط كتفها؟ لا أذكر أني رأيتها ترتديه من قبل، ماذا تظن نفسها فاعلة؟ مستحيل، إنها تخوض البحر وبطريقة جامدة، وكأنها ... كأنها تنتحر.

أربكني تصرفها ولم يكن أمامي إلّا حل واحد، فتحت النافذة ليرتطم الهواء البارد بوجهي واعتليت إطارها وقفزت ومن الدور الثاني، ارتطمت بالرمال في عنف، والْتَوَى كاحلي، وتدحرجت عدة مرات، ولكني تحاملت واستقمت ثم ركضت ناحية البحر وأنا أناديها بعلوّ صوتي، وقد بدأ ماء البحر يغمر جزءها

-حناااااااااااااااااااااااااااااااااان ...

كررت ندائي مرات ولم تلتفت، خضتُ الماء متأخراً بعد أن بدأ يغمر عنقها، وسبحت خلفها بجنون معلقًا بصري بالسطح حتى اختفى رأسها، غصت في الأعماق عائِماً كالضفدع أحاول رؤيتها، لكن القاع مظلم ولا أرى شيئًا، أنَّ صدري من المعاناة، وفتَّشت الماء حولي بجنون حتى انهار ذراعي والتهبت حواف عيني من الملح، خرجت أجرّ قدميّ المنهكتين ناحية المنزل لإحضار الكشاف ومعاودة البحث، لا يمكن أن تكون انتحرت! لماذا تفعل ذلك، لماذااااااااااااا؟ فرت مني دمعة وجع اعتصرتها آلامي التي يجيش بها صدري، عبرت الحديقة الأمامية ونهبت درج المدخل وأنا أسقط على يدي، ثم دفعت الباب على مصراعيه، وتجمّدت.

اتسعت عيناي عن آخرهما، وشعرت أن قلبي سيتوقف عن النبض! لقد كانت حنان أمامي تُعدُّ أطباق العشاء على السفرة في هدوء، وبملابس جافة تماما، وتضع ذات الشال الأخضر، بل وجَفَلتْ حينما رأتني اقتحم الباب

مندفعًا وغارقاً بالماء وصاحت وهي تضع يدها على فمها: أحمد؟ ماذا حدث؟ ومتي خرجت من المنزل؟ وما الذي بلل ملابسك مرة ثانية هكذا؟

ولم أجدْ ما أقوله، أفقدتني الصدمة اتزاني لفترة ليست بالقليلة فانعقد لساني وزغت أحدق بها بعيون زجاجية لا تحرك رمشًا، أراها في صورة ضبابية مشوَّهه وصوتها يكلمني من بعيد، بعيد جدًا... أحمد ... أحمد ...

لماذا تلعب حنان معي تلك اللعبة؟ هل تدفعني للجنون؟ لكن لماذا؟ ما الذي تطمع به؟ أم أنا واهم؟ استعدت تركيزي على صوتها وهي تربت على ظهري وتهمس: أحمد ماذا بك؟

-ها؟ لا شيء،

جذبتني من ذراعي برفق وقالت: حسنًا، لا عليك تعال معي؟

تبعتها وأثر الصدمة لازال يعصف بي، وصعدت وبَدَّلت ملابسي ثانيةً ثم عدت لأجلس إلى جوارها على رأس طاولة العشاء، أرمها بنظرات مليئة بالشك و بداخلي صراع شرس، إن كانت حنان لم تغادر المنزل! فمن هي التي رأيتها تنتحر غرقًا؟! وإنْ كانت حنان قد خرجت بالفعل، فكيف سبقتني ورجعتْ وأعدت الطعام وبَدَّلت ملابسها! أم أنني لم أشاهد شيئًا من الأساس؟ لم أحصل على إجابة ولم يكن أمامي إلّا أن أتجاهل الأمر، وكأن شيئاً لم يكن وهذا الحل كان صعبًا واستهلك مني ما لا يقل عن ثلثي الليل فسهرت أطبخ شكوكي وحيرتي داخل قدر القلق على مهل حتى احترق طعام أفكاري ونمت.

* * *

(١٦- يناير- ١٩٧٧)

أيقظني صياح النوارس الذي كان متواصلًا وصاخبًا وكأن معركة تدور بالخارج، ما الذي أصاب تلك الطيور المزعجة!؟ هل حل موسم التزاوج!؟ تساءلت وأنا أغادر سريري متجها للنافذة، وتثاءبتُ وأنا أزيح ستارتها وصوبت بصري ناحية الشاطئ ولم أصدق ما أراه، لدرجة أنني فركت عيني لأتأكد، لقد كانت النوارس تحطُّ على الشاطئ مفترشة الرمال الرمادية مثل اللآلئ البيضاء وكانت منشغلةً بنقر طرح البحر والذي كان بعضًا منه ينتفض تحت أقدامها.

هرعتُ حافياً أنهب الدرج، ودرت حول المنزل أركض تجاه الشاطئ، ومع وصولي طارت مجموعة من النوارس في هَبةٍ واحدة، وهي تصيح غاضبةً من حيلولتي بينها وبين وجبتها الشهية، بينما بقيت مجموعة أخرى غير مكترثة بمجيئي.

رأيت عدداً كبيرًا من الأسماك الميّتة مسجى أمامي على الرمال، وبسائر أنواعها المعروفة، دُرتُ حول نفسي أتأملها مندهشًا، ما الذي قتل كل هذه الأسماك؟ هل تستخدم إحدى مراكب الصيد المتفجرات؟ غمرني إحساس غامض بأن لذلك علاقة قريبة بما يجري لي، انتقيت إحداها وهرعت إلى المنزل، قفزت داخل ملابسي، وخرجت قاصدًا فحص العينة لمعرفة السبب، وفي غضون نصف ساعة كنت أجلس بأقرب معمل منتظراً نتيجة تحليل

السمكة الميّتة، وانتظرت كثيراً حتى جاءتني النتيجة بين راحتي الطبيب: الأسماك تعرضت للتَسَمُّم. قالها بشكل حاسم.

-تسمم!

قفز إلى ذهني لحظتها مشهد الرغوة البنية حين اندفعت من النفق الذي فتحته وعكرت الماء، وتسرب لي القلق فطلبت من الطبيب فحص عينة دم لي، وبالفعل تم سحب العينة واختبارها وعاد الطبيب بعد وقت طويل أيضًا بالنتيجة وكانت سلبية. حمدت الله أنني لم أصِبْ بسوء، ما سر هذا المنزل المُريب!؟ نفق مُسَمَّم تحت منزلي؟ لماذا؟ انتقلت من معمل التحليل إلى محلات العدد الخاصة بأدوات الصيد وتسوّقت منها كل ينقصني للصيد.

وقرب المغرب عدت حاملاً الأدوات، ودلفت إلى المنزل بهدوء لأجد مقطوعةً حزينةً تنثر أنغامها داخل البهو، كانت حنان تجلس إلى البيانو مثل أميرات العصور الوسطى، تَرفَل في منامة بيضاء مخملية زادتها سحراً وفِتْنة، وتعزف على ضوء الشموع الذي كان يصنع حولها هالة نورانية من الذهب.

راقبتها في صمت احترامًا لفنها، وملأت عيني بها وهي تهيم مع لحنها بعينين مُسْبِلتين، وأناملها الرقيقة تعانق أصابع البيانو في اشتياق، فتتصاعد دقاته لتمس شغاف قلبي وكأن إيقاعها ولد داخل نبضي، كم هي رائعة، فنانة حقيقية، تلعب مقطوعتها وكأنها جزء منها، فكرت في أن أضمها، أبثها الحنان الذي كان يجيش في صدري تجاهها في تلك اللحظة، لكني آثرت البقاء بعيداً، كي لا أفسد عليها متعة الإبداع.

سرحتُ بذهني مع اللحن، ورحلتُ إلى عالم حالم من الصفاء والراحة، لكن شيئًا كريهًا عكرّ مزاجي وقطع متعتي، تسلل إلى رأسي صداعٌ مفاجئ ومتناقضٌ بشدة مع النشوة التي كنت أحس بها؟ حاولت دفعه بعيدًا

فعجزت، جِدّته كانت تتنامى وعضّة أنيابه لجانبي رأسي تزداد قسوة، أصبحت هشًا وبشدة، بل على شفا الانفجار، وكأن جمجمتي ستتشقق وتنفجر، وفي غضون ثانية تشوّه كل شيء أمامي، بما فيها وجه حنان الذي صار بشعًا تدور حوله عاصفة عاتية من الملامح المختلطة، وتحول اللحن الشجي إلى معزوفة كئيبة تقبض القلب، كما تخلت حنان عن هيامها وماجت تترنح بجموع مع العزف، وتشنّجت أصابعها بشراسة على مفاتيح البيانو حتى صرخت أوتاره تحت أناملها بنغمة نشاز، ضج بها البهو وضاعفت من الصداع الذي يعتريني، ولم تسكت إلّا بعد أن رفعت يدها عنها بحدة وقطعت العزف.

ساد الصمت للحظات تخلصت فيها أوتار البيانو من آلامها، وتجمّد فيها المشهد تماما، بقيت حنان جالسه إلى البيانو وذراعيها مرتخيين ومسدلين بجوارها وأنا أراقبها من بعيد وهالة النور تتراقص على الجدران والظلام من حولها مسيطر، وتماثيل البهو متحفزة، وطال السكون حتى ظننت أنها لن تتحرك أبدا، لكنها تحركت، رفعت ذراعها ببطء وأشارت بسبابتها ناحية الباب الصغير، وظلّت تشير إليه مليًا، ثم قامت من على كرسيّها لتدور حولَ البيانو، وهي تخطو بقدم وتجرّ الأخرى، وبعد عدة خطوات قصيرة أصبحت أمام الباب، فدفعته بحدة، ودلفت وصفقته خلفها بعنف، وصرختْ وبجنون، أغلقت مسامعي من شِدّة صراخها الذي امتد داخل أذني مثل ضجيج لا متناهي يضيع في الفضاء، وانقطعت عن عالمي لفترة لا أعلمها حتى عاد صوت المعزوفة التي كانت تدق أنغامها داخل البهو يرتفع من جديد وحنان جالسة كما هي تكمل عزفها، لم أفهم شيئاً! كيف غابت إلى داخل النفق ثم عادت لتجلس في مكانها هادئةً كما كانت.

أنهت العزف بلمسة رقيقة، لتنتزعني من شرودي، ودارت على الكرسي لتتفاجأ بوقوفي الصامت في الظلام، جفلتْ وقالت: أحمد؟ منذ متى وأنت تقف هنا؟

-منذ قليل.

اقتربت مني وضمتني وقالت: حمد لله على سلامتك.

تمالكت نفسي وجاملتها: عزفك رائع.

توردت وجنتاها خجلا من إطرائي وقالت: أنت ملهمي. وارتفعت زوايا شفتيها لتمنحني ابتسامة رائعة، وأخذت كفي ووضعتها على صدرها، وكان يخفق بشدة فسألتها.

-أنت مرهقة؟

-لا، بل هذا نبضي يعزف لك. تنهدتُ وأبعدتُ كفي وسألتها مغيرًا دفة الحديث: أي مَعْزَوَفَة تلك التي لعبتها؟

-أحد افتتاحيات "شوبان".

شعور غامض بالألفة خالطني مع اسم هذا العازف العالمي، وكأنني أعرف تلك المقطوعة أو سمعتها تُعَزف من قبل في ألمانيا، لكني، ومنعًا للاسترسال في الحوار، نفضت رأسي معلناً النفي وصعدت للنوم.

دعوت حيرتي إلى ركنٍ متروٍ من غرفة نومي، ورحت أسامرها على ضوء القنديل الشاعري، عسى أن يلطف ذلك الأجواء بيننا. ناضلتُ أيُنُها سهادي، وكابدتُ ترهقُني سَهَرها. أنفقتُ عليها كل ما أملك من قطع الليل السوداء حتى تمنحني إجابات لما أعانيه، وأفلستُ ولم ترضى، احتسينا نبيذ الأرق، وتجاذبنا أطراف المعاناة، وقرعنا كؤوس المَهَل، وفي كل مرة كنت

أحاول أن أسكِرها لتحكي، فتتغافلني وأغيب أنا عن وعيي، وتعود هي بي لذات التساؤل الذي يقضُّ مضطجعي، لأكثر من مرة أشاهد حنان في أكثر من مكان وأكثر من هيئة بذات الوقت؟ المرة الأولي كانت تنتحر غرقًا ثم عدت لأجدها بالداخل تعد العشاء، والمرة الثانية كانت تعزف ثم غادرت وعادت دون أن أفهم كيف؟ هل يعني ذلك أن المشكلة ليست فيها، بل فيما أشاهده أنا؟ وأنني أعاني من أوهام وضلالات؟ أم أن شيئًا ما يعبث برأسي؟ يئست من الحصول على تفسير مقنع فمللت حيرتي وطردتها بجفاء ونمت.

* * *

(١٧- يناير- ١٩٧٧)

مع بشائِر الصباح أيقظني نداء آت من أسفل المنزل:

يا باغي الغيبِ آتيك ببعضهِ

وفي الودعِ خبايا وأسرارُ

أبين لك ما في الغَدِ وسرهِ

واكشفُ لك ليله ونهاره

تسلّلتُ من أسفل الغطاء حتى لا أوقظ حنان وهبطت بقدميّ فوق الأرض الخشبيّة، وفي عدة خطوات أصبحت أقف أمام النافذة، وبرويّه أزحت ستائرها قليلاً فغمرت خيوط الشمس المُتسلّلة عينيّ حتى أنني احتميت منها بذراعي، استرقت السمع مسلطًا بصري نحو صاحبة الصوت الرابضة أمام المنزل، كانت إحدى العَرّافات البدويّات قد حطت برحالها واستَقرّت أمامه.

تنازعتْ بداخلي قوى الجهل والعلم، الرغبة في معرفة الغيب -الذي بالتأكيد لا يعلمه إلا الله-والفضول لمعرفة منْ أنا في كل من أراهم، لكنّي مُنيت بهزيمة نَكْراء أمام جهلي ونفسي التي كانت تبتسم بظفر مثل شيطانة مَرِيدة، وتضحك بسخرية كاشفةً عن أنيابها أمام وجهي، وكأنني أراها في مرآه مظلمة بشعة تعلن النصر بغطرسة مريرة، طاوعتها وارتديت معطفي على عجل وهرعت أهبط سلم البهو، وأفضي بي إلى باب الخروج فقطعت الدرج

والحديقة ودرت حول المنزل وتمشَّيت تجاه العَرَّافة حتى اقتربت منها فتَوجَّست وتباطأت خطواتي.

كانت تجلس القُرْفُصاء تَتَوَسَّد مِلاءتها الملَفوفة كالعِمَامَة مُرتَدية جلباباً أسودَ ويلُف وجهها ورأسها وشاحاً من ذات اللون. عجوز غَجَرِيَّة تحرثُ ذقنها خطوط خضراء متوازية وتخترق أنفها حلقة ذهبية كبيرة، بينما يعض أذنيها قَرطَين من النحاس، أما وجهها فكان كالمومياء، ملئ بالتجاعيد والشقوق التي حفرها الزمن، عظمتي وجنتيها ناتئتان وفكّها نحيل منسحب، وجلد رقبتها بارز في ذبول، أنفها معقوف وشفتيها مقلوبتان بهما ثلمة إثر جرحٍ قديم، أسنانها متهدّمة استبدلت بعضها بأخرى ذَهَبية وعيناها سوداوين غائرين.

وكانت منحنية تميل نحو إناء مسطح من الخشب به كميّة من الرمال البرتقالية تعبث بها وتسوي سطحها بكفها.

تعاظم شعوري بالتوتر، وانقبض قلبي، وكأن أذرع للموتى تخرج من الأرض، وتَمْتَدُّ لتمسك بساقي محاولةً منعي من الانسياق للخرافات، لكن قوة انجرافي نحو الوهم كانت أكبر بكثير من تلك الأذرع التي أتَوَهَّمها.

ابتسمت لي العجوز وبسطت راحتها تدعوني: اقترب يا صاحب النصيب، لا تخشى شيئا، فالوَدْع طيب.

اقتربت منها وجثوت أمامها ونظرت بعينيها مباشرة فقالت: ارم بياضك.

منحتها خمسة جنيهات، فأخرجتْ من صدرها مِنديِلاً على شكل صُرَة، وفتحته ثم دسَّت به المال وصرّته مرة أخرى وأعادته بجوار قلبها قائلة: الكريم يلنْ له الوَدْع واللئيم يتمرد عليه، ثم التقطتْ الوَدْع وشمّرت عن ساعديها وأمسكت يديَّ براحتيها الخشنتين المتغضنتين وأصابعها المقوّسة

المليئة بالخواتم ذات الفصوص الزرقاء، وجمعتْ كفيَّ صانعةً منهما جراباً، ثم عدت سبعةً من الوَدْع وعبأتْ بهم راحتيَّ من الداخل وضمتهما على الوَدْع تاركةً فرجة قليلة وقالت: اهمس الوَدْع.

تساءلتُ داخل قرار نفسي هل تتكَهَّن العجوز؟ أم تفسر بالسُرْيَانية؟ أم أنها مجرد مُحتالة تتقوتُ على ضعف النفوس والعبث بالعقول الخاوية، لكنِّي أزحت أفكاري جانباً وسألتُها: أهمسُ بماذا؟

-بما تُحَدثك نفسك.

همست للودع بكلمة واحدة: ما الذي يحدث لي؟

قالت لي العجوز: رُجَّ كفيك جيداً ثم ارمي الوَدْع هنا وأشارت إلى إناء الرمل أمامها. خضضت الوَدْع بين كفيَّ بقوة ثم ألقيت به على الرمال فشهقت المرأة، وراحت تنقل بصرها بين الوَدْع وبين عينيَّ في رهبة.

كان الوَدْع كله متراكب فوق بعضه البعض في تشابك مثل خنافس صغيرة وقُبته المتجعدة لأعلى.

شعرتُ بالقلق من رد فعل العجوز، خاصة حينما تململت في جلستها قلقة، وأشارت لي بتكرار الأمر، وبصرها شاخص ناحية الإناء. طاوعتها ونزل الوَدْع داخل الإناء على نفس الشكل فانحفرت كل معالم الفزع على وجه العجوز. كَرَّرت المحاولة ثلاثة مرات وفي كل مرة يفتَرِش الوَدْع الرمال وبنفس الشكل -رغم محاولاتي تفرِّقها عند الرمي-وفي المرة الأخيرة، قامت العجوز كمنْ لدَغتْها عقرب وتراجعت نافضة الرمال عن نفسها، ثمَّ لمَّت أغراضها في ذعر وأعادت لي مالي، وهرولتْ هاربةً كأن شياطين الأرض تطاردها، جريت خلفها أسألها: انتظري ماذا رأيتِ؟ استدارت نحوي والرعب يملأها وقالت بشَرَاسَة: إليك عني، أنت مسكون.

-مسكونْ! بماذا؟

-بأرواح قديمة تجوب الأرض منذ آلاف السنين، تبحث عن مأوى.

ألقت كلماتها في وجهي كالقنبلة، واستدارت هاربة، وتركتْ الرعب يحقن برودته في أوصالي، لحقتْ بي حنان لحظتها فزعةً وهي تعقد حزام منامتها وعلى وجهها يلوح أثر النعاس وشعرها يَتطاير مع هبّات البحر الباردة ثم نظرت بعيني وقالت: أحمد ماذا بك؟ ماذا حدث ؟!

حاصرني الصداع، انهرت على ركبتيّ، وصرختُ وأنا أقبض على عروق رأسي من شدة الألم، وطفقت الدماء تدور برأسي، والخدر يغشى حواسي، أبصرت قُرص الشمس الأصفر فوجدته يختنق ويتبدل إلى الأحمر، ثم بدأ يذوي ويموت حتى شيّعته السماء، ولم يعد باقيًا إلّا طيف نوره، ولحظتها وصلنا، استَقرَّ بنا القارب على حافة الضَّفَّة الأخرى لبحيرة مربوط، وأيقظتُ ملينيا بمسه رقيقه من أنملي لكتفها ورأيتها تفتح جِفْنيها كاشفةً عن قمرين يحملان ضياء الكون، هبطنا ليقابلنا على مُدّ بصرنا جبل صغير يفتح الكَهْف في سفحه، ويغرق لونه الرمادي في عشى ضوء المغرب، ويقود إليه ممرّ تحفّهُ على الجانبين شجيرات الغار.

قَصَصتُ لي ولها بعضًا من وريقات الغار، ودلفْنَا عبر فم الكَهْف لِنمُرّ بين جدرانه الرمادية المدخّنة والتي تتراكب بداخلها الأحجار الملساء كأنها نُحِتَّت عن قصدٍ، قبضتُ على كف ملينيا أستوقفها في حذر، لكنها جذبت كفي وتعَجّلتني بالمضي قُدُماً فطاوعتها، وانعطف بنا دهليز الكَهْف يميناً وقادنا إلى مدخلٍ واسعٍ، لنجد بانتظارنا كاهِن مُسِن ذو لحية بيضاء تتدلى إلى بطنه ويحمل بيده صَوْلَجَانًا فضيًا له رأس جِعْرَان، ويعتمر عباءة إغريقية من الحرير الأبيض تلُف جسده وتنحسر من تحت إِبْطِه صانعة طيّات أنيقة،

منحته ملينيا صُرَّة من العملاتِ، التقطها وخَضّها يقدر وزنها، ثم أومأ برأسه راضياً و قادنا إلى باطن الكَهْف، وتبعناه في صمت إلى حيث تنتظرنا العرافة.

بوصولنا تراجع الكاهِن وانسحب وتركنا نتقدَّم وحدنا، عمّتني الرهبة وتأخرت ملينيا نصف خطوة وقبضتُ على كفّي، كانت العرافة تجلس فوق كرسي ذهبيٍ عالي، له وسادة مكتنزة مثل قرص صغير، وترفعه عن الأرض ثلاثة قوائم متقاربة، أما تحت كرسيّها فكانت الأرض متَّصَدِّعة ينبعث من أعماقها بخار كثيف يرتفع لقرابة المتر ثم يهن ويتحول إلى دوائِر مخملية تتسع لتلف العرّافة وتعبئ المكان، اقتربنا منها بحذر فبدأت ملامحها تتضح، كانت صورة مُتجَسِّدة للغموض، تجمع بين الرَهْبَة والجمال، النعومة والقسوة، البراءة والشر، وكان الدُخَانُ حولها يرسمُ أشباحًا مخيفة تتلَّوى مثل راقصات، ويغطي رأس العرّافة وشاحٌ أسود سميك ينسدل ليحْجُب جبهتها وعينيها ملقيًا بظلّه على وجهها، بينما يظهر أنفها الدقيق ووجْنتيها الناضجتين وشفتيها المُكتنزتين من تحتِه، وكانت تطرحُ على رجليها وشاحًا أحمر ملفوف ومتعرّج بأناقة، يتدلّى عبر قدميها حتى يكاد يُلامس الأرض، كما تحمل راحتها الصغيرة صَحْنًا فَخَّارِيًا تتصاعد منه أبخره ذات رائحة نَّفاذَة وطيبة. كنت وكأنني أرى عرّافةَ ديلفي تجلس أمامي وجهاً إلى وجه، حتى أنني تساءلت في قَرَارَ نفسي، هل هي؟ هل غَيَّرت ديارها وتركت دلفي وحطّت برِحالها هنا بالإسكندرية؟ أقسم أنها "بيثيا" بنفس هيبتها لدرجة أنني سمعت كلمات سقراط عنها تتردد داخل آذاني: " احذروها عندما ترعد وتزبد، وتتفوه بكلمات كالصواعقِ، ومثل أحاجيّ السحر تسير بك الكلمات عبر مصيرك الذي تتمنى لو لم تعرفه "

هل سنندم أنا وملينيا على أننا عرجنا عليها وأتيّناها؟ بماذا ستخبرنا يا ترى؟ وما الذي تخبأه لنا؟

مدّتْ يدها لنا بالصَّحْن فوضعتُ أوراق الغار خاصتي وخاصة ملينيا بداخله، فهبَّ البخار يتصاعد بفعل التقاء الأوراق مع الجمر المتُّقد، واستنْشقَتْ العَرَّافة الرائحة وملأتْ صدرها بها، ثم فتحت فمها وانقلب كل شيء رأساً على عقب، ماجت وكأنها ستسقط عن الكرسي النحيف، وناحت بصوتٍ مُخيفٍ كأنها عويل رياح مسعورة في ليلة عاصفة: أوسور سفوتور اريفيلات.

ارتجت جدران الكهف من حولنا أو هكذا تَوهّمتُ، واصفر وجه ملينيا من الخوف، وتراجعت مُتشَبِّثةً بملابسي، بينما واصلت العَرَّافة تمايلها، وأخذت تهذي بكلمات غاضبة وبنبرةٍ مليئةٍ بالحقد: يقتل أحدكما الآخر، يعيش أحدكما حينما يموت الآخر، ويضحي أحدكما ويرفض الآخر.

هبطت نبوءتها علينا كالصاعقة، فارتعدت فَرائِصنا، وغَشِيَنا الخوف، تطلعتُ إلى وجه ملينيا فوجدت صفاءه قد تعكر، واتشحت ملامحها الرائقة بظلمة الجزع، كانت نُبوءَة العرافة شُؤْم مثل نعيق غراب أجرب على قبر ملعون، وسمعت نعيقه يخترق أُذنيّ مثل صرخة استغاثة، فغمغمت بكلمات واهنة ثقيلة: العَرَّافة تنبأت بالموت.

مالت نحوي امرأة بدت مثل هالة بيضاء ورَبَّتت على كتفي وقالت: لقد رحلت العَرَّافة يا أحمد.

- يقتل أحدكما الآخر، يعيش أحدكما حينما يموت الآخر، ويضحي أحدكما ويرفض الآخر.

-ماذا يعني هذا الكلام يا أحمد؟ هل قالت لك العَرَّافة ذلك؟

-لا قالته لملينيا وبانتيوس.

-قالته لمنْ؟

-ملينيا وبانتيوس.

قلتها بعصبية بعد أن استوعبتُ أن من تكلمني هي حنان، وحاولتْ هي تهدِّئني: لا عليك، لا عليك، المهم أنك بخير. بدأت الملامح تتَّضَح من حولي وسألتها: هل نمت؟

نفضت رأسها وقالت: لا كنت مستيقظاً. انتابتك نوبة صداع ثم سكن جسدك وتصلب للحظات، بعدها رافقتني إلى البهو وأضْجَعت على الأريكة ومرت قرابة نصف الساعة حتى أفقت من شرودك.

انتظمت أنفاسي وسكنت روحي فسألتها: هل سمعتي صوت الغراب؟

أومأت برأسها موافقة، ثم مسحت برأسي وقالت: ماذا بك يا أحمد! أشعر بأنك تُخفي شيئًا، أنا زوجتك يجب أن تشاركني همومك.

-لا شيء يا حنان فقط ذهني يشرد.

-وماذا قالت لك العَرّافة، ولماذا كانت تفرّ منك هكذا؟

-لا شيء، يبدو أن الخمسة جنيهات لم ترضها.

* * *

(أستاذ التاريخ)

فارت بداخلي كل الشكوك الراكدة، وتناثر غبارها داخل رئتي حتى اختنقت، ثلاثة رؤى تاريخية تأتيني متسلسلة عن ملينيا وبانتيوس! هذا الأمر ليس مصادفة، ولا يمكن أن يمر دون التأكد من صِحّته. اتجهتُ لأقرب مكتبة عامة عاقدًا العزم على حل ذلك اللغز المُحَيِّر، ودرت بين كتب التاريخ أبحث عن ملينيا وبانتيوس ولم أجدهما.

استعنت بأمينة المكتبة الأستاذة منال، وكانت دمثة الخلق بشرتها خمرية وقسماتها تحمل البشرى، وعاونتني كثيرًا وبحثنا بين المُصنفات التي تبدأ بالرقم تسعمائة طبقًا لتصنيف ديوي العشري، إلّا أننا فشلنا في العثور على الشخصيات المقصوده، دقّقنا النظر في "بطاقات الفهْرَسة" و"حقول التبصرة" والتي تُذكَّر بها وصفات للكتب، ولا جديد. كنا نبحث عن قطرة داخل بحر، خاصة أن الفترة الزمنية غير محددة، وحينما انتصف النهار يئسنا، وهنا أشارت بسبابتها وقالت وكأنها تذكرت شيئًا مهمًا: لدي حل ربما يفيد؟

-وما هو؟ سألتها، فبسطت راحتها قائلة: الأستاذ عبد الله، مُحاضِر التاريخ بجامعة الإسكندرية، يتردد علينا كثيرًا لإعداد الأبحاث، رجل مهذب وموسوعة في مجاله، ولا يردُ سائلا.

-ومتى يأتي؟

ابتسمت قائلة، ليس ثمة موعد محدد لحضوره لذا من الأفضل أن نتصل به.

-هل يمكننا؟

-نعم، واستخرجتْ رقم هاتفه المذكور في بيانات اشتراكه بالمكتبة، واتصلنا به تليفونياً لاستئذانه ووافق ووصف لنا العنوان.

ذهبتُ من فوري إليه، كان يسكن بالقرب من شارع بورسعيد، حارة تتفرع من حارة، لكني بالنهاية وصلت، ونفَذْتُ عبر مدخل منزله الضيق الذي يهبط عن الشارع بمسافة نصف قدم وصعدتُ درجات السلم القصير مستندًا إلى دربزينه الحديدي القديم، حتى أصبحت أمام شقة الدكتور بالدور الثاني فطرقت كوّتها الزجاجية، وخلال ثواني ظهر ظل الرجل من خلفها ثم فتح لي الباب، واستقبلني ببشاشةٍ ودماثة خلق بدت مُتسقة مع شخصيته الهادئِة وملامحهُ الوقورة المتجلّية في بشرته الخمرية الصافية، وشعرة الأشْيَب، بالإضافة لثوبه البلدي الأبيض.

أحسن الرجل ضيافتي بكرم، وقدم لي الشاي، ثم جلست بين يديه أقّصُّ كل ما أذكرهُ عن حكاية بانتيوس ومليئيا، وبالطبع وحفاظاً على ماء وجهي أخفيت عنه الحقيقة وأخبرته أنني أراهم في المنام، وعلى الرغم من أن الرجل بدا عليه عدم التصديق -نظراً لفراسته الواضحة بالإضافة لأنني لم أكن أبداً من هؤلاء الذي يجيدون الكذب- إلّا أنه ظلّ يومِأُ لي برأسه مُشيراً بالاستمرار وأصغى بتركيز حتى أكملتُ حكايتي ثم تأملني في رِّيبة وقال: هل أنت متأكد أنك رأيتهم في المنام؟

-هل يوجد مشكلة في ذلك؟

مطَّ شفتيه وقال: بالتأكيد. أنت تحدثني عن معلوماتٍ مُوثَّقة ومثبتة تاريخياً. حدثت في عهد البطالمة. فيلوباتور هو بطليموس الرابع وكليومينس الثالث هو ملك إسبرطي لجأ إلى مصر قديماً هو ورهطٌ من فرسانه بعد سقوط دَوْلَتِهم. ولم يحدث من قبل أن رأي أحدهم حدثًا تاريخياً دقيقًا بهذه التفاصيل في المنام. إلّا لو كان من المُتبحرين في التاريخ وعقله منشغل به.

فركتُ جبهتي في حَيْرَة ثم سألته: وماذا عن بانتيوس وملينيا؟

نفض رأسه قائلا: لا أظن أنني سمعت بهما من قبل. لكن ربما يكون بانتيوس هو فارس من الفرسان الذين صحبوا الملك الإسبرطي في لجوئه إلى مصر. وملينيا كما ذكرت في حكايتك هي وصيفة بالقصر. وأن ثمة علاقة حب نشأت بينهما. ولكن هذا الأمر من الصعب إثباته تاريخيا. التاريخ دائمًا يذكر العظماء والملوك ولا يهتم بالعامة. ومن المحتمل أيضاً أن تكون القصة كلها من نَسجِ خيالك! أمتأكد أنت من أنك لم تقرأ أو تسمع أبداً عن تلك الفترة من تاريخ مصر مسبقًا؟

نظرت في عينه مباشرة وأنا أهزُّ رأسي نفيًا. فرأيت في ملامحهِ الحَيْرَة وسكت يفكر. وتركته يختلي بأفكاره. عسى أن يقوده إصغائي إلى معلومة مفيدة. أعذره تماماً لقد جئته ببضاعة مزجاة وألقيت بها بين قدميه طالبًا منه وعلى حين غرّه أن يوفي كيلي. ولم يطل سكوته. قام من مقَامِهِ وغاب داخل مكتبته الصغيرة. ثم عاد وبين يديه مجلداً كبيرًا. وضعه أمامي وراح يقلب صفحاته القديمة حتى وصل إلى صورة ما. فأشار نحوها بأصبعه وسألني: هل هذا من رأيته؟

نفيت. فقال لي: تأكد ثانية؟ هذا فيلوباتور!

-لم أره، أنا سمعت عنه فقط بالحلم.

راح يقلب الصفحات مرة أخرى حتى وصل إلى صورة رجل آخر، فسألني عنه بنظره، وأيضا كان ردي بالنفي فقال: الصورة لكليومينس.

-أنا لم أرى هذا ولا ذاك حتى الآن، فقط رأيت بانتيوس وملينيا وهما يتكَلَّمان.

هنا أغلق الرجل الكتاب وقال: إذًا لا داعي لأن تشغل بالك يا أستاذ أحمد، ربما سمعتَ عنهما في طفولتك، واستعدت ذلك في أحلامك مع اختلاق حكاية بين بانتيوس وملينيا كما يحدث بالأحلام.

-هل تظن ذلك؟

-نعم.

حاولت أن أوجّه له أسئلة اضافية لكن لساني انعقد فجأة، قبض الصداع بمخالبه على عروقي وبدأ يعصرها. تألمت بجنون وضجّت الأصوات من حولي كأنني داخل سوق، واحتدت حاسة الشم لدي حاملة لرئتي رائحة شاي نفاذة، وطافت أمامي أبخرة كثيفة ماجت بين دخَانها كل تفاصيل المشهد، ترنح رأسي واختفى أستاذ التاريخ وخضت رحلة جديدة من الشرود.

ذهبتُ لزيارة عميت صوفير، صديقي الذي يعرف الكثير عن اللغات القديمة، بحكم تعاونه مع بعثات استكشاف الآثار، دخلت شقته التي تعد "كتب خانة" عظيمة تمتلئ جدرانها بالكُتُب والمَخطُوطات الأثَريَّة. في كل مرة آتيه أجدها مُزدهِرة وعامرة أكثر من ذي قبل، لذلك لم يتوقف انبهاري بها يوما، رغم اعتراضي على عادته السيئة في تبديد ماله واستبدال الأوراق النقدية بأوراق الكتب، وكالعادة وجدته جالسًا إلى مكتبه القديم، والمستقر بنهاية الممر بين دواليب الكتب، تغشاه أشعة الصباح عبر نافذة قديمة تلقي بنورها على ملامحه المتناقضة بين وجهه كامل الاستدارة،

وعينيه الواسعتين العسليتين وبشرته الصافية وبين أنفه الأفطس، وفمه الذي يشبه فم السلحفاة وشعره الأشعث.

كان منشغلاً بصنع الشاي. وكانت الرائحة زكّية بشكل مستفز، خاصة لأنف حساس ذو خبرة مثل أنفي الطويل، وعيون فاحصة مثل عينيّ الجاحظتين، تخللت الرفوف واقتربت منه وحييته: نهارك سعيد يا عميت.

رفع بصره نحوي واتسعت عيناه باندهاش: نعوم! صباح الخير، وأشار براحته وأردف، تفضل، كيف حالك؟

-بخير. قلتها وجلست إلى مكتبه فضحك وهو ينظر إلى حقيبتي القماش التي أعلّقها بكتفي.

-ها؟ ماذا بجعبتك اليوم، أخرج ما في جرابك يا حاوي؟

منحته ابتسامة شحيحه، وقلت وأنا أرمق بنهم إبريق الشاي الذي كان غطاؤه ينتفض بفعل قرقرة الماء المغلي: مخطوطات جلدية.

أخمد شعلة موقد الغاز الصغير بالطربوش النحاسي، وانهمك في إعداد أكواب الشاي وإضافة السكر ثم قال: وبالطبع أتيت لبيعها وكالعادة سأجدها عديمة الفائدة مثل نظيراتها.

-لم آت لبيعها، بل لقراءة محتوياتها.

قهقه وارتجّ جسده المكتظّ وأشار نحوي بأصبعه ساخراً: لازلت تحتفظ بفطنتك ودهاءك يا نعوم، تريد أن تعزز بضاعتك.

ضحكت مجاراةً له وقلت وأنا أشير لأبريق الشاي: وأنت لازلت تحتفظ بسخائك، لكن صلعتك تزداد اتساعاً وشعرُ رأسك الأشعث على جانبيها يزداد تناثراً.

-وماذا عن لباس صدرك هذا ألن تخلعه أبداً، أصبحت أتساءل كيف تغتسل.

-وهل جننت لأتخلى عن تَّمِيمَة حظي يا عميت! بالطبع اغتسل وأنا ألبسه فأنظف نفسي وأنظفه معي بذات الوقت.

أطلق ضحكة جوفاء تناسب مزحتي السخيفة، ثم سألني مغيراً دفة الحوار: ولماذا تريد قراءة هذه المخطوطة تحديداً، ما الذي يميزها عن سابقاتها؟

-حدسي التجاري.

-حدسك التجاري! هل تمزح؟ كل مخطوطاتك السابقة كانت مجرد سِيَر بلهاء لأفراد من عامة الشعب وليسوا ذوي أهمية، وكان حدسك التجاري وقتها ينُبِّئك بأنها هامَّة فما الجديد؟ ثم تحلّت ملامحه بالجدِّية فجأة ومال يعظُني: كف عن أوهامك يا نعوم، لستَ متخصصا ولا محترفا بمهنتنا، لا تهدر أموالك في مخطوطات عديمة القيمة.

قالها وقدم لي كوب الشاي الذي كان أثير الدخان المخملي يتصاعد من سطحه وينتشر بالمكان، فالتقطه وأسرعت أنهل رشفة حارة منه منحتني لسعة شهية وقلت: لا ندري يا عميت ربما أصبتُ هذه المرة.

مطّ شفتيهِ غير مقتنع ثم قال: ربما!؟

فضضت الحقيبة، وأخرجت منها المخطوطتين ومرَّرتهما له، فالتقطهما باهتمام ثم فردهما على سطح مكتبه، وجذب عدسته المكبرة ومررها تباعاً فوق سطحيهما وعيناه تتسعان وتزدادان اتساعاً وقلبي يختلج ترقباً.

-يبدو أنهما قديمتان للغاية يا نعوم.

-هذا جيّد، كلما كان الشيء قديماً ارتفعت قيمته، أليس كذلك؟

-بلى، على أية حال سأقوم بترجمة الرسائل خلال أسبوع للنظر في حالتها الأثَرِيَّة وأيضا محتواها.

-ألن تقوم بترجمتها الآن؟!

-مستحيل يا نعوم، اللغة المكتوبة بها قديمة جدًا وتحتاج إلى أسبوع على الأقل لترجمتها بشكلٍ صحيح.

-حسنًا، سأمنحك الأسبوع بشرط، ونصبت سبابتي في وجهه: أياً كان ما بها فليس من شأنك.

-أوافق ولكن بشرط أيضًا، لو كانت غير ذات جدوى لن اشتريها وستدفع ثمن مجهودي في ترجمتها، اتفقنا؟

-نعم اتفقنا. قلتها ورفعت كوب الشاي المجاني اللذيذ لأحتسي رشفة جديدة، لكن سطح المشروب الأسود ترقرق، ثم بدأ يفور ويرتفع بالكوب ويفيض خارج حوافه على إثر موجات صوتيه عميقة كانت تتردد حتى اضطرب لها بساط الموج السابح داخل أحشائي.

-أستاذ أحمد ... أستاذ أحمد.

-نعم يا عميت.

-عميت! من عميت؟

ستار من الظلام كان يحول بيني وبين رؤية من يكلّمني، لكن في قلبه كان قبسٌ من النور يولد، قبس فضيٌ وحاني أخذ يتعاظم مبددًا العتمة القاحلة إلى نور متوهج انبلج المشهد من قلب شعاعه لأعود كما كنت جالسًا أمام عبد الله أستاذ التاريخ.

مسحت وجهي براحتيّ مدعيًا أنني استيقظ من النوم وحاولت تبرير الموقف: أسف يبدو أنني قد غفوت قليلاً.

فُوجِئ الرجل، وقال لي وعيناه مليئتان بالارتياب: لكنك لم تنم، بل كنتَ تحتسي الشاي معي. وأشار إلى فنجان الشاي الذي كان يستقر بجواري، فارغًا.

* * *

(ديجا فو)

عدت إلى منزلي والحَيْرَة تشْتَعِل بقلبي والأوهام تُغذِّيها بالحطب الجاف، والمُرْتِب والمستفز أنني لم أجد في طريق العودة السائس صاحب العربة المكسورة، ولم تظهر لي الكلاب الضالة. فقط كنت أسمع نباحها من بعيد، وكنت مثقلاً بالأفكار المشَوّشة، ولا ينقصني إضافة ثلة من الكلاب الضالة إلى قائمة الأسئلة التي تبحث عن إجابات فليست من أولوياتي ولن تكون.

البيت كان مغموراً بالنور الأصفر، والراديو يبث الجدران مقطوعة موسيقية لا أعرفها، لكنني منحتها اسم " جنازة البحر" لأنها كانت حزينة ومبكية.

وظهرت حنان عند درابزين الرواق حينما كنت أضع قدمي على أول سلمه بالدرج الحلزوني، وأظنها فهمت حجم معاناتي من نظرة واحدة، فنزلت وأسرعت تستقبلني بوجه عطوف ولثمت وجهي بقبله، ثم عاونتني على الجلوس على أحد سلالم الدرج.

كانت قواي البدنية خائرة، فحينما ينهار العقل يجثو البدن، وكنت أتطلع إليها بشرود وهي تحتضن بصري بنظراتٍ مُتسائِلةٍ، تكلمني دون أن تنبس بحرف، ماذا بك؟ ولأنه لا جواب لدي، آثرت السكوت، حتى الزفرة سجنتها بداخلي، رفضت أن أبتهل لها بنشيج معاناتي، حتى لا تُحْشَرْ معي في تلك المتاهة التي صنعتها ذكرياتي ورمتني داخل حواريها، ولذلك آثرت أن أنْحَرُ الأحرف على حافة حنجرتي المشروخة، وتركت خَلَاصَ الذبح يتسرب بين

الشقوق فداءً لحنان، فلا ذنب لها فيما أعانيه، هي أيضًا كانت أذكى من أن تسألني عمّا إذا كنت قد تذكرتها أم لا، ملامحي تحمل الإجابة، وتفضح النتيجة.

أراحت رأسي على صدرها، وراحت تمسح شعري براحتها الطريّة وهمست: لا تقلق يا أحمد ستتذكّر، أنا واثقة من أنك ستفعل، قلبك سيدلك.

سحبت نفسي من حضنها برفق، وصعدت لأبُدّل ملابسي، ثم عدت لأجدها قد أعدت حساءً دافئاً للعشاء، رشفته معها في صمت، ثم غرقنا في السكون، شغلت هي نفسها بسماع مقطوعة مونامور العالمية للعازف خواكيم رودريجو، وقبعت أنا في غرفة المكتب، أكمل رحلةً بحثي عن سر الماكينة بين الكتب حتى انتصف الليل وبدأ ينبض بالبرد، وضجَّ محيط المنزل بصوت هدير البحر.

أجبرنا البرد على الصعود لغرفة نومنا الدافئة نسبيًا، اندست حنان بجواري تحت الأغطية وانتظرتُ أنا حتى استغرقت هي في النوم، ثم تَسَلَّلتُ مغادراً السرير، وجلست إلى الكرسي الهزاز المستقر بوسط الغرفة، ورحت أتأرجح معه في رتابة محاولًا لمّ شتات أفكاري المتناثرة بين أوديةِ الأحداث.

حين شردت عند أستاذ التاريخ رأيت نفسي ذلك الصَائغ اليهودي نعوم، أحاول ترجمة لُفافتين من الجلد من المحتمل أنهما يخصان الحبيبان بانتيوس وملينيا، واللذان أراهما أيضا في شرودي، وهو ما يشير إلى احتمال وجود رابط بين الحكايتين، نعم لا يمكن إثباته، لكنه يبقى احتمال منطقي، وإذا صح سيعني أيضًا أنني لست مضطربًا، إلّا في حالة واحدة، أنني أختلق الحكايتين معا، لكن لماذا!؟ وكيف أتوَّهم تفاصيل بتلك الدِّقَّة والتسلسل، بل وأعود إلى عصور سحيقة أرى فيها الحياةَ كاملةً بكل تفاصيلها، هناك

فارق كبير بين حكاية من نسج خيال واهم، وبين ما أراه رأي العين، فأنا لا أرى مشاهد مشوَّشة، بل واضحة وضوح الشمس.

هل أنا مسكون بالأشباح كما قالت العَرَّافة؟ وتلك الأرواح تجعلني أرى ما يستحيل أن أراه؟ ولما لا؟ الجن يعمرون لآلاف السنين، ويبقى هو التفسير المنطقي والوحيد لرؤيتي لحكاية ملينيا وبانتيوس، والتي مرّ عليها أكثر من ألفي عام كما أخبرني أستاذ التاريخ.

لكن مهلاً، أنا لا أشاهد تلك العصور كأحمد، بل أكون بانتيوس وأكون نعوم، أتحدث بلسانه بلغته، أسكن بدنه أتعامل بأخلاقه، ما أراه ليس مجرد نافذة فُتِحت لي على الماضي لأطلّ من خلالها برأسٍ مأخوذ، بل ذكريات كاملة استعيدها وبمنتهى الدقة، وأجْترّ الأحداث منها تباعاً بشكل متسلسل، وهذا من المستحيل أن يفعله جانٌّ.

كما أن الذكريات تهاجمني حينما تتشابه التفاصيل والأماكن، رؤية البحر ذهبت بي لرحلةٍ بحرية بين بانتيوس وملينيا، ظهور العرافة جعلني أشاهد ما حدث لهما عند عَرَّافة الإسكندرية ونبوءتها، وحتى نعوم رأيته حينما قرأت مسرحية يهودي مالطا، ولمّا زرت أستاذ التاريخ رأيت لقائه مع عميت، دائما هناك رمز يدفعني للذكرى دفعًا. هل هي ظاهرة "الديجا فو" والتي ينتاب الفرد فيها شعور غريب بأنه رأي أو عايش حدثًا ما من قبل، رغم أنه لم يعاينه ؟!

* * *

(القط الأسود)

بعد منتصف الليل بساعة انقطع التيار الكهربي مرة أخرى، وواصل القنديل الأزرق أداء دور البديل الممل بإضاءة غرفة النوم، ولحق بهم عقرب الدقائق المنقاد والذي راح يزحف ببطء وكأنه يُدفعُ عنوةً إلى عمود الصلب، بينما أكمل البحر الكورال بمواصلة الهدير المُرخي للأعصاب. أما أنا فكنت أعلّق عينيَّ الزائغتين بساعة الحائط وأتأرجح مع الكرسي الهزاز، مواصلاً رحلة الصعود والهبوط الرتيبة.

قلّبت فرضياتٍ عِدَّة في رأسي، كوني مسكوناً بالأشباح تبقى فكرة سخيفة، والديجافو يحدث نتيجة خلل في التواصل بين الذاكرة قصيرة الأجل والذاكرة طويلة الأجل، وهو ما لا يناسب حالتي فما أراه حقائق تفصيلية المفترض أنها حدثت حقيقة لا وهمًا. هذا إذا صحت فرضية وجود بانتيوس بالطبع.

طردت عن رأسي غشاوة هذه الأفكار الميتذلة علّني أفيق، وأجلستُ مكانها فكرة أفضل برقت في ذهني فجأة، ولما استحسنتها، قمت عن الكرسي منتصبًا، وتركته يواصل دورانه المُقوّس، المكتبة بها كتب عديدة تتحدث عن الذاكرة، سأستعين بإحداها وأدرس الأمر وأبحث عن تشخيص حالتي بين المراجع.

نزلت الدرج في تَريُّث حتى وطئت البهو، وكشفت كل ستائره فانسكب ضوء البدر الشاحب على التماثيل والأثاث، وألقى بظلالها على الأرض ليزيد

المشهد غموضًا ورَهْبة. يا الله الظلام الدامس أقل رَهْبَة من تلك الظلال. علّقت أحد القناديل بأناملي ومشيت تجاه غرفة المكتب، لكن شيء ما استوقفني، سمعت جَلَبَة آتيةً من غرفة الصالون، توترت أعصابي، ودرت برأسي ناحيتها أسترق السمع، لا أود أبدًا زيارة تلك الغرفة في الظلام، لوحاتها تخيفني وتَبُثّ الرعب في أوصالي، خاصةً لوحة المرأة الثعبان، تُخيفني حتى أكثر من لوحة زوجة موريس، لا أدري ما هو سر الاحتفاظ بلوحةٍ مُرعبة مثل تلك حتى لو كانت موقّعه من فنان عالمي، لكني بالنهاية تشجعت. كَتّمت أنفاسي وتحركت بخفه على أطراف أصابعي ودقات قلبي تتسارع، وبحركة خاطفة فتحت الباب، وانتّفضت.

صدم بصري قطٌ أسود دميم، فروته مشعرة وعينان ذهبيتان، ويقف منتصبًا على قوائِمه بوسط الغرفة، يرمقني بنظرة كراهية وكأنه أتى من أجلي، وكانت النافذة مفتوحة، والرياح تندفع منها وتتلاعب بالستارة التي كانت تتماوج فوق رأسه، بينما كان ضوء القمر الفضيّ يغمره صانعاً لجسده ظلاً ضخماً على الجدار المقابل، ولم يكد القطّ يراني حتى بدأ يزوم داخل قاع بطنه، فتوترتُ وتسمرتُ في مكاني بلا حِراك، لم يكن عاديًا أبدًا، بل مثل شيطان من اللذين يسكنون الأرواح السوداء، آذانه مثل قرون وعيناه مخيفتان، وكأن بداخلهما جمرٌ يتأجّج.

زمجر القط بتحفز حينما غرست بصري في عينيه، فانتشر الخوف بين أوصالي، كان المشهد مثل صورة ثابته تجمع بين تمثالين متجمدين ومتوترين، واستمر الحال بيننا كما هو نتبادل نظرات التحدي السافر، إلى أن ضرب الرعد السماء، وارتجّت بدَوِيٍ قاصف وكأنه بركان، حينها تحفز القط وارتفعت وتيرة تهديده، وكأنها كانت علامة ينتظرها، جعّد وجهه وكشّر

عن أنيابه، ولم أتمالك أعصابي، رفعت القنديل نحو وجهه مباشرة حتى أراه بشكل أوضح.

ولم يكد النور يغمره حتى جُنَّ جنونه، أعادَ أذنيه إلى الخلف وقوّس ظهره ونفش شعره كالقنفذ، ثم فحّ في وجهي مهددًا، خفته وتراجعت خطوة للخلف، وكان ذلك أعلانًا منّي بضعفي، فكشف عن شِدْقه الملتهب لتبدو أنيابه الناصعة التي كانت تبرق بالشّر، ثم انقض.

وثب نحو وجهي بحركة مباغتة وخمشني ببراثنه الحادة صارخاً بصوت مسعور، وتراجعت محولًا وجهي بعيدًا، وسقطَ القنديل من يدي وانكسرت خزانته، والقط يواصل الزمجرة والصراخ وهو يقفز فوق الأثاث بعشوائية وسرعة خاطفة، حتى اعتلى إفريزَ النافذة، والتفت نحوي في بطء، ثم صوب عينيه المتأجّجتين تجاهي وفحَّ في وجهي مرة أخرى، وهرب.

لحقت به إلى النافذة، فوجدته اختفى، تبّخر وكأن الشاطئ ابتلعه، توقعت أن الأمر انتهى برحيله، لكن ثمة شيء آخر قفز إلى مُخَيِّلتي، عيونُ القطِ الزجاجية لم تكن تنظر باتجاهي، كانت تنحرف قليلا، وهذا يعني أن ثمة شيءٌ آخر يوجد هنا، شيءٌ لا أراه، تسرب لي القلق فاستدرت في لفّة مفاجئةٍ، وارتجفت. عبّرَ جسدي طيفٌ باردٌ انساب بين مسامي وضرب فَرَائِصي بلفحة قارسة جمّدتني، ومرّت اللحظات ثقيلة وجسدي في حالة أثيرية يرتعش وكأنني مُسسّت، ولم أشعر بنفسي إلّا حينما غادرني وعادت مسامي المفتوحة لتتماسك وبدأ البرد ينسحب من أوصالي رويدًا رويدًا، فهرعت إلى البهو فوجدته أكثر رعبًا، كانت النافذة مفتوحة والريح تصفر من حوافها، وكان صدري لازال يخفق في خوف، وجرح خدي يَستَعِر ألمًا إثر خمشة القط، تقدمت ناحية النافذة حتى أرى بوضوح، لكنّي تَعثَّرت بشيء ما فصرخ بجنون، وتوالى صراخه حتى صمّ آذاني، وتبعه آخرون كأنهم

يؤازرونه، يندبون ويتباكون، كأنهم ينوحون على عزيز لهم، نظرتُ إلى تماثيل البهو من حولي فوجدت ظلالها كأنها تتحرك على الجدران وعيونها تبرق بالشر، الريح تعوي حولي كالذئابِ وتتلاعب بستارة النافذة، البرد يجمد الأنفاس، والرعب صار يحاصرني أينما وليت وجهي، أغلقت أذني بكفيّ ووقفت مستسلمًا بمنتصف البهو انتفض وقد تملكني الخوف، ثم تلا الصراخ عزفٌ موسيقي أسيف، وسكت الصوت فجأة كما بدأ فجأة، وأُغلقت النافذة، ولم أعد أسمع سوى صوت خفقات قلبي المرعوب والذي كانت طُبُولَه تضرب أضلعي وتحاول مغادرتها.

كان الجرامافون .. ذلك التعيس، أدرته دون أن أعرف فَدَوَى في المنزل صوت الأوبرا المفزع، اللعنة على صراخه، وضعت يدي على قلبي ومِلتُ بصدري ألتقط أنفاسي لأُهَدِّأَ من روعي، إلاّ أنّ يدًا غريبة امتدت ومست ظهري، اعتدلت مذعوراً والتفت أنظر لصاحبها من فوق كتفي، فرأيتها، كانت خلفي تقف في جمود.

- حنان! قلتها مُستنكراً وأنفاسي تتلاحق.

-أحمد! ماذا بك؟ لماذا تقف هكذا؟، ولماذا فتحت نافذة البهو في هذا البرد.

-لا أذكر أنني فتحتها و.. قاطعتني في جزع: وما الذي جرح وجهك هكذا؟ تحسست موضع خمشة القط، والتقطت أنفاسي وانتظرتُ قليلاً حتى استقر قلبي وقلت: لا تقلقي جافاني النوم فنزلت أبحث عن كتاب بالمكتبة فهاجمني قط بالظلام.

تلفتت حولها بذعر قائلة: قطًا! كيف تسلّل إلى المنزل؟!

-لا أدري لكنه رحل.

بدا عليها الاستغراب حيث لم أكن أحمل بيدي أي كتاب، ثم مالت نحوي تواسيني، وبدأ الدُّوَارُ يهاجمني، ترنحَ رأسي، وبدأ الصداع يتنامى والضغط يبرُم أوعيتي الدموية وتحول نور القنديل الثابت الذي يُنير البهو إلى لهب أحمر يوقَدُ من مَشعلٍ معلقٍ بأحد جدران القصر.

"يقتل أحدكما الآخر، يعيش أحدكما حينما يموت الآخر، ويضحي أحدكما ويرفض الآخر".

درت بمِخْدَعي أُفكر في نبوءة العَرَّافة المشؤومة والتي نُقشتْ بذاكرتي كالوسمِ، عنَّفت نفسي عشرات المرات لأنني طاوعت مليئيا في ذلك، ليتني ما لبيت طلبها قط، نُبُوءات العَرَّافات شُؤْم، شُؤْم، ولا تجلب إلّا النحس.

تلك الساحرة نذير الخراب، عكرّت صفو نهر الحب الذي يصل بين قلبينا ويُنْبِتُ السعادةَ على ضفافهما، ما قالته مُريع ولا يمكنني تصوره، كيف سأقتل حبيبتي أو تقتلني وكيف يعيش أحدنا حينما يموت الآخر، كلامها هراء ومحض كذب بالتأكيد، لا أستطيع تصوّره، ولن أقبله ويجب ألّا أعيرهُ أي اهتمام، قطع أفكاري دخول الملك كليومينس إلى مِخْدَعي بقصرِ ضيافتنا، بعد أن جاء على حين غرّة ليخبرني أن زائِراً عاليَ المقام سيعرج علينا بعد برهة، وأن علينا أن نستعد لاستقباله، وبالفعل لم تكد حباتُ الرمال تُنهي رحلة هبوطها داخل القارورة السفلى لساعتنا الرَّمْلِيَّة، حتى كان الوزير سوسيبيوس يدخل جناح الضيفان متأبِطًا قطًا أسودً بشع الهيئة، ورماني الوزير بنظرة شكٍ في البداية، ثم نظر إلى كليومينس يستوثق منه بشأني، فأومأ له برأسه مطمئِناً وقال: بانتيوس هو وزيري المخلص ويمكننا التحدث أمامه بكل أريحية.

فرحتُ بشدة من رد الملك، كانت أولَ مرةٍ يُعلنُها صراحةً بأنه قد نصّبني وزيرًا له، شرفٌ كبيرٌ لي ولا شك أن أكونَ وزيراً لإسبرطة حتى ولو في المنفى، وحتى وإن كان الملك قد أُضطر لإعلان ذلك لإزالة رِّيبة الوزير البطلمي بخصوصي.

مسح الوزير شعر قطه الفاحم، ثم جلس يحتسي نبيذ الضيافة في شراهة، وأمعنتُ النظر إليه محاولاً سبر أغواره، كان يشبه الثعبان، طويل ونحيف وجهه ممتقع وذو لحية مضفورة تتدلي من ذقنه حتى نهاية عنقه الطويل، والموشوم جانبه الأيمن بعقرب يرفع ذنبه، ومن حوله ينسدل عقد لقِلاَدَة فارسية مزركشة، كما كان يُكَحلُ عينيه المسحوبتين بكحل غليظ، وفي خده الأيسرَ تبرز زبيبة كبيرة، ويعتمر عباءة إغريقيه حمراء من الحرير الخالص.

وكان سوسيبيوس يشغل رئيس الكهنة في عهد يورجيتس والد فيلوباتور، ثم وخلال أشهر معدودة فقط من تولي فيلوباتور الحكم، نجح في تولي منصب رئيس الوزراء، ومن خلاله بسط نفوذه على مقاليد البلاد، وبمباركة صريحة من فيلوباتور الذي كان يعتبره المخلِص الأول والأخير له، خاصة أنه كان يُؤَمن للملك الشاب كل ملذاته، ويعدّ له حفلات مجونه بمعاونة لفيف من الوزراء الفاسدين، وكانت الزيارة طارئة ومريبة، لذلك لم يطقْ كليومينس الانتظار وسأله مباشرة: خيرًا يا سوسيبيوس؟

-أحمل لك البشرى.

-بماذا؟

عبث الوزير بفروة القطّ المستقر بحضنه ثم قال مبتسماً كالذئب: لقد مات انتيجونوس.

تلقى كليومينس الخبر بمزيج من الفرحة والذهول، موت الملك المقدوني ينعش آمالنا مجدداً في استعادة عرش إسبرطة المسلوب، لذلك كان رد فعله مُفرطًا في السعادة وقال: رائع، سأكُافِئُك من أجل هذه البشرى.

رأيت الظفر يلوح في ملامح سوسيبيوس حينما ابتسم وقال: يمكنني أيضًا إقناع الملك بإعادتكم إلى إسبرطة مع أكثر من عشرة آلاف جنديًا، بالإضافة إلى المرتزقة الذين يدينون لكم بالولاء، وقبل حلول هذا الصيف.

وهنا تبَّدلت ملامح كليومينس من الفرح إلى القلق، بينما التقى حاجبيَّ ضيقاً، عرضٌ سخيٌ مثل هذا يحمل بين طياته ثمنًا باهظًا سندفعه ولا شك، وفطن الملك للحيلة فسأله بشكل مباشر: في مقابل ماذا؟

مال إليه سوسيبيوس وقال: أولاً أريد أن يدين مرتزقتك بالولاء لي شخصيًا.

-وثانيا؟

-ثانياً ستدعمنا في حفظ استقرار مُلكْ فيلوباتور بأي وسيلة يطلبها وربما هذا هو سبب طلبنا بإخضاع جنودك لولايتي.

غمرني الضيق، كنت أشم رائحة الاستغلال والمؤامرة تفوح من بين ثُغْر الوزير البشع، بينما غلّفَت الحيرةُ وجه الملك ومال نحوي يستشيرني فقلت له هامسا: لماذا جنودنا؟ وما الداعي أن نخضعهم لولاية الوزير ونحن في كل الأحوال سندعم ملكهم.

أومأ كليومينس برأسه مؤيداً رأيي، وقال موجهاً حديثه لسوسيبيوس: ولماذا لا يستعين فيلوباتور بجنوده، ويصرف نظره عن القلة المرتزقة التي تدين بالولاء لي؟

-لأن استقرار البلاد يحتاج إلى جنودكم؟

-كيف؟

-ستعرف ليلة الغد يا سمو الملك عندما تلبي دعوة الملك فيلوباتور لمجلس سري سيعرض فيه الموقف بالكامل.

قالها في صَلفٍ ثم غادر مصطحبًا جنوده الذين كانوا ينتظرون خارج القصر وتلاشوا جميعًا مثل سرب من الغربان كان يسد الأفق وارتحل، وعدت لأشاهد حنان يلفها دخان معتم، وتكلمني بصوت عميق له صدى: أحمد، أحمد، ماذا بك لماذا لا تجبني؟

تلفتُّ حولي مستغرباً فوجدتها تكلمني وأنا شارد تمامًا فقلت: لا شيء أنا بخير ماذا حدث؟

أجابت مندهشة: كنت أكلمك ولا ترد، وطال سكوتك.

-أسف لإخافتك.

-حسنا، فلنصعد، حاول أن تنال قسطًا من النوم، أنت تحتاج للراحة.

وطاوعتها وصعدت معها، لكني سهرت ليلتي أفكر في كليوميلس الذي رأيته أمامي لحم ودم، كلمته وكلّمني، كان هو ذات الرجل الذي عرض لي أستاذ التاريخ صورته بالكتاب، أنا أعيش التاريخ بكامل حواسي وربما هو يعيشني أو بالأحرى، يسكن ذاكرتي.

غرقت في حيرتي حتى بزغَ الفجرُ مبدداً كلَ خيوطِ الليلِ المخيف، فخرجت لأبحث عن القط الذي هاجمني ليلة أمس، ولم أجده، لا أثر له بالجوار، وجدت العديد من القطط الطوّافة هنا وهناك، إلّا هو، ربما لم يكن قطًا، وربما لم أره، يبدو أن قدري هو أن جمع حقيقتي من بين بقايا أوهام مبعثرة، عدت للمنزل فاستقبلتني حنان بقلق بالغ، كانت تجلس إلى الدرج

تحتضن خدها بكفها. وما أن رأتني حتى هرعت لي، واحتضني، والدموع تترقرق في عينيها ثم سألتني بمزيج من الحزن واللوم: أين كنت. لقد انخلع قلبي قلقًا عليك.

جاوبتها بزيغ: رحت أبحث وراء ما أراه.

جذبتني من ذراعي بهدوء وأجلستني على الأريكة وقالت وهي تنظر بعيني: ماذا بك يا أحمد.

أجبتها محافظاً على جمودي: لا أدري! أنا في حيرة من أمري، كل ما أعرفه أن بعض الرؤى تنتابني وأظن أن القطّ الذي رأيته بالأمس كان إحداها.

-هل تظن أن ذكريات طفولتك بالمنزل هي السبب؟

-لا أدري.

وكانت فكرتها بسيطة وواضحة وأيضًا مباشرة. ربما أبسط من أن أفكر فيها بعقلي الذي اعتاد التعامل مع الأمور المعقدة. لماذا لا يكون المنزل يحمل سراً مخيفاً أو أنني أتعرض هنا لشيء خبيث يعبث برأسي على مهل، حتى يقنعني بالنهاية أنني قد جننت. وأنه يجب على أن اتخلص من زوجتي، منطقي هذا التفسير وبشدة.

صعدت معها لسريري أحاول سرقة بضع ساعات من النوم لأواصل رحلة البحث عن نفسي وبالفعل حصلت عليها بعد صراع مرير معه خسرت فيه ثلاث ساعات وثلاث دقائق.

* * *

(١٨- يناير- ١٩٧٧)

منذ سكنتُ البيتَ وعادتي الأولى حينما استيقظ هو أن أتطلع إلى الشاطئ من خلف نافذة غرفة نومي، ولا جديد، لا شيء يحدث، هو البحر نفسه بكل تفاصيله المعتادة، موجه الدؤوب، واتساعه اللامتناهي، صوته العميق ورائحة مِلحه، وحتى رماله المرصّعة بالودع، كنت وكأنني انتظر شيئاً ما، أو أتمنى أن يبوح بسر طالما أخفاه، أعلم أن لديه الكثير، فهو الشاهد الأساسي والقاسم المشترك بين كل ما يتشابك داخل رأسي من أحداث، لكنه كان دومًا يخذلني، تارة يلقي بزجاجة فارغة، وتارة أخرى يلفظ محارة سئمها، أو يتخلى عن سمكة طالما مرحت بين أحشائه.

واليوم أتى دافئٌ مشمس ومريح للأعصاب، على الرغم من تلك المسحة الباهتة التي تصبغ الشاطئ والأفق باللون الأخضر، وكأنني أضع نظارة شمسية خضراء العدسات، الرمال بلون النباتات الذابلة والبحر بلون الصبار العطشان.

دعتني حنان لمرافقتها في زيارة والدتها، وارتديت ملابس الخروج بالفعل ثم تراجعت ورفضت متعللاً بأنني لا أذكر والدتها وأن ذلك سيسبب لنا جميعًا الحرج، وتَفَهّمَتْ موقفي على مضض ومنحتني ابتسامة شاحبة وغادرت دوني.

وبرحيلها قررت أن أخصص بقية يومي للبحث وراء سر اللوحات المخيفة والتي يضج بها المنزل، وتتفنن في إخافتي ليلاً كأنها رُسمت خصيصاً من أجل

إرعابي، وبالطبع التخلص من لوحة المرأة الأفعى كان هدفي الأول، على الأقل سأضمن عدم ظهورها في خلفية خبر قتلي لزوجتي، عندما يحين موعده، وربما تكن بداية موفقة لتغيير الأحداث، وهذا يدفعني إلى التساؤل الأزلي، هل يمكن تغيير القدر؟ أم أنه أمر مستحيل، أم أن تغيير القدر هو من القدر أيضًا، مثل الدعاء الذي يرفع البلاء!، ربما لا أعرف الإجابة الآن، لكنّي بالتأكيد سأعرفها حين تنتهي قصتي.

جلست بغرفة الصالون والتي شهدتْ حادثة القطّ، وفي الجانب المقابل تماماً للوحة المرأة الأفعى، ورحت ألتهم بعيني كل تفاصيلها، ثم قمت من مكاني ومررت أناملي برفق على سطحها أتلمسها، بدنها من الخشب، وألوانها زيتيه، وإطارها مصبوغ بماء الذهب، يتصدر المساحة الرئيسية بها عنصران فقط، الأفعى ذات الرأس البشري، والرجل العاري الذي يمثل الضحية، أمّا الأفعى فمصبوغة باللون الأخضر وظلها ينطرح على خلفية اللوحة متضخمًا ليبث الرعب، بينما الرجل الذي تتسلقه منسحق بين عضلاتها باللون الأصفر، ما عدا عروق جسده التي برزت منقبضة بمزيج من الأصفر والبني، وظله يختلط بظل الأفعى على الخلفية المدخنّة والمموهة بمزيج من درجات اللون الرمادي، النور باللوحة كان يتوهج حول رأسيّ الأفعى والضحية في حين تقبع سائر المساحات الأخرى في الظلام، الرسام الذي أبدعها محترفًا ولا شك فاللوحة تنطق بالحياة، الشيء الوحيد الذي لا أفهمه بها هو كيف تُحرك الأفعى ذيلها هكذا، وكأنها تنتفض لتستعيد روحها، زاغ بصري كعادته فأغمضت عينيَّ علّني أركز، لكنيّ لم أكد افتحهما حتى أدارت الأفعى رأسها البشري نحوي وفتحت شدْقيها وانسَلت من حول الضحية، ثم فحّت في وجهي وطوّقتي في دورة لولبية واعتلت كتفي وغرست نابيها في رقبتي، ومع عَضَتِها صرخت وهاجمني

ألمٌ بشعٌ وكأن عمودين من النار اخترقا عنقي، بَهتت الملامح من حولي، انهارت الفواصل والحدود، انصهرت الأشكال، واندمجت الألوان الزيتية في لونها الرئيسي، الأسود، وبعدها غمرني ظلامه، ثم رحل بي إلى هناك، بعيدًا، حيثُ العتمة والبرد، كنت أتسلَّل أنا والملك كليومينس في جُنح الظلام إلى قصر فيلوباتور، من أجل حضور الاجتماع السري الذي دعانا إليه سوسيبيوس، وكان الملك قد آثر أن أرافقه دون بقية الفرسان لثقته في حكمتي، وعبرنا أسفل قوس البوابة الخلفية للقصر بصحبة اثنين من حرّاسه، ثم دلفنا إلى فناء صغير قادنا بدوره لمدخل حجري مدرج، وعنده استقبلنا ضَبْعان بوثبة هجوم وضحكة ساخرة، لكنهما تراجعا سريعًا وطأطنا رؤوسهما بإشارة من الحراس، فاسحين لنا المجال للدخول.

انسلَّلنا إلى قاعة الضيفان فهمس لي الملك ونحن على أعتابها: لازلت غير مرتاح لتلك الدعوة يا بانتيوس، ما الذي يخشاه ملك لكي يحدثنا عنه في الخَفَاء، ولماذا أرسل لنا سوسيبيوس ليمتحنا ما يسيل له لعابنا قبل لقائه، الملوك لا تعمل سرًا إلّا حينما تكون هناك مؤامرة، ثمة شيء يحاك خلف الأبواب، وأخشى أن يُقحمنا فيلوباتور في مؤامرة حقيرة تعصف بنا.

-ربما سيشنّ حرباً في بلاد الشرق ويريد دعمنا.

بدا غير مقتنع بتبريري وقال: الحرب يعلن عنها وتقرع لها الطبول لا تحاك في السر.

-ربما أراد إعادتنا إلى إسبرطة ودعمنا بالجنود والمال، لكن مع ضمان جديد.

-أي ضمان أغرم من أسرتي التي لازلت رهينة لديه بعد أبوه يورجيتس!؟ هل نسيت أنهم لازالوا أسرى لديهم منذ طلبنا منهم المدد في معركة أرجواس؟ ثم لماذا يريد سوسيبيوس إخضاع جنودي إلى إمْرته!؟

وكان كليومينس على حق وتسَّرب الشكُ إلى قلبي وبقوة، لكنّي آثرت الصمت والصبر، وانتظرنا بالقاعة، وطال انتظارنا، حتى أنني شغلت نفسي بتأمّل تفاصيلها التي كانت تنطق بالفخامة، مضاءة بالشمعدانات الفضية والقناديل الذهبية، وتنتثر فيها الشموع المعطرة لتبث القاعة رائحة الورد والعنبر، وبمنتصفها يسَتقرّ كرسي الملك المصنوع من الذهب الخالص وبتصميم أنيق، له ذراعين على شكل رأس سبع غاضب شعره مجدول، وظهره وجلسته مكتنزين بحشوة من ريش نعام مُغلَّف بالحرير الأحمر الزاهي.

أمّا على جانبي الكرسي فيجلس تمثالين لقطين أسودين يجاورهما كرسيين أقل فخامة، وتنتشر بهما نقوش هي خليط بين الرسوم المصرية القديمة وأوراق الغار.

وخلف كرسي الملك كانت تمتدّ وبعرض الجدار لَّوْحَةُ جِدأريه من الفُسيفساء لأفعى بوجه امرأة، تعبر عن "لاميا" ملكة ليبيا الجميلة والتي أحبها زيوس ولعنتها هيرا زوجته حينما اشتعّلت نيران الغيرة بقلبها. كانت اللوحة تجسيداً لأسطورتها المرعبة، وتعرض نقوشاً لقصة قتل هيرا لأبناء لاميا ولعنها لها وتحويلها إلى مصاصة دماء، ربما اختار الملك تلك اللوحة لكي يرهب زائريه، وهو اختيار موفق فاللوحة مُخيفة بالفعل.

قطع تأمُّلي حاجب القصر حينما دَلَف صائحًا وهو يشدُّ قامته ويضرب برمحه الأرض: "وارث الإلهين المحسنين المُختار من بتاح، قويَّة قرين رع وقوية حياة آمون، بطليموس العائش أبديا، محبوب إيزيس، الملك فيلوباتور"

ودخل من خلفه فيلوباتور في كامل أبهته وخُيلائه وعلامات الغطرسة بادية على وجهه، تكاد ملامحه تنفجر من إحساس العظمة الذي يمخر في نفسه، وتبعه وزيره اللئيم سوسيبيوس والذي لا يفارق الملك ذو الاثنين وعشرين ربيعا. كانت أول مرة أرى فيلوباتور بهذا القرب والوضوح، بشرته ملساء وحاجباه طويلان مقوسان، أنفه مستقيم وعيناه واسعتان جاحظتان، فمه صغير على شكل قلب وأذناه كبيرتان، شعره كستنائي متماوج وعلى وجهه تلوح ملامح الامتعاض الدائِم، كانت شخصيته تتجلي في ملامحه، شهوانيّ ومتعجرف.

وجلس على كرسي العرش وعيناه تجولان فيمنْ حوله ثم تحدث بصوت خائر لا يناسب ملكاً: قبل أن أخبركم لماذا جمعتكم دعوني أولاً أرحب بكم وأشار بسبابته لحاجب القصر، والذي صفق بكفيه داعياً أحدهم للدخول.

ودلف صف من الوصيفات يحملنْ الطعام والفاكهة والخمر، ومن بينهم اختالت ملينيا حبيبتي وعشيقتي، مرت أمامي كالطيف الرائق تحمل آنية نبيذ وسلة فاكهة تنطق بالنضرة والجمال، لكنه جمال يتواضع أمام فتنتها فهي أشهى من كل فواكه الأرض، استعار جمالها نضرة الفاكهة، وسرقت شفتيها لون الكرز ونضحت وجنتيها بحمرة التفاح، تخطر على الأرض بخصر كالكمثري وقوام كغصن البان، وتعقد جدائل من شعرها على هيئة سنبلتين متعانقتين على جبينها، مُسْكِرةٌ هي، نبيذٌ معتق، يطيح برأسي حد الثُمَالة، وأغيب عن عالمي قبل أن أرشُفه، عانقت نظراتي عينيها فذُقتْ سُكر الروح، خَمرُها لا يُحتسى للهروب، بل ليذيب النفس داخل كأس الولع والغرام، حلاوةً، ولذةً واشتهاءً، قريبة من روحي وكأنها وُلَدت داخل عينيَّ وشَهِد قلبي ملاعب صباها ومرحها، كأنها قَضَتْ عمرها تركض بين أضلُعي،

واقتربت مني ووضعت سلة الفاكهة أمامي ثم مالت على صدري في غنجٍ تصبّ لي النبيذ وهي تبتسم وتطعن فؤادي بسحرها. انهرت لحظتها وأنا أتذكّر كيف رأيتها أول مرة في قصر يورجيتس حينما استقبلنا ورقصت لنا. تذكرت كيف بدأ دخول المغنيات الجميلات ليلتها في أثوابهن البرّاقة توسطهن ملينيا بثوبها الأحمر المتألق، شعرها يلتف حول ظهرها وكتفيها العاجيّتين ليخطف النظر ويُثير المشاعر.

واستهلت رقصتها بأن تجمدت لحظة فبدت كتمثال قُدَّ من اللؤلؤ البديع وبدأت الألحان تعزِف والإيقاع يدقّ وأخذت تتمايل ليكشف ثوبها عن فخذين من المَرْمَر الدافئ الذي يفيض بالأُنوثة ورفعت هامتها لأعلي تتباهى بعُنقها الغزلاني المشرق كالبدر، ثم ضربت الأرض بقدمها ورنّ خلخالها فخفقت المُهَج، وطربت الأنفس، وبعدها تدفق صوتها بالغناء ليفيض من صوتها وجسدها معًا حنوًا عذبًا، مسّ شَغَاف القلوب وداعب الحنايا، ترنّمت أوتار القيثارات مع إيقاع صوتها وتماوج جسدها هائمًا مع الأنغام ترقص وكأنها عاشقة مُتيمة تنثر الغرام في الأجواء سحراً يسلب الألباب .

هي نفسها مَغزَوقة ناطقة بالشجن، صوتها يصدح بالحب، ويغزل العشق على مهل في القلوب، نبتة بريّة تفوح بكل عطور الطبيعة مع كل لفتة أو حركة، كل ما فيها دائري بَضّ، يتفجر بالفِتنة وينطق بآيات الجمال، لا يمكن أن تحوّل وجْهَك عنها، أنتَ أمام جمالها مسلوب الإرادة، سحرها يأسرك حد الضياع حد المذلة والجنون، أُنوثتها تذيب الروح وتفور أمامها كل رغبات النفس، لا تملك أمام إغراء مفِاتنها إلا أن تحلم بأن تترك أناملك بصمتها يوماً عليها، تتّبع عيناك حركات جسدها، تحاول أن تنفذ إلى أبعد نقطة في كيانها، وتتجاوز مسامعك طبقة الصوت وتناغم اللحن لتسمع نبضها، وهكذا هي، أيقونة الأنوثة.

وانتبهت هي لنظراتي التي كانت متعلقة بها وحدها فانفجر الخجل على وجنتيها واتسعت ابتسامة قاتلة لتشقّ شفتيها الساحرتين، وكادت تتعثر من نظراتي ولكنها تماسكت سريعاً حتى أنهت أغنيتها وانسحبت وسط اعجاب الحضور وتصفيقي الحاد.

عدت إلى مجلس فيلوباتور حينما أنهت ملينيا عملها، وغادرت مع الوصيفات وحل محل بهجة صوتها في أذني، رعونة نبرته واستبدلت عيناي ملامحها الجميلة بملامحه الفَظّة، ووقر في قلبي وقع انقباضه مُظلمة خاصة حينما بدأ حديثة:

- لقد جمعتكم اليوم لأستشيركم في أمر هام، قد يكون صادمًا لكم بعض الشيء، لكنه لا يحتمل الانتظار، نما إلى علمي أن مؤامرة تُحَاك من خلف ظهري تقودها أمي برنيكي وأخي ماجاس قائد الجيش لإقامة ثورة ضدي عن طريق الاستعانة بالجنود المُرْتَزَقة الذين يدينون لهم بالولاء وذلك لتمكّين ماجاس من كرسي الحكم وعزلي، ونصحني الوزير -وأشار ناحية الداهية سوسيبيوس -بالتخلص منهما قبل أن تشيع الفِتن والقلاقل في البلاد فما رأيكم؟

وكأنما ألقى حديثه برودة الموت في قلوبنا، شحبت ملامح كليومينس كأن الدماء لم تزرها منذ سنوات، وجمُدت أنا بلا أي مشاعر، ومرّت لحظة من الصمت، وكأنها الدهر، ثم استدركت أن الملك ينتظر رداً فلملمت ما بعثرته الدهشة من عقلي وبدأت أفكر وأعتصر ذهني. كان اتخاذ القرار عَصِيباً، لو وافقناه سنفتح بابا لن يُغلق، وسيحين دورناً عاجلا وليس آجلا، ولو رفضنا فسيفعل ما يحلو له وسيعتبرنا نعمل ضده وضدّ رغباته.

وجدت كليومينس يحك جبهته ثم مال إليه قائلاً: أرى أن استقرار الدولة وثباتها يتطلب وجود عدة أخوة للملك يؤول إليهم الحكم من بعده، ويصرفون عنه أطماع العائلات المنافسة، بالإضافة لأن ماجاس يحكم قبضته على الجيش، وربما يتفكك برحيله، وكذلك الأم برنيكي لديها الكثير من المرتزقة الذين يدينون لها بالولاء وقتلها سيثيرهم، لذلك أنصحك ألّا تفعل.

تمعّر وجه فيلوباتور في حين زمّ سوسيبيوس شفتيه وقطّب جبينه وقال: ما دام ماجاس على قيد الحياة ويطمع بالحكم فلا يمكن الوثوق بالجنود المرتزقين الذين لا يدينون بالولاء إلّا له.

تدخلتُ مُلطفاً الأجواء: الملك كليومينس يقدم النصيحة التي تخدم مصلحة الملك فيلوباتور ونحن كإسبرطيين نعمل في صف الملك.

قال سوسيبيوس في لؤم: وماذا لو كانت نصيحتكم خاطئة ونفّذت أمُ الملك وأخوه مخططهما، ماذا ستفعلون وقتها؟ ولأي الصفوف ستنحازون؟

كان ردّه مثل فخ محفوف بأوراق الغار، وبالفعل تسرع كليومينس وسقَطَ بالفخ قائلًا في زهوٍ واعتداد: الروابط بيننا تاريخية وتمتد منذ مائتي عام، إبان حرب قورنتية، حينما حالف نفريتس ملك مصر السفلى إسبرطة ودعمها، لذلك أنا على استعداد لدعم فيلوباتور بثلاثة آلاف من جنود "البولوبنيز" وألف من "الكريتين" وسأجيّشهم في صفه وأحركّهم إذا قامت ضده أي ثورة.

التقط سوسيبيوس الرد بذكاء وغمس رؤوسنا بالفخ عن آخرها وقال وهو يمسح شعر قطّه البشع: تعني أنك تؤيد التخلص منهم؟

-نعم لكن بشرط، أن تبدر منهم فعلة من شأنها قيام ثورة وليس مجرد نوايا.

استنكر فيلوباتور: هل تقترح أن انتظر حتى يقومون بثورة ضدي أولاً ثم أتحرك بعدها؟ هذا رأى غير صائب، وسيكون الوقت قد فات!

- نحن مضطرين لذلك، من أجل أن يكون لدينا مُبرِّر قوي للتخلص منهم سواء أمام الشعب أو أمام كتائب الجيش التي تدين لهم بالولاء.

حدجه فيلوباتور بنظرة ضيق ثم مال يستشير وزيره، والذي مال بدوره يبث أذن الملك البطلمي وساوسًا تحمل سمًا زعافًا وهو يرمينا بنظرة من طرف عينه. وبعدها أومأ فيلوباتور برأسه وأشار بانتهاء الجلسة، وانسحبنا في صمت وقد دق القلق مسماره داخل قلبي، وتأكدت أننا هوينا في فخ سوسيبيوس حتى النخاع، ولم يكن هناك دليل على ذلك أفضل من ضحكته الصفراء التي تركها لنا كذكري بشعة ونحن نغادر.

وحين رجعنا إلى القصر، سألني كليوميلس عن رأيي فيما جرى، وأخبرته بأدب أنني غير راضٍ عن سير الحوار، وشرحت له أن الوزير سوسيبيوس دفعنا إلى إعلان قدرتنا على تحريك ثلاثة آلاف من الجنود المرتزقة أمام فيلوباتور، وهذا الإعلان الصريح سيثير رِّيبته تجاهنا، خاصةً أنهُ مُصاب بهاجس ضدّ كل من يملك تحريك المُرتَزقة، ولذات السبب يخطط لقتل أخيه، وفكر كليوميلس في كلامي قليلاً وشعر أنني محق وسألني عن المخرج ولم يكن هناك بُدّ ساعتها من أن أصرّح له بأنني على علاقة بإحدى وصيفات القصر، وأنها ستنقل لنا ما يُحَاك بشأننا من مؤامرات فور علمها بها، هنا نظر لي الملك بامتنان وقال: أتدري يا بانتيوس، منذ ما حدث في ميجالوبوليس وأنت من أقرب الناس إلى قلبي، وأكثر من يحفَّوني بالحكمة والتفكير السَدِيدُ، مُنضبط، ذو خلق، وعادل، لا أدري لماذا لم أتخِذك وزيراً لي منذ سنين، ربما لو فعلت لمَا آلت أمورنا لِما آلت إليه الآن.

أطرقت برأسي في خجل، وتنهد هو بارتياح وغادرني، تاركًا ذكرياتي تصحبني في رحلتها بعيداً إلى هناك، إلى أسوار ميجالوبوليس، لازلت أذكر تلك الليلة، حينما تسللت داخل عباءة الظلام إلى ميجالوبوليس على رأس فرقتين من الفرسان، ورحت أنهب الأرض بحوافر فرسي قاطعًا الوادي الأخضر المُمتدّ والفرسان يلحقون بي. كان كليومينس قد عسكر بالجيش سراً على مقربة من المدينة، وأرسلني في مَهمّة محدودة، ألا وهي استطلاع نقاط الضعف في سورها المانع، وخاصة الِجدار الذي يقع بين البُرْجين الخلفيين، تمهيدًا لاقتحامها.

وكان المطر متواصلاً مثل شباك تمتد خيوطها من السماء إلى الأرض، والرعد يُدمْدم فوق رؤوسنا والبرد ينخر العظام، بينما البرك تفترش بساط الوادي والوحل كثيف زلق تنغرز به حوافر الخيول التي كانت تمخر الطين في عُنفُوَان والبخار ينبعث من فَرَواتها.

نسجتُ خطةً بسيطة تعتمد على السَّريُة، وأعددت لها فرساً إضافياً يجرُ عربة صغيرة حَمّلتُها بزوجٍ من الخنازير البَرّيَّة المقيّدة أرجلها وأفواهها بالحبال، وحينما اقتربت من الجدار توقفت بالفرقتين في سكون ثم مزقّتُ قيود زوج الخنازير بخنجري، وحررتهما مرسلًا خلفهما فارسين، الأول بالشرق والثاني تجاه الغرب يحاصرانهما بالعصى لدفعهما للركض بمُحاذاة السور وباتجاهين مختلفين.

وبالفعل انطلقت الخنازير تهرب في فوضى حول جدار المدينة وهي تُشَجِّر ناصبةً ذيولها كأنها تفرّ من سبع جائع، وهنا تراجع الفارسين وعادا أدراجهما حتى لا يراهما الحراس.

وعلى غير المتوقع، لم تحدث أي رِدَّة فعل من جهة السور أو البُرجَين تجاه الخنازير مما أثار رَيبتي، فتوجَّست قليلاً وآثرت الصبر، إذ أن العتمة شديدة، ومن المحتمل أن الحراس لازالوا لم يلحظوا زوج الخنازير بعد، ومضى قليل من الوقت حتى ارتجَّت السماء بالرعد، وسطع البرق مضيئاً الوادي عن أكمله، ومع تبدد الظلام انطلق سهم من جهة الجدار الجنوبي الغربي ليقطع الأفق ويستقر ببطن الخنزير الأول، فصرخ وخرّ صريعاً هامداً، بينما تواصل شخير الآخر وهو يفر مذعوراً على غير هدى.

كان دليلاً واضحًا على ضعف تحصينات الجِدار وتأكيدًا قويًا على أن العديد من البقع قد تركت دون دفاع، هنا اتخذت قراري وبدأت أتسلَّل في صمت تجاه الجدار الفاصل بين البُرجَين.

صنعتُ من الفرقتين طابورًا مزدوجًا حتى أصبحت مُقدِمتنا أسفل الجدار، وتأكدنا من أنه غير مُحصَّن بالفعل واطمئن قلبي أنه ليس فخًا، فأرسلت أحد جنود الكَشَّافة إلى الملك ليبلغه بضعف التحصَّينات لكي يتقدَّم ويلحق بنا، ثم أمرتُ الفرسان بإطلاق الرماح التي تحمل الخطاطيف والحبال إلى قمّة السور، وبالفعل انطلقت في رمية رجل واحد تشقُّ السماء لتستقر خلف سِياج السور الحجري وتتشبث به.

تدلّت الحبال الغليظة ذات العُقد والمربوطة بالخطاطيف من فوق السور إلى الأرض، وبدأ الفرسان التعلق بها للصعود واحداً تلو الآخر قابضين على الحبال بأيديهم، ومتسلقين الجدران بأرجلهم حتى استقرَّت الفرقتين فوق السطح في غضون دقائق عدة.

ضجَّ الفناء الداخلي للمدينة ساعتها بنباح الكلاب التي انبرت تثب عالياً في الهواء تجاهنا، لكننا تجاهلناهم وسيطرنا على مقالع الزيت المغلي، وتسللنا

منبطحين فوق سور المدينة، وحاصرنا كل النقاط الحصينة وغافلنا القلة التي تحرس السور من خلفهم، طعّنا هذا، وجندلنا ذاك، وبالنهاية أصبح السور الحامي للمدينة عارٍ تمامًا من أي دفاع.

وحينما وصل جيشنا، فتحنا البوابات على مصراعيها، ودخل الملك كليومينس والجيش إلى المدينة قبل أن يدرك أهلها ما يحدث، وأديت مهمّتي على أكمل وجه.

هرب النبلاء والمترفين كعادتهم، وبقي المجالدين، وقاومونا قليلاً ثم استسلموا بالنهاية بعد أن أمنّوا هروب الكثيرين، حتى لم يتبقى من سكان المدينة إلا ألف رجل، واحتلها كليومينس وأعلن بنبل وكرم أنه لن يدمرها أو يقتل شعبها وأنها ستبقى حليفًا له وتدين لإسبرطة بالولاء أمّا أنا فتنسمتُ لحظتها نسيمًا خاصًا بي يختلف أريجه عن نسيم مجد إسبرطه .. نسيم نجاحي، والذي كان يدفع ستارة غرفة الصالون ويداعب خَدّي، وأفقت على إثر أثيره الرطب، وعدت إلى واقعي في توقيت مُتزامنٍ مع وصول حنان للمنزل وكان الغسق قد حل.

أخبرتني ذكريات بانتيوس بمَغْزَى اللوحة، لذلك قررت ألّا أتخلص منها، بل تعاطفت معها، الأشياء لا تبدو دائمًا كما نراها، وربما كانت الأفعى هي المسكينة وكان الرجل هو الشيطان.

دخلت حنان غرفة الصالون وابتسمت قائلة باندهاش: أول مرة أراك تجلس هنا؟

-نعم الجو اليوم لطيف.

- أري أن حالتك النفسية أفضل، ليتك تجلس هنا كل يوم.

-سأحاول.

ابتسمت لي وأضاءت ابتسامتها الحياة، ثم قالت وهي تخرج من حقيبة يدها كاميرا بولارويد بها ميقاتي وتلتقط صورًا فورية: ما رأيك بأن نتلقط صورة.

انتبهت لحظتها أنني أرتدي القميص الذي ظهر في صورة الخبر، وأن حنان هي الأخرى ترتدي نفس الملابس التي ظهرت بها داخل ذات الصورة فانقبض قلبي، وضبطت حنان ميقاتي الكاميرا، وتركتها فوق الأريكة المقابلة ثم أسرعت تجلس بجانبي، ودار العداد ثم سطع في وجهنا ضوء التصوير المبهر. وعادت حنان لتستقبل الصورة التي كانت تخرج من فم الكاميرا وتأملتها وابتسمت ثم مررتها لي قائلة: ما رأيك.

أمسكت بالصورة -بين أناملي المرتعشة-أتفرسها، ورأيت حدودها البيضاء تحتوي مشهدًا للقدر وهو يدق رمحه بأرض كياني ورايته ترفرف معلنة النصر، فالصورة ذات المسحة المعتمة كانت هي ذاتها التي رأيتها في خبر الجريدة.

-ما رأيك أن نخرج اليوم إلى البحر سويا؟

انتبهت لحظتها لحنان وقلت وأنا اسبح في الشرود: أوافق.

* * *

(عميت)

بالمساء جمعت مجموعة من جذوع الشجر المجتث، والمتناثر أمام المنزل وخرجت مع حنان إلى البحر، وعند الشاطئ أوقدت النار لتدفئنا، وجلسنا خلفها مُلْتفين ببطانية واحده نشاهد رحلات الموج الذي كان يسافر فتودعه الرمال باشتياق، ثم يعود فتحتضنه بحفاوةٍ.

أحقد عليه لأنه يذهب حيث يشاء، ثم يعود ليجد شواطئ تنتظره لتضم شتاته، أما أنا فأسافر لأقصى الزمن وأعود فلا أجد إلّا ضياعًا جديدًا وحضن خاوٍ إلا من الشّوْك.

كانت حنان مندسة داخل حضني مسبلة عينيها في هيام، وكنت أحيطها بذراعيَّ وأضمّها إلى صدري بقوة، يلتمس كل منا دفء الآخر، ويمنح كل منّا الأمان للآخر، ومَوْقَد النار من أمامنا يلتهم الحطب بألسنته المتراقصة، لينفث الدفء حوله ولتمتزج رائحة احتراقه برائحة البحر، وأرحت ذقني فوق شعرها المتناثر على صدري وانسحب الوقت حولنا بنعومة وأنا مستغرق بالتفكير في الصورة التي التقطها حنان لنا، كانت بمثابة إعلان واضح على أن القدر سينتصر مهما حدث وأن النهاية ستأتي كما يريد ولا أمل في تغييرها.

غلّفني الحزن وتردد بأذني مقطع من معزوفة زامفير الكئيبة "نزهة على صخرة معلقة"، شعرت وكأن لحنها ينساب فوق سطح البحر، ورأيت نفسي أقف على حافة صخرة توشك أن تنهار، أنظر تحت قدمي ليقابلني جرف

قعير يفور الموج عند أرضه بين غلظة الأحجار الملساء القاسية، وبلا تردد قفزت وحلقت فاردًا ذراعي في الهواء، ثم اصطدمت بالحجارة وتخطفت كل منها قطعة مني وأصبحت أشلاء مبعثرة.

-كم أعشق الجلوس إلى البحر داخل حضنك يا أحمد. قالتها حنان بصوت ناعس لتلم أشلائي المبعثرة بين أحجار تصوراتي الكئيبة، اعتصرتها داخل حضني بقوة، فتنهدتْ وهمست: ليتك تنسى كل العالم وتتذكرني أنا وحدي يا أحمد.

نكأتْ جرحي دون أن تقصد، وأثارت بداخلي غبار الوجع الذي كان مطر الشرود قد أخمده، لماذا لا أذكرها، كل ما يتعلق بها منسيٌّ بداخلي وكأن زواجنا سجين طُرح به ودون محاكمة وراء قضبان ركن مظلم من ذاكرتي، كي لا أراه أبدًا حين أمُرُّ بين أزقتِها.

كنت أظن أن الأمور المبهجة تنقش لنفسها وسماً على جسد الذكريات لكنني كنت واهمًا، فها أنا ذا أنسى أجمل أيام عمري، وأذكر فقط متاهات تزيدُني ألمًا وعذاباً، لحظاتي السعيدة تسّاقط من ذاكرتي كأوراق الخريف، بينما تمتد الأليمة مع جذوري لتتغذى على أوجاعي، لازالت هذه السماء السرمدية بكل نجومها وأقمارها لا تَسِعَني ويبقى هذا الخضم الممتد أضيق من أن يحتَمِلني، ورغم ذلك لا تجد حنان الأمان إلاّ داخل متاهات صدري المضطرب.

شخصتُ مع جُذوة النار الراقصة، وهي تنعكس على صفحة البحر المُتموّجة وكأنها خصلة من الحرير الأصفر غُزلت بين نسيج عباءة فاحمة، ويبدو أنها لاحظت تحديقي بها وأن ذلك أرضى غرورها، فبدأت تضفر

نفسها وتتحول إلى جدائل مفتولة ثم اقتطعت نفسها من بين نسيج البحر الممتد وطارت باتجاهي وطوقت عنقي وبدأت تعتصره.

شعرت بالصداع يدور بين جانبي رأسي، والغثيان يُهيّج معدتي ثم انفكّت جدائل الموج عن عنقي، وطارت في السماء محلّقة بجناحين كبيرين تعاظما حتى شكّلا خيمة مظلمة غلّفت أفق تلك الليلة الصافية من ليالي الأربعينيات حينما كنت أغلق دكاني عند العشاء بصبحة كميل كعادتنا، وارتفع جرس هاتف الدّكان ليشقّ السكون، أهمله كميل وواصل إغلاق الدفة اليمنى وكأن شيئًا لم يكن، لكنّي حدجته بنظرة حارقة فتوقف والدكان نصف مفتوح، وأشحت له أصرفه لأفتّك من رُعُونته، فانطلق يبتعد فرحًا، ودخلت الدكّان لأردّ، وجاءني على الطرف الآخر صوت عميت وهو يصيح بلهفة: نعوم مُرّني فورًا.

-ها؟ هل ترجمت الوثائق؟

-نعم تعال وستعرف.

-لم تمرّ إلا ثلاثة أيام فقط يا عميت، سأحاسبك على ثلاثة وليس سبعة.

-لا داعي لذلك، فقط تعال فوراً.

أغلقت الهاتف والدكان وركبت حنطوراً ليوصلني إليه، وسرحت في مُكالمته تلفني ظلمة الليل البهيم ويصحب أفكاري صوت سنابك الحصان وهي تدّقّ الأرضَ بإيقاع منتظمٍ، بينما يلذع أنفي الحساس رائحة فروة الحصان المخلوطة برائحة التبن وأيضا عرق السائق، نبرة عميت كان بها حماس يطرّب له قلبي، لابد أنه وجد شيئًا ثميناً هذا الداهية، أشعر أنني سأرتقي جبل الثروة قريبًا على يديه.

كانت الليلة باردة لكنها هادئة يكفي أننا لم نعد نسمع صوت صافرات الإنذار ولم نعد نحتاج لأن نهرع للمخابئ بعد هزيمة المحور وانتصار الحلفاء منذ عامين، وظلّت العَرَبَة تترنح بي لربع الساعة حتى توقفت أمام منزل عميت، فنزلت عنها وحاسبت السائس دون أن أفاصله على غير عادتي، وغادرته لأرتقي الدرج المُتهدّم لبيت عميت، والذي أفضى بي إلى داخل بطن "الكتب خانة"، ولم يكد عميت يراني أدخل عليه، حتى هبّ بجسده المُترَهّل وجرى نحوي قائلا: نعوم!

استعجلته مشيراً بكفيّ: ها ماذا وجدت؟

-مفاجأة ستغير حياتك للأبد يا عزيزي، المَخطُوطُة خريطة لسِرْدَاب.

استنكرت وأنا ارفع شفتي العليا حتى كادت تلتصق بأنفي: سِرْدَاب!!

-نعم سِرْدَاب قديم طمره الزمن، ومن حُسن طالعك أن تلك المَخطُوطات وقعت بيد من لا يفهم قدرها، أنت محظوظ يا نعوم، وبشدة.

-محظوظ بماذا؟

-بأن تلك المخطوطات وقعت بين يديك.

-لماذا؟

- ألم تفهم بعد، السِرْدَاب القديم يمكن أن يحوي مقبرة قديمة لا تُقدر بثمن.

طار قلبي فرحاً، وخرجتْ مني الكلمات مفعمة بالشغف: اجلس واشرح لي الأمر بهدوء يا عميت، بهدوووء شديييد، وتفاصيييل كاااااملة.

التقط أنفاسه، وعاد يجلس إلى المكتب، وفرد أمامي المَخطُوطَات والكتاب وبدأ يشرح: أحدهم دفن سراً داخل سرداب قديم وهذه الرسالة تفيد بذلك:

" حبيبي بانتيوس، باركتك الآلهة، لا تحزن، حبنا سيبقي، سنعيش ونتزوج، حتى يملأ أبناءنا ربوع اليوروتاس مرحًا، وتسقيني بكفيك من مائِه العذب، وأنهل على ضفافه من رجولتك، وتنهل من أنوثتي كيفما شئت، ومتى أشاء، وعندما نموت ستُحكي قصة عشقنا عند سفوح الأوليمب وتُعزف على سيرتها أعذب الألحان، اطمئن يا حبيبي، لن أخلف وعدي لك، حتى لو اضطررت لأن أجرد شموس السماء من ردائها من أجلك، لا تستهن بامرأة عشقت، فها أنا ذا آتيك اليوم بالبشرى، ولأبلغك بالسرِ الذي منحتني إياه الملكة برنيكي قبل مقتلها، رسالتها لماجاس بها خريطة لسرداب يحمل لك الخلاص مما أنت فيه، انتظرني، بعد ثلاثة أقمار، عشيقتك المخلصة للأبد ملينيا "

ثم انتقل إلى المَخطُوطَة الأولى وقال: وهذا الرَقّ هو خريطة لمكان السِردَاب، وهي خريطة صحيحة حسب هذا الكتاب، قالها وهو يشير بأصبعه إلى سطور أحد مراجعه ثم أردف: تاريخ الرق قديم، يرجع إلى عصر البطالمة، لكن المُثير هو أن المَخطُوطة بمثابة رسالة حب ووعد بالخلاص والحرية من فتاة إغريقية إلى حبيبها الفارس الإسبرطي، وهذا عجيب فالإسبرطيين لم يسكنوا الإسكندرية أو يحكموها يوما ما على حد علمي.

-لا أفهم شيئاً، ماذا تقصد؟

أقصد أن الخريطة تشير إلى موقع قديم المفترض أنه كان وقتها ومنذ ألفي عام تقريبا، يبعد عن البحر بمسافة ليست كبيرة، ولا ندري الأن حسب مدّ

البحر وعوامل التجريف، هل ابتلعه البحر أم لازال على الأرض! لكن النقطة التي في صالحنا بالتأكيد هو أن احتمال عثور أحدهم على ذلك السرداب ضعيف، وإلا لاختفت المخطوطات وما وصلت إلينا. وكما تعرف قديماً لم تكن هناك الأدوات اللازمة لتحديد المواقع كما هو الحال الآن، مثل البوصلات المتقدمة وأجهزة المسح والتنقيب، هذا بالإضافة لنقص الخبرة الجيولوجية. الأمر المقلق الوحيد في هذا الكشف هو وجود علاقة للفارس الإسبرطي بالسر فهو يبعثر كل شيء؟

-لماذا؟

-لأنه ربما يكون قد عثر على السر الذي ذكرته له حبيبته في الرسالة وأخذه.

-وما عساه يكون ذلك السر؟

-عندما تدفِنُ ملكة سرًا بسِرْدَاب، فلن يكون أقل من مقبرة أو كنز أو حتى معلم أثَرِيّ.

-وكيف نعرف أن هذا الفارس لم يستخرج الخبيئة؟

-لا أدري.

-حسنا دعك من هذا الفارس "البيزنطي" أو أيًا كان اسمه، ما يعنيني هو موقع ذلك السِرْدَاب هل تستطيع تحديده؟

هرش رأسه الأصلع وقال: أظن ذلك، لكن البحث سيتطلب بعض الوقت، وفركَ سبابته وإبهامه ثم أردف: والمال؟

تمعّر وجهي من الضيق وسألته وأنا أضيق حدقتي: كم تريد؟

نظر داخل عيني مباشرة في تحد سافر وقال: نعوووووووووووووم.

-نعوم ماذا؟ ولماذا تتكلم من منخارك؟

-نصف محتويات السِرْدَاب يا نعوم، سواء كان كَنْز أو مَقْبرة أو حتى مجرد جدران منقوشة.

انتفضت كأن عقرباً لدغني وقلت: نصف ماذا؟ يا لك من جشع.

-جشع!! هل تمزح؟ لو صَحَّ ما بالمَخطُوطَة ووجدنا مَقْبرة فإن نصفها فقط يكفي لأن تصبح أحد أثرياء القطر، بل لن أكون مبالغاً لو أخبرتك أننا يمكن أن ننشئ بنكًا مثلما فعل نسيم بك موصيري.

-ولماذا أستعين بك؟ يمكنني الاستعانة بآخرين لتحديد المكان وانتشال المحتويات، ومقابل عِدة جنيهات فقط، بل يمكنني زيارة "الكتب خانة الخديوية" والاستعانة بخبير عوضًا عنك.

-ولماذا لم تفعل منذ البداية؟ ثم استطرد ومال نحوي: أنا أجيبك، لأنك لن تخاطر بأن يتحول سِرَك إلى مشاع ويعرف به القُطر كله يا عزيزي.

-تسأل وتجيب نفسك يا عميت؟ لابد أنك قد جننت والدليل على ذلك هو أنك لا تستحي أن تحشر أنفك الأفطس في ممتلكاتي الخاصة.

-تقصد ممتلكاتنا.

انتزعت اللفافات ودَسَسْتُها داخل حقيبتي القماش وقلت غاضباً: سأبحث عن غيرك.

-فات أوان ذلك يا نعوم، فات أوان ذلك، أولًا لأنني أصبحت أشاركك السرّ، وهذه فرصة عمري ولن أضيعها، وثانياً لأنني سأبحث عنه مُنفرداً إذا رفضت اقتسامه معي، وربما أصل إليه قبلك، فكر جيداً في عرضي، أقدم لك حلاً خاليا تقريبا من المشاكل، سنقتسم تكاليف الانتشال، ونقْتَسِم

المحتويات، وسأكون مسئولاً عن أيّة خسائِر إذا عجزت عن القيام بدوري وتحديد مكان السِرْدَاب، لأنني في كل الحالات كنت سأتحمل التّكالِيَف لو نقّبت عنه بمفردي.

تمالكت أعصابي وسألته: وما الذي يضمن لي أن السِرْدَاب به كنوز أو مَقْبرة؟ لماذا لا يكون مجرد سِرْدَاب فارغ ؟

- السِرْدَاب وحده سيمثل ثروة طائِلة باعتباره أثرًا قديمًا خاصة إنْ كانت جدرانه مُزّينة بنقوش، وبما أن الوثيقة تُشير إلى سرًا ملكيًا فالمتوقع هو العثور على شيءٍ ثمينٍ بالداخل.

-لكن الفراعنة كانوا لا يُفْصِحون أبداً عن أماكن مقابرهم وسراديبهم الثمينة، وربما كانت المسألة كلها خدعه لتضليل اللصوص.

-لا تنسى أن المَخطُوطَة نفسها سَرِيَّة؟

-وبكم تتَوَقَّعَ أن يُقدر ثمن المحتويات؟ إن كان هناك محتويات بالفعل؟

-بمئات الآلاف.

انتابني الذعر على عكس المفترض وسألته: هل أنت متأكد؟

-نعم، وربما أكثر، مال كثير يا نعوم مال يكفي لإزاحة رينيه بك قطّاوي من منصب رئيس الطائفة والجلوس مكانه في الانتخابات القادمة.

كان ما يقوله بمثابة وجبة دسمة يسيل لها لعابي بشكل مستفز، وكأنني عبيط يطفح من فمه الرغاء، لدرجة أنني تصورت نفسي أجلس فوق جبل من المال جنبًا إلى جنب مع رينيه بك قطّاوي داخل نادي "مكابي القاهرة" ومن حولنا بارونات الطائفة سلفادرو شيكوريل، وإيزاك ناكامولي، وألبرت حاييم يخلعون لنا القبعات وينثرون حولنا الأموال، والراقصات يتمايلن

ويغنين وكؤوس النبيذ تقرع يمينًا ويسارًا، لكني أفقت من أحلام العصافير تلك حينما وجدتني أبعثر أموالي في دفع تبرعات الأريخا لمدارس الطائفة والمعابد وقلت في عناد: لازلت أحتاج لبعض الوقت من أجل التّفكير في عرضك للشراكة يا عميت.

-لا يا نعوم إما القبول الآن أو الرفض الآن.

ورغم إصراره، إلّا أنني رفضت أن أمنحه رأيًا قاطعًا، ووعدته بالتفكير في عرضه، على الأقل مؤقتاً. بداخلي شيطان مريد يكره أن يشاركني أحدهم مالي، شيطان شره ونشط، انتعش على ذكر المال، وأبي أن يفارقني حتى عندما رحلت من عند عميت، وذبت في سكون الليل وذابت معي أماني تلك الليلة المُقمرة.

استرد بصري الزائغ وضوحه، وانتبهت من غفلتي على رائحة دخان تنتشر بالأجواء، لازلت جالسًا أمام البحر أضم حنان في حضني، وثمة أبخره تتصاعد من الموقَد إثر إطفاء ألسنة الموج لجُذوةُ النار، والتي لم يتبق منها إلّا الرماد.

أكدت لي ذكرياتي هذه المرة وجود رابط بين نعوم وبانتيوس فالرسالة التي عثر عليها الصائغ اليهودي كانت مرسلة بالفعل للفارس الإسبرطي لكن يبقى السؤال الأهم، هل عقلي يبتكر تلك الحكاية أم أنها حدثت حقيقة.

أجلّت التفكير في تلك النقطة، وحملت حنان على ذراعي حتى وصلت غرفة نومنّا، فأرخيت جسدها على سريرنا ودثّرتها من البرد ببطانيتها، وأشعلت ميفأة الغرفة، ثم طرحت جسدي بجوارها ونمت، وهذه المرة انصاع النوم لي بل أتى مرغمًا.

* * *

(١٩- يناير- ١٩٧٧)

حينما كنت أنزل الدرج في الصباح قابلتني لَوْحَةُ المدَرَّج الرُّومانِيِّ، والتي كانت حنان قد علَّقتها على الجِدار الفاصل بين غرفتي الصالون والمكتب، ورغم أنني أراها باستمرار إلّا أن شيئًا ما شغلني بها اليوم وجعلها تعلق بذهني فجأة، ربما كانت ذكريات بانتيوس هي السبب لأنها تمنحني شعورًا بالألفة تجاه كل ما يمتُّ لحضارته بِصِلة! وربما هو الفضول! لا أدري، المهم أن رغبة ملحةً اشتعلت بداخلي لرؤية المدرج على الطبيعة.

ولذلك لم يكد قرص الشمس يرتفع، إلا وكنت أخرج لزيارته، وفوجئت وأنا في طريقي له بالكثير من المظاهرات والاعتصامات العمّالية خاصة من منطقة المكس ومررت بالعديد من عربات الترام والنقل العام المقلوبَة على جانبها والدخان يتصاعد من بين أحشائها، وسألت العديد من المتظاهرين عن السبب–بعد أن لاحظت التباين في أفكارهم السياسية بشدة بين اليساريين واليمينين والإخوان-فاتفقوا جميعًا على أن ثمة مشاكل سياسيّة كبيرة تمرُ بها البلاد، وأن أعمال عنفٍ قد اندلعت منذ أمس في عدّة مناطق، مما جعل السُلطات ترفع درجة الطوارئ والاستنفار العام لحدها الأقصى، وأخبرني سائق التاكسي -والذي وافق أن يقلّني بعد محاولات مستميته لإقناعه، انتهت بمنحه عشرين جنيها كالعادة-أنّ هناك غضب شعبي لإلغاء الحكومة الدعم على السلع الرئيسية، وأقسم لي أنّ الشعْبَ لن يسكت وسيجبرُ الوزير على الرضوخ لرغبتهِ وإعادة الدعم وحسم حواره السياسي

بجملة اختصرت كل شيء " تصور يا أستاذ أنهم رفعوا ثمن الخبز خمسة مليمات دفعة واحدة!".

لم أعلق وتحملت -وعلى مضض-ضجيج المشاحنات التي كان يسلّي بها نفسه طوال الطريق سواءً مع المارّة أو سائقي العربات الأخرى، يشيح لهذا بالابتعاد ويتوعد آخر وينذر الثالث، ويقطع الطريق على الرابع، وهو يرضع النيكوتين من سيجارته. بينما كفّه لا يترك بوق السيارة، وعجلة القيادة تلف داخل كرشه المتدلي، تجاهلته تمامًا لأن كل هذا لم يكن يعنيني، رأسي كان منشغلًا بشيء واحدٍ فقط، المدرَّج.

انتهت مغامرتي مع السائق، بعد مناورات ثعبانية منه لتجنب الشوارع التي يحتشد بها المتظاهرون، ولفظني التاكسي أمام مدخل المدرَّج لاكتشف أنني ضيفه الوحيد هذا اليوم، وربما كان ذلك أفضل لي وله، حيث منحني الفرصة الكاملة للاختلاء بكل تفاصيله المنقوشة بالذكريات، ولذلك وقفت وسط مدرجّاته المقوّسة في ثوب القاضي الذي يستنطق شاهدًا، من أجل أن يبوح بسرٍ طالما كَتمهُ، كي يمنح البراءة لمتهم يُحَاكمُ بجريمة قتل نفسه.

المكان ساحة مفتوحة تمتد تحت سماء معتمة، ترمي بظلالها فوق كل أركانه، بينما يقف المبنى وسطها في إباءٍ غير مُبالي، وكأنه اعتاد مراهقة الطقس وحملقة السياح والمُتطفلين.

قوي هو، رُخاميٌّ التكوين وعلى شكل حَدوة حصان، مَصاطبُه مُرقَّمَة من الأسفل للأعلى بعلاماتٍ لتنظيم عملية الجلوس، وتنتهي قِمّته ببقايا مقصورتين من الأعمدةِ الرُّومانِيَّة، ويَلتَفُّ حول مدرَجَّاته جِدّار سَميك من الحجر الجيريّ يغلّفه جِدّار آخر يمَتدّ منه سوران مثل ذراعان.

تفقدتُ كل حجر وذرة رمال بالمدَرَّج، لأنني كنت جائِعاً إلى التعرف على معالم تلك الحضارة التي أصبحت أعشها كأقرب ما يكون في ذكرياتي، صعدت إلى القِمّة وجلست بين العمودين وتحتَ المَقْصُوَرة وسرحت في تلك الشواهد العظيمة وأنا أجول ببصري معها ومضتْ الدقائق حتى شعرت بالدرجات المقوّسة تدور من حولي والأشجار الوارفة تركض باتجاهي، ومادَ بي المكان حتى أبصرت السُحب تذوب مثل قطع الثلج لتُفسح المجال للشمس التي كانت تنفثُ لهيها في قلب السماء وتتوهج ثم بدأت تسطع في وجهي.

لم يستمع فيلوباتور لنصيحة كليومينس، قتل أخاه وسمَّم أمهُ بتدبير من وزيره سوسيبيوس، والذي كان يُشرف بنفسه على اعتقالها، ولم يمضِ أسبوع حتى سارَ فيلوباتور على خُطى أسلافِه، وأعلنَ استكمالَ المُسَابَقَات البطلمية، والتي كانت تعدُّ نِداً قوياً للمنافسات الأوليمبية بل وأكثر جاذبية للمُتَسَابِقين منها في بعض الأحيان، حيث أن جوائزها كانت أقيمَ، ومدّتها أقصر.

فهمنا أنه يفعل ذلك للتغطية على جريمة قتله لأمه وأخيه، وبدأت تساورنا الشُكُوك حول شُبهة قتلهِ لأبيه أيضًا، مما دعاه لتسمية نفسه "فيلوباتور أي المحب لأبيه" بل وتسرّب إلينا القلق حول نواياه تجاهنا خاصة في ظل كَرَاهِيَة وزيره لنا، ذلك الثعبان الذي يريد إحكامَ قبضته على مَقَاليدِ البلاد.

أما عن المُسَابَقَات فكانت مُمَتدَّة منذ عهد بطليموس الثاني، وهو أول منْ دعا لإقامتها تكريمًا لذكري أبوه بطليموس الأول، واستمرت كاحتفالية يدعى إليها الجميع من مشارق الأرض ومغاربها.

وكالمُعتاد أرسل فيلوباتور سفرائه لكل الإمارات، سواءً التي كانت تخضع لحكمه، أو حتى غيرها، بما فيها مقدونيا نفسها، وأجزل العطايا بسخاءٍ

للمُشاركين فيها بُغية إنجاحها، وبالفعل قَدِم إليها الأبطال من كل حدب وصوب.

كنت جالسًا في مقاعد المُتَسَابِقين، انتظر بدء المباراة النهائية للمُصارعة الحرة، والتي نشترك فيها بفارسنا مارسياس، الرجل الأمهر في إسبرطة، وكان بقية الفرسان الإسبرطيين قد استحوذوا على المراكز الأُوّلْ في سباقات العدو والمُلاكَمَة والمُصَارَعة ومُنَازَلة قوة الذراع، وبالطبع أثارَ ذلك حنقَ الكثيرين من المُتَسَابِقين.

وكانت الحلبةُ مثل أي حلبةٍ إغريقيةٍ أخرى، ميدانٌ مُستدير أرضه رَمليَّة جافه يفترشها الحصى الصغير، ومُحاطة بمَدرَّجات للمُشاهدين، وبوسط المدرج الأمامي ترتفع مَقْصُوَرة مُظلَّلة لكبارِ الشخصيات معزولة بُسِيَاج من البرونز، وتستقر بداخلها الكراسي الفَخْمَة المُذهَّبَة، وينتشر بها الخدم يحملون الخَمْر وأطايب الطعام والثمار ويحفّون بها الملوك وكبار الزوار، والذين كانوا يجلسون بالصف الأول وحولهم العَبِيد يلوحون بالمراوح في رَتابَة استجلابًا للهواء المنعش، أما خلفَ الرجال فكانت مقصورة النساء والتي كانت ترتفع قليلًا و معزولة بسِيَاجٍ خاص.

نفخ الحاجب النَّفِير وقُرِعَتْ الطبول بشكل مُتتابع سريع فاندفع كلًا من فارسنا مارسياس وخصمَه المُصَارِعُ القبرصيُّ العملاق، وظهرا عُريانين من خلف بوابة تقع أسفل المَقْصُوَرة، ثم اتجها نحو دائرة بمنتصف الميدان، وانتصبا يُحيان الملك فيلوباتور ووزيره وحاشيته، وأيضًا كليومينس والعديد من أُمراء فينيقيا ورسل الملوك المدعوّين، والذين كانوا يتابعون المباريات وهم يصفقون برَّصانَة ووَقَار.

دار مارسياس حول نفسه دورة كاملة حيّا فيها العَامَّةُ الذين كانوا يجلسون بالشمس يصيحون بملأ حناجرهم، ويُلهبون حماس المُتَسَابِقين، بينما حيّا منافسه المقصورة فقط. أشفقت على مارسياس من منافسه، كان وحشٌ كاسر، أقرع وذو لحيةٍ مضفورة تتدلَّى حتى بطنه، وله حاجبين كثين مثلثين وشارب متدلٍ يغمر فمه ويقترن بلحيته. أما وجهه فقاسٍ ملئ بالنُّدوب وتبرز كل عضلات جسده حتى تكاد تنفجر.

وعلى العكس منه، كان مارسياس أصغرُ حجمًا، وشعره كستنائي كثيف خصلاته مُلتفَّة كالخواتم، وملامحه بريئة مثل صبي صغير. لكنه رغم ذلك كان فَتيّاً رشيقًا وتبرز عضلات ذراعيه مثل جبلين صغيرين، ساورني القلق، وشعرت أن مارسياس سيكون أول الخاسرين اليوم، خاصة أن قوانين لعبة المُصَارَعة الحُرّة تسمَح بكل شيء، اللكم والركل والاعتداء بكافة أشكاله عدا فقئ العين والعضّ وضرب العضو الذكري، هذا بالإضافة لأن المُصارع القُبرصيّ وصل لتلك المباراة النهائية بعد خوضِه غِمَارَ ثلاث مباريات، فاز بها جميعاً باستسلام الخَصَم. حيث كان يرفع خُصُومه من جذوعهم في الهواء ثم يسقط بهم أرضاً واضعاً وجوههم في التراب وركبته فوق ظهورهم في حركة تخير المنافس بين انكسار أضلاعه أو الاستسلام الفوريّ.

حانت لحظة البَدْءِ، ودخل القُضاة يرتدون الوشاح ويحملون العصا والسَّعَفَة، واتجه كل قاضٍ نحو أحد المُتَسابقين لمراقبته. بينما قُرِعَت الطبول مرةً أخرى وتحفز المتسابقيْن للبدء، حتى سكتت الطبول فانطلق كل منهما باتجاه الآخر واصطدما بعنف، ولم أرى مارسياس بعدها، تلقى لُكمة عنيفة فطار للخلف عِدّة أمتار وسقط على ظهره وقد تفجر الدم من فمه وغمرهُ غبار الحلبة الذي ارتفع فوق رأسه كالغيمةِ الصغيرة. ومن بين غيمة الغبار لمحته يبصق الدم المخلوط بالغبار من فمه بعصبية ويفرك

عينيه محاولاً رؤية خَصمه، لكنه تأخر، لم يكد يفتح عينيه حتى تلقى ركلةً في بطنه تلّوى على إثرها وانكمش على نفسه من الألم.

بعدها توالت الركلات من العملاق القُبرصيّ، وارتجّ لها جسد مارسياس كأنها زلزال، لكنه كان صَلدا، تحملّها وانتظر حتى حانت اللحظة المُناسبة، ورفع العملاق قدَمَهُ الضخمة ليدهسه بها فجذب قدم العملاق الثابتة بقوه وأسقطه على ظهرِه، ثم اعتلى صدره وراح يلكُمه في معدته وبكل ما يملك من قوة، تلقى العملاق الضربة الأولي بتأوه شديد لكنّه في الثانية امتص ضربة مارسياس وأطبق بكَفّه على قبضته ثم ناوله لكمة أخرى في فكه فانتزعه من مكانه ليسقط على ظهره مرة أخرى ويطير معها أحد أسنانه، تفل مارسياس الدم، بينما قام العملاق من رقدته واقفاً وانقض عليه مُطوقًا خصره، ثم رفعه عالياً بشكل مقلوب، وهنا شهق الجمهور انتظارًا للحظة الأخيرة، والتي سَتعُلَن بها هزيمة مارسياس المُعلّق من خصره في الهواء، وحاول مارسياس التملص من العملاق بجنون وهو يميل بجذعه يميناً ويسارًا في عصبية، ورأسه متدلية للأسفل والعملاق يعصر خَصره أكثر بذراعيه الغليظتين، واللتين انتفخت عروقهما الزرقاء للحد الأقصى، بينما تجعّد وجهه من قوة اعتصاره لخصر مارسياس، لكن ولحسن الحظ، مارسياس كان أرشق منه، مال بجذعه في ليونة، ولكم ركبة العملاق فاختل توازنه، وخر راكعًا على ركبة واحدة، وأصبح جسد مارسياس على الأرض فانثني، ولكمه في رقبته فسقط على ظهره ومارسياس فوقه، لحظتها أفلته وهرب مبتعدا وقام العملاق سريعاً يحاول القبض عليه مرة أخرى، وجرى نحوه بغضب عارم وجري مارسياس هو الآخر باتجاهه وانتظرنا لحظة الاصطدام الجديدة، لكنها لم تأتِ، طوق العملاق بذراعيه الهواء بعد أن خدعه مارسياس وزحف مُتزلجاً الرمال، ومرّ من بين قدميه إلى الجهة

الأخرى وهنا عرفت خطته، أراد أن يجعل الشمس في مواجهة عين العملاق، وبالفعل لم يكد العملاق يستدير حتى سطعت الشمس بوجهه في اللحظة التي طار فيها مارسياس بقدميه وركله في رقبته ركلة مزدوجة ترنح على إثرها العملاق بشده، وهمهم بغضب لكنه لم يسقط وحاول استعادة توازنه إلاّ أن مارسياس لم يمهله، جرى نحوه وبكل سرعته وصدمه في قلبه برأسه، هنا انحنى العملاق وصرخ، فدار مارسياس خلفه وركله في مؤخرته وأسقطه على وجهه، ثم وثب عليه وبرم ذراعه إلى الخلف، حتى كاد يكسره ثم لكمهُ لكمةً عنيفةً في لوح ظهره دوت معها قرقعة مُقززة ممزوجة بصرخة ألم ضجت بها أرض الميدان، وصحبها صفير استنكار هائل من الجمهور، لكن مارسياس لم يتوقف، خنق رقبة العملاق مثبتًا وجهه بالأرض حتى يمنعه من التقاط أنفاسه، وأخذ يضغط أكثر وأكثر حتى خار العملاق من تحته، وخمدت مقاومته، وأصبح على حافة الموت، لحظتها رفع العملاق يده الأخرى بوهن مستسلما، فتركه مارسياس وابتعد وقفز ملوحًا بقبضته في الهواء محتفلا بالنصر في غرور وخُيلاء وأعلنه القضاة منتصراً.

ضجّت المُدرّجات بالتهليل لمارسياس، ونُثِرت باتجاهه الزهور ومناديل الفتيات الجميلات، وأكاليل الغار، وصفق له كبار الزوار. في حين أدرت وجهي لأتابع ردة فعل فيلوباتور فوجدته مُتجهما وبشدة، وكالعادة سوسيبيوس يبث أذنه السمّ.

بدأت المَقصُوَرة بعدها تستقبل الفائز وتوزع عليه الجوائز، ثم ارتفع النَّفِير من جديد ودُقت الطبول إعلاناً للمُسَابَقَة التالية، وكانت تسمى "صيد الوحش" والمطلوب فيها قنص الوحوش التي ستظهر لك عبر البوابات أياً كان حجمها وعددها، ودون أن تقتلها ومن يُضطر لقتلها يخسر.

أعلنت مراسم المسابقة وهبط أحد النبلاء من المَقْصُوَرة إلى المِنَصَّة ثم رفع صحيفة مُنبسطة من الفضة تحمل صُرَّة ضخمة من المال ودار بها يعرضها للجمهور ومن اليمين إلى اليسار حتى يراها الجميع وصفّر الجمهور وهلّل احتفاءً بالجائزة.

كانت قيّمة بالفعل، يسيل لها لُعاب الكثيرين، وتعلن عن أن المباراة القادمة ليست سهلة.

وبنهاية المراسم، هبط أربعة من فرساننا إلى الحلبة يحملون الحِراب، والتي يتفرع رُمحها الأمامي إلى شعبتين متصلتين بفتيل غليظ فيما يشبه النبلة، والطرف الآخر للرُمح على شكل سن مُدبب مخصص للقتل، تجمعوا سريعاً ووقفوا صفاً واحدا ثم حيوا الملك وبعدها قُرِعَت الطبول وارتفعت حِدَّة التَرَقُّب للحد الأقصى، وخفقت القلوب واتخذ كل فارس وضع القتال حتى أشار النبيل بيده للبَدْءِ.

ومع الإشارة انفتحت أربعة بوابات بأركان الحلبة، واندفع من كل باب نمر مُرَقَّطٌ مُتحفز، ثم أغلقت البوابات، وأسرعت النمور الإفريقية المسعورة تجري باتجاه منتصف الحلبة، واستقبلهم الفرسان بأن تجمعوا في دائرة بالمنتصف وراحوا يدورون حول بعضهم البعض وهم يلوّحون بأسِنَّة الرماح في وجوه الوحوش حتى يشتتوها في حين انبرت النمور تخمش الهواء ببراثنها مكشره عن أنيابها، وهي عاجزة عن النفاذ إلى الفرسان عبر أسِنَّة الرماح القاتلة المتجاورة بانتظام، والمتحركة أيضا، واستمرت اللعبة هكذا لدقائق، حتى امتعض كبار الزوار وضجر الجمهور، وصاح يستَحث المقاتلين على الهجوم فعادت الطبول تُقرع مرة أخرى لاستثارة الوحوش.

انتقل الفرسان إلى المرحلة الثانية من الخطة وصنعوا فخاً حيث دخل بالمنتصف الفارس الرابع، ودار الثلاثة حوله يحمونه موجهين أسِنَّة الرماح نحو النمور التي كان الزبد يسيل من أشداقها بجنون، وبدأت تنتابها العصبية الشديدة.

وفي حركة ماهرة أدار الفارس الرابع -والمحاط ببقية الفرسان- رمحه ليصبح النبل في الأمام والسن القاتل بالخلف، وعلى حين غرة فتح له الفرسان الثلاثة منفذاً، وهاجموا الأربعة نمور ليشتتوهم، في الوقت الذي مدّ هو فيه النبل لذراع النمر الذي كان ينشبه في الهواء وأدار الرمح صانعا مصيدة علقت بها ذراع النمر فهاج وماج وقفز وتمرغ مثيراً الغبار بشدة، لكن بعد أن فات أوانه، بمجرد أن سقط على الأرض جرّه فارسنا خطوة للداخل بقوة فولاذيّة، وأصبح في مرمى رماح الفرسان، فطعنه أحدهم في فخذه، وجرحه ثم حرره الفارس الرابع من مصيدته وابتعد النمر يعرج بعيدا وهو يلعقُ جُرحَه.

صفّقَ الجمهور، وأطلق الدهماء صفيرًا متصلاً، بينما هاجت النمور الأخرى، وضج الميدان بزئيرها وهي تحاول النفاذ إلى الفرسان، لكن أسنة الرماح كانت تمنعها منهم، أصبح العدد أربعة فرسان في مقابل ثلاثة نمور وهنا حان وقت الهجوم.

ساد الصمت وخفقت القلوب، وسكت الجمهور كأن على رؤوسهم الطير، بينما وسّع فرساننا دائرتهم حتى احتووا النمور الثلاثة بالقلب وأحاطوهم من كل اتجاه، وأخذت النمور تدور في غضب وحَيرة وهي تنفث زفير الغضب من خطومها، بعد أن أصبحت في موقف ضعيف وبالفعل كان للعدد ميزة التفوق. هاجم اثنين من فرساننا نمرين بينما انفرد فارسين بنمر واحد وعلّقوه من رقبته في مصيدة مُزدوجة وهم يركضون بالاتجاه العكسي ثم

شدّوه بقوة لينقلب على ظهره وطعنوه في قوائمه قبل أن ينثني -بمرونة النمور المعتادة- وأخرجوه من القتال.

تحيزا بعدها سريعاً إلى الفارسين الآخرين، وانقض أربعتهم بشراسة على النمرين الباقيين، وأسقطوهم بطعنات سريعة مباشرة في ظهورهم، وانسحبت الوحوش الأربعة بعيداً دون أن يموتْ أحدهم وضجَّت الحلبة بالتَّحِيَّة والتصفيق.

كانت المرة الأولى التي يُسقطُ فيها فريق واحد كل الوحوش، دون أن يُضطر لقتل أحدهم، وبالتالي فزنا والتهبت أيدينا كجمهور هذه المرة بالتصفيق الحاد حتى أنني قمت من مقامي وحييت زملائي هاتفًا "المجد لإسبرطة"

حان دوري فتركتُ الجوائز توزع بالأعلى، ونزلت أنا ومنافسي الفارس البطلمي إلى أسفل المقصورة حيث كانت تنتظرنا العجلات الحربية. كانت عربتي سوداء، يجرها زوج من الخيول المحلية والمُزيّنة رؤوسها بعرفٍ أزرق من الريش، ومُعلقّة من أعناقها بذراعٍ يمتد للخلف حتى يتصل بصندوق نصف دائريّ من خشب الدَّردار، ومفتوح من ظهره ليسمح لفارسٍ واحد بالوقوف بداخله لقيادة العربة، وأمّا قاعدة الصندوق فمصنوعة من خشب أشجار الجميز ويمتدُّ أسفلها محور عرضي تدور حوله عجلتين خشبيتين غليظتين.

تفحصت ببصري عربة الفارس الآخر فوجدتها تماثلها في التصميم غير أنها كانت العَربَة الملكيّة الخاصة بفيلوباتور، وذهبية اللون يجرّها زوج من خيول الجال القوية، ومزينة رؤوسها بعرف من ريش أحمر وصندوقها أكثر جمالًا وزخرفة. انقبض صدري وشعرت أن هناك مؤامرة ما عندما لاحظت أن خيول عربتي نحيفة البطن صغيرة الرأس ذات ذيل جميل وعنقها ليس

به آثار الجرّ وهو دليل واضح على أنها ليست مُعتادة على جرّ العربات وأنها خيول للرقص والترويض وليس لسباق العربات. لكنني لم أتوقف كثيراً عند ذلك. وضعت جبهتي على ناصية الفرس الأول، وهمست له متحسساً عنقه براحتي في حنان فزفر وكأنه يخبرني أنه قد أحبني، وفعلت المثل مع رفيقه فحني رقبته يُبادلني شعور الأنس والانصياع التام. أعلنت فروسيتي لهما واحترامها بشدة، ارتقيت عربتي منحياً شكوكي جانبًا، على الأقل مؤقتاً، ومثلي فعل الفارس الملكي، وقُرعت الطبول ودخلنا المِضْمَار نحبي المَقْصُوَرة بمنْ فيها ونستعد لبدء السباق، والذي سيجرى من تسعة أشواط على هيئة دوارات كاملة حول حاجز يمر من قطر دائرة بمنتصف الحلبة، وبالطبع من يقطعها أولا سيكون منتصراً.

تحول شكّي بوجود مؤامرة إلى يقين تام حينما تم دفع عَرَبة الفارس الملكي إلى الحارة القريبة من قلب المِضْمَار، بينما أبعدوني للحارة التالية، ودون اقتراع، لكن لم يعد هناك مجال لإضاعة الوقت في التفكير بالمؤامرات، الأمر جلّي وواضح، والمسألة الآن تتعلق بكرامة فيلوباتور وعربته الملكية.

دقَّ العبيد الطبولَ دقات سريعة متتابعة رفعت وتيرة التَرَقُّب للحد الأقصى، وأعلن فيلوباتور بنفسه بدء المسابقة هذه المرة. أرخيتُ الشَّكِيمَة للخيول، وضربت ظهورها فانطلقت ترمح بأرض المِضْمَار سريعاً في خِفَّة، بينما كانت الخيول الأخرى تلتهم الأرض بحوافرها حتى أن الفارس البطلمي قطع دورتين وأنا لازلت أنْهي الأولى.

تأزم الموقف بالنسبةِ لي، ولاح أمامي وجه فيلوباتور وهو يسخر من كليومينس، ذلك أن الفُرُوسيّة هي المسابقة الأرق والأنبل والأشرف على الإطلاق ومن يفز بها ينال المجد الأعظم، وهو ما دعاني لاستبدال خطتي بأخرى جنونية، شَّكِمت رسَنَ الفرس الأيسر فانحنى عنقه قليلاً وحدثُ عن

المِضْمَار المُخصّص لي بزاوية جنونية وقطعت الحلبة عرضياً في اتجاه الفارس البطلمي وأنا أستحِث الخيول على زيادة سرعتها حتى آخذ زمام المُبادرة وأستقر بالأمام.

كان من الممكن أن أدفع حياتي ثمناً لهذه المُناورة، حيث أن انحراف عجلات العربة الخشبية المفاجئ أدى لارتفاع العجلة اليمنى عن الأرض بصورة حادة للغاية، وكادت العربة كلها تنقلب وأسقط على وجهي وتدهسني حوافر خيول العربة الملكية، والتي كانت ستتقاطع معي في نقطة صدام قاتله، لكنّي سيطرت على عربتي بصعوبة وهبطت بعجلتها اليمنى، واستعدت اتزاني، وحققت هدفي في آخر لحظة.

أصبحت بالأمام والفارس البطلميّ خلفي بخطوتين كأنه يطاردني، لكنه مازال يسبقني بدورة، نعم سيعطله وجودي بالأمام كثيراً لكنه ليس مجدياً لي بالنهاية، فما زلت احتاج إلى دورة إضافية حتى أتعادل معه، وهنا فكرت في إضافة تعديل جديد على خطتي، لابد أن يتعطل الفارس البطلميّ وبأي شكل من الأشكال وكان أمامي حل واحد، وجنوني أيضًا، واتخذت قراري بتنفيذه لكنّي انتظرت حلول اللحظة الحاسمة، حيث كنت قد وصلت الدورة الثالثة، بينما قطع الفارس البطلمي الرابعة خلفي في ثقة، أسرعت حينها أضرب صِهاة الخيول للإسراع أكثر، وهو يلاحقني ووصلنا للدورة الخامسة لي والسادسة له، وكانت الخيول تركض بعنفوان لدرجة أن حرارتها ارتفعت بشدة ووصلتني خلفها، لحظتها جذبت لِجَام الخيول عن آخرها حتى ظننت أن ذراعيّ سيُخلعان عن كتفيّ وتوقفت عربتي عنوةً في اللحظة التي كانت العربة الأخرى تلحق بي، وحل الصدام، وكان عنيفاً.

لو انتظرت لحظة واحدة لسُحِقتُ تحت أقدام الفرس الأيمن للعربة الملكية، والذي تعثر بصندوق عربتي، ودهسها بقوائِمه فأصدرت قرقعة

عنيفة وانكسرت، لكنّي و باللحظة الأخيرة، قفزت لأعتلي صهوة فرسي الأيمن ناجياً من حوافر الفرس المَلَكيّ، بينما ارتفعت قوائِم الفرس المَلَكيّ الأيسر عالياً وتراجع إلى الخلف ليتفادى الصدام، فاختل توازن العَرَبَة المَلَكيَّة و سقط عنها فارسها وسقط صندوقها فوقه في ارتطام عنيف ظننت أن الفارس لن ينجو منه، لكنيّ أهملته و أكملت مسيرتي غير عابئ بمصيره وعدت لأقفز في الهواء بظهري تاركاً صَهْوَة الجواد ولأستقر على قدميّ واقفاً باتزان داخل صندوق عربتي المكسور ودون حتى أن أنظر خلفي.

فعلتها في حركة رشيقة للغاية ألهبت كفوف الجمهور تصفيقاً، وبعدها انطلقت بالفَرَسين كالريح أدور حول المِضْمَار وعجلات عربتي تهرس حصا الأرض والفارس الملكي لازال مرتبكاً يحاول إعادة عربته المعطّلة إلى السباق، لكن هيهات، قطعت بقية الأشواط في لمح البصر ورفعت يدي عالياً بالسماء أتنشق نسيم النصر.

حرّرني هبوب الرياح من أسرِ العشى الذي أصاب بصري أثناء شرودي، كانت باردة وتنثر خشاش الأرض من حولي، وكان خيراً لي أن انتزعني صفيرها مما كنت أمر به، فقلبي كان ينقبض مثل قلب فهد يطارد فريسته، وكأنني خُضت غِمار السباق بالفعل، رفعت عيني نحو الأفق الفسيح فوجدت طائرا أسودً يشقّ السماء بجناحيه وتحمله الرياح نحو الغرب، كان وكأنه يهرب من شيء ما.

احتجت إلى ما يقرب من خمسة دقائق حتى تنتظم ضربات قلبي وأقدر على النزول، وحينما وطئت قدماي الأرض، توقفت أمنح المدَرَّج الروماني نظرة تساؤل أخيره: هل كان هذا المكان هو ذاته مِضْمار المسابقات يومًا ما؟ ربما.

عدت إلى منزلي عند الظهيرة مُحملًا بإرهاصات ذكرياتي الجديدة، كنت أشعر أن عضلاتي مُرهقة بسبب ما عاينته، وبحثت عن حنان في كل أرجاء من المنزل ولم أجدها.

غريب! أين ذهبت؟

المنزل في غيابها يتنفس الصمت، وكل شيء بلا معنى، كأنها تمنحه الحياة، أو ربما دفئها يبث فيه الروح، وغيابها يطرحه على سرير الموت، حينما تغادر يصيبه الوخم، وعندما تعود ينتعش ويضحك، يبدو أن كل النساء هكذا، البيوت دونهن قبورٌ مُظلمة تنير فقط حينما تشرق وجوههن على أنحائها.

لم أترك مكاناً إلّا وبحثت فيه عنها، وتصاعد القلق بداخلي كالدخان حتى اختنقت به، حنان لا تذهب لأي مكان دون أن تخبرني فأين هي يا ترى!؟ تطلعت إلى الشاطئ الكئيب من نافذة البهو فوجدته فارغًا إلّا من معجون الرمال، هل يمكن أن؟ ... قطع تساؤلي صرخة رعب شقّت الخواء الكامن داخل المنزل وترددت بين جدرانه، وكانت آتية من القبو، هبط قلبي في صدري وانتزعت نفسي من مكاني ودرت حول البيانو، وفتحت باب الدهليز، وقطعته ركضًا حتى عبرت بابه الآخر وصدمت، رأيت حنان ملقاة على جانبها الأيسر وذراعاها ممددان أمامها، تعلقت بالدرج الحديدي وقفزت، حتى أصبحت أمامها وانحنيت أفحصها فوجدت عينيها شاخصتين وجسدها يرتجف.

حملتها على ذراعيّ فتسربت إليهما برودة جسمها،و صعدت بها ركضًا إلى غرفة النوم وأرحتها على السرير، أشعلت حطب المدفأة سريعًا ثم جلست أفركُ جسمها لأمنحها الدفء، وصدري يتهدج خوفًا عليها، وبعد عدة دقائق

بدأت تفيق فهدأت نفسي، فتحتْ عينيها بتثاقل ورفعت بصرها نحوي فقربت وجهي منها حتى غمرت أنفاسها وجهي.

-حمدًا لله على سلامتك. همستُ لها بصوت حنون وأنا ابتسم لأمنحها الأمان، فابتلعت ريقها تحاول أن تخبرني بشيء ما، فأشرت لها بالصبر لكنها تكلّمت بصوت مختنق: لقد رأيته.

-من تقصدين؟

-الشبح.

ألقت الكلمة، ثم سكتت حتى انقشع الضباب المُحلق بحواف عينيها، وبدأت الدماء الحمراء تنسكب داخل شفتيها اللتان كانتا تشوبهما زرقة الخوف، أجلستها ودثرتها بكل الأغطية الموجودة، ثم صنعت لها قدحًا من القهوة التقطته بين أناملها الرقيقة وبدأت تتحدث وهي ترشفه: سمعت جلبةً آتيةً من القبو فنزلت لاستطلع الأمر، كنت خائفة وبشدة، لكن فضولي هزمني، وعندما رأيته يقف عند الماكينة مثل ظلٍ كالِح كالحبر، أغشي عليَّ من الرعب.

كانت مفاجأة غير متوقعة بالنسبة لي، وأربكتني حدّ الحيرة، لا أدري هل رأتْ شيئًا بحق! أم أنها تتخيل، ولما لا؟ أنا أيضًا أرى الكثير من الأشياء المفزعة بهذا البيت، لن أتحمل أن تصاب هي الأخرى بما يضربني من ضلالات، فلا ذنب لها فيما أعانيه.

حسمتُ حيرتي ومِلتُ إلى الافتراض الثاني، وجلست بجوارها لساعات أقنعها بأنها توهمت ذلك، وأصرف عن ذهنها فكرة وجود شبح عند الماكينة، بل واضطررت لاصطحابها إلى القبو لأُثبت لها ألّا شيء هناك، وبالفعل نجحتُ في إقناعها وبشكل منطقي، أن العقل دائما ما يري للإنسان ما يشغل تفكيره

كثيرًا. نصيحة ربما كنت أنا الأولى بها. المهم أننا وصلنا لاتفاق جيد، وهي أن حنان قررت ألّا تهبط إلى هناك وحدها مرة أخرى، وهو ما أراحني كثيرًا، وإن كان لم ينجيني من ندبة الشك التي وخزها القلق بعقلي، أنا أيضًا أشعر بأشياء غريبة داخل هذا المنزل، وكأنه مسكونٌ بأرواح قديمة ترفض وجودنا لأن لبناته صبّت من خلاصة عمرها.

* * *

(٢٠ - يناير - ١٩٧٧)

حمل الضحى لغرفة نومي شمس شاحبة، وصوت صاخب، سمعت طيور النورس تتعارك بالخارج حتى ضج الشاطئ بصياحها فغادرت سريري، ورفعت ستائر نافذتي لاستطلع ما يحدث، فرأيتها تحلق على مسافة قريبة من سطح البحر، وتنقض على بِساطهِ بمناقيرها في جولات متلاحقة، تثقبه وهي تلم أجنحتها البيضاء لتغطس من أجل الصيد، كان بعضها يخرج من الماء وبين منقاره سمكة تتلوى فيبتلعها سريعاً، والبعض الآخر يفشل فيطفو ليكرر محاولته، بينما انشغل المتكاسلون منهم بضرب الرمال الطرية بأقدامهم، أما اللاهين ومن تناولوا وجباتهم مبكرًا فكانوا يجرون دون هدف على الشاطئ والموج يفور بين أرجلهم الدقيقة.

الجو غائم، والبحر بداخله ثوره لكنه يكظمُ غيظهُ كي لا يفْلت زمامه ويُغرق الشاطئ، وليّتهُ ظهري وارتديتُ ملابسي على عجل، ولحقت بحنان التي كانت قد سبقتني إلى حديقة المنزل الصغيرة.

رغم حالة القُرب التي جمعت بيننا في الليلتين الفائتتين، إلّا أنني لازلت أعاملها بتحفظ، ويبدو أنها تتفهم ذلك باعتباري فاقدا للذاكرة، وتنتظر أن استعيدها مع ضربة على رأسي أو صدمة ما، كما يحدث في تلك الأفلام الكلاسيكية الحالمة، ولا أعلم أيضًا إلى متى ستتحمل غرابتي وشرودي الدائم وانصرافي عنها، وما هو ردّ فعلها إذا طال هذا الأمر، هي لا تعرف أن

بداخلي عاصفة ممطرة لا تهدأ أبدًا، وكيف تستقرُّ دواخلي والغيوم تخيم بأفقي بلا أدنى استعداد للرحيل!

لكنها ورغم ذلك تحاول ألّا تضغط على أعصابي بأن تشغل نفسها بأعمال منزليه تبدو وهمية في كثير من الأحيان، تماما كما فعلت اليوم، أشغلتْ نفسها بعملٍ وهمي جديد، ألا وهو تنسيق زهور الحديقة(المهجورة)، والتي لا نجلس بها بسبب البرد. مسحتُ الندى المتكاثف على غبار النافذة التي تَطلعُ إلى الحديقة من البهو ووقفت أراقبها من خلف زجاجها دون أن تراني، كانت تقف وسط الزهور وكأنها إحداها، ترتدي شالها الأبيض ومنامتها الوردية، وشعرها يتطاير مع هبَّات الصقيع، بينما سجلت الشمس غيابها خلف ركام السحب، وبدت الألوان مدخّنة تحت ضوء السماء الفضية، وحنان تتألق داخل تلك اللَّوْحَةُ كأميرات العصور الوسطى وهي تميل لتسقي الزهور وتجمّل أحواضها.

وجهها بدا أكثر بهاءً حتى من زنبقة الصباح التي بين أصابعها، وأزهى من اقحوانة المساء التي تمسح الندى المتجمد على وجنتها بأناملها، البرد والجو الشاحب أضفيا عليها مسحه رقيقه من السحر جعلا أهدابها تنطق بالأسود الفاحم، وأنضجا شفتيها ووجنتيها بلون البنفسج، لوحة فاتنة للجمال تختال أمامي، لم يعكر روعتها إلّا كآبة الحديقة والسلم المُتهدِّم المُفضي إليها.

وحدها حنان كانت تمنح كل هذا الخراب مسحة من الحياة، وبينما كنت أتأملها بعيون المعجب أتاني ذلكَ الزائر الغامض وضرب رأسي بهراوة شرّه المستطير، ثم بدأ الدم يخفق داخل رأسي وسال المشهد أمامي وأبصرت حنان تنحني وتنبعج وتتموج بين دوامة بيضاء دارت من حولي ودار معها كل شيء كأنه مخلوط تُقلّبه ملعقة في فنجان وتقلبت معها حتى ذبت وأصبحت

أقف بين الزهور في حديقة إيلوزيس، كانت بالفعل تستحق اسمها (جنة النعيم)، فهي أجمل وأروع حديقة رأتها عيناي، جنة تمتد لستمائة قدم عرضاً ومثلها طولاً، لتزهر بكل آيات الرونق والبهاء، سحرت عينيّ بجمالها الآسر وأنا أشاهد من حولي شتلات الزهور الحمراء الزاهية تتوسط العشب الأخضر وهو يحتضنها في دوائر مُنتظمة وتحيط به شجيرات وارفة أوراقها تختال بالأخضر الداكن ومقصوصة على شكل كرة، وفي الممرات وما بين أحواض الزهور تقف تماثيل الآلهة الرخامية بالتبادل مع مزهريات مَرْمَرِيّة تحمل ماءاً رقراقاً متلألأ لتكمل لَوْحَةُ الجمال بين الأخضر والأحمر والأبيض.

غمرتني زهورها بألوانها الساحرة، وعطورها الفوّاحة، لم تكن تخلو من أي نوع من الزهور، الكل حاضر يتمايل في نسق مُمتع، الأقْحُوَانَ، القَرَنْفُلُ، الزّنابِقُ والبنفسج والياسَمين، وغيرها من الزهور التي تُثير الحب في القلوب وتنبض بالحياة.

إيلوزيس لُقيا العشاق وشاهد حاضر على كل قصص الغرام، القلب الدافئ الذي يجمع الأحبة ويحتضن أسمارهم، يمرحون فوق بساطها الزاهي يبثُّون لبعضهم الشّوق ويقسمون الوعود ويتبادلون الهدايا، وقطعًا لم يكن يليق بملينيا إلّا أن انتظرها هناك، أسفل التمثال الرخامي لأفروديت، آلهة الجمال والتي كانت تحمل مرآة تعكس بها للآلهة أمُنيات العشّاق وطلباتهم، وجاءت ملينيا بعد برهة، وطاف جمالها مثل نسمة الصباح ليخضع كل هذا الجمال من حولي أمام جمالها، وكأن الحديقة عبارة عن لَوْحَةُ تنقصها سيدتها التي تختال الآن أمامي في زهو تستحقه.

-بطلي.

-حبيبتي.

-اشتقت لك كثيراً يا فارسي.

-وأنا افتقدتك افتقاد الصحراءِ للماء يا حبيبتي.

رفعت رأسها، وملت برأسي. ألصقتُ شفتيَّ بشفتيها اللينتين النديتين، وعصرت خلاصة ارتجافهما تحت وطأة اشتياقي الهادر لرشف ريقهما الشهي، و ذابت روحي بين مذاق الكرز الذي يفوح من ثغرها، ورائحة الياسمين الناضحة من وجنتها الوردية. أنفاسها الحارة نفذت بين مسام خدي لتمنحني دفء الحب، ولابد أنها أحست بلهيب رغبتي فيها يجتاح جسدها الخاضع. فاستسلمت لسطوة قُبلتي، وتهدل شعرها الناعم على كتفي، وذابت بين ذراعيّ حتى ارتخى جسدها. ليتني أقبلك كل لحظة يا ملينيا حتى أنسى مذاق الشبع. وطالت قبلتنا. تلذذتُ برحيق شفتيها حتى هرب الدم منهما وثملت هي من خمر شفتي الغارقتين في المتعة، وضعفنا حتى انهرنا فسحبت شفتيها عني في ضعف وقالت: أكره أن أحمل لكَ خبراً يضايقك يا بانتيوس، لكني جئِت اليوم على عجل، لأخبرك بأمور خطيرة، ولا وقت كافٍ لديِّ، فكل وصيفات القصر مُراقبات من قبل الوزير سوسيبيوس.

-خيراً؟ قلتها وأنا أتأمّل صفحة وجهها التي بدت مثل بساط نهر رَقْرَاقَ ثقبته الأحجار فاضطرب.

- الوزير الخبيث يسمم فيلوباتور ضدكم، ونقلت لي إحدى وصيفات القصر أنه سلم له رسالة مكتوبة بخطِ يدّ التاجر نيكاجوراس، ذلك الغريب الذي قابل ملككم هذا الأسبوع. ونقل فيها كلامًا عن أن ملككم كليومينس قال له "لماذا تحضر لفيلوباتور الخيول والوحوش؟ إنه لا

يحارب، ولا يحب إلّا الغانيات والعازفات". وبلغه أن كليومينس يحتقره بل وبثَّ في قلبه الروع والقلق حول فَيْلَق الجنود الذي يدين لكم بالولاء، مما زرع الحقد والرغبة في الانتقام في قلب فيلوباتور.

- كنت أعرف أن ذلك الذئب سينتقم منّا، بسبب رفض كليومينس منحه إمرة المُرتَزقة حسب طلبه ليلتها.

- الأدهى أنه أرعبه من فكرةِ منحكم جنودًا للعودة إلى إسبرطة من أجل استرداد عرشكم المسلوب، بحُجَة أن ذلك قد يشجعكم على خيانته، وأنكم ربما تثورون ضده وتستولون على عرش هذه البلاد، ودعم ذلك اختباره لقوتكم وبأسكم في الألعاب.

- وما هو قرارهم النهائي؟

-لا أدري يا بانتيوس حقيقة لا أدري، ربما يمرّ الأمر مرور الكرام ويأخذ الملك حذره منكم وربما يتطوّر الأمر.

-إذًا يجب أن نستعد لأية بادِرة غدر.

منحتني نظرة تساؤل والدموع تَتَرقْرَق في عينيها: سترحل وتتركني ؟!!

-لا تقلقي لدينا بعض الخُطط البديلة، لكن لابد أولًا من معرفة نواياهم، حتى لا نقدم على عمل مُتسرع تكون نتائِجه وخيمة، وربما يكون الأمر كله لا يتعدى كونه لعبة لمعرفة منْ التي تنقل أخبار القصر من الوصيفات.

أومأت برأسها الجميل موافقة فاحتضنتها ولَثَمتُ رأسها بقُبْلَة حارة وقلت: اطمئني أينما ذهبت ستكونين على فرسي وبين أحضاني.

-وأنا ملك يمينك يا حبيبي.

-هل نبوءة العَرّافة لازالت تقلقكِ؟

غاصت برأسها في عمق صدري وقالت: لا، وحتى لو كانت حقًا لا يهمني، لو متُ من أجل أن تحيا سأكون سعيدة، ولو ضحيت من أجلك سأكون قد بذلت الغالي من أجل الأغلى.

تنهدتُ وأنا أزرعها في حُضني وفاضت شفاهي بإحساسي: لا تخافي سنعيش ونُكلّل بالغار وننجب ابنة جميلة مثلك وتمرح بين أحضانك وتملأ المروج من حولنا بهجة.

رفعت رأسها تتأمل عيني وقالت: أحبكَ.

-وأنا أحبكِ.

وعدت أعصر شفتيها بقُبلَة من ذُللتْ له قطوف الَجنة بعد أن ذاق مرّ الحرمان، ولم أنته إلّا حينما انفلتت من بين ذراعيّ وهَمَستْ: أحبك يا أحمد أحبك.

هنا عرفت أن قطار ذاكرتي عاد بي إلى الحاضر دون استِئْذان، تمامًا كما صحبني إلى الماضي دون تذكرة، ووجدتني قد خرجت لحديقة المنزل وأقف بين يدي حنان، والتي أصبحتُ أقسم أنها من نسل ملينيا، ذات الجمال والرِقة والعذوبة الآسرة التي تجعل الحقيقة أشهى آلاف المرات من أي حلم.

وقطعتْ حنان أفكاري عنها بسؤال محمول فوق نبره خوف: إلى أين أنت ذاهب يا أحمد.

-سأقضي وقتًا بأقرب مكتبة عامة وأعود.

قلتها وأنا أغادر فجذبت معطفي وقالت باستجداء: اعتنْ بنفسك

ابتسمت لها في امتنان، فأردفتْ: من أجلي.

- سأفعل يا حنان، من أجلك

* * *

(المكتبة)

قضيت اليوم كاملًا بين أزوِقَة المكتبة، أبحث بنفسي وراء قصة بانتيوس وملينيا والتي أصبحت أعرف عنها الكثير. ظننت أني ساجد ضآلتي سريعًا هذه المرة لكن خاب ظنّي، كان البحث عنهما مرهقًا وبشدَّة، حتى أنني كنت في نهاية اليوم أجلس إلى طاولة منزوية بالركن، ومُندسًا بين كَوْمَةُ من المراجعِ المُتنوعة اللغات، ولم أعثر إلّا على كليومينس وفيلوباتور بالإضافة لوزيره الماكر سوسيبيوس.

وكانت الوقائع التي استرجِعَها عنهما صحيحة، بداية من وجود كليومينس لاجئاً في مصر وقصة الحوار الذي دار بين كليومينس وفيلوباتور عن مؤامرة أمه وأخوه، وعرفت عن بعضٍ من مُستقبلِ العلاقة بينهما، لكن دون تفاصيل، كانت الحكاية مثل رؤوس أقلام، وهو ما أذهلني، وجعلني أسقط من حساباتي تماما فِكرة أنني سمعت عن تلك الأحداث التاريخية مُسبقًا أو درستها، فكتب التاريخ لا تحوي أيًا من تلك التفاصيل التي أراها.

تسبب ذلك في رفع مُؤشر حَيرَتي إلى حدِه الأقصى وأصبح عقلي على شفا الانفجار، من أين أتيت بهذه التفاصيل؟ ولماذا كل ما أراه حقيقي وثابت عدا ما يخص بانتيوس وملينيا، الألعاب البطلمية حدثت بالفعل، ورأيت صورًا لجداريات تعرض قوانينها، وحديقة إيلوزيس موجودة، وتسمى اليوم بحدائق أنطونيادس، ولازالت كما هي، جميلة وتنتثر بها شواهد الحضارة التي رأيتها بنفسي بهيّة جديدة في زمانها.

رفعت رأسي إلى سقف المكتبة المُقَّبب، وقلَّبت بصري فيه مسنداً خَدّي إلى راحتي أفكر في تفسير منطقي قد يعيد لمؤشر حيرتي الاستقرار والاتزان، وبعد ثواني معدودات حادَ بي تفكيري عن الهدف، وأجبرني على تفحص قُبَّة المكتبة دونما سبب، بدت لي مثل فصوص البرتقالة، كاملة الاستدارة ومُقَسَّمة طولياً إلى ثمانية مثلثات متساوية، كل مثلث مصبوغ بلون مختلف، وبالوسط تماما نافذة زجاجية دائرية.

أطلت تحديقي بها ولم أشعر بالموجودات من حولي إلّا حينما بدأتْ القبّة تدور، فعرفت أن ثمة شيء سيحدث لي، فكرت أن أحول رأسي بعيدًا، لكنَّ سرعة دورانها تضاعفت بصورة أعجزتني عن صرف بصري عنها، صارت مثل تنُّورَه درويش يرقص كالريح، حاولت التماسك بهذا المكان العام كي لا أشرد لكني عجزت، دَوَرانُ القبة كان خاطفًا، والألوان تتلاحق، وعيناي المُتعلّقتان بالسقف تدوران معها في محجِرَيهما، ولم أتحمل، أصابني الغثيان وبدأ رأسي يتهاوى وخفق قلبي ورحلت.

لم تأت ملينيا لمُقابلتي منذ ثلاث ليالي، وهذا يعني أن شيئاً ما قد منعها، كانت مُحِّقة فيما نقلته لي عن همسات تتردد داخل القصر بخصوصنا، اليوم وفي الصباح أرسل فيلوباتور جنوده لتُجْريدنا من أسلحتنا، بل وسحب كل العبيد الذين كانوا يخدمون كليومينس، ولم يعد أمامنا سوى أن نخطط للهرب، لكن تبقى نوايا فيلوباتور عائِق أمامنا، لازلنا لم نتأكد مما يُحَاك بشأننا، ولا نريد أن نُقدِم على خطوة حمقاء ندفع ثمنها غاليا، ربما يختبرنا وربما يضمر لنا شَرّاً أكبر، لا ندري، لذلك كان الحل الأمثل هو ما اتفقتُ عليه مع ملينيا، إنه في حالة عجزها عن مُقابلتي لثلاثة منازل قمرية، ستترك لي رسالة بمكتبة الإسكندرية، تخبرني فيها بكل ما سِمعَته عن تلك المؤامرة ومدى جدِّيتها، والآن مرّت ثلاثة منازل بالفعل، مقدم الدلو،

ومؤخر الدلو، والحوت، ولم تظهر ملينيا، أتمنى أن تكون بخير فسلامتها أهم عندي بكثير من سلامتي.

أما المكتبة فلا أدري لماذا لم أزرها من قبل!؟ ربما لم أتَّصور أنها بهذه الفخامة، صحبني في مقدمتها تماثيل خضراء للكباش حتى وصلت إلى المدخل، والذي كان عبارة عن جدارين مُضَلّعين من الحجر، يجلس إلى كل منهما تمثال لأحد ملوك الأُسَر المصرية القديمة، مُسندا ظهره وواضعا راحتيه على رُكبتيه، وفي المنتصف بوابة من الحديد مفتوحة للزوار، عبرتها إلى الداخل فقابلني باب عملاق مُزَّين برسوم بديعة لامرأة مُجَّنحة يُلَقبونها بإيزيس، ويفتح الباب وسط جدارين آخرين عملاقين، ومُزَّينين بنقوش لملك مصري قديم يقود عجلة حربية ويرشَقُ أعداءه بنباله.

وعلى جانبي الباب العملاق يستقرُّ حاملين مرتفعين من الحديد، يحملُ كلاً منهما ماعونًا تتلظى بداخله النار. مضيت قدماً بين الروّاد وعبرت بخطوات مسرعة حتى أصبحتُ أمام البهو الخارجي للمكتبة، وهو بُنيان مستطيل عبارة عن أعمدة مصرية تاجها مصمم على شكل رأس أحد ملوك مصر، وتحمل سقفا مسطحاً. دخلت البهو فأصابني الذهول، كانت أرضيته مَصقُولة بَرَّاقَة، وجدرانه منقوشة بكتابات مصرية شديدة الروعة والجمال، ومتصل من الخلف ببهو آخر، تفتح في سقفِه كوّة وكأنها للتعبُد أو لمراقبة النجوم، وتحمل السقف أعمدةٌ ذات تيجان على شكل زهرة لُوتس مُتَفَتِحة الأوراق بينما كان من الداخل مُبهراً بحق، تصطف بأركانه تماثيل ضخمة للملوك يقفون كالحراس، عارين الصدور، يضّمون أذرُعهم إلى صدورِهم في قوة، ويستترون بسترة تصل حتى ركبهم ويتَدلَّى من خصرهم طرف النِطاق المُزركش.

وتمتلئ الجدران حول التماثيل بالنقوش والرسوم الملوّنة بالأحمر والأزرق والتي تحكي قصصًا وروايات عن أحداث عِدّة، ويلتحم بقواعد التماثيل مدرجاً للجلوس مشكّلاً من عدة مصاطب تدور مع الجدران، مما يؤكد على أنه معبد ما، بالإضافة لأن الطرف الآخر للبهو كانت تحتله درجات مُرتفعة يستقيم فوقها طاولة من الحجر، من المرجح أنه يجلس إليها رجال الدين والمحاضرين، عبرت من ذلك البهو إلى فناء مفتوح، يرتفع بمنتصفه عمود إغريقي شاهق يعتليه تمثال أخضر وتصطف حول زوايا قاعدته أربعة تماثيل لسباع برأس إنسان.

أما بقية مساحات الفناء فتختال بمزيجٍ مُبهرٍ بين الأعمدة الإغريقية والتي لها قاعدة مُدَرّجة، وترتفع برشاقة حتى تصل إلى رأس العمود المحلّى بتاجٍ مشكّلٍ من وريقات الغار المعقوصة، وأيضا الأعمدة الفرعونية المستقيمة بضخامتها وقاعدتها السميكة وتاجها المشكّل من زهور ورد النيل، ومن حول الأعمدة تنتثر تماثيل الكاتب المصري وأدونيس بجوار تماثيل أخرى لزيوس والإسكندر.

أكملت مَسيرتي بالفناء حتى وصلت صحن المكتبة الاسطواني الأنيق، كان من الخارج مثل قرص تحمله الأعمدة الإغريقية ذات التيجان المضفورة، ومدخله ممتد خارج البناء قليلا ومكوّن من أعمدة على نفس التصميم تحمل سقفاً هرميا.

دخلت الصحن فارتفعت درجة ذهولي، فالمكتبة من الداخل بديعة ومتحضرّة لدرجة لا يمكن تصورها، حتى أنني دُرت حول نفسي دورةً كاملةً أشاهد روعتها، تفتح في جدران صحنها الواسع نوافِذ زجاجية ضخمة ومزخرفة تمتدُّ من الأرض وحتى السقف، وبلاط أرضها مصقول لامع تحتلُّه بالمنتصف دائرة واسعة تحمل وجه الإسكندر المقدونيّ، وتدور حول تلك

الدائرة أعمده رخامية حمراء، يحمل كل منها مَنحُوتة مَرْمَريَّة لرأسِ أحد الفلاسفة أو العظماء، وللمَنْحُوتة قاعدة مخروطية صغيرة من الحجر تشبه قاعدة بيدق الشطرنج، وخلف كل عمود يقف عمودٌ رخامي أطول منه، ليحمل السقف الدائِري للبهو وبمنتصف السقف تنتفخ قبَة رائعة يتشكل تصميمها على عدة طبقات، الطبقة الأولي منها إطار تدور به رسوم محفورة للمقدونيين، والطبقة الثانية نوافذ زجاجية ملونة، ويتقدمها تماثيل كاملة لعُظَماء البطالمة وملوكهم معلّقة على قواعد مُثّبته بحوض القُبَّة، بينما سقف القُبَّة مُقسمٌ على شكل يشبه نصف البُرتُقالِة وبكل فصّ رسم إله من الآلهة وبألوان زاهية بَرّاقَة وتفتح بمنتصف القُبَّة تماماً كوّة يمكنك أن ترى منها السماء.

أما عُمّال المكتبة فكانوا مُميزين، يرتدون طوق الرقبة المزخرف طولياً بألوان متعددة ويصل حتى نهاية صدورهم العارية ويلّف خصرهم إزَارٌ واسع يصل إلى الركبة، في حين كان الحراس مُدَرَّعين بزي الجيش ويقطعون الرَّدْهَات جيئة وإياباً وسيوفهم تهتز مع حركتهم الثقيلة كتّهديد صريح لأي لصٍ يحاول سرقة مَخطُوطة ثمينة.

الرُوَّادُ أيضًا كانوا متنوعين، البعض يرتدي العباءة الإغريقية التي تلّف الجسد بالكامل عدا الكَتِف، والبعض يرتدي كسوةَ الرأس وطوق الصدر والإزَار، وهناك من هو مثلي يرفَل في قميص طويل من الكتان ينْزل حتى منتصف ساقه، ويطوّق خصرَه نطاق من الجلد، أمّا النساء فكن يرتدينْ عباءات من الكتان مصممة دون أكمام كعادتهن ومُثَّبته عند الكتف الأيمن بمشبك على شكل حلقة، ويلتف حول الكتِف الأيسر وشاح رقيق يدور حول الصدر والخصر ثم يلّتف ثانية على أذرعتهن في انسيابية كأنهن

يحملنه، وحولهن أخريات يرتدين ثوباً ذو طوق مُزركش على الصدر وبالخصر يدور نِطاق مُزركش آخر من القماش طرفه منسدل للأسفل.

أثار انتباهي وجود بعضٍ من نساء الأسرة الملكية المرفّهات في زيارة للمكتبة، حيث رأيت العبيد يحَفونهم وهم يحملون المراوح المصنوعة من ريش الطّاووس ويظلّلونهن بها ويرفرفون حولهن ليطردوا الذباب والحشرات.

عرجت يسارًا حيث غرف الملفوفات والبرديات، وسألت عن صندوق رسائل العشّاق ودلني عليه أحد الرواد. فدخلت غرفة كتب الحب والأشعار، والتي تصطف بداخلها الموائد الخشبية المستديرة والمقاعد المصنوعة من الخيزران، ورأيت بالركن أحد الفلاسفة يجلس إلى مائدة وقد فرد بردية فوق قطعة خشبية هرمية الشكل وراح يقرأها، بينما في ركن آخر جلس زائر القرفصاء وقد انسدلت عباءته على ركبتيه، وانهمك يلسخ بعض عبارات من بردية طويلة وينقلها إلى بردية أخرى.

وكانت الجدران ممتلئة بالخزانات المرصوصة بنظام مقصيّ على شكل شبكة ومدسوس بداخلها لفافات الكتب فوق بعضها البعض بانتظام وبترتيب دقيق وكل الكتب والرسائل مصنّفة.

راقبت العامل حتى انشغل وارتقى درجات سلم خشبي لإحضار بردية طلبها منه أحد الزوّار، وتأكدت أنه لا أحد من الموجودين بالغرفة يراقبني، ثم مددت يدي خلف صندوق رسائل العشاق فوجدت ملفوفة صغيرة للغاية ومعقودة بفتيل دقيق تنتظرني، تلَفَتُّ يمينا ويسارًا حتى لا يلاحظ أحد ما أفعله، والتقطها سريعاً ودسستها في نطاقي، وغادرت على الفور.

خرجت من حيث أتيت وبخطوات مضطربة، ثم فتحت الملفوفة لأقرأ ما فيها وصدمت، كان بها كلمة واحده، اهربوا، رفعت بصري عن الرسالة وصوبته

نحو البوابة، وفوجئت برهط منظم من جنود فيلوباتور المدججين بالسلاح، يعبرون إلى داخل فناء المكتبة ويشيرون إلى حيث أقف، ثم انطلقوا يركضون تجاهي.

عرفت أنهم هنا من أجل اعتقالي، وأنه قد فات الأوان على إبلاغ الملك والفرسان، فعدت أدراجي، لكني لم أدخل إلى صحن المكتبة بل تسللت ودُرت حولها إلى الفناء الخلفي قاصِدًا باب الخروج من الجهة الأخرى.

ولأن الهروب على قدمين كان مستحيلاً ومحسوم النتيجة، فكرت في خطة جنونية أوحاها لي كلا من فراغ الفناء الخلفي من الزوار -نظرًا لأعمال البناء وانتشار السقّالات-وأيضًا وجود تمثال هوميروس الذي كان يستقر بالركن الأيمن لجدار الخروج.

اتخذتُ قراري سريعاً، وأسرعت أركض نحوه، واختبأت خلفه في اللحظة التي سمعتُ فيها وقع أقدام الجنود يصل الفناء الخلفي ثم بدأ يتباطأ حتى أصبحت أسمع وقعَ خطواتٍ حذرهٍ، لمحتهم من خلف التمثال، كانوا خمسة جنود، انطلق اثنان منهم إلى البوابة الخارجية يبحثون عني خارج المكتبة، وانتشر الثلاثة الباقون بالداخل، كل منهم يبحث في ركن، عرفت من تحفزهم أن المطلوب أسري أو قتلي، المهم ألاّ أفلت، وقبعت في مكاني والأفكار تتضارب بداخلي، لو بقيت سيدركونني، ولو تحركت سأصبح هدفا واضحاً يسهل صيده، ولم يكن هناك بد من المواجهة، خاصة عندما أقترب أحدهم من مكمني ومال بجزعة محاولاً استكشاف ما وراء التمثال، وقد تحفز وامتّشق قوسهُ ونشابَهُ استعداداً لرشقي على الفور، هنا بادرته، دفعت التمثال الثقيل براحتيَّ وبكل ما أملك من قوة فسقط فوق الحارس كالجبل، وهشّم رأسه، وتحطم معها إلى عشرات القطع الصغيرة.

اشتعل الموقف وانطلق الحراس نحوي، فجريت خلف رأس تمثال هوميروس المكسورة، والتي كانت قد تدحرجت بعيداً، وأمسكت بها كالكرة وقذفتها نحو أقرب الحراس مني وحاول تفاديها لكن متأخراً بعد أن صدمت وجهه، وخرَ قتيلاً وسقط عنه سيفه مصدراً قرقعة عنيفة.

التقطتُ السيف وبدأت أنازل الفرسان الثلاثة الباقين، والذين اتخذوا وضع الاستعداد للقتال سريعا، وكعادتي، وطبقاً لتدريبات القتال لدينا عند منازلة عدد مضاعف، اخترت أقصرهم وكان الفارسُ الذي على أقصى يميني، حلّقت بسيفي حول سيفه، ثم اقتلعته من يده بضربة خاطفة فطار سيفه بعيدا، وجُرح كف الرجل وعُزل عن المعركة، بعدها طعنت الفارس الذي في مواجهتي مباشرة في صدرهِ، لكنه تراجع خطوة إلى الوراء بمهاره وتلّقى طعنتي على سيفِه في اللحظة التي ضَرب فيها الفارس الثالث كتفي الأيسر بسيفه فشقه، وسال خيط الدم الحار على ذراعي، لكن هجومه منحنى ثغرة إليه فطعنته في صدره وجرحته جرحاً غائراً، بينما حاول الفارس الآخر طعني لكني تراجعت بجزعي سريعاً إلى الخلف، ومر سيفه أمام صدري دون أن يقطعه، ولم يكتمل النزال، اقتحم البوابة الخلفية لحظتها فريق من الخيّالة وراحوا يضربونني بسلاسل من الحديد، وحاولت مقاومتهم، لكنّي بالنهاية استسلمت وسقطت تحت أقدام خيولهم، وأظلم كل شيء ثم بدأ الظلام يتبدد واللون الأسود ينفصل إلى عدة ألوان فرعية راحت تطارد بعضها بعضًا مثل عجلة ملونة تباطأت سرعتها تدريجياً وبالنهاية توقفت.

أفقت من شرودي على نكزه من أصابع رقيقة، فنظرت من فوق كتفي لأعرف صاحبها، فوجدتها أمينة المكتبة منال، وكانت تشير إلى ساعتها تقصد انتهاء الوقت، أومأت لها برأسي متفهمًا، واستعرت كتاب موسوعة

مصر القديمة للدكتور سليم حسن عميد الأثريين المصريين، ثم غادرتها بخطوات خائرة بطيئة وأنا أفكر بعمق، ما أراه عن بانتيوس يسير في ترتيب زمني متسلسل ومنطقي للغاية، وإذا قارنته بنهاية كليومينس التي قرأت عنها وأصبحت أعرفها، سأصل إلى أن بانتيوس شخصية حقيقية وليس مجرد خيالًا للظل يتموج على جدران ذاكرتي، ما الذي يحدث لي؟ وما علاقتي بتلك الحكاية التاريخية؟ ولماذا اختار التاريخ أن يجعل من ذاكرتي شاشة سينما سكوب لعرض تفاصيله؟ هل يقطع التاريخ تُخوم عمري؟ أم أسافر أنا عبر متاهات تجاعيده؟ ربما لا أعرف الإجابة لكني أعرف أنني أخوض في مجراه الوعر المرشوش بالذكريات، تتعثر خطواتي في لجّة تفاصيله، وتظللني سماء مظلمة خالية من العلامات، وفوق كل هذا لا يستقيم لي سبيله أبدًا، يحيد بي عن وجهتي كلما اقتربت، ويفضي بخطواتي إلى غير مقصدها كلما حاولت، ثم يعيدني إلى ذات المنعطف إذا ضعت، وكأنه يستمتع بغيابي، فالتاريخ يعاملني كمعلم قاسي، يؤمن أنه لا معرفة بلا ألم، يجبرني على أدفع ثمن معرفتي لنفسي بقطعٍ من ذاتي، أنفقها مع كل خطوة أقطعها داخل مساره حتى إذا أردت أن أعيد ترتيب الفوضى التي خلفتها ورائي أو أجمع بعضيَّ المشتت، منحتني أحجيتي المتناثرة صورة كاملة عن كياني، لكن سحب الشرود التي تحشو أفقي تأبى بقسوتها إلّا أن تمحو بأمطارها السوداء ما تركته لنفسي من آثار، فأعود من كل رحلة بين ثنايا التاريخ، لأجد طريق الوصول إلى هويتي خاليًا حتى من روائح مروري، وأصِيْرُ فارغًا من كل شيء وممتلئًا باللا شيء لأتيقن أنني عبثًا كنت أحاول أن أهتدي بالسراب، وهكذا أنا دائمًا، يمدُّ اليأس لنفسه شرفات داخل قلبي ليطل من خلالها على ربوع عزيمتي ويكسوها بساديّته، والعجيب أن ذات التاريخ الذي يضلني ويضيّعني بين دهاليزه متعللًا بتلقيني دروسًا في الأصالة هو نفسه من يأبى دائمًا أن يعلنَ اليأس انتصاره على قلبي، فيتدخل في اللحظة الحاسمة

ليخلصني من سطوة قنوطي، تاركًا لي بشائرَ جديدةً بالأفق تمنحني الأمل، وتعيدني إلى مساري المستقيم، فأمضي مهتديًا بما حزّه قلمه بصفحة سماءي وأجد معالمًا جديدةً بالأفق تشير إلى محطة هويتي المنشودة والتي تبيت تنتظر وصولي بملء عمرها، وامتداد خلودها، وحينها أعود لأواصل رحلة بحثي عن هويتي بذات الشغف الأول، منتظرًا ذات المصير الأوحد.

أبحر التفكير بقدمي ودون أن أقصد إلى مشارف الحارة الضيقة التي يسكن بها عبد الله أستاذ التاريخ والقريبة من الصاغة. نحرت فلسفتي العوجاء وصعدت سلالم المنزل القديم وطرقت بابه واستقبلني الرجل استقبالا ودودًا رغم أنني جئته على غير موعد، ثم جلسنا وعرضت له ما وجدته عن شخصية سوسيبيوس في موسوعة مصر القديمة وسردت له خلال نصف ساعة كل ما اجتررته من ذكريات عن ملينيا وبانتيوس، ميجالوبوليس وغيرها من الوقائع واستمع لي باهتمام حتى انتهيت، فهزَّ رأسه نافيًا معرفته بأيٍ من تلك الأحداث لكنّه وعدني أن يبحث في كل المراجعِ الممكنة، والتي لا تحتويها مكتبته حتى يصل إلى حقيقة الأمر، وطمأنني قائلا: التفاصيل التي تسردها ستمحننا فرصة للبحث بشكل أفضل، لا تقلق يا أستاذ أحمد ... لا تقلق يا أستاذ... لا تقلق يا...

ترددت العبارة داخل رأسي ثم ابتعدت كأنها صفير قطار مرّ أمامي منذ قليل، سال المشهد كعادته وأتى ذلك الضاري الشرس، الصداع، لا اعلم كيف يأتيني هكذا فجأة!.كل ما أعرفه أن أنفاسي تضيق! وأرحل.

فكرت كثيرًا ولم أجد سوى موريس بك ابن عمي، هو الوحيد الذي يمكنني أن أستأمنه على سر مثل هذا، أمين وكريم وأيضًا ثري، لن يسيل لعابة للسِرْدَاب مهما كانت محتوياته، والأهم أنه مهتم بالقطع الأثريّة، كثيرًا ما كنت أسخر من اهتمامه بهذه الأشياء الجانبية. كم كنت غبيًا، أدركت قيمة

ذلك متأخرا، يا ليتني كنت مثله وما اضطررت أن أكشف سري لأحد، على أية حال لن أكون صريحاً معه بشكل كامل، وسآخذ حِذْري.

زرته في منزله الذي يشبه القصر الصغير، وجلست في البهو الممتلئ بالتحف والأنتيكات التي يحرص على اقتِنائها وبشراهة، سواءً من خلال المزادات أو دكّانه بالصاغة أو حتى من تجار الآثار وغيرهم.

دائمًا ما كنت اختلف معه بسبب بزخه غير المبرر، بل واعتبر ذلك مرضًا، نعم موريس مريض بحب الاقتناء ولا شك، هذا بالإضافة لحب الوجاهة أيضاً، والدليل على ذلك العشرة آلاف جنيه التي خسرها قاصداً العام الماضي على طاولة القِمار، لصالح أحد الأمراء، في مقابل أن يمنحه لقب بك، لا أدري ما حاجته إلى لقب مثل هذا! إنه حتى شيء لا يمكن إعادة بيعه، لم أغتظ في حياتي من تصرف مثل هذا، يصرف مبلغاً يمكن أن يشتري عزبة من أجل حرفين، ثم بعد ذلك يرفض شراكتي بحجة أنني بخيل، حسناً فعلت أنني لم أشاركه وأبذّر مثله.

طال انتظاري لما يقرب من ربع الساعة، حتى ظهر يتبختر نازلًا سلم منزله في رصانة تكسوه حلته البيضاء الأنيقة، ويدخن غليونه الذي لا يفارق أنامله أبدًا، وقمت أستقبله لما اقترب مني ورحب بي: أهلا نعوم، كيف أحوالك وأحوال عملك.

-مرحباً يا موريس بخير وأنت؟

-بخير. قالها وأشار لي بالجلوس، وجلس أمامي واضعاً قدمًا فوق الأخرى في أرِسْتُقْراطية مردفًا: تفضل.

-أعرف أنك مشغول، لذلك لن أستغرق من وقتك الكثير، فقط سؤال بسيط وسأرحل.

سحب نفسًا من غليونه المستقر بين زوايا شفتيه ثم زفره وأومأ برأسه مُرحِبًا فأردفت: طلب مني أحد أصدقائي تمويل حملة للتَنقّيب عن سرداب قديم، وذلك مقابل الحصول على نصف المحتويات، ولأن في ذلك مغامرة قد تُلحق بي الخسارة، جئت أسألك كيف نتأكد من أن سرداب ما يحمل في بطنه قطع أثرية قيمة.

بدت عليه علامات التفكير ثم قال: على الأقل يجب أن تخبرني بمواصفات ذلك السِرْدَاب، أو لأي الأسُر المصرية القديمة يرجع تاريخه، وهكذا؟

-لا أعرف عنه سوى أنه سرداب قديم وموجود منذ ألفي عام.

- ألفي عام! إذاً أنت تتكلم عن عصر مصر الإغريقية، كليوباترا والبطالمة.

-أظن ذلك.

-لم أقرأ عن استخراج مقبرة بهذا التاريخ تحديدا.

-ولا عن تاجر إسبرطي وجد سردابًا هنا في الإسكندرية وأفرغ محتوياته؟

-إسبرطي! الإسبرطيون كانوا شعباً متقشفاً وعسكرياً لا يعرف إلّا الجُنْدية ولم يكونوا تِجاراً كما أنهم لم يحكموا مصر أبدًا، من حكم مصر كانوا أحفاد الإسكندر المقدوني.

ولم يكن هناك بدٌّ من كشف كافة التفاصيل وفتح الستارة عن آخرها لذلك قلت: لكنّي عرفت بالسرداب عن طريق مخطوطة مكتوب بها رسالة حب لفارس إسبرطي.

-ربما كان في زيارة أو تبادل جندية.

-وكيف نتأكد أنه لم يحصد محتويات السرداب؟

- هذا يدفعك إلى الحل الأخير.

-وما هو؟

- الحفر.

قالها وجذب ملعقة مستقرة على الطاولة التي تفصل بيننا وكبس بها التبغ المتأجج دخل حلق غليونه وعضّ طرفه ثم نفث دخانه. بينما سكتُ قليلاً وأنا أهرش رأسي ثم قلت: ماذا لو افترضت الأسوأ وهو أن السرداب بالفعل فارغ. فهل يمثل قيمة؟

-فقط إن كانت جدرانه تحمل نقوشًا واضحة.

-وماذا لو كان خالياً من النقوش؟

-لن يهتم به أحد، لأنك لن تبيع الجدران الصماء أو تنقلها من مكانها وإلا فقدت معناها، وسيظل كما هو مجرد مزارًا سياحيًا ترعاه الحكومة.

-حكومة! مم، دعنا نعد لافتراضنا الأول، لو وجدنا بداخله قطعًا أثرية هل يمكنك تقدير ثمنها؟

-أنا خبير بذلك يا نعوم، أحضر لي إحداها وأعدك بتقدير تاريخها وحالتها، ولو كانت سليمة دون كسور أو شروخ ستكون بمثابة كنز لا يقدر بثمن.

-حسنًا سأفعل وأشكرك على سعة صدرك يا موريس بك.

-أنرت يا نعوم.

غادرته وعرجتُ على دكّاني الذي تغيبت عنه لأول مرة بحياتي، لدرجة أن صبي المحل كميل ظن أنني تعرضت لمصيبة ما، وكاد أن يبلغ قلم المباحث عن اختفائي الغامض. جلستُ إلى مكتبي منذ العصر وحتى قرب موعد

الإغلاق شارد الذهن، أعلق بصري باللفافات المفرودة على مكتبي، وأتفرس الخريطة كالمسحور، صارفًا وبإشاحة من أطراف أصابعي أي زبون عابر يقتحم خلوتي، لمجرد سؤال فضولي عن سعر قطعة ذهبية ما. لست مستعداً لثرثرتهم العوجاء، كان صراع مرير قد احتدَّ بداخلي بين نعم ولا، أوافق أم أرفض، أشارك عميت؟ أم أتجاهله؟ أبحث وراء السرداب أم أنبُذ المسألة برمتها.

ولمحتُ بطرف عيني كميل يراقبني مستغرباً، ويطيل النظر لي من مكانه والفضول يقتله لمعرفة ما يجري، وقطعًا ليس لدي وقت لأشغل بالي به، أشرت إليه بإحضار الفواتير، وأخذت أراجعها وأحاسبه حتى انتهيت فقلت له: أغلق المحل يا كميل، ورحلت وتركته يحكم عارضة المحل وذبت بين ظلام الليل البهيم وأفقت من نوبة شرودي لأجد أمامي وجهًا يحدق بي في ذهول وذعر.

كان وجه الأستاذ عبد الله وكان يسألني والريبة تفيض من عينيه: من كميل يا أستاذ أحمد؟

ولم أجد ما أرد به، كل ما استطعت فعله أنني دفنت وجهي بين كفيَّ قليلاً ثم قمت، وتوجهت لباب الخروج دون أن أضيف كلمة وتبعني الرجل مستوقفًا، وقال وهو يمنحني نظرة شفقة: أستاذ أحمد باعتباري في سن والدك، سأسمح لنفسي بإسداء نصيحة لك، وأرجو أن تتقبلها مني باعتباري أب، من هو بمثل حالتك يحتاجُ أحد رجلين، طبيب نفسي، أو معالج روحاني.

رحلت والدموع، وقطعت طريق العودة وأنا أرى كل الملامح من خلف عبراتي المتلألئة، لا أصدق أنني أصبحت مرتعًا للتاريخ بهذه الصورة، يعبث بي متى

شاء وكيفما شاء، يركلني إلى أقاصي الماضي كلما أراد، ثم ينتزعني من حِقَبهِ السحيقة حين يشاء، ودون مراعاة لإرادتي الحرة. ما الذي يحدث لي، آآآآآآآآاه، الضجيج بداخلي أشدّ وطأةً من ضوضاء الحياة، والطنين بأفكاري أعلى صوتًا من ثرثرة المحيطين، الذكريات لا ترحمني وكأن قيامتها قد قامت، ومحاولاتي لفهمها تنقر رأسي بلا توقف، الأحداث تتفصد من عقلي لتحقن نفسها فيه مرة أخرى، والتفاصيل تشعل نوبة الذكرى وتطفئ جذوة النسيان، الصراع بين دواخلي والموجودات من حولي يحتدم للحصول على فُتاتي، والصداع يفضي شهوته بنزقٍ داخل عروقي، والألم ينتهك بقايا ما احترق من أعصابي، الكل يتخطفني، يتنازعني، ويُقطّعني، حتى أنني لم أعد أفهم شيئا، ولا أعرف شيئا، ولا أريد أن استوعب أي شيء، ما كل هذا الزخم الذي يثملُني حدّ الغيبوبة، ويختصر الزمن والمسافات ويعبر الحجب، يَحْضرني فقط حينما يغادرني وعيي ويتفشى الشرود بجسدي، يُسيّرني على أن أستسلم للتاريخ وبلا شرط، ويُخيّرني بين الهزيمة والانسحاب، فأقْبَل مجبرًا وبلا معاهدة، ودون أن يكترث بموافقتي يرحل بي ليبيعني بسوق النخاسة، عبدًا للتاريخ ونزواته وشخصيّاته، ولا يعود بي إلّا حينما يقرر عتق رقبتي من حباله، فيسلم صكّ حريتي إلى لحظة تائهة من عمري ويرمي بي إلى حاضري غير عابئ هل سأسقط داخل قطار الحياة أم ستدهسني عجلاته.

* * *

(الحيرة)

رجعت من رحلة آلامي قبيل العشاء أتأبط كتاب تاريخ مصر القديمة، وقد جفّت دموعي، فتحت باب المنزل فضرب الظلام عينيّ بعنف، ثم أخذ يتبدد سريعًا على إثر جذوَاتٍ كانت تتوهج بتتابع، كانت حنان تشعل فتيل الشموع وكانت بكامل أناقتها ترفل في فستان زهري طويل يكسي أنامل قدميها وعاري الظهر تماماً و يُظهر نصف صدرها، ولمّا رأتني أدخل جرت نحوي واستقبلتني بقبلة على خدّي وأمسكتْ بيدي تصحبني إلى مائدة الطعام ورافقتها فإذا بها أعدت طاولة عشاء فاخرة توسطّها الشموع، وجلستْ على طرفها كملكة متوجة، وجلستُ أنا على الطرف الآخر البعيد لا أشتهى طعاما، ولكن أشتهي حضنًا حنونًا أدفن فيه وجعي، وملاذًا دافئًا أخبئ فيه روحي، وكدت أصرخ بحنان لتضمني إليها ولكني تراجعت حين سألتني: ما رأيك يا أحمد

- جميل جدا.

-ألا يذكرك هذا العشاء بلقائنا الثاني؟

كانت تستصرخ ذاكرتي تحاول مساعدتي، وحاولت أن أجاريها لكنني عجزت، ونفضت رأسي نفيًا بيأس فتنهدت وقالت: حسنًا، لقد طرأت لي فكرة جيدة، لماذا لا نترك هذا المنزل الذي يوترك ويثير حيرتك، أو حتى نبيعه؟

وهنا قفز الفزع في عيني، هي لا تعرف شيئًا عن مضمون الرسالة التي وصلتني وأنني سأقتلها لسبب ما يتعلق بهذا البيت، وحاولت أن أبحث عن مبرر مقنع لتمسكي بالبقاء بالمنزل فأجبتها: سنفعل، لكن أمهليني بعض الوقت فالمنزل يحمل ذكريات هامة من طفولتي وأنا بحاجةٍ ماسةٍ لها.

-لازلت لا أفهم سبب رغبتك بالبقاء هنا يا أحمد، وجودك بهذا المكان يزيد حالتك سوءًا؟ بسببه فقدت ذاكرتك، وفي خضم ذلك نسيتني، وكلما مرّ الوقت تَفقِدُ المزيد من أعصابك، بخلاف أنني لا أفهم شيئًا مما تمر به.

-صدقيني أنا أيضًا لا أفهم، لكني أحتاجه.

-إذًا أجبني، ما سر بحثك عن ذكريات طفولتك يا أحمد؟ ما الذي تخفيه؟

سكتُ من العجز، ثم قررت أن أحرر السر المعقود داخل أضلعي، وأمنحها السبب حتى تتوقف عن استجوابي: أبي وأمي ماتا هنا وأريد أن أعرف السبب.

نزلت كلماتي عليها مثل قصفة رعد ارتجت على إثرها ملامحها وانعقد لسانها تماماً، ومرت الدقائق وهي تحاول استيعاب ذلك الخبر الذي كان بمثابة زلزال عنيف ضرب علاقتنا لكنها احتوت الموقف وابتدأتني بالكلام: حتى وإن كان، نبش الماضي سينكأ جراحًا كانت قد اندملت يا أحمد ولن يمنحك إلّا مزيدًا من الألم.

-المنزل ليس مرتبطًا بماضيَّ فقط لكن بحاضري ومستقبلي أيضًا.

-أفهم إنه مرتبط بماضيك وربما حاضرك لكن مستقبلك! كيف؟

-لأن فيه رحل أبي وأمي وفيه تزوجتك وفيه...؟ توقفتُ عند تلك الكلمة فسألتني: وفيه ماذا؟ أكمل.

لم أجد ما أقوله، بالطبع لن أخبرها بأن فيه يفترض أن أقتلها، لكنّي عدت لأقول: وفيه أحاول أن استعيد ذكرياتي.

-أحمد أنا أحب هذ المنزل لأنه عرفّني عليك وقضيتُ مَعَكَ به أجمل لحظات عمري، وتركه قرارٌ موجع، لكن استمرار وجودك به سيزيد حالتك سوءً بالإضافة لأنه بدأ يخيفني، خاصة أنك تتركني وحدي كثيرًا وتخرج كل يوم ولا تعود إلّا متأخرًا.

-هناك حل وسط.

-وما هو؟

-أن تغادري المنزل للجلوس عند والدتك لفترة قصيرة حتى استعيد ذاكرتي.

عارضت بمزيج من الغضب والاستنكار: وأتركك وأنت بهذه الحالة؟ أحمد أنا لن أغادر المنزل دونك مهما كانت الأسباب.

-وأنا لن أغادره.

-إذاً سأبقى ولن أتركك.

-حتى لو كان قرارك ضدَ رغبتي.

-رغبتك! أصبحت تتمنى أن ابتعد عنك؟

-ليس بصفة مستمرة فقط أيام.

-ألا يكفيك أنك تنفيني من حياتك، وتعيش معي بنصف عقلٍ وبلا قلب، هل تعرف متى كانت أخر مرة تحدثنا فيها؟ هل تذكر آخر مرة شكوت لي آلامك أشركتني معك في معاناتك؟ أنت غير متزن يا أحمد ولا .... قَطَعتُ جملتها حينما أدركت أنها ستجرحني ثم استدركت: آسفة لن أتركك.

-ولماذا تتمسكين بالبقاء هنا في ظل خوفك من المنزل، وغيابي الدائم عنك؟

-لأنني أريدك أن تتذكرني، كما تريد أنت أن تتذكر طفولتك. هل تعلم كم هو قاسٍ ومؤلم أن أعيش معك في بيت واحد بينما أنت تنساني؟

لم أجد رداً مناسباً فآثرت الصمت حتى ينتهي الحوار عند هذا الحد. حوّلت بصري عنها، ولمحتها بطرف عيني تسترق النظر إلي، فأدرت بصري نحوها فأشاحت بوجهها بعيدًا لكني أدركت نظرتها.

كانت مليئة بالشك، وبالتأكيد لاحظت هي أيضًا نظرتي المشحونة بالارتياب، لازلتُ لا أجد تبريرًا منطقيًا لتمسكها بالبقاء، أشعر أنها تتمسك بالوجود إلى جواري لهدف ما في رأسها، بدأت أشك في نواياها، وقطعنا الوقت في أفكار قلقة ومتوترة حتى خرج عصفور الساعة ليعلن عن الثامنةَ مساءً!، فصعدنا لغرفتنا ونحن شبه متخاصمين، لكننا نمنا بسرير واحد.

انتصف الليل ولم يأتِ النوم، وحل السكون دون أن يصطحب الراحة، تقلّبت في سريري على جمر الحيرة، أطلب النوم ويأبي أن يمنحني ولو غفوة، يفرّ مني فرار العاهرات من التوبة، كلّما اشتهيت وِصاله لوعنّي أكثر، وكأنه يستمتع بإرهاق روحي المعلقة بين واقعٍ ينكرني وماضٍ يحاصرني، نَهارٌ أقيلُ فيه إلى الجمر، وليل آوي إلى برودته عاريًا، فالنوم يعاملني مثل طفل لقيط طُرِحَ منبوذًا على ناصية النسيان وأبى كل العابرين إيواءه.

الليل وما أدراك ما الليل، قبو مظلم، وملجأ كئيب، يأوي إليه الهاربين من قصف الحقائق القاسية، وعباءة كالحة تستتر خلفها النفوس العارية خوفًا من نهش الأبصار المتلصصة، هذه صورته لدى البشر، أما بالنسبةِ لي فالليل هو الجحيم المقيم الذي تنكشف به كل المتاهات المحتجبة وتهاجمني فيه ألسنة الماضي بذكريات تنكأ آلامي، وتستعر تحت مبضعها جراحي

القطعية، التفاصيل تتوهج مع عتمته دائمًا، وكأنها أشباح تسكن بيتًا مهجورًا، بداية من الخطاب الذي جاءني من المستقبل يحمل خبرًا بشعاً، والماكينة التي أدرتها فقفزت بي عبر الزمن لأجدني قد تزوجت، وعلى وشك ارتكاب جريمة قتل بين لحظة وأخرى، ولا زلت لا أجد سبباً واحداً يدفعني لارتكاب تلك الفعلة. بصرف النظر عن عدم وجود أي شعور للألفة بيني وبين حنان، والآن يزداد الأمر سوءاً بامتلاكي لذكرياتٍ غامضةٍ وقديمة قدم التاريخ عن فارس إسبرطي نبيل، يمتلك كل مقومات الفروسية، وتمتزج بأخرى عن صائغ يهودي بخيل يتناقض تماماً مع الأول حتى في ملامحه، فالأول وسيم وبشدة والثاني دميم الخلقة بينما أنا تائه بينهما، أنا لست مثالياً مثل بانثيوس ولا بشعًا مثل نعوم. لا وسيماً مثل الأول ولا دميماً كالثاني، ومستحيل أن أكون فارساً. فأنا لا أجيد ركوب الخيل، ولا صائغًا لأنني لا أفهم بالمصوغات، ما الذي يربط كل هذه الأشياء ببعضها البعض، وأي النفوس أنا، هل أنا روح تتبادلها الأجساد، لكن كيف! وروحي تختلف عن روح بانثيوس الفارس، وتتباين مع روح نعوم الجشع، وبالطبع لست جسداً تتناوب عليه الأرواح، فلا أنا قوي مفتول العضلات مثل الأول، ولا نحيل وجاحظ مثل الثاني، لا أشبههم جسدًا ولا روحًا، لا يمكن أن أكون مجرد قالب من الطين يتشكل من جديد مع كل روح تسكنه، سأجن، عقلي يكاد يخرج عن مَدَارِه ويحلّق خارج رأسي، والحيرة تحوم حول أفكاري اللعينة مثل دبور تائه، العرّافة واستاذ التاريخ يميلون إلى تفسير خيالي، وهو أن روح من الجنّ تسكنني، لكنّي لا أشعر بذلك.

وقفت أمام مرآة البهو أتفحص ملامحي التي تنعكس على سطحها، تلك العينان الزائغتان، والقسمات المحاطة بهالة رمادية من الغيوم التي تتكثف على المرآه، لتشكّل حلقاتٍ مُتداخلهٍ تلف وجهي بدوّامتها المخروطية

وتسحبني إلى قلبها بضغط عاتٍ، وسرعة مضطردة قلبّت أحشائي، الظلام يزداد حدة والضغط يعصر دماغي، درت ودرت حتى فقدت إحساسي بالمكان ثم عادت صورتي تظهر داخل المرآة لكن بوجه آخر. آذاني كانت تطول، وأنفي ينبعج، وجهي يزداد نحولا وعيناني تجحظان، انتفخت شفتاي وَنجِف فكي، تحوّرت ملامحي لتُشكل أكثر الوجوه بشاعة في حياتي، وجه نعوم المقيت والذي لم يكد يكتمل حتى فتح ثغرة الكريه وتكلم: هل عرفت الآن أنك مجرد صورة رخيصة مني؟ قالها مشيراً بإصبعه نحوي فصرختُ فيه: استحالة أنت تكذب، تكذب.

جلجلت ضحكته لتجمع بين الشماتة والسخرية وأشار لي وقال: وهل مرآتك تكذب أيضًا؟

نظرت إلى أصابعي فوجدت عظامها طويلة، ومرّرتها على وجهي فلمست قسماته الدميمة، وقع المفاجئة هدّني، وضحكاته الظافرة ترددت من حولي بصدي مقزز، أوجعتني سخريته وأيقظت بداخلي كل ما أعلمه عن الروح، فالروح تسكن الأعين، تسبح بين مائها، تستظل بالأهداب، وتحلق مع النظرات، وتمتد داخل عمق بئرها، ولذلك تفضح العيون الحقائق المستترة داخل طيّات الجسد، وتستخلص كل الخبايا المكبوتة قسرًا داخل وعاء النفس، العيون مرآة الروح التي لا تكذب أبدًا ولا تخدع أحدًا.

سلطّت بصري داخل عينيه الجاحظتين في المرآة لأتحداه وأكشف عن حقيقته، وغصت داخلهما ورأيته يذوب، أنفه يستدق وأذنيه يصغران، عينيه صارتا واسعتين وشفتاه رفيعتين، ازداد شعره غزارة وطولاً ونبتت على وجهه شعرات ترعرعت وأصبحت لحية طويلة كثّة. غدا بانتيوس الفارس الإسبرطي، وتحركت شفاهه وقال معاتبًا: لماذا اخترت جسدي لتسكنه؟

-لم أفعل، هذا جسدي أنا.

-هذا ما توَهَمهُ أنت.

-لا بل تلك هي الحقيقة، لماذا تفعلون بي ذلك، لماذا تشكّكوني في ذاتي، لم أنازع أيًا منكم على حياته ولا على روحه، ونلتم فرصتكم الكاملة في الحياة. فلماذا تستكثرون عليّ أن أنال قسطي مثلكم، لماذا تغتصبون روحي وتسرقون جسدي وتعيشون عمري.

-لمْ نفعل.

-بل فعلتم حينما سكنتم ذاكرتي، ألا تعرفون أن الانسان بلا ذكرياته يصبح آخر لا يعرفه، وغريبًا عن نفسه.

-لم أسرقك، أنت منْ يزاحمني أسراري ويتلصص على حياتي، ويحاول سرقة روحي، قبّلتَ حبيبتي ملينيا، وتمتعت معها بأجمل اللحظات دون حق، ولذلك سأقاتلك عليها، لن أتركك تنال مما دفعت عمري ثمناً له، يجب أن تتوقف عن تماديك. قالها والشر يتطاير من عينيه وملامحه تتبدل، طارت لحيته من على وجهه وقصر شعره الكثيف قليلا، اقترن حاجباه واستطال وجهه، وحمل ملامحي لكنّه لم يكن أنا، مجرد نسخة باهتة منّي، عرفت ذلك حينما حرّكت رأسي فلم يتحرك وظلَ جامد ينظر تجاهي من عمق المرآة، سألته: من أنت؟

رفع يديه في وجهي فوجدتهما مقيدتين بالأصفاد وقال: أنا أحمد ذلك السجين المقيد بأقصى أركانك المظلمة.

-أين أجدك؟

-أنا أظهر حينما تغيب.

-لكنّي أغيب وأشرد ولا تأتي.

-لا يمكن أن نجتمع سويًا إمّا أنا أو أنت.

-يجب أن نتقابل.

-ولماذا الآن؟ ألم تقض حياتك كلها تحرص على ألّا تجمعني بك ذكرى، اجتثثت جذورك ومضيت دوني، الآن حان دوري لأمضي دونك. وبدأ يتبخر فصرخت فيه: انتظر. ومددت يدي تجاهه لأمسك به قبل أن يفرّ، أردت أن تعبر يدي ذلك السطح اللامع الذي يحجبه عني، لعلي أستعيد ذاتي الغائبة، لكنها استقرت في زجاج المرآة وتصدّعت كما تتصدع روحي، وعدت خالي الوفاض، ولم أظفر إلّا بدماء متناثرة خالية من الهوية، وزجاج مغروس في كفّي يهديني غصّاتٍ جديدةٍ من وجع.

وبرحيله ذاب وجهي في المرآة وعادت بيَ الدّوّامة إلى حيث كنت أقفُ أمامها جامد بلا حراك، وقد تمزّعت ملامحي إلى عشراتِ القطع وسط شروخ المرآة التي تشبه شبكة العنكبوت.

زَفرتُ مُحاولاً تهدئة قلبي المضطرب، لو بقيت هكذا سأجن، لم يعد أمامي إلّا أن أقبل بنصيحة أستاذ التاريخ، سأنزع فتيل قنبلته وأتركها تنفجر داخل كياني حتى اتخلص من هم حملها، ربما يكون وقوع البلاء في بعض الأوقات خير من انتظاره.

* * *

(٢١ - يناير- ١٩٧٧)

اخترت أقرب العيادات النفسية إلى المنزل لزيارتها، ربما لأنني لا أعرف سواها، وربما لأن كل الأطباءِ النفسيين يعملون بنفس الطريقة ولن يفيد بحثي عن أفضلهم، لا أدري! لكن الغريب هو أنني حينما دخلتها اختلجني إحساس غامض بأنها مألوفة لدي، وكأنني زرتها يوماً ما.

ورغم أنها كانت تخلو من المرضى إلّا أن هذا لم يدعوني للتراجع، لأن ذلك غير مستغرب، فلازال الجميع يرفض الاعتراف بما يسمى المرض النفسي، حتى أنا لم أتصور للحظة أنني سألجأ يومًا إلى طبيب نفسي، لكنّي الآن مستعد لأي علاج يمكن أن ينتشلني من هذا الضياع، ومرّت دقائق الانتظار رتيبة حتى دخلتُ على الطبيب وجلست مسترخيًا على الأريكة الجلدية بغرفة الفحص والتي تعد نموذجًا تقليديا لعيادة كلاسيكية.

اجتذب الطبيب أحد الكراسي وجلس أمامي في هدوء ورصانة، كان رجلًا نحيفًا متوسط الطول شعره كستنائي مصفّف باتجاه واحد، جبهته عريضة وأنفه مدبب، له شارب كستنائي مشذب ووجهه حليق ناصع، عيناه بنيّتان ويرتدي نظّارةً غليظة الإطار مثل قعر الكوب، أما الملفت بشده في ملامحه فهو أن جانبي فمه ينحرفان للأسفل قليلاً مما يعطي انطباعًا دائمًا بالحزن، وكعادة هؤلاء ابتدأني بأسلوب منمق محاولاً التسلل إلى نفسي بهدوء، وإضافة جوًا من الألفة والبشاشة على الجلسة:

-يمكنك التدخين خلال الجلسة إن أردت ذلك.

-شكراً. أنا لا أدخن أبدًا.

ضحك وهو يمزح قائلاً: أنا أفعل.

ثم أردف بصوت ودود: لماذا جئت؟

أدهشني سؤاله فقلت مستغربًا: وهل من المنطقي ألّا أحضر؟

-بالتأكيد. الناس هنا لازالوا يعتبرون زيارة الطبيب النفسي عارًا.

أجبته بشرود: الحيرة تمزقني، لم أعد أعرف من أنا! ولا أفهم نفسي، أشعر بأنني مجرد وهم، ذكرياتي مشبّعة بخليطٍ مشوش يدفعني دائماً للوقوف على عتبة البرزخ بين الحقيقة والسراب، ولا أدري كيف يمتزجان.

-ماذا تعني؟

-تسكنني ذكريات لآخرين وتأتيني في صورة حالة من الشرود.

-هل تصحبها أعراض طبية؟

-نعم، أشعر بالدم يدور داخل رأسي دورة سريعة وكأنه موج عات يتقلّب داخل قناة صغيرة، أو كأن رأسي عبوّة يرُجّها طفل لاه، يعصف بي معها صداع لا يرحم، أضغط بسببه جانبي رأسي من شدة الألم وفي لحظة ما يتبدل كل شيء وينسحب المشهد من أمامي وأصبح شخصًا آخر، وأغرق في حياته تمامًا ثم أفيق منسلًا من شخصيته برفق، وأجدني أتذكر ما حدث، تصورتها في البداية أضغاث أحلام حتى تأكدت من أنني أكون مستيقظًا لكنني غير واعٍ لواقعي.

-متى بدأ هذا الأمر؟

-منذ أيام.

-هل تعاني من ضغوط بالعمل أو بحياتك الاجتماعية؟

- إطلاقا، حياتي منتظمة للغاية، وأنا بطبعي انطوائي لا أميل للاختلاط بالآخرين.

-وماذا عن الذكريات، أعني كيف تبدأ معك؟

- يدفعني لها في كل مرة رمز مرتبط بها، أحيانا قبلة لزوجتي، وأحيانا مكان ما أو فقرة من كتاب، بعدها أراني أرفُل في أجساد آخرين ولا أذكر أحمد إلّا عندما تنتهي الذكريات، كيف يمتزج الوهم مع الواقع بداخلي بهذا التناسق؟ وهل أنا أحمد حقاً؟ أم أن أحمد هذا مجرد رجل يحتل ذاكرتي مثله مثل الآخرين، أم هو مجرد حكاية وهمية اختلقتها؟

دوّن شيئاً بدفتره ثم عاد يسألني: كم شخصية تنتابك ذكرى عنها؟

-اثنتان لكنهما على النقيض، الشخصية الأولى فارس إسبرطي نبيل يدعى بانتيوس والثانية صائغ يهودي لئيم يدعى نعوم.

-هذا بخلاف أحمد؟

-نعم أحمد هو ثالثهم يعد بمثابة الوسيط أو الشاطئ الذي يطرح به موج ذكرياتي زبَدَه، وأستريح على ضفافه.

-ربما سمعتَ عنهما حينما كنت صغيرا، أو كانا أبطالًا لبعضٍ من القصص المصوّرة التي تعلقتَ بها في طفولتك.

-لو كان الأمر هكذا ما زرتك، فأنا لا أذكر من طفولتي إلّا النذر القليل، بالإضافة لأن تلك الشخصيات غير مدوّنة بالمراجع، هل يمكن أن أرى ذكريات لشخصية تاريخية عاشت منذ ألفي عام بل وتستدعي تلك

الشخصية ذكرياتها، ذكريات داخل ذكريات وحلقة تدور داخل حلقة، وقصة حب عنيفة بين بانتيوس وملينيا تشبه قصة أنطونيو وكليوباترا.

-هل بحثت عنهما في كتب التاريخ؟

-نعم ووجدت كل المحيطين بالقصة إلا أبطالها، لم أجدهم.

-وكيف عرفت؟

-زرتُ أستاذاً للتاريخ، وأكدَّ لي أن بعض الشخصيات حقيقية لكنه نفى تماما معرفته بمن يدعى بانتيوس والذي أجدني أسبح في روحه وجسده، ونفى معرفته أيضا بوجود ملينيا وقصة الحب بينها وبينه.

-هل نفى وجودهما؟ أم نفى معرفته بهما؟

-نفى أمكانية تأكيد قصتهما، وادعى أنني ربما سمعت عن قصة بطليموس الرابع وكليومنس الثالث -واللذان تجمعهما الأحداث ببانتيوس وملينيا- أو قرأت عنهما في كتاب قديم وأنني اختلقت قصة الحب الوهمية تلك أثناء حلم أو داخل عقلي الباطن.

-وبالنسبة لنعوم؟

-صائغ يهودي كان يمتلك المنزل الذي أعيش به في فترة الأربعينيات، وتأكدت من ذلك بنفسي عندما زرت الشهر العقاري، لكنني عندما ذهبت إلى محله بالصاغة اعتماداً على ذكرياتي عنه، اكتشفت أنه لا وجود له.

-تعني أن ذكرياتك حقائق مختلطة بأوهام؟

-أظن ذلك؟

انهمك يدون بعض الكلمات في دفتره ثم أعطاني إيّاه وقال: اقرأ هذه الكلمات من فضلك.

طالعت الورقة فوجدته قد سجل بها قائمة رأسية من الكلمات: "غيبوبة- غفلة—غفوة-قيلولة-استرخاء-نسيان-عزلة-وحدة-ضياع-وهم-توهه- حلم-كابوس"

قرأتها فسحب مني الدفتر برفق ثم سألني: هل قرأت كلمة "نوم" بين القائمة السابقة؟ فكرت قليلاً ثم قلت: نعم قرأتها.

عرض لي القائمة مرة ثانية فلم أجد بها كلمة "نوم" فازدادت حيرتي، هنا قام الطبيب من مقعده وقال وهو يدور بالغرفة من حولي: ذاكرة الإنسان لا تُسجِل الأحداث بشكل متسلسل مثل شَريط السينما، لكنها تحتفظ بما يبدو مُهمًا أو ترك بداخلك أثراً انفعاليًا شديدًا كحادثة أو صدمة أو لقاء جميل وما شابه. وحتى داخل الحدث الواحد والذكرى الواحدة تُسَجّل التفاصيل على شكل قطع منفصلة وبالتالي عند استدعائها يخترع المخ تفاصيل إضافية عند سرد الحكاية حتى تبدو القصة متماسكة ومنطقية.

-هل يعني ذلك أن كلام أستاذ التاريخ صحيح؟

-نعم، إلّا إذا تأكدنا من صحة قصة بانتيوس هذا الذي تراه أو ما يؤيدها.

-وكيف سنتأكد من رواية حدثت منذ آلاف السنين؟

-بأن يكون بانتيوس قد ترك أثراً، أو رسالة مادية ما تثبت وجودة.

استرجعت ما رأيته عن نعوم الذي وجد مخطوطات جلدية بها رسالة من ملينيا إلى بانتيوس ثم قلت: وفي حالة عدم التأكد أو العثور على شيء كهذا؟

-وقتها سنتأكد من أنك واهم. ثم أستدرك بسؤال: قل لي يا سيد أحمد هل تحب زوجتك؟

لم أجد رداً، وأحسست أنني تائه وبشدة فأنا تقريباً لم أعرفها إلّا منذ أيام قليلة حسب روايتها فصدقته القول: هذه مشكلة أخرى وربما أكبر.

-كيف؟

-أنا لا أذكرها، ولا أعرف عنها شيئًا، ولا أجد بداخلي أي ذكريات تجمعنا.

-عجيب! لكن اللحظات الرومانسية تتصدر كل ذكريات البشر.

-وهذه مشكلتي.

-ربما تكون قد تعرضت لصدمة ما في ليلة الزواج؟

-لا أذكر ولم تخبرني هي بأي من ذلك.

مطّ شفتيه ثم قال: ربما يكون عقلك قد حاك قصة بانتيوس وملينيا بديلاً عن أحمد وحنان، ربما كنت تحبها وبشدة، لكنّ شيئا ما بداخلك يمنعك من التعبير عن هذا الحب.

-لكنهما ليسا كذلك، هما يعبران عن الحب وبشدة.

-أدري، لكن ربما خيالك يصور لك ما تتمناه وليس ما تعيشه، أنصحك بمحاولة التقرّب من زوجتك بشكل أكبر، أظهر لها اهتمامًا كبيراً ورغبة في إسعادها واعتقد أنك ستحقق تقدماً ملحوظاً، كما أنصحك أيضًا بالتخلص من الوحدة والأنعزال، بالخروج مع أصدقائك وزيارة أقاربك، حاول أن تتذكر كل ما يرتبط بطفولتك، ابحث عن جذورك العميقة.

ورغم بساطة توصياته إلّا أنها كانت مذهله، أقاربي!.كنت قد نسيتهم وسط طوفان المجريات الذي جرفني نحو التيه، منزل جدتي، خالتي ليلى، وسهام حبي القديم.

* * *

(منزل جدتي)

استجبت لنصيحة الطبيب وغادرته متجهًا إلى منزل جدتي، والذي قضيت به طفولتي الهادئة. لأول مرة أشعر بالندم على رفضي التواصل مع خالتي ليلى، وعدم الرد على خطاباتها واتصالاتها، الآن فقط أفهم أنها كانت محقة، وأنها قصدت أن تبعدني عن مصر حتى لا يطاردني عار جريمة أبي، على أية حال سأعتذر لها عمّا بدر مني حينما أراها.

وصلتُ عند العصر حينما تقلب الجو وأصبحَ عاصفًا، وانتشر السحاب يلفُ الأفق بشرنقته الكثيفة وكأنه دخان محترق ينبعث من مدخنة مصنع، الجو معتم حزين يشبه من يودع عزيزاً في جنازة والرياح تعثوا فسادًا بالطرقات وصَفِيرُها يصمُّ الآذان، تعبث ببقايا الأوراق وتكفأ صناديق النفايات، تجسد أثواب النساء اللواتي كن يحاولن ستر عورتهن، وتطيح بالقلة العابرة من المارّة الذين كانوا يفرون إلى المداخل، في حين أوى أغلب سكان الحي إلى منازلهم، أنا وحدي كنتُ أسير في هوادة مريبة متحديًا تلك الزوابع، وأتجوّل بين جنبات الشارع القديم المتهالك غارزاً نظراتي في كل تفاصيله المظلمة، لازال كما كان، مرصوفًا بالحجر الأملس وعريضًا، تحفّهُ بعض الشجيرات التي تعاني عقوق أوراقها الغائبة، بينما تصطف البيوت على جانبيه مستندة إلى بعضها البعض تحتمي من قهر الزمن، مثل عجوز تنحني للريح حتى تمر دون أن تنخر مزيدًا من عظامها.

لكن أين منزل جدتي، لازلت لا أجده. أظنه كان المنزل السادس على اليسار من الغرب، يمثل لي الآن هويتي المفقودة، أركانه هي أركاني، أعمدته ستقيلني من عثرتي، وممراته ستضع حدًا لمتاهتي، بحثت عنه كثيراً وتحمّلت شدة العاصفة التي كانت تنثني لها أغصان الأشجار. ولا أثر!. لا أثر له بتاتًا! لم أجده في مكانه الذي أذكره، ولا أجد له شبيها بين كل البيوت، ازدادت حيرتي، لابد أنني نسيت العنوان. أو أن المنزل بيع دون معرفتي، لكن البيوت لازالت قديمة لم ترمم، لم تستبدل بغيرها، ولم يهدم إحداها، أغمضت عيني لأتذكر ترتيب المنزل وسط البيوت. لن أقبل أن تخونني ذاكرتي هنا في مخدع طفولتي، لن أسمح لها بذلك، استنطقت دهاليزها الرمادية بقسوة فانصاعت مرغمة واعترفت. كان البيت السادس على اليمين وليس اليسار، لكنه ليس هوا. فناؤه الأمامي لم يكن مسيجًا بسياج خشبي قصير مثل هذا! لا يمكن أن أنسى المنزل الذي عِشت به سنوات من طفولتي، دفعت باب السياج القصير بركبتي فانفتح بصرير مزعج، وعبرت إلى الفناء الضيق الموحل والذي لا تتعدى مساحته المترين، ثم وقفت أمام المنزل المتهالك حائراً، كانت الواجهة مختلفة والباب مختلف، ارتقيت درجاته الخشبية الواهنة والتي أخذت تئزُّ تحت كعب حذائي حتى وقفت على عتبته، ودرت ببصري استكشف نوافذه الهشة المكسّوة بالطين وجدرانه المشروخة وحتى السقف المتآكل، توجست قليلاً منه لكنني وبالأخير قرعت الباب بالمقراع المعدني المثبت به، وانتظرت، ومرّت الدقائق ولم يجبني أحد، فقط حصلت على صوت ارتجاجات الباب المتهالك، كررت المحاولة مرّات ولا مُجيب، وحينما أصابني الملل دَفعتُ الباب براحتيَّ فصّر وانفتح على مصراعيه، وأذهلني ما رأيت، فالمنزل كان خاوياً على عروشه، ساحة فارغة بلا ملامح ولا جدران، تحمله أعمدة متهالكة توشك أن تنوء بحملها وتنطبق على الأرض،

تماما مثل ذاتي التي تهوي كنجم فر من أفلاك النور ليحترق وحيدا في ليل الصحراء.

تجولت بداخله بخطوات بطيئة محاولاً استعادة ذكرياتي عنه. لكن للأسف كل المعالم طمست. وكأن الكل قد تكالب على هذا المنزل الهرِم. الزمن والمطر وحتى الرياح التي تتسلل من بين شفرات زجاج النوافذ المكسورة لتنهش المزيد منه في كل رحلة تقطعها بين جدرانه. العناكب أيضًا لم ترحمه. عششت بأركانه البعيدة متجنبّة الرياح وناصبةً شباكها لحصد الغنائم. أحدهم ظفر بذبابة سقطت بين خيوطه وراحت تطنّ عاجزة عن الفرار. وآخر لازال ينتظر بمكر تلك الفراشة الرمادية التي تحلق فوق راداره بفضول. لا شيء هنا يجلب الذكرى إلا الحطام. والحطام لا يُقيم إلا صروح الوهم.

درت حول نفسي ودار معي الوجع. لم يأتي الصداع ولم تندمج معالم المنزل ولا غبت عن واقعي. عجزت أن أوقظ رفاة ذكرى قديمة يبدو أنها وئدت داخل رحم طفولتي. هل أنا نكرة. حرف طردته الأبجدية. روح مبعثرة بين أروقة رياح موسمية! الكل يلفظني وكأنني خلقت لأتجرع العذب؟ آهٍ يا أنا. ماذا يريد الوجع مني؟ ما هو المزيد الذي يمكن أن أقدمه له؟ ألم يكتف مني بطفولة يتيمة. ووحدة بين أهلي. وغربة لشبابي. يريد أن يقتنص مني حتى ذكرياتي الأليمة ومنابت حزني! انفلتت من طرف عيني دمعة حملت خلاصة معاناتي. اعتصرتها روحي الكسيرة التي قهرها ضياعي وقلة حيلتي. وبكيت. وطال بي البكاء. والنشيج. وطال الوجع. لثمت العبرات خدي بعشرات القبل وكأنها تواسيني. تقول لي لا تقنط. نحن بناتك اللواتي أنجبهن فيض احساسك. سنحملك إلى أرض النجاة.

تركتهن ينهمرن حتى صرن مثل شلال هادر فاض حتى جف المنبع وحملني فيضه إلى شاطئ الصفاء، فطرحتني دموعي على ساحله بعد أن غسلتني، وكأنني أولد من جديد، كفكفت خيوطها الحزينة التي اعتصرت قلبي وجعًا وهممت بالانصراف.

إلا أن صوتًا ما استوقفني، نبرته كانت مخيفه تجمع بين العويل والعواء، ودرجته أعلى من كل الأصوات التي كانت تضج بالخارج، التفت ناحية النافذة الكبيرة الملطخة بالطين والمكسورة الحواف فرأيت ظلا كثيفًا يقف خلفها، وكان واضحًا بشدة، ارتعدت فرَائِصي من الخوف، ما الذي يراقبني ويتربص بي؟ ولماذا؟ تقدمت في حذر تجاه النافذة ثم فتحتها برفق وتردُد، وليتني ما فعلت، فبمجرد أن حررت مشبكها اندفعت بعنف وارتطمت بالجدار الخارجي وانفجر زجاجها كالقنبلة، ولم أكد أتلق تلك الصدمة حتى هبّت في وجهي ريح باردة اخترقت مسامي، وانتصب لها شعر رأسي، شيء ما كان يعبر من خلالي، شيء ثقيل غشيني وسيطر على أطرافي المرتعشة للحظات ضربت فيها خلاياي العصبية عاصفة من الصقيع، ثم غادرني لتتحرر بداخلي أنفاس ذبيحة وسعلت كأنما أسترد روحي بعد غياب طويل، واستمرت نوبة السعال تجتاحني لفترة طويلة ومع الوقت أخذت تهدأ، واستقرت أنفاسي المتلاحقة، تأملت الممر الخلفي الذي تطل عليه النافذة، واكتشفت مفاجأة مريبة فالمربع الخلفي للمنزل محاصر بالجدران من كل الجهات، ولا يمكن أن يمر منه بشر.

استدرت قاصدًا الخروج وذُهلت، لم أجد الباب، بل لا أبواب ولا نوافذ بالمنزل على الإطلاق، كل المنافذ اختفت ولم يبقى إلّا الجدران، عن يميني جدار وعن يساري آخر ومن أمامي ثالث ومن خلفي رابع، درت حول نفسي كالمجنون لا أصدق، وكأنني عزلت عن العالم، تصاعدت أنفاسي وتحسست

رقبتي وبدأت أشعر بالاختناق، تسلل إلى مسامعي صدى عميق يحمل عبر أثيره ضحكات طفل لاه، ثم دارت بي الدنيا، ترنحت وهويت.

- يا جدتي.

-نعم يا أحمد؟

-أين أبي وأمي يا جدتي؟ قلتها وأنا ألقي بنفسي بين ذراعيها الحانيتين فضمتني إلى جوار قلبها وقالت: سافرا سفراً طويلاً يا حبيبي.

رفعتُ رأسي الصغير عن صدرها وسألتها بعيون حائرة: ومتى يعودان؟

طفرت من عينيها الغائرتين دمعة وقالت: حينما تكبر يا ولدي سيعودان.

-أريد أن أكبر سريعًا، حتى أراهما.

لوّعتها عبارتي البريئة، وكسى ملامحها الذعر وقالت: أطال الله عمرك يا حبيبي، أطال الله عمرك. أطال الله عمرك.

تكررت الكلمة مرات وراحت تتقلص لكن بقاياها ظلت تضرب إيقاعها على طبلة أذني حتى أفقت، ولقيتُني مسجى على الأرض الزَّنْغُ يغشاني، والجدران تتموج من حولي، والأرض تميد بي كأنني داخل قارب يتمايل، لازال المنزل يفتقد المخرج، وكأنه فوهة قنينة سُدّت عن آخرها.

استندت على ذراعيّ، وقمت من رقودي، وأنا أترنح كالمطعون، طوّحت ذراعيّ يمنيًا ويساراً محاولاً استعادة توازني، استقمت بصعوبة بالغة، وأغمضت عيني محاولاً تذكر ملامح بيت جدتي، وكأنني استرشد بخريطة استدعيها من خيالي، مشيتُ مغمض العينين أتتبع ما تحتفظ به ذاكرتي من أبعاد وحَدَدتُ بوصلتي اتجاه باب الخروج عن يميني، فمددت ذراعي أمامي

كالأعمى أتحسس الطريق حتى لامسته ودفعته ولم أصدق حينما وجدته ينفتح على مصراعيه وغادرته لأجد نفسي على عتبته الخارجية.

استدرت أمنحه نظرة ذهول، أين كان مختفياً؟ أين ذهب حينها؟ وهل ما رأيته يثبت أنه كان منزل جدتي؟ أم أنني أصبحت أعاني الوهم؟ وكالعادة بداخلي هاجس يؤكد أنه منزل جدتي وهاجس آخر ينفي.

أنفاسي لازالت لاهثة ولم أسترد اتزاني الهارب بعد، والريح كالوحش الغاشم تحطم النوافذ، والطقطقة والجللة تنتشر بكل مكان، وأنا أترنح، جلست على الأرض خوفًا من أن يطيح بي الدُوار، وحين استعدت اتزاني الكامل تحاملت على نفسي وقمت ومشيتُ وأنا في حالةٍ مُذريه، أقاوم كل قوى الطقس التي تتضافر لإسقاطي، قطعتُ الشارع المنحدر بالاتجاه العكسي، بعدها انعرج بي الطريق يمينًا، ورأيته على بعد مائتي متر، عم فاروق، بائع الجرائد المُسن، والذي كنت أشتري منه الكتب والمجلات قديمًا، كان يقف بين كومة متخمة ومغطاه من الجرائد يحاول أن يطل برأسه المعمم من خلالها، تتقدمه عربة قصيرة ذات عجلات أربع، ويحتمي بمظلّتها المحدبة التي كانت تنتفض بعنف على إثر الريح.

لازالت العربة كما هي يحفها عقداً للمجلات، الشبكة، المصور، آخر ساعة، وصفوف من الكتب تكسو سطحها، مريب أمره، لا يهتم للطقس وكأنه تعود على الزوابع، كما لازال يثبت صفوف الجرائد بالحجر وهي ترفرف من أسفله، مثل طير يحاول الهرب، استرقت نظرة إلى السماء فوجدت أمطارًا تلوح بالأفق، اقتربت منه حتى أصبحت أمامه مباشرة ورأيته، لم يكن هو، لم يكن عم فاروق، بل رجل أخر، شابٌ لا يتعدى العشرين، كنت سأسله هل يعرف منزل السيدة قسمت عثمان؟ لكن الصدمة جعلتني أتراجع وأغير وجهة سؤالي: أين عم فاروق؟

دُهش وسألني وهو يلملم أغراضه ليغادر: عم فاروق من؟

-الرجل الذي كان يجلس هنا مكانك.

-لا أعرفه يا أستاذ. قالها وانشغل برصّ الكتب في صندوق خشبي خوفًا من العاصفة.

مستحيل لا يمكن أن أكون واهمًا لهذه الدرجة حتى التفاصيل الصغيرة أتوهمها؟ اعتصرت ذاكرتي لتؤكد لي ولو معلومة صغيرة تعيد لي ثقتي بنفسي، ولم تمنحني إلّا السراب، وسيل حررته المُقل، ليعلن أن البحث وراء الألم، ما هو إلّا الألم الأكبر، وانهرت نفسيًا، بكيت بحرقة، ومضيت تائهاً لا أعرف أين أذهب؟! فلا شيءٍ أقسى من أن تخونك ذاكرتك، تبيعك لآخرين مثلما باعك كل شيء، تهب نفسها لكل عابر يعبث بتفاصيلها -ودون مقابل- فقط لكي تقسو عليك، تمنح حيزها لمن تكرههم بغضًا لتلك اللّحظة التي امتلكتها فيها يومًا، تقاتل لتمحو أثر وجودك بداخلها، وتزيل عن نفسها كل بصماتك التي تركتها يوماً على بقاعها حتى تتطهر منك، تهدم كل ملامحك من أزقتها وحواريها حتى تخرج من حياتك، تهرع لمن لم تصادفهم يوماً فتزرع عمرك في ترابهم وتزرع ماضيهم في صفحة حاضرك انتقامًا من تشبثك بها، أصبحت أكرهها ربما أكثر مما تكرهني، لم أعد أطيق أن يطأ أحدهم بقدمه قاع ذاكرتي فيدهس معالمي و يمحو وجودي، وما فائدة جسدي بلا كينونتي، بلا معالم طريقي، بلا آثار نفسي، كيف تسنى لها أن تفتح أبواب حصوني على مصراعيها للغزو ؟

لكني سأظل أنا، حتى لو أنكرتني ذاكرتي، حتى لو أعلن العالم أنني واهم، وحتى لوكان لي ألف وجه، سأبقى أنا، لن يحجب بريق السطح رؤيتي لقاع الذات، فذاتي هي كياني الذي يحس ويشعر ويتألم، يصادق ويحب ويعادي ويكره، أنا هو أنا، لن يضيرني ألّا أنظر في مرآتي مدى الحياة، صورتي ليس

هي أنا، بل قالب روحي، بشيطانها وملاكها، بلحمها ودمها، بما يسري بها من نبض وانفعال، أنا الإحساس الصادق ولست التمثال الجامد، فلتسكنني ألف نفس، ولتعبث بداخلي كل الوساوس المكنة، سأقاوم وأقاتل وأدخل بجسارة كل معارك الهوية حتى انتصر، حتى أمحو كل الصور المهتزة التي رانت على ملامحي الحقيقة، أعلمُ أن كشطَ الرواسب التي غلّفت الروحَ بسوادِها ليس سهلاً، ولن يكون، لكنها معركتي الأزلية وملحمتي الأبدية، صراعي من أجل ذاتي هو هدفي الأسمى، وسأنتصر لا محالة، طالما عقدت العزم، فللإصرار سحر لا يقاوم، يخضع أمامه كل الملوك، وتستسلم تحت ذؤابة سيفه رقاب المعادين، وتجثو بين يديه القلوب المشوهة والنوايا الدنيئة، ولازالت البسالة هي الجسر الذي يعبر من خلاله كل الأبطال إلى ساحات العزة، وتقتحم به متاريس القلاع، وسيبقى الصبر والنضال هو الطعنة الأخيرة التي تفتح مع نصلها ممالك النصر، وتعلن تحت رايتها عهود الكرامة والإباء.

هبط المطر ليوقف حدة العاصفة ويوقف معها رياح الانهزام التي تعبث بداخلي فملأني الإصرار وكفكفت دموعي، ثم اتجهت إلى الشهر العقاري وأدركت الموظف قبل موعد انتهاء العمل بدقائق معدودة، ولم أمكث عنده كثيراً، لأنني وببحث سريع منه عرفت أن المنزل مملوك لآخرين، وبذلك تأكدت من أنه ليس منزل جدتي وأسقط هذا الاحتمال جنينًا آخر للأمل، من رحم إصراري واهن الجدار، والذي يحمل داخل كيسه خرقًا يطيح بكل براعم التفاؤل، وينتج وليدًا ميتًا أو لم تبث فيه الروح.

عُدت إلى منزلي بملابس مبتلّة، وكان البهو مظلمًا، السكون يفيض من جدرانه، والشموع أوشكت على سكب دمعة الذبول الأخيرة، والمدفأة خامدة، لم أجد حنان فصعدت إلى غرفة نومنا، ودخلتها بخطوات هادئة متسللة، فرأيتها جالسة إلى مرآتها تمشط شلال الحرير الأسود المُسدَل على

كتِفيها في وداعة، لم تشعر بي فور دخولي، وسرحتُ في ملامحها أقدح ذاكرتي وألومها، كيف تحجب عني فترة تعارفي بتلك الحورية؟ نعم حورية تفيض موجات الأنوثة في سكناتها وحركاتها، جمالها بلسم يطيّب الجروح ويطهر الآثام، وضبطتني حنان غارقاً فيها فأيقظتني من غفوة التداوي بجمالها، وهمست بصوتها الخفيض: أحمد حبيبي خفت عليك، الجو عاصف بالخارج أين كنت؟

-كنت أطارد ذكرياتي.

قامت من مكانها واقتربت مني وأمسكت يدي بُحنو الأم وقالت حبيبي: لماذا تحاول أن تتذكر ما يوجعك؟ لماذا لا تستمع بأيامك وكأنك تبدأ حياتك من جديد، عش طفولتك معي، أنت طفلي وحبيبي، وسأسعدك وأبذل كل ما أستطيع لأعوض لك كل ما فاتك، سأكون لك الأم والحبيبة والصديقة وكل شيء، فقط امنحني الفرصة لذلك.

فقدت أعصابي فجأة وقلت بثورةٍ منكسر: سأظل أتعثر في حاضري لو لم أتذكر أقصى أعماق طفولتي.

- والدك ووالدتك رحلوا منذ زمن يا أحمد ونبش رفات ما حدث لن يمنحك إلا مزيدًا من الأسى، حاول أن تستمع بأيامك واهجر الوحدة والعزلة؟

-كلكم تطلبون مني أن أهجر العزلة وتنسون أنها هي من ترفض أن تهجرني، أكاد أجن وأنتم لا تشعرون.

-من تقصد بأنتم؟

-أنت والطبيب.

-طبيب؟ هل زرت طبيبًا؟

-نعم زرت طبيبًا نفسيًا.

-وماذا قلت له؟ وكيف كان تحليله؟

صرخت فيها: قلت له أنني لا أذكرك، وأنني أشرد في ذكريات لآخرين، وطلب مني أن استعيد ذكريات الطفولة، وحاولت لكني وجدت كل ما يحيط بي هو مجرد وهم، أنا نفسي وهم يجب أن تتخلصي منه، هل تفهمين؟ أنا وهم، وهم.

ابتلعتْ غصة مريرة، وترجمتها في دموع تجمعتْ، وانحدرت على وجنتيها فغشيني إحساس بالذنب، فقد ثارت ثورتي عليها دون مبرر، واسْتَدَرّت دمُوعها حناني فقلت: آسف لحدتي.

واصلت البكاء المكتوم مثل طفلة بريئة، ولأنه لا يمكن لأي إنسان يمتلك قدراً ولو ضئيلًا من الحنان والعاطفة أن يقاوم تلك الدموع، اقتربت منها وربتت على ظهرها واعتذرت: أنا آسف، سأحاول أن أتمالك أعصابي لكن رجاءً تحمليني أنا بالفعل تائه.

قالت بصوت مختنق وهي تكفكف دموعها: عندي حل.

-وما هو؟ سألتها.

-سمعت عن شيء يدعي التنويم المغناطيسي في الراديو وقال الضيف أن المريض قد يبحر من خلاله في ماضية.

-هل تقصدين أن أجري جلسة تنويم مغناطسي؟

-نعم إن كانت ستساعدك في أن تتذكرني وتتذكر طفولتك.

أدرت بصري يميناً ويسارًا في اندهاش وتمتمت: فكرة جيدة بالفعل.

قالت بعناد طفولي: بشرط أن أحضر معك إلى الطبيب في عيادته.

-لا لن أذهب يا حنان لدي حل أفضل وبكثير.

* * *

(٢٢- يناير- ١٩٧٧)

اليوم التالي أتى مشمسًا سماؤه صافيةً، النوارس كانت تحلق على ارتفاع قريب، والموج يتلألأ كمرايا منكسرة ورغوته شفيفة.

رافقتُ حنان إلى الحديقة الأمامية والتي أينعت زهورها وعادت البهجة لتنطق على أوراقها بألوانها الزاهية، أعجبتني أحواض الزهور بأحجامها المتنوعة والتي صفتّها حنان على جانبي درج المدخل صانعة ممراً جميلًا يحف الداخل بالجمال والعطور.

كانت حنان قد أعدت لنا زوج من الكراسي وطاولة لنجلس إليها على يمين السلم، وكان الهواء باردًا لكنه منعش، يَهبُ من جهة البحر ويدور حول المنزل ليلاطفنا برائحته المميزة ومسه الرطب.

لو رآني أحدهم لحسدني قطعًا على جلوسي بين الزهور والنسيم وهذا الوجه الفاتن، سرحت مع شعر حنان الفاحم وهو يتطاير ويلامس وجنتيها الورديتين، وتناولنا الفطور، ثم أخذنا نرشف القهوة التركية -والتي نشر الهواء عبق رائحتها الزكيّة حولنا، كنا نسرق النظرات إلى بعضنا البعض – كعادتنا-وكلّ مِنّا بداخله الكثير من الكلام، وفي لحظة التقاء-عانقتْ فيها عيناي الشاردتان عينيها المشرقتين-سمعتُ إحساسنا يتكلم في حوار صامت تردد على أوتار قلوبنا.

-كيف نسيتني يا أحمد؟

-لأنني نسيت نفسي.

-كنت أظنني أقرب إليك من نفسك.

- وكنت أظنني أعرف نفسي.

- ستعرفها حينما تتذكر من تحب.

- وربما نسيتها لأنني أحببت.

-لو نقشتني على جدران قلبك -كما فعلت أنا-ما نسيتني، لكنك رسمتني

بالماء على صفحة ذكرياتك المشتعلة فتبخرت.

-وأين أرسمك وجدران قلبي محطمة.

-الحب وحده يمكن أن يقيم تلك الجدران ويمنحها البهاء والجمال.

-لا مكان عندي للحب فقلبي خالٍ من أية مشاعر.

- أما قلبي فممتلئ بتفاصيلك، كل قواربك تتهادى داخل مرفأي، رائحتك، نظراتك، ملابسك، ابتسامتك وطيفك حينما يمر من حولي ويبثني أريجه الآسر فيتسرب داخل مسامي ويدغدغ أنوثتي.

- قواربي ترقد متآكلة في قاع النسيان ولا تصلح للإبحار.

-حبي لك سينتشلها ويتهادى بها إلى ضفاف أحضاني.

-ولماذا تفعلين؟

-لأنك تنتمي إلى قلبي، أشرعتك تنساب بين شراييني، وموجي لم يضطرب لسواك ولن يحمل غيرك.

- تسمحين لبحارٍ تائهٍ مثلي أن يُعربدَ داخلَ موانئك؟

- بل أسمحُ لربانِ نبضي بأن يسافر داخل دمي.

-ألهذا الحد تثقين بي؟

-بل لهذا الحد أحبك.

انتشلت نظراتي من بين بئري عينيها العميقين وأشحتُ بوجهي بعيدًا فسألتني: هل ستتصل بالدكتور؟

-نعم، بعد الإفطار سأتصل به واتفاهم معه بشأن جلسة التنويم لكننا لن نذهب له، بل سأطلب منه أن يحضر إلى هنا.

-فكرة ممتازة، وستساعدك لتتذكرني وتتذكر طفولتك بآن واحد.

-بالضبط، طفولتي كانت بالمنزل، وأيضًا لقائي بك تم به، وبالتالي هو أنسب مكان يمكن أن أتلقى فيه جلسة التنويم.

-هل سأحضر الجلسة؟

-لا أدري كيف يجرى ذلك النوع من الجلسات، لكننا سنستشير الطبيب ولننظر ماذا يقول.

-أرجوك حاول أن تقنعه بأن أحضر.

-سأتناقش معه.

تنامى إلى مسامعنا صوت دقات لفرس بطيء مختلطة بصرير عجلات خشبية ترجرج، ووقفت استطلع ذلك القادم فوجدته بائع ما يقود عربته الصغيرة، ويدلّي قدميه من مقدمتها. انتظرته حتى وصل أمام مدخل المنزل وشدّ لجام فرسه الضئيل، مشيرًا بذراعه نحوي ملقيًا التحية: السلام عليكم يا أستاذ أحمد.

مسحته بنظرة شاملة من أخمص قدميه وحتى عمامته البيضاء التي تَلُفُ وجهَهُ الأسْمر. ونظرتُ إلى حنان متسائلًا فمالت نحوي وهمست: بائع الجرائد الذي طلبت منه تزويدك بها.

-تقصدين قبل أن أفقد ذاكرتي؟

-نعم.

نزل البائع عن العربة وحملَ مجموعةً من الجرائد المربوطة بعقدة واحدة واقترب نحوي ثم ناولني إيّاها قائلًا: كل أعداد الأسبوع بالإضافة لعدد اليوم من الأخبار والأهرام والجمهورية والمصوّر. أومأت برأسي راضيًا وحملتها عنه، وأنا أنقب في قسماته المدفونة داخل وجهه السمين الأسمر، والمتباين مع بياض عينيه وأسنانه، لا أذكر أنني رأيته من قبل وتعجب الرجل من تحديقي به فتدخلت حنان وعالجت الموقف بارتباك مانحةً الرجل نذرًا من الجنيهات ثم قالت: شكرا يا بدوي.

-خادمك يا سيدتي.

قالها وانسحب مغادرًا ليعتلي عربته القديمة، ثم ضرب فرسه الهزيل -والمنشغل بملاعبة ذيله-بالسوط ليتحرك، وانصرف يقتاته الطريق على مهل لكن صوت فرقعة السوط لم ينصرف معه، بقي يتردد داخل مسامعي حتى أنني نفضت أذني بأصبعي لأتخلص منه، ولا فائدة، عاند وظل يتكرر وارتفعت نبرته حتى لم أعد أسمع حنان وهي تكلمني ورأيتها تجزع بشدة وتميل نحوي وتمرر ذراعيها تحت إبطي لتحملني قبل أن أسقط، وغبت عنها لا أعرف لكم من الوقت، لكنني أفقت على لطمة باردة ارتج لها كياني، شهقت مبتلعاً الهواء من حولي، وفتحت عيني على اتساعهما محاولًا إبصار المشهد من خلف خصلات شعري المبتلة، فرأيت قائماً خشبياً يعترض

بصري، وعرفت أنني مقيدٌ عارياً إلى صليبٍ خشبي عريض، ومن خلفه يقف عبدٌ أسود غليظ الملامح كرشه منتفخ ونهديه مكتظين، ويرمقني شذراً بعيون حمراء كالدم، وبيده دلو تتقاطر منه بقايا الماء البارد الذي أفرغهُ فوق رأسي منذ قليل.

يبدو أن ضربة الجنود لي عند المكتبة أفقدتني وعيي لوقت طويل، فقد كنّا في الصباح وكان قرص الشمس قد تكبد السماء والتهبت حوافة، حتى لم أعد احتمل النظر إليه من شدة حدته، كان شعاعه الخاطف مصوبًا إلى عينيّ وكأنهم أرادو ذلك، دُرتُ ببصري أتأمل الفناء الرملي الذي أقف به مصلوباً، فقابلتني باحة لقلعة قديمة أسوارها صفراء ومرتفعة، تشي بأنني داخل سجن مشدد، خاصة أن الركنين الظاهرين لي يرتفع بهما برجين دائريين من ثلاثة طوابق، وبكل طابق تفتح نافذة كبيرة يطل منها حارس مدرع، ويستقر فوق سطح البرج منجنيق مرتفع، كما يتصل كل برج بالآخر عن طريق سطح عريض يقطعه زوج من الحراس المدججين بالسلاح ذهاباً وإياباً في رتابة وباتجاه معاكس للآخر بينما أذرعهم تلامس مقابض سيوفهم المتدلية في تحفز. أما بقاعدة كل برج فتفتح قنطرة مغلقة ببوابة من الحديد تطل على الباحة مباشرة، بدت قلعة حصينة منيعة الاقتحام.

تنامي إلى مسامعي صوت خشخشة نِعال الحراس وهم يأتون من خلفي حتى توقفوا على بعد خطوة، ثم ضربوا الأرض بأقدامهم وكأنهم يؤدون مراسم رسمية لتنفيذ حكم ما. هوى قلبي بين أضلعي وهاجمني هاجس بشع بأنهم سيجزّون رأسي نظير مقاومتي إياهم بالمكتبة وقتلي اثنين من رفقائهم، وساد الصمت لدقائق ثم سمعت نذير الطبول وبعدها اخترق آذاني صوت فرقعة عالية فعرفت أنه سوط جاف وأنهم سيجلدونني.

وانطلق السوط يشق الهواء وهبط على ظهري ليعصف بجسدي عصفًا، وكأنه لهب من نار اشتعل بجلدي، حاولت إظهار التماسك وأنا أعض أسناني بقوة ووجهي يتجعد ألماً، لكنّ محاولتي باءت بالفشل وانهرت عندما تلاه السوط الثاني والثالث والرابع.

كانت الضربات تتوالى مثل زلزال عنيف يضرب داخل قاعي، وكأن من يضربني قُدّ ذراعه من حجر، صرخثُ وتردد صدى صرخاتي في جنبات الفناء الشاهق. كانت السياط تسلخني سلخاً وتحفر بظهري أخاديد غائرة لتذيقني كل أصناف العذاب حتى تقاطعت الحفر، ونشب الدم، واستعرت الجروح، وبعدها صار العذابُ مستمرًا، لازمني الألم وسكن قشرة جلدي، ولم يهدأ أنيني حتى بعد أن أنهى الحراس مهمتهم.

غشيتني بعدها غيبوبة تامّة أفقت منها لأجدني داخل زنزانتي نائم على بطني ألعق جراحي مثل نمر جريح. وأصبّ نصف قسط الماء -الذي يأتيني كل يوم بالظهيرة- على جراح ظهري المتقيحة علّها تبرّد بعضًا من حرقة اللهيب المشتعل به، وكان الألم أشد قسوة من الذي عاينته حينما وسمت ذراعي بوسم الحصان المجنح. كنت في الثامنة عشرة وقتها حينما التحقت بفرقة الخيّالة وكان يجب عليّ وسم ذراعي بالبيجاسوس والذي كان سيعلنني رسميا جنديًا بالجيش.

اقتادني القائد إلى حداد الجيش، وجرّني الرجل نحو سارية ثم قيدني فيها بحبلٍ غليظ ليثبّتْ ذراعي، ثم وضع ختمًا دائريًا له يد خشبية في النار، وتركه يستعر وجلب سطلاً ووضعه بجانبي ثم دس قطعة قماش وَسخة في فمي قائلا: حين أختمك عضها بكل ما أوتيت من قوة.

وانتظر الحداد حتى التهب الختم وتنافر منه الشذر، ثم رفعة وكواني به في ظهري وأسفل عنقي تمامًا. اشتعلت النيران في ظهري والهبتني جمراً وتصاعد دخان شواء لحمي ليحف أنفي ويهيج معدتي. اصطنعت الثبات وأنا أكاد أهشم أسناني والقماشة من الألم، انتفخت عروقي عن آخرها والوجع يزداد حتى رفع الحداد ختمة بعد أن طبع الحصان على ظهري بلون الدم، ولم أتحمل، تفلت القماشة من فمي وأفرغت عصارة معدتي في السطل. تركني بعدها أتأوه وعبئ جرة عن آخرها بالحديد الأصفر المنصهر ثم راح يصبه في قالب وتركه حتى تماسك ثم أخرجه ووضعه على السندان وأخذ يسوي حوافه بمطرقته حتى انتهي. بعدها أسقطه في الماء البارد فأصدر حسيساً وتصاعدت منه الأبخرة ذات الرائحة الصدئة، وتركة قليلاً ثم أخرجه وراح يجليه ويحد شفرته بقرص الرحى الحجري حتى صار يلمع واستوى نصله وصار صالحًا للحرب، وفي فخر مدّ ذراعه لي وأعطاني إياه قائلًا: هذا سيفك.

أمسكته ونظرت إلى حَدِه الذي كان يبرق تحت شعاع الشمس مثل جوهرة متلألئة، نسيت آلامي لا أدري كيف وضربت الهواء به أشقه كأنما أشق عدوي. وفي تلك اللحظة ولأول مرة صرت فارسًا بالخيالة وتعلمت أن المجد والألم صديقان لا يفارقان بعضهما البعض وأن المحن تصنع الرجال.

استفاقتي هذه المرة كانت وأنا محمولًا على كتفيّ حنان وهي تجاهد في أن تصعد بي الدرج الحلزوني في اتجاهها للرواق، ولم تكن المسألة تحتاج إلى ذكاء لأعرف أنني لم استغرق وقتًا طويلا في شرودي وغيابي، لكن هل وصل بي الحال إلى هذه الدرجة أصبحت كهلًا تعجز أقدامي عن أن تحملني، أنهار في لحظة مباغتة أفقد فيها وجودي، كيف يحدث هذا؟ المفترض أن ذكرياتي العجوز هي التي تخضع أمام عنفوان شبابي فهي مثل عرجون قديم، لا

تناسب عمري اليافع، شمطاء متغضنة عفى عليها الدهر، واهترأت أفكارها، حتى لم يعد يستقيم لنا حوارًا، ولم نعد نتحدث نفس اللغة، رغم أننا نستوطن ذات الجسد، دائما تحدثني عن الماضي، وتجرجرني إلى حفرته، بينما اشتاق أنا إلى المستقبل بما يحمله من دهشة وأمل، تحاول أن تتزين لي مثل عجوز متصابية، لتلفت انتباهي عن حوراء حاضري التي ترتدي الثوب المهترئ، يجب ألا أسقط في براثن مساحيقها الخادعة المقززة، لكيلا أخسر بض أيامي وغضها، لا يمكن أن أتركها تمتص شبابي ليذوي بين ذراعيها، لن أتركها تلتهم عمري، وأقف مكتوف الإرادة وخاضع العزم، سأعقد جلسة التنويم مهما كلفني الأمر.

* * *

(سيلازيا)

في المساء واصل المطر رحلته بلا سبب كما توقف أثناء النهار بلا داعي، يبدو أنه مثل كل المخلوقات يحتاج إلى الرّاحة، أو ربما كانت السحب الثكلى تستعيد ذكريات أليمة أبكتها بحرقة بعد أن كانت قد تناستها.

الغريب أن التيار الكهربي كان مستقرًا اليوم، ولم ينقطع إلّا قليلاً رغم سوء حالة الطقس، البهو يتوهج منيرًا بضوء المصابيح، وتماثيله تجردت من رداء الرهبة الذي كانت تستخدمه ضدي كنوع من الدفاع عن النفس، وأصبحت عارية خجولة مثل فتاه عذراء، العبد الأبنوس بدا لامعًا، وقرد البابون مثل لعبة طفولية والمرأة الرومانية جميلة متزينة.

تراودني فكرة التنويم المغناطيسي -التي اقترحتها حنان-عن عقلي برجاحه وإقناع وتغويني بإثارة، أستحسنها بشدة لأنها رفعت بداخلي منسوبَ الأمل حتى أصبح يفيض داخلي أنفاسي المتلهفة لمعرفة ما سنكتشفه.

أبحرت في رحلة -تمنيت أن تكون بلا عودة-مع ملامح حنان التي تجمع بين البراءة والفتنة، أنثى صارخة في ملامح طفلة، حينما تشاهدها تشعر بأنك تنساب على خد نهر رقراق يحملك بساطه إلى أرض أحلامك، كانت تجلس على الأريكة منكمشة مثل طفلة تشاهد التليفزيون وتتابع معركة حامية بفيلم روبين هود القديم، وكان صوت صليل السيوف والصرخات والأنين يدوي في بهو المنزل ويتردد صداه عبر الجدران، وكأنه يأتينا عن اليمين وعن الشمال، وملامح حنان تتأثر وتضطرب مع الطعنات في عفوية بريئة.

وشغلني ذلك الفارس الذي كان يقفز بين الأجمّة حاملًا سيفه، كان حرًا مقدامًا يصول ويجول ويندفع بلا تردد أو تراجع، سهوت معه أتابع الفيلم، وقطعني الوقت كفرس مجنح يشق بقوائمه طريقًا بين روابي عقلي، تصاعدت الأحداث ورأيت الشاشة المضيئة تدور فوق رأسي وتطارد بعضها بعضاً ثم تحولت إلى هالة بيضاء متصلة وأخذت تتوهج أمام عيني والضوء يخبو ويخبو حتى تقلص إلى نجمة رباعية أخذت تنسحب وبالأخير انطفأت، وجاء الظلام وحملني على أجنحته السوداء بعيدًا إلى هناك، إلى حيث كنت أقطع قفص السجن جيئة وذهاباً مثل ليث حبيس أتأمل جدرانه الحجرية المقيتة والتي قُدّت من صخر أقسى من حجارة الأوليمب.

لازلت نشيطًا فائرًا رغم تشرب جسدي لرطوبة الجدران، ورغم أن ألم الجَلْد لازال ينتشر في ظهري، إلّا أن الغضب الذي يعتمر بداخلي كان يفوق ما أعانيه، لم أعهد الأسر يوماً، لم أعرف إلّا الضياء والمجد، دائماً ما كنت مثل طير عُلقت بعنقه أكاليل الغار، لذلك تستفزني وبجنون تلك العتمة التي تغشاني ليل نهار، فلا يوجد هنا إلا قبس المشاعل الواهنة والتي يبعث نورها الخافت على الكآبة، وهذا قطعًا مقصود فالنور يعني الأمل، والسجّان لن يسمَح بتسرب الأمل إلى نفوس أسراه، حتى لو كانت تلك هي آخر أمانيهم قبل أن يقطف رؤوسهم.

قلّبت برأسي كل احتمالات النجاة وفكّرتُ في كل سبل الخلاص ونفسي تكاد تشتعل غيظاً من فيلوباتور، ذلك الغادر الذي أودعنا السجن، وأخلَفَ عهد أبيه، لو تمكنت من الهرب سأجهز فيلقاً جديداً وأقتلع رأسه وأعلقها على باب قصره، ووسط عذاباتي لاح وجه ملينيا بملامحها العذبة، تلك الواحة الظليلة النابتة بين صحاري أيامي القاحلة، والتي كلما زارتها خواطري الملتهبة هدأت نفسي، واستقرت فورتي، قلقي عليها يدمي قلبي،

أشعر بالذنب لأنني ورطتها معي بكل ظروفي، وبذات الوقت لا أحتمل فراقها وأتمنى أن أُلقِى بنفسي في بحر عينيها، وأسبح بين موجه الفيروزي لعل السكينة تمسُ قلبي فأتجلّد لكل قادم حتى لو كان ما ينتظرني هو الموت.

وعلى ذكر الموت أبحرت بي ذاكرتي إلى هناك، إلى سيلازيا أرضيٍّ الخضراء، وزهرة إسبرطة الجميلة التي تزين جبين لاكونيا، حيث دارت رحى الحرب بيننا وبين المقدونيين، كنت بين سلاح الفرسان بالقلب وعلي يميني نهر الأوينوس، وعلى ضفّته الشرقية بميمنة الجيش الملك كليومينس يتحصن بجبل الأوليمب، ومعه ستة آلاف مقاتل يواجهون ميسرة المقدونيين المزدوجة، وعلى يساري وبمسافة قريبة كانت ميسرة جيشنا متحصنة بقمة جبل داجلا بقيادة أوسليداس قائد الجيش وأخو الملك، ومن خلفه هضبة الإيفاس بالجنوب، وفي مواجهته وبالشَمَال ميمنة الجيش المقدوني المهاجم بثلاثة صفوف متتالية من القوات.

وكنت أرتدي خوذتي الفولاذية التي تشبه وجه طائر البوم، وتغطي كامل رأسي، أعاني من ضعف الرؤيا وضيق التنفس خلف منقارها الفولاذي، وسمعي ضعيفًا كأنها تعزلني عن العالم، وكنت أعتصر مقبض درعي البرونزي الثقيل بقبضتي اليسرى وأمسكُ بمقبض سيفيَ العريض قصير النصل بقبضتي اليمنى، كما أرفل في كسوة من الكتّان تغطي حتى فخذيّ، ومدرعة بنطاقين من الجلد السميك، في حين يحصّنُ صدري واقٍ من الحديد، وتلف كتفي عباءة قرمزية قصيرة يلتقي طرفيها عند كتفي الأيمن بمشبك من برونز، شعري غجريٌ طويل ولحيتي مرتخية وبين شاربي وشفتي العليا محلوق، كما تتدلى من عنقي قلادة الشرف الفضية.

وكنا نتصدى لهجوم الملك المقدوني أنتيجونوس، بعد أن جمع جيشا جرارا لغزونا، قوامهُ ثلاثون ألفًا من المقدونيين زحفوا تجاه إسبرطة، وكان

الصيف حاراً والشمس حارقة مصوبة لأعيننا وأشعتها تصبغ بصرنا ببقع حمراء تضعف رؤيتنا.

بدأت المعركة حينما أطلق رماة الجيش المقدوني سهامهم تجاهنا، لتغشى السماء كالمطر الأسود، وتهبط لتستقر بفخذ هذا وكتف ذاك، تشق صدر جندي وتنفذ بقلب فارس، نجا من نجا ومات من مات، ورفعنا دروعنا عاليًا لنحتمي بها محاولين أن نتجاوز تلك الموجة، ثم حانت المواجهة، والتحم الجيشان، واصطدمنا مثل حجرين صلدين.

اندفعت الأبدان تتشابك من حولي، وانهمر العرق يتصبب، الخيول تصهل وتعلو بقوائمها الرؤوس، الحراب تشق البطون وتنتزع الأحشاء، والصرخات تتصاعد، صليل السلاح يعلو، وضربات السيوف للدروع تتابع، وبريق النصال يغشى نور الشمس، الدم يخضب الأرض الخضراء ويغمرها بالبرك القانية، ورائحته الصدئة تعبئ الأجواء، الرؤوس تقتلع عن رقابها، الأوصال تتدلى من الأجساد، الأذرع تبتر والصوارم تشق اللحم، والدم يتناثر، التأوهات والأنين والجعجعة تتصاعد والطعنات تثقب الأجساد والقلوب، وأنا بالمنتصف، لا أسمع إلا قرع الطبول ونفير الأبواق، ويتردد بقاع رأسي كالصدى هتاف كليومينس الناري فينا:

"المجد لإسبرطة، نحن محاربو السماء وجنود الأرض، لا نخلي ساحة معركة إلّا مخضبة بدماء أعدائنا، ولا ترفع بأرضنا المقدسة إلّا راياتنا، ولا يعتلي صهوة خيولنا غيرنا، ولا يغشى نساءنا إلّا ذكورنا، ولا يربي أطفالنا إلّا أمهاتهم، لن يأتي الغسق أو تزول تلك الشمس، إلّا ونحن ننام على أسرتنا ونضاجع زوجاتنا، ويلعب صبيتنا برؤوس أعدائنا في طرقات إسبرطه، وترفرف رايات النصر تحت سمائها، ويبتهج الأوليمب ويغني الإيفاس، أحب الألوان لدينا هو لون الدم، وأزكي الروائح هي رائحته، تربينا على النصر

والنصر وحده، لا نعرف غيره، ولا يعرف غيرنا. نحن منه وهو منا، نحن منه وهو منا، نحن منه وهو منا.

كانت كلمة فاصلة ألهبت حماس الجيش، واحتمي الوطيس بعدها، انبريت أضرب بسيفي رأس هذا، وأقتلع ذراع ذاك، أتفادى رمح جندي وسيف فارس، أسناني كانت تأكل بعضها بعضا من الغضب، لا أسمع ولا أري ولا أشمُ إلّا الدم، كل الاتجاهات كانت مختصرة عندي في اتجاه واحد، الأمام، حيث المقدونيين، لا أرى إلّا بين عيني، أضرب وأتقدم، غمرتني الجروح، ونضح الدم الحار من عضلات جسدي الغارقة في العرق، اختفي العالم من حولي إلّا من وجه من يبارزني وكان فارسًا صلداً أضخم مني كثيرًا، يتسربل في زي قائد فيلق، وصدره مغلف بترس من الحديد، كتفيه مؤمنتان بالدروع، وخوذته على وجه نمر غاضب يعلوها عرف أسود، ويتدلى من خصره شرائط من الجلد المقوى، وكان يُطوّح بسيفه ليحزّ رقبتي في لحظة ظنّها تمنحه التفوق، وكان واهمًا، انثنيت ليعبر سيفه فوق خوذتي كالريح العضوض، وانتهزت فرصة إفلاتي منه وملتُ بجزعي إلى الخلف ثم ضربته بحد سيفي ومزقت ذراعه -الذي كان يضربني به- فتأوه وأمسك به منحنياً وحانت لحظة الانقضاض، اعتصرت مقبض سيفي بكلتي قبضتيّ وغرزت نصله في ظهره، حتى نفذ من قلبه فخر جاثياً على ركبتيه والدم يتدفق من شدقيه، ثم انتزعت سيفي منه، وتركته يسقط على وجهه كالحجر داخل بركة من الدم، بعدها صُلت وجلت، أقلب سيفي بين يدي اليسرى واليمني، وأدوّر مقبضه داخل راحتي بمرونة، وألفّه حول يدي في دورة مروحية كاملة قبل أن أطعن به، أقتل وأشق وأتقدم، حتى انتشر خبر مقتل أوسيليداس أخو الملك، وقائد الميسرة فخارت عزيمتي قليلا، اشرأب عنقي فوق الرؤوس أبحث عنه، فلم أجد ريش خوذته ظاهرًا فعلمت أنه قُتل بالفعل، تحيزت

بعدها أدافع عن الميسرة التي تحملت الموجة الأولي من القتال، وتعرضتْ لهجوم شرس عند هضبة الإيفاس، خطبتُ في جنود الميسرة محاولاً أن يجُمّعَهُم صوتي: " الإسبرطي يُهزم عندما يحارب منفرداً لأنه يكون مثله مثل أي رجل، أما حينما نتحد فإننا نسحق أي قوة وتدين لنا المعارك "

جمعتُ فرساني الذين سقطوا عن خيولهم في دائرة، وأتحدنا كرجل واحد، رفعنا دروعنا الاسطوانية فوق رؤوسنا وأمام أجسادنا واختبأنا بداخلها متكتلين كسلحفاة تحتمي بصدفتها، نتحمل الضربات ونحن نندفع إلى الأمام ونستقبل هجمات المشتبكين الذين غمرونا كالذباب، ثم نفضنا الدروع نفضة رجل واحد، فطار عنها المقدونيين -الذين كانوا يحاولون النفاذ إلينا وكسر درعنا- وهاجمنهم بطعنات سريعة وعاجلهم بعضنا برماحه، كررناها عدة مرات، وحانت لنا بشائر التفوق، لكنهم كانوا كُثُر، والمدد المقدوني مثل موج البحر لا يتوقف، وقوانا خارت والتعب حل.

تحملنا موجة تلو موجة، هزمنا فليقا وراء فيلق ثم انهرنا، كُسرت أقدامَ خيولنا، فانقلبت على جنبيها وهي تخور بالهزيمة، وضُربت رؤوس الفرسان، وشُقّت خوذاتهم، وتدفق الدم منهم، وبالنهاية سقطت الميسرة وانسحقت رايتها تحت أقدام الخيول المقدونية.

عدنا لنتحصنّ بقلب الجيش، لكنه كان قد اختُرق، وعلمنا متأخراً أن أنتيجونوس كان يشغلنا بمعركة المقدمة ليطوّقنا بقواته من الخلف، بعد أن أنبأته كشافته بموقع كليومينس وأصبحنا بين شَقّي الرحى.

حوصرنا عن اليمين وعن الشمال، ومُنينا بالهزيمة تلو الأخرى، ولاحت عواقبها أمام أعيننا، وطار بالجيش خبر حصار كليومنيس -بعد فشلة في كسر تشكيلات قوات أنتيجونوس-فتسرب اليأس إلى الجنود وتساقطوا

كالجراد، تنازعتْ بداخلي لحظتها كل معاني الحيرة، ووقفتُ متردداً بين اختيارين قاسيين، وقرار مصيري لابد من اتخاذه وبأسرع ما يمكن، إمّا أن أستمر بعزيمة الفارس وأخسر كل شيء بمعركة باتت محتومة العواقب، أو أنسحب بذكاء القائد وأحافظ على ما تبقى من الجنود وأُنقذ ما يمكن إنقاذه.

قررت الانسحاب، ووجهت الجنود للتراجع حيث لم يمكن أمامي إلّا حماية الملك، فالملك يمثل كرامة إسبرطه، اعتليت صهوةَ جوادٍ خالٍ وشققت الصفوف ومعي زمرة من الفرسان، اخترقنا نهر الأوينوس بالخيول التي كانت تَخُبُ الماء تحت قوائمها وعبرناه كالريح حتى أدركنا الملك فأحطناه بسياج من الحراس، ثم رفعته على ظهر فرس أشهب وضربت فخذ الفرس، فانطلق يهرب، اعتليت بعدها صهوة جوادي، ولكزته بقدمي وانطلقت خلفه أنا وزمرة الفرسان إلى أن وصلنا المدينة، فتركتهم يصحبون الملك إلى الميناء، وشكمتُ رَسَن فرسي فتوقف ودرت به إلى الخلف وأنا أخلع خوذتي وأملأ عيني بربوع إسبرطه.

شعرت أنها المرة الأخيرة التي سأراها فيها، تأملت روابيها، شوارعها، ضفافَ اليوروتاس، ومائه الرقراق، مروجَه الخضر، وسنابلَ القمحِ اليانعة.

إسبرطه وجه الجنة الذي صافح الأرض في يوم عذب، الحورية التي كانت ترفل في حُلّة خضراء، وتبرها طيب الراحة كأنه المسك، وحولها الجبال تنتصب مثل حراس شداد يحمون تلك الأرض التي طالما كانت مطمعًا لكل طاغية، سيتخضب وجهها الزاهي، وتتشرب وجنتيها الدم، ويتشوه جمالها ويُقهر حُراسها، تلك الأميرة الكريمة تذق الآن طعم الهزيمة المرّة تحت لوائي، وأمام عيني، وكأنها قررت أن تجثو لتعذبني وتتركني طريداً ضائعاً أواجه الموت في كل لحظة، وتلعنني آلهتي وأجدادي.

رفعتُ رأسي نحو ساحة المعركة الممتدة عبر المدى، والمرشوشة بالدم فرأيت جثث القتلى تفترشها، والغربان تحوم حولها مثل غيمة سوداء، وحملتْ الريح لي أنين المجروحين فانفطر قلبي، وسمعت آهات الأسى تعزف موسيقاها الحزينة عبر سماء إسبرطة وتلامس بنشيجها قلوب أبنائها.

ولم يحتمل قلبي ما كنت أراه وأسمعه فاعتصرتْ أهدابيَ دمعةً أسيفةً فاضت جوانحي في قطرتها المعلقة على حافة أجفاني، وألهبتني جمرًا حينما نخرت وجهي وحفرت أخدودها به، كم كانت مريرة وموجعه آلمتني حد العذاب حد المذلة والوجع، فأنا بذرة تلك الأرض، خرجتُ من أعماقها، وجذوري ضاربة بالعشق في قلبها، ونبتتي أينعت على ضفافِ صَدرها، ترعرعتُ بين تربتها مثل شجرة عملاقة باسقة ظلت تقاومُ الريحَ في كبرياءٍ حتى جاءت عاصفةُ الهزيمة واقتلعتها ثم لفظتها إلى أرضٍ خواءَ، لا فيها سَكينةً ولا بها مأوى.

أدرت فرسي ولحقت بالفرسان حتى أدركتهم، وأشرنا على كليومينس أن نبحر من ميناء جيثيو إلى الإسكندرية حيث ترك أهله رهينة لدى ملكها " يورجيتس" والملقب بالُمحسن، مقابل أن يرسل إليه المدد من الجنود والعتاد، وحين انتصف الليل زوّدنا القاربَ بالطعام والشراب وسبعة من الخيول، وأبحرت أنا والملك وأحدَ عشرَ فارسًا والفتى الدليل الذي كان يعرف الطريق إلى الإسكندرية، وبكينا ونحن نشاهد ساحل إسبرطة يغيب وكأنها تودعنا بحرارة، وابتعلنا ظلام الليل داخل وحشة شدقيه وطوّقنا البحر. وأفقت مع اختفاء ساحل إسبرطة لأجد الفيلم يلفظ لحظاته الأخيرة وأنا جالس في مكاني أنظر تجاه حنان التي كانت قد نامت.

* * *

(٢٣- يناير- ١٩٧٧)

افترش الموجُ خدَّ الرمال، وغاصت الشمس في أحضان الأفق، وانساب الدفء مختالاً بين الأرجاء، هكذا كانت الأجواء في الواحدة ظهرًا حينما حضر الدكتور مصطفى إلى المنزل، وأجلسني أمامه في غرفة المكتب، لإجراء جلسة التنويم. حكيتُ له عن جريمة أبي، والتي أخفيتها عنه في البداية لستر عورة الماضي، وتفهم الرجل وجهة نظري، لكنني قرأت في نظراته الكثير من الحيرة، وكان محقًا في شعوره، خاصةً أنني كنت أعَقِّد له الأمور بإضافة المزيد من المشاكل المختلطة، والتي يصعب جمعها في لوحة واحده تعبر عن مرض محدد، لا أذكر نفسي ولا أهلي ولا زوجتي، ذاكرتي يقتسمها آخرون، وأخوض غابة من الغموض والألغاز، حالة تربك أي طبيب بلا شك، لكنه وبالنهاية طلب مني الاسترخاء، واستجبت له، أرخيتُ جسدي على الأريكة الجلدية المستقرة تحت صورة زوجة موريس مباشرة، انتظارًا لبدء الجلسة، وفاجئني الدكتور برفضه حضور حنان للجلسة، وطلب منها مغادرة الغرفة مما أثار حنقها وبشدة، وأدارت بصرها لي تطلب رأيي، فمنحتها نظرة مواساة -آخذا في اعتباري رغبتها في استعادة ذكرياتي عنها وقلت: ستعدد الجلسات لا تقلقي.

دقّت الأرض بقدمها وخرجت غاضبه دون أن تنطق بكلمة، بينما -وبمنتهى البرود-تجاهل الدكتور مصطفى ثورتها، وأغلق الباب خلفها واجتذب أحد كراسي المكتب وجلس على بعد خطوة مني وقال: جاهز يا أحمد؟

-نعم.

- رائع.

-لماذا أبعدت حنان؟

-أريد منك أن تركز على مراحل طفولتك صعودًا، ودورها لم يأت بعد.

-حسنًا، لا بأس.

وأخرج من جيبه بطاقتين، أمسك بالأولي بين سبابته وابهامه ورفعها في وجهي قائلا: ما رأيك بتلك الصورة يا أحمد؟

كانت الصورة لوجه فتاه مكرر، غير أن النسخة الثانية منه مزاحة إلى الأسفل قليلاً بحيث يبدو للفتاة أربعة عيون وأنفان وفمان، زاغت الصورة أمامي وفَقَدَ بصري بؤرة تركيزه، فأبعدتها وقلت له: صورة مهتزة لفتاة ربما أتلفها معمل التحميض.

- جيد.

قالها وأشعل سيجارة ثم أعطاني البطاقة الأخرى قائلاً وهو يضيق حدقته: وهذه؟

وكانت الصورة الجديدة صادمة، رجل مثل فرانكشتاين عينه اليمنى تختلف عن اليسرى، أضيق ولونها مختلف وأنفه إفريقي أفطس يبدو غير مناسب لملامحه القوقازية، أذناه أيضا غير متشابهين، حتى شفته العليا مغايرة للسفلى وأنحف منها، صِبْغَة لون جلده بالجانب الأيمن تختلف عن مثلها بالجاني الايسر، وشعره منقسم بين اللونين الرمادي والأسود الفاحم.

جفلت وعدت برأسي للخف فجأة، وحاولت أن أتحاشي النظر للصورة فمال يثقبني بنظراته، وقال بصوت قوي اخترقني: دقق بالصورة جيدًا وقل لي ماذا ترى؟

دققت بها مرة أخرى وأطلت التدقيق فخطفت الصورة بصري ثم أخذت ملامح فرانكشتين تتلاشى تدريجيًا، ورأيت محتويات الغرفة تنصهر في بعضها البعض وتمتزج كأنها داخل فرن، واستحالت كل الموجودات من حولي إلى معجون أسود ماعدا وجه الطبيب، وحده كان واضحاً، ومنتصبًا أمام وجهي، لكن دون جسد، فقط رأسه، وكان صوته يتردد متقلصًا وهو يسألني: من أنت؟

وكان هذا آخر ما سمعته ورأيته، تلاشى وجهه، وسكت صوته وانتقلت لكوكب مصنوع من الصمت والظلام، ثم أفقت لا أدري شيئا عمّا حدث، لأجد الدكتور مصطفى يسجل ملاحظاته، والسيجارة التي بين أنامله تلفظ تبغها الأخيرة، فسألته: ماذا حدث؟ وماذا قلت؟ تنهد وسكت قليلاً وكأنه يتخذ قرارًا ما، ثم ناولني الدَفتَر الذي سَجّل به الجلسة وكان المكتوب به مذهلا.

----بداية الجلسة----

-من أنت؟

-أنا أحمد.

-أين أنت؟

-في المنزل.

-ماذا ترى أمامك؟

-الهو، لكنّه مظلم ومخيف يضئ بشموع خافتة تبثني الرهبة.

-هل تسمع شيئا؟

-المطر والبحر.

-من معك؟

-امرأة تجلس إلى البيانو، وتعزف مقطوعة حزينة.

-هل ترى وجهها؟

-لا.

- وأنت ماذا تفعل؟

-ألعب بقطاري.

-منذ متى وأنت تلعب؟

-منذ أن خرج العصفور ليصيح سبعة مرات.

-هل تعرف تاريخ اليوم؟

-نعم، والدي قال إنه ٢٦ يناير، حينما كان يقرأ الصحف.

-حسنا اقترب من المرأة التي أمامك أكثر.

-أمرك.

-هل أصبحت ترى وجهها الآن؟

-نعم.

-هل المرأة الجالسة هي أمك؟

-لا.

- من هي إذاً؟

-زوجة موريس.

-----نهاية الجلسة----

هنا انتهى الحوار، واصابتني حالة ذهول مشوبة بصمت مريب، فنظرت للدكتور مصطفى متسائلاً فقال: لدينا في علم النفس عالم مشهور يدعى سيجموند فرويد يقول إن الصدمات النفسية يمكن أن تُكبح داخل ذاكرة الإنسان بحيث تصبح غير متوفرة عندما يحاول استعادتها، وأنا أرجح أن تكون الجريمة قد حدثت أمامك بالفعل، وأنك أُصبتَ بسببها بصدمةٍ، أو حالة فقدان وعي أنستك ما حدث يومها، وهذا هو الاحتمال الأول، أما الاحتمال الثاني فهو أنك يحدث لك ما يشبه التتابع المكاني.

-كيف؟

-سأشرح لك: يوجد عالم نفسي آخر اسمه وليام جيمز اقترح أن ما نمر به يستدعي تتابعًا من النشاط الدماغي، مثل سلسلة من ردود الأفعال تحدث عند مواجهة حدث ما، كالانحراف بالسيارة قبل الصدام وغيرها.

-وما علاقة ذلك بحالتي؟

-الإنسان لديه ما يسمي بالذاكرة المكانية، وهي ذاكرة صريحة وفيزيائية تربط الأحداث بالمكان، ولديه أيضًا ذاكرة أخرى تسمى الذاكرة العارضة، وهي التي تربط الأحداث بالزمان وأيضًا العلاقات بين البشر، ذاكرتك المكانية تندمج مع ذاكرتك الزمنية لتصنع أحداثًا خاصة ومرتبطة بالمنزل، لكنها لازالت لا تستطيع اختراق عقلك الباطن لاستدعاء أيام طفولتك، والدليل على ذلك أنك توقفت أثناء التنويم عند تاريخ ما قبل الحادثة بيوم

واحد، بل واستبدلت صورة أمك بصورة زوجة موريس، كنوع من الحيلة الدفاعية.

-هل يعني ذلك أنني لن أستطيع استدعاء المزيد؟

-لا بل سنعتبرها خطوة لبدء مرحلة التتابع التي شرحتها لك.

-لازلت لا أفهمها.

-سأوضح أكثر.

- أحيانا يُذكرك مكان ما بصديق عزيز عليك، وعندما يقفز الصديق إلى ذهنك تتذكر من خلاله الجامعة التي جمعتكم، ثم تتذكر حفل التخرج، وبعدها عملك، ومن العمل تتذكر مديرك المستفز ومشاكلك الأخرى، وهنا تدخل في سلسلة ذكريات قد لا تتوقف حتى تنفضها قسرًا عن ذهنك، وهذا ما سوف نجربه سويا، وسيكون دائما المكان هو نقطة انطلاقنا.

-وماذا عن ذكريات نعوم وبانتيوس؟

-سنركز الآن على أحمد فقط، نريد أن نعرف ماذا حدث ليلتها، لأن ذلك سيقودنا بالتأكيد إلى نوع المشكلة النفسية التي تواجهنا.

-ألن تمنعني ذكرياتهم من استدعائي ذكرياتي؟

-هي تتسبب في ذلك بالفعل.

-كيف؟

-أي انسان يستطيع منع ذكرياته من التدفق بإرادته لأنه يعرف كيف انتهى الموقف الذي عاشه ومرّ به بنفسه، لكن ولأنك -كما تدّعي- لا تملك ذكريات نعوم ولا بانتيوس، ولا تعرف كيف سينتهي الموقف داخل ذكرياتهما، فبالتالي لا تستطيع إيقافها عن تصدر وعيك حتى تقرر ذكرياتهم التوقف،

وهو ما يفسر كيف تبدأ وتنتهي ذكرياتهم فجأة دون أن يكون لك دخل في ذلك.

-والحل، كيف نتخلص منها؟

-باختيار أماكن شديدة الخصوصية بك وحدك، ولا يمكن أن تتشارك أنت وبانتيوس ونعوم في ذكريات بها.

-وبأي الأماكن تقترح أن نجرب الجلسة الجديدة؟

-هذا يرجع لك.

قفزت الآلة أمام عيني مباشرة وراحت تدور كأنها تغريني أن أخْضَع لجلسة العلاج القادمة بجوارها، وبالفعل اقترحت ذلك: حسنا سنعيد الكرَة بالقبو، لأنه المكان الذي مات فيه أبي وأمي، لكن متي؟

-بعد ثلاثة أيام وتحديداً يوم ٢٧، اليوم الذي حدثت به الجريمة.

-وماذا لو عجزنا؟

- لو عجزنا سنجرب مكانًا آخر وهكذا، يجب أن نتحلى بالصبر ونعمل خطوة خطوة حتى تقفز ذكرياتك إلى السطح وتتراجع ذكريات الآخرين للقاع وساعتها ستسترد كل ما فقدته وتستعيد نفسك بشكل كامل.

وكان محقًا في رأيه، الأمور أعقد من أن تُحَلْ دفعة واحدة، ما يجثو على صدري هو ركام متراكب، وأنقاض متشابكة تحتاج إلى الكثير من الجهد والعمل لإزالتها.

وأنهينا الجلسة وسألتُ حنان مصطفى عن نتيجتها فأخفى عنها ما حدث تماما وأخبرها أنني لازلت لا أذكر أي شيء ونصحها بالصبر.

* * *

(٢٤- يناير- ١٩٧٧)

٢٤-يناير-١٩٧٧ هذا ما أعلنت عنه أجمالية التقويم حينما وقفت أمامها بالرواق، لازال يتبقى بالشهر ستة أيام، النهار غائم يشمس أو مشمس يغيم، تطلع الشمس حتى نظن أنها لن تغيب أبداً، ثم تغيب حتى نظن أنها لن تعود يومًا، تحاول التلصص إلى محبوبتها الأبدية، الأرض، تطل برأسها من بين قوافل السحب التي كانت تقطع السماء في رحلة هجرتها ببرود مقصود، مثلها مثل العزول الغثيث الذي يفرق الحبيبين.

ارتديت ملابس الخروج ومعطف المطر، وقضيت فترةً وجيزةً في بهوِ المنزل أقلّبُ في عناوين الصحف التي يُحضرها بدوي متأخرًا، وكعادتي بدأت بجريدة الاخبار وتحديداً صفحة الحوادث، انتظاراً لأول خبر باسم يسري الكاتب، ولا جديد، لا خبر باسم يسري الكاتب ولا سبب يدفعني أبدًا لأن أقتل حنان، والتي أثار انتباهها وبشدّةٍ تعلقي بقسم الحوادث فسألتني بفضول: لماذا تهتم كثيراً بتلك الصفحة؟

-أتابع الأخبار. لم أجد جوابا غيره، بالطبع لن أخبرها أنني انتظر ظهور الصحفي الذي سينقل خبر قتلي لكي.

بعدها جلسنا إلى طاولة الطعام نتناول الإفطار، وفور الانتهاء أخذنا نرشف أقداح القهوة الساخنة في صمت لم يقطعه إلى صوت احتكاك الفناجين بالأطباق الصغيرة، كل منّا كان يسترق النظر إلى الآخر في تساؤل أخرس لكن الآخر يسمعه، هي تسألني: ماذا بك؟ وأنا أسألها، لماذا لا أذكرك؟

قطع نظراتنا عصفور الساعة السمج، حينما خرج ليصرخ معلنا عن التاسعة صباحاً، بدت الساعة مثل وجه شيطان يفتح فمه شاهراً نصل لسانه لي باستفزاز، وكأنه يشمت بي لخسارتي مزيدًا من العمر، ولا ألومه فمرور الوقت يعني اقترابي من حافة القتل، أيام باقية على جريمتي والعد التنازلي يحرق الوقت حَرقا، بينما أمس كانت أول مرة أستدعي فيها مشهداً واضحاً من طفولتي داخل هذا المنزل، لازال ما حدث بالجلسة يشغل تفكيري وبشدة، وأصبحت متشوقًا أكثر للخضوع للجلسة التالية.

أنهيتُ قهوتي وابتدأتُ حنان بالكلام: سأحضر اليوم حطبًا جافًا لإشعال مدفأة البهو.

ضمّت شفتيها امتنانا ثم سألتني: هل ستتأخر بالخارج؟

-سأحاول ألّا أفعل.

-في أمان الله.

غادرت المنزل متجهاً إلى ميناء الإسكندرية، رحلتي مع بانتيوس تقودني إلى هناك، البرد عصيب يجمد الأنفاس، والبخار ينبعث من أفواه الناس، والأرض زلقة ومُفْتَرِشَة ببرك تعكسُ وجوه المارة مثل مرايا ناصعة، وأنا أخوض الشوارع بينهم زائغًا إلى وجهتي.

وصلت إلى بقعة قريبة من الميناء، ووقفت مسنداً مرفقي إلى سور البحر، أشاهد الأمواج التي كانت تُذبح على نصل الحجر الصوان، وتحت سمع وبصر ذلك النورس الذي كان ينفض الماء عن ريشه المنتفش، ومن حوله الطحالب الخضراء اليانعة تزين حواف الصخور. غرقت في المشهد مثلما يغرق كل شيء هنا في البرد والغيام، وماج بي العالم من حولي ودار الدم

بداخلي عكس عقارب الساعة التي كانت بالفعل تعود إلى الوراء، كثيرا، أو ربما تسافر لأبعد نقطة، ممكنة.

رحلتنا إلى الإسكندرية كانت مريعة، لعننا فيها بوسيدون ألف مرة وحرّض ضدنا موجه العاتي عقابًا لنا على خذلانِ أرضنا، والقارب كان صغيرًا بالنسبة لرحلة مثل تلك، له شراعين وثلاثة أزواج من المجاديف، وسارية واحدة يعلوها قنديل منير، رأس مقدمته على شكل رأس تنين يفتح شدقيه ولسانه متعرج، وذيل القارب مثل ذيل الحوت.

وتم ترتيب جلوسنا طبقاً للحاجة، حيث جلس الملك قرب ذيل القارب في قمرةٍ خاصةٍ به وخلفه مربط الخيل، بينما حمَلَ الفتى الدليل مَشعلاً، وامتطى رقبةَ التنين ليرشدنا الطريق، وأمسك مارسياس بدفة القارب لتوجيهه، ثم تناوبنا نحن الفرسان على التجديف أربعة مرات باليوم والليلة حتى انحنت ظهورنا.

كان القارب مثل ريشة في مهب الريح، ترتفع بنا مقدمته حتى نظن أنه سينقلب على بطنة، ثم يعود لترتفع مؤخرته في اللحظة الأخيرة مثل الأرجوحة، فنتنفس الصعداء، وكان الموج مثل سلاسل الجبال والعاصفة مطيريه، التهبت كفوفنا ونحن نشدُّ حبالَ الأشرعة المفتولة نلمها أحيانا ونفردها أحيانا أخرى والموج يلطمنا من كل مكان ويصب ماءه الثقيل على رؤوسنا صباً، بحّت أصواتنا ونحن ننادي على بعضنا البعض، ونجونا من الانقلاب لأكثر من خمسةِ مرّاتٍ، تلاعبت بنا العواصف، ودارت برؤوسنا الدوامات، وأضاع علينا الضباب الطريق، أصيب كليومينس بالحمى، واثنين من الفرسان بمرض الدبع والدرن وبالالتهاب الشديد، ومرِض فارس آخر بدوار البحر، بلغ بنا الإعياء مبلغةٌ حتى ظننا أننا غير ناجين، وفي ليلة

بلا قمر رأينا أضواءً تتلألأ على سطح الماء فعرفنا أننا على بعد ثلاثين ميلاً من ميناء الإسكندرية وعادت براعم الأمل تنبت في صدورنا.

انساب بنا القارب وبدأت تتكشف أمامنا منارة الميناء، وذُهلنا من مرآها ونحن نقترب من ساحل جزيرة فاروس، والتي تشبه هلالًا يحتضن القادمين، ويمتد منها ذراعين، الأيمن قصير، والأيسر مثل لسان طويل يقود إلى جزيرة تحتلها المنارة وتقف فوقها شامخة ترفع هامتها بالسماء، وعلى ارتفاع يصل إلى ثلاثمائة ذراع. نسينا التعب والمرض ومشقة الرحلة وقمنا شاخصين البصر نتأمل تلك الأسطورة التي تختال أمام ناظرينا بعظمة وكبرياء، تجسده الأمواج وهي تتكسر عند قدمي صخورها القاسية دليلا على العظمة والشموخ.

بناء عملاق مكوّن من قاعدة مربعة على هيئة أربعة أسوار متصلة من الحجر الجيري، ومقسمة إلى جدران تربط بينها الاعمدة بقوة عن طريق الرصاص المنصهر، وبكل جدار نافذة ضخمة، والأركان مدعومة بأربعة أبراج قصيرة وعريضة تشد وتد البناء، وبالداخل في الفناء يرتفع برج مضلّع الشكل قاعدة أوسع من قمته، ويعتليه برج آخر مكوّن من أسطوانة ثُمانية الأضلاع وله شرفة مدرّجة، بكل زاوية منها يستقر تمثال تريتون، ويرتفع فوق سطح البرج فنارة من سبعة أعمدة تصطف دائريا حول بعضها البعض لتحيط بصحنٍ يشتعل بداخله لهب مستعر، وخلفه عاكس زجاجي دائري التصميم مصنوع من رمل السيليكا، ومصقول داخل إطار من البرونز، لكيلا يتوقف شعاعه عن بث النور وإضاءة سماء البحر، ويغطي الأعمدة بالقمّة رأس مخروطي يستقيم فوقه تمثال بوسيدون في خيلاء.

أذهلني نظام الروافع المتطور الذي تستخدمه المنارة حينما رأيته وأنا أمر بجانبها، بدءًا من نقل الوقود عن طريق عربات تجرها الحمير، وتوصِلُها إلى

الطابق الأول ليتم إفراغه في حاوية موصولة بترسين لهما ذراع يحركه العبيد، و يرفعانها حتى يسلمانها للطابق التالي وما تكاد تصل حتى تفرغ محتوياتها في حاوية ثانية تنتظر ثم ترتفع للأعلى هي الأخرى، وتسلم من بعدها، وهكذا تظل الروافع تمدُّ المنارة بالوقود، لتعمل بلا توقف طوال الليل، وتبهر المسافرين، وتضفي على الميناء السحر والجمال، كانت بالفعل أعجوبة العجائب وتستحق ما كنا نسمعه عنها من أساطير وحكايات.

درنا حول المنارة وعبرنا إلى حوض الميناء الشرقي وانسبنا بين القوارب المحلّية الرشيقة ذات البطن النحيف والعنقين الطويلين المقوسين مثل عنق الإوز البري مع رأسين يشبهان زهرة اللوتس، وتحمل القناديل فوق صواريها التي أنارت حوض الإسكندرية، وتلألأت أشعتها على الموج الهادئ للميناء كالجواهر، بينما أشرعتها مشدودة عرضيا وتحمل رسوما جميلة ترمز لآلهتهم.

وخاض بنا القارب بمحاذاة جسر هيبستديوم، والذي يصل بين جزيرة فاروس ورصيف الميناء ويمتد بطول سبعة ستديومات تقريبا ليقسم الميناء إلى حوضين، وينفذ في جدار الجسر قنطرتان تشبهان فم واسع مفتوح، تمر منهما المراكب بمختلف أحجامها لتعبر من الميناء الشرقي إلى الغربي والعكس، أمّا فوق الجسر فيستقر بناء أنيق ذو سقف هرمي تحملهُ الأعمدة الإغريقية في تصميم رشيق، وعلى يمينه ويسارة حجرات للعاملين بالجسر.

اقترينا من حافة الميناء حتى وصلنا وتهادى قاربنا المُنهك بالمرساة التي كانت تنتظرنا بأعمدتها المنيرة ذات الفوانيس الضخمة، ورسونا بالنهاية داخل حوض فرعي مخصص لذلك، وربطناه بأحدي حلقات الرصيف.

هبطنا عن القارب، وأنزلنا الخيول، وانبهارنا بالميناء مستمر حيث رأينا بأرض الميناء المسلّات المصرية الشاهقة ترتفع جنباً إلى جنب مع النخيل والأشجار الباسقة، وتحفها الحركة الدؤوبة، فهنا بعض العمال ينصبون سقّالة ويرفعون بينها مِسلة جديدة تزينها النقوش من أضلاعها الأربع، وهناك أخرون يزينون الجدران، وبالجانب الأيسر للجسر وداخل الميناء يرتفع مبني دائري بديع النقوش، وبالجانب الأيمن يفتح مدخل المدينة والذي كان عبارة عن درج عريض المساطب، على جانبي مقدمته قاعدتين مستطيلتين، يعتليهما سبعين جالسين ومثلهما بالدرجة الأخيرة.

امتطينا خيولنا، واستقبلنا حرس الملك يورجيتس المنتشرين بالميناء، وأكرمونا لحد مقبول وساروا بنا عبر شوارع المدينة التي كانت غايةً في الجمال، صممها مهندس يدعى دنقراطس –حسبما أخبرنا الحرس-بطراز هندسي فريد، كل شوارعها تنفتح تجاه البحر، مضاءة بالقناديل، ومرصوفة بالحجر، ومصممة على شكل مستطيل في منتصفه شارع رئيسي عرضه مائتي قدم تقريبا يخترقها من الشرق إلى الغرب، ويقطعه آخر مماثل من الجنوب إلى الشمال، كانا مثل شريانين عظيمين منيرين، قطعناهما طوليا لما يقرب من الأميال الثلاثة ونحن نتأمل البيوت الراقية المتجاورة بانتظام ومصممة بمزيج من الطرازين المحلي والإغريقي ذو الاعمدة المتجاورة والسقف الهرمي المرتفع.

مررنا بأحياء اليهود بالشرق وسألنا فرقة الملك عن وجهتنا فقالوا إننا نتجه إلى الحي الجنوبي الذي يقع به القصر والمكتبة ومقابر البطالة وضريح الاسكندر، وتبعناهم حتى وصلنا إلى بوابة القصر الملكي البديع، ورأينا من خلف بوابته حديقةً غناء فسيحة تحيط بمبنى القصر المزين بمزيج متجانس بين العقيق الأبيض والرخام، أما مدخل القصر فكان مصمماً من

عشرة درجات واسعة رخامية يستقيم خلفها صف من الأعمدة الإغريقية التي تنتهي بتيجان ملفوفة من الجانبين وتحمل فوقها سقف هرمي بديع يكسوه القرميد الأحمر، بينما على جانبي القصر يستقر حوضان من الماء العذب، وفي الطريق المؤدي إلى مدخلة يمتد بساط من العشب المزيّن بزهور الزنبق والاقحوان والبنفسج والنرجس.

سَلّمَنَا الحرس إلى الملك يورجيتس، ودخلنا عليه فقبِلَ لجوئنا ومنحنا الأمان وبقينا هنا لقرابة العام في كنفة، نفكر في طريقة لاستعادة عرشنا المسلوب، لكن ولأن ريحانا دائمًا تأتي بما لا تشتهي قواربنا، توفي يورجيتس، وجلس مكانه فيلوباتور الذي لا يتعاطف معنا، بل يكرهنا، ويكره كل من يهدد عرشه مهما كان تهديده طفيفاً، اعتقلنا وسجننا هنا بالقلعة، كل في قفص منفرد، إلى أن ينظر في أمرنا، وليس صعباً أن نتوقع قرارة، سيعلقنا على مشانق القصر أو ربما أسوأ.

أخرجني من دوّامة ذكرياتي صوت ملينيا العذب، خِلتُ أنّي أحلُم فاقتربت من القضبان استرق السمع، ومددت بصري تجاه سُلّم النزول للأقفاص، والذي يرتفع لأربعة درجات غليظة، فوجدتها بالأعلى ترشي الحارس -ذو الشارب الكث المعقوف- بصرّة منتفخة، ثم نزلت بقدميها المرمريتين درجات السلم الحجري، وأصبحت أمامي. كانت تضع برقعاً شفافًا يغطي نصف وجهها مثل أميرات الفُرس، مما زادها غموضاً وفتنة، واقتربتُ من قفصي، واحتضنت ملامحي ببصرها تتأملني باشتهاء، ثم تعانقت أصابعنا عبر أعمدة الصلب القاسية اللعينة، تبًا لكل ما يحول بيني وبين آخر أمنياتي في هذه الحياة، ملينيا حبيبتي، مرّت لحظة صمت حالمة على كلانا، ملأ فيها كل منا بصره بملامح الآخر ونسينا فيها آلام الفراق، ثم ابتدأتُها بالحديث: حبيبتي

كيف تجازفين بالحضور إلى هنا، أنت بهذا التصرف تضعين رأسك على حافة المقصلة!

-لم يعد يهمني يا بانتيوس، كل أصناف الموت عندي الآن سواء، الحياة في فِراقك قطعة من جحيم الآلهة.

رميت الحارس الذي يقف بالأعلى بنظرة من طرف عيني وسألتها، وكيف أتيت بالمال، رأيتك ترشين الحارس؟

-لا تشغل بالك، كان لابد أن أراك مهما كان الثمن.

-تفعلين أكثر مما تحتمل طاقتك يا مهجة الفؤاد، تغامرين بحياتك من أجلي؟ .

أخرجتْ من صدرها ملفوفتين جلديتين صغيرتين ومررتهما لأناملي بأناملها الرقيقة وأحسست بدفء صدرها ينبعث منهما فقبضت عليهما باعتصار عاشق وسألتها في حيرة: ما هذا؟

-اسمعني يا بانتيوس الوقت يمر ستجد برسالتي سبيل الخلاص اقرأها جيداً، ولا أطلب منك غير أن تتحلى بالصبر إلى أن يكتمل رغيف الخبز الناضج.

- سأفعل يا حبيبتي.

- اعتنى بنفسك من أجلى، ولا تقلق سأبذل حياتي إذا اقتضى الأمر لإنقاذك يا حبيبي.

-لا بل احتفظي لي بكِ، أنت حياتي يا ملينيا، أنت وحدك من يدفعني للحياة، والنسيم الذي يحتاجه صدري ليبقى، وعينيكِ هي المدى الذي أعشق

السفر فيه وصولا لذاتي، والأمل الذي انتظر أن يأتيني يوماً في صورة حقيقة تحملها غيوم الغيث لتحيني.

وحانت لحظة الفراق فتشبثتُ بأصابعها التمس فيها ما تبقى من أمل ومنحتني نظرة هي الحب بكامل معانيه، ثم سحبت يديها مضطرة.

ومال الحارس برأسه يتعجلها فمضت تجر ثوبها، وتركتني أعاني من جديد، ما هذا الحب الذي ينقلنا من فراق إلى فراق، ويبعدنا أكثر في كل لقاء!؟

منحتني زيارتها الأمل بعد أن تكسّرت همتي على جدران اليأس، كنت كمن شرب ماء المحاياة، وعرفت من نظرتها الحانية أنها تدرك بغريزتها مقدار الألم الحبيس في نفسي، فهي امرأة حساسة نقية تعشقني حد التضحية بالنفس وتقرأ روحي دون أن أتكبد مرارة الشكوى، وهذا هو منتهي ما يصبو إليه العاشق، أن تملتك قلباً لا تحتاج لأن تخاطبه بالكلمات، ويشعر بكامل معاناتك دون أن تتمزق روحك على مقاصل البوح، فهذا يعني أنك قد امتلكت الحياة بكل معانيها.

فردتُ رسائلها، فوجدت الأولى تحمل خريطة لم أفهم مقصدها، والثانية رسالة منها، رحت أقرأ سطورها، فوجدتها محملة بالأمل، الأمل الكبير.

" حبيبي بانتيوس، باركتك الآلهة، لا تحزن، حبنا سيبقي، سنعيش ونتزوج، حتى يملأ أبناءنا ربوع اليوروتاس مرحًا، وتسقيني بكفيك من مائه العذب، وأنهل على ضفافه من رجولتك، وتنهل من أنوثتي كيفما شئت، ومتى أشاء، وعندما نموت ستُحكي قصة عشقنا عند سفوح الأوليمب وتُعزف على سيرتها أعذب الألحان، اطمئن يا حبيبي، لن أخلف وعدي لك، حتى لو اضطررت لأن أجرد شموس السماء من ردائها من أجلك، لا تستهن بامرأة عشقت، فها أنا ذا آتيك اليوم بالبشرى، ولأبلغك بالسرِ الذي منحتني إياه

الملكة برنيكي قبل مقتلها، رسالتها لماجاس بها خريطة لسرداب يحمل لك الخلاص مما أنت فيه، انتظرني، بعد ثلاثة أقمار، عشيقتك المخلصة للأبد ملينيا"

أفقت من غيبوبتي الواعية على صوت الموج الهائج وهو يلطِمُ وجه الصخر، يبدو أنه يكره الصخر لأنه يمنعه من ضم مزيدٍ من الأرض إلى مملكته التي لا تغيب عنها الشمس، ويبقى البحر هو سيد الثورات الذي يقيم الدنيا من أجل أن يحتضن الأرض وتذوب أذرعته بين مسام رمالها حبًا وخضوعاً، كما أذوبُ أنا على أعتابِ ذاكرتي ذلًا ورجاءً، كنت أعرف أنني سأشاهد تلك الذكرى حينما اقترب من ميناء الإسكندرية، بعد أن قرأت عن رحلة كليومينس إلى مصر في زيارتي الأخيرة للمكتبة العامة، وبالفعل حدث ما توقعته، وأتتني ذكراه، لكن وكعادتها بمزيد من الوقائع التي لم يذكرها التاريخ، وهنا أعود لذلك السؤال المُلِح، هل ما تم تأريخه هو الحقيقة المجردة؟ أم أنه يحمل الكثير من الزيف والتغيير؟ واتجهت لأقرب مكتبة عامة باحثًا عن إجابة لهذا السؤال لعلني أهتدي إليها، وفتشت عن كل ما يمتُ لمعركة سيلازيا بصلة، وبالنهاية وجدتها، وذهلت من كم المعلومات التي تدفقت أمامي كالسيل، معلوماتي عنها كانت دقيقة، وكأنني جهاز استخبارات متمرس، سيلازيا كانت معركة النهاية لدولة إسبرطة وحدثت ٢٢٢ قبل الميلاد، ولجأ بعدها كليومينس إلى مصر الحليفة، والتي كان قد أرسل أسرته رهينة لدي ملكها قبل ذلك بفترة، وكانت تفاصيل المعركة دقيقة إلى حدٍ مدهش أفزعني حتى أنني انتفضت، فكل ما رأيته بعيون بانتيوس وسمعته بآذانه كان صحيحاً بل كنت داخل المعركة بالفعل أشمُ رائحةَ الدم والعرق والجثث، حتى أعماني اللون الأحمر وأصبح يستثيرني مثل الثور الهائج.

أغلقت دفة الكتاب وجلستُ أفكر، ما رأيته بعيني بانتيوس يعني وبما لا يدع مجالاً للشك أنني كنت هو يوما ما، لكن كيف؟! تبرعمت بداخلي فكرة أنني كائن خالد مثل الطفرة وانبرت وساوسي تغذيها بالكثير من الإثباتات والشواهد حتى أنتجت ورمًا عضألا طفح داخل عقلي بصديد ملوث، ولم يستأصله من خلاياي إلا تساؤل مباشر، بافتراض أنني أبديٌ لا أموت؟ فكيف أحمل ذكريات من طفولتي في فترة الخمسينيات؟ ومن كنت بعد بانتيوس؟ المسافة الزمنية بينه وبين نعوم شاسعة، آلاف السنوات! أم أنني أموت وأبعث من جديد مثل العنقاء؟ توقفت عن التفكير حتى لا أخضع لخيالي وأتركه يسافر بي إلى عالم ليس منه عودة، أتمنى أن تحمل لي جلسات التنويم إجابه حاسمة تستطيع أن تنحر تلك الهواجس التي تعربد داخل جمجمتي، وتنثر دمائها فوق حوض الخلاص لأبرأ من هذا المرض للأبد.

العجيب أن نعوم اختفى لم يعد يزورني مثل ذي قبل، أم أن دوره قادم، وكأن ذاكرتي كائن ذكي يختار التوقيت والأسلوب الذي يعرض به المشاهد، بل ويدفعني لزيارة أماكن بعينها، حتى أنني أجد حنيناً مريباً بداخلي تجاه مكان ما في توقيت محدد، وهذا يقودني مرة أخرى لفكرة أنني مسكون بأشباح، يا الله، سأجن، مسكون، أم خالد، أم بشر أنا، من أنااااااااا، أو ما أنا! كيف انهارت بداخلي كل الحقائق البسيطة، وغادرتني كل مفردات حياتي المستقرة، لماذا فارت أعماقي وتبخرت تحت وطأة الشك المستعر، أهو الشتات حين يدور بي حول معنى الروح، فأجدني أجوف لا معنى لوجودي، أم هي الحياة حين تقرر منحي فرصة العثور على ذاتي خارج حدود الصنم الذي ينتصب بداخلي، رافضًا حتى الاعتراف بعجزه وقلة حيلته؟!، هل حان موعد الانسلاخ؟! هل عليّ أن أطل برأسي وأشق بطن الظلام؟ أيًا كانت

النتائج ومهما كانت التضحيات، أم أؤثر السلامة واحتمي برحم معاناتي حتى لا يخطف وهج الحقيقة بصري وتعصف بي آلام المخاض فأولد موتورًا وتنكر الحياة نَسَبي، يا ربي، ما يحدث لي يستهلك روحي، ذكريات مفصّلة ومتسلسلة ومنتظمة، وتاريخ يسرد تباعًا، حياة كاملة أعيشها وتعيشني، كيف تحمل ذاكرتي كل تلك المشاهد، ما هو تاريخي؟ كم يكون عمري؟ وكيف ستواصل روحي رحلة حياتها في جسد كهذا ؟!

طردت تلك الأسئلة التي ستختصر لي طريق الجنون، وغادرت المكتبة وعرجت على السوق لشراء الحطب الجاف ثم عدت إلى منزلي تصحبني حيرتي مثل ظلي الذي لم أعد أراه في هذا الجو الغائم.

* * *

(حلقة الذكريات)

ألقمت المدفأة بالحطب، وجلست أمامها أُكسّره، ثم أشعلت به النار، والتي لم تلبث أن تأججت، وتطاولت ألسنتها طارحة ظلها على جدران البهو المظلم مثل أشباح فرت من قيودها لتزيد حدتي وتوتري.

وبمضي الدقائق بدأ الدفء يتسلل إلى البهو بنعومة، وصبغ نور اللهب كل شيء حولي بلون النحاس، وبينما أنا في لحظة استكانة خالية من التفكير، تنامى إلى مسامعي صوت خطوات رشيقة أنعشت ذلك السكون الخامل، أدرت وجهي ناحية السلم الحلزوني، ورأيت حنان تنزل متبخترة، تلتحف بمنامة حمراء صدرها مفتوح ومزيّنه بالريش، أشحت وجهي عنها متصنعًا الانشغال بتوزيع الجمر، لا أدري لماذا لمحت وجهها الملائكي في صورة مخيفة، تتعاقب على صفحته خطوط النور الأصفر وخطوط الظلام الداكن لتمنحها رهبة لا تناسب وداعتها.

اقتربت مني وجذبتْ كرسيًا صغيراً وجلست إليه بجواري، ليتسرب عِطرها الفوّاح إلى أنفاسي، ثم غاصت بصدرها في كتفي، وأخذت تمعن النظر في خديّ الأيمن كأنما تحاول أن تتعرف عليه من جديد، حافظتُ على جمودي مصوبًا بصري تجاه النار التي انبرت تأكل الحطب بشراهة بينما رائحة الاحتراق تتبخر من بين ثناياها وتنتشر لتختلط بعطر حنان، وطال سكوتنا حتى قطعته هي بتمرير ظهر أناملها على خدي وقالت بصوت خفيض: هل تذكر هذا العطر الذي أضعه؟

أبعدتُ أناملها برفق وقلت: لا أذكر أي شيء، لا أعرف حتى من أنا، يبدو أنني مجهول الهوية-ثم أردفت ساخراً بحزن-في الماضي كنت أظن أن مجهولي النسب فقط هم من يعانون، والآن تأكدتُ أن مجهولَ الهويةِ يتألم ربما ألف مرة أكثر من غيرة، بعد أن صِرتُ أوصالاً تتدلى من جسد ممزق، مجرد ظلال تبحث عن جدران خاليه وبقعة ضوء لتجد لها مكاناً في عالم البشر.

مَسَحَتْ كَتِفي براحتها وقالت: حاول أن تشاركني همومك، الوحدة والانعزالية لن تمنحك إلّا مزيدًا من المتاهات يا أحمد.

-ليس أمامي غيرها، ذاكرتي ممتلئة بالتفاصيل ولا تحتمل المزيد من البشر، مهما كانت درجة قرابتهم لي.

-لكنني زوجتك، أقرب الناس إليك، إذا لم يكن لي مكان في ذاكرتك وقلبك وكيانك فمن يكون؟

-لا أحد، على الأقل مؤقتًا.

يئستْ من محاورتي فآثرت الصمت، ثم انسحبت في غضب لتنام، وبقيت أنا أتأمل لهبَ المدفأة الذي كان يتراقص أمامي وكأنني حاو هندي يعزف له الناي، ويبدو أن ذلك أعجبه فواصل التمايل بلا ملل ولا كلل، مستمتعًا برقصته الثعبانية التي تخطف الأبصار، أراد أن يسترهبني مثل سحرة فرعون ونجح، انقض الصداع على رأسي انقضاض الذئب على الحمل، تَقلّب الدم داخل رأسي وبدأت درجة حرارتي ترتفع وشعرت بالغثيان، ورحل بي ذلك اللهب إلى هناك، إلى السجن المظلم، لازال ملمس أنامل مليئيا عالق بأناملي، أشمها كل حين لأتنسم عطرها الذي مزج أنفاسي، أُقبّلُ أصابعي التي مست جلدها الناعم، منحتني كل شيء، الأمل والحب وسهبني أيضا حريتي وحياتي، تماماً مثلما فعلت أمي يوم ولدت، كنت مريضاً وحكم عليّ

بالموت، فالوليد المريض مصيره الموت في بلادي، يلقى به من حافة جبل تايجتوس ليموت، فلا وقت لدينا لرعاية المعاقين أو المرضى، ولذلك أعلنتْ أمي أنني مِتُّ، وهربتْ بي في جنح الظلام، وخبأتني عند جدي الذي كان يسكن جبال الأوليمب هائما وحيدا، كان فيلسوفاً يرى في السلام حلاً لكل شيء، وهو ما لا يتسق مع أفكارنا الحربية، وبقيت عنده يطببني وترضعني عنزاته بحليبها، تفتحت عيناي على سفوح الأوليمب الخضراء الرقيقة وأيضا حجارته القاسية، وعندما أكملت عامي الرابع أعادتني أمي إلى إسبرطة سليمًا معافى، كي أكبر بين شوارعها وأتلقى تدريبات القتال، لأصبح فارسا مثل أبي الذي قُتل بالمعركة.

لهوتُ بالطرقات كثيراً أشاهد الرجال والصبية وهم يأكلون جماعة على طاولات مشتركة، والنساء والفتيات يأكلون بمعزلٍ عن الرجال، حياة متقشفة صنعت للحرب والحرب فقط، واعتدنا عليها، أغلب طعامنا كان السمك المجفف أو المملح وكعك البيض بالإضافة للخضروات كالبازلاء والفاصوليا، وحتى صكّ عملاتنا كان يختلف عما كنّا نراه في مقدونيا، عملاتِنا كانت تسبك من الحديد ثقيل الوزن، حتى نعّود أنفسنا على التقشف، فحمل عملة من الحديد كان يتطلب مشقة وجهد وبالتالي لن يحمل الإسبرطي الكثير من المال كما لن يستطيع اخفاءه أو كنزه.

وفي الرابعة عشر تميّزتُ في تدريبات السرقة، والتي كنا نتعلم فيها سرقة أغراضًا من الحوانيت والبيوت دون أن نتعرض للكشف حتى نتدرب على المناورة والقدرة على الاختباء، لذلك كان من يُقبضُ عليه يعاقب لا للسرقة لكن لأنه كشف أمره، لازلتُ أذكر قصة الفتي والثعلب التي كان مُعلمنا يحيكها لنا بصوته الرخيم:

"يحكي أنه في قديم الزمان كان هناك فتى إسبرطي يقال له -المتقشف الشجاع – تفوق على كل أقرانه في سرعة الخطف والمناورة، وذات يوم ملّ الفتى سرقة أغراض الناس، فقرر أن يُثبت لمعلمه مدى مهارته، وأنه لا يشق له غبار، فتدثر في عباءته وغادر في جنح الظلام إلى جبال الأوليمب وفي ذهنه فكرة خيالية، قرر أن يسرق ثعلباً من أمه، اختار أكثر الأوكار صعوبة وامتناعاً وهو وكر الثعلب ذو المنفذين، وتربص يراقب الوكر ليالي وأيام، عانى فيها البرد والصقيع، لكنه بالنهاية كشف مخرجي الوكر، وانتظر حتى غادرت الأم لاستجلاب الطعام للجراء الصغيرة، وأوقد ناراً في المخرج الأول، وجري سريعاً لينتظر خروج أحد الجراء من المخرج الثاني، وبالفعل لم تمض دقائق إلّا وكان جروًا يمد رأسه البرتقالي ذو الاذنين الكبيرين، وينسلّ بمرونة هارباً فأمسك به وخبأه تحت عباءته، وهرب سريعا قبل أن تعود الأم.

عاد إلى شوارع لاكونيا شاحباً، يمشي بين الناس بوجه ممتقع يزداد زرقة مع كل خطوة، وكلما سأله أحدهم ماذا بك؟ كان يرد: أنا بخير، حتى وصل عند أقدام معلمه فسقط كالحجر ومات، وانفلت الجرو من العباءة وراح يركض هنا وهناك، وتفحص المعلم فتاه الشجاع، فوجد الجرو قد عضّه عشرات المرات في قلبه حتى أدماه.

وبقدر ما كانت الحكاية خيالية، بقدر ما تأثرنا بها، ونحن نسمعها من المعلم وهو يحيكها لنا في الصباح، ونحن جالسين القرفصاء أمامه في صفوف متتابعة بمدرسة الحكمة، تمر أشعة الشمس الناعمة من الأعمدة عن يميننا وتمس أجسادنا ثم تلقي بظلالنا على الأرض.

علمتنا الحكاية أن نبذل المستحيل لإرضاء المعلم، والذي يعد رضاه من رضا إسبرطة، وبزغ نجمي كفتى بارع شديد الذكاء بين أقراني، حتى صرت شابًا،

وبدأت أشارك في السباق الرياضي بساحة العدو، وكانت الساحة عبارة عن شريط طولي يقع بين جدارين قصيرين، ينتهي كل جدار منهما بتمثال لفارس يقف جوار فرسه ويملك شكيمته، ومن خلف الجدارين تتعانق أشجار الكافور القوية صانعة مظلّة كثيفة من الأوراق الوارفة، ثم ينتهي الطريق بمدرج على شكل حدوة الفرس يجلس به الجمهور والمتابعين للسباق. وكنت أتبادل النصر دائما مع زميلي إيكاريوس وكنّا نقطع المسافة قبل أقراننا بأمتار، وقدمت هناك العديد من الرقصات الجماعية مع الفرسان بالسيوف والدروع، ونازلت العديد منهم، لا أنكر أنني كنت أفوز أحيانا وأخسر أحيانا أخرى، لكني بالنهاية كنت بارعاً خاصة في نزال الرماح ومع انتهاء التدريبات أصبحت جاهزًا لخوض غمار الحرب بجسارة، لا أنسى أول مرة خرجت فيها لحرب الفرس، حينما ودّعتني أمي ومنحتني درعَ أبي قائلة وهي تشير إلى الجبال: عد حاملاً درعك أو محمولاً عليه.

طفت ببصري عبر المدى أتأمل سنابل القمح التي كانت مصطفة كالجنود تنحني للريح في مرونة ثم تعود لتنصب هاماتها في إباء، حينها فهمت معنى أن تكون محارباً في الجيش الأسبرطيّ، نحن نولد من أجل القتال، أرحام أمهاتنا لا تلدُ إلّا جنودا، وليس في قاموسنا غير الحرب وليس، أمامنا في الحرب سوى خيارين: النصر أو الموت، ولذلك حينما كان يموتُ من بيننا مقاتلٌ كنّا نعود لأمه بدرعه حتى تتأكد أنه مات بشرف وهو على جبهة القتال.

وعند بلوغي العشرين بدأتُ أترددُ على الجبال لزيارة جدي -والذي كان قد بلغ من العمر أرذله-لأتعلم منه الحكمة والتأمل حتى أصير جندياً حكيماً، وأتميز عن أقراني الذين لا يعرفون إلّا القتال وفقط، كان فيلسوفاً، تعلمت منه معاني جديدة لم نكن نتحدث عنها في إسبرطة مطلقاً كالسلام والرحمة، وكان دائما يتحدث عن أن الحرب لا تخاض لذاتها كما تفعل إسبرطه، بل

هي وسيلة لاسترداد حق مسلوب أو تنويرًا لشعوب همجية تحتاج من الفاتح أن يقيم بها العدل والمساواة، وأن حضارة أي مدينة وتقدمها لا يقاسان بقوتها الحربية ولا التجارية، بل بأخلاق أفرداها.

أما عن حياتنا المدنيّة فكانت متقشفة. عِشنا فقراء حتى ارتقى كليومينس العرش بعد وفاة أبيه ليونايدس الثاني، وكان أول ما فعله أن أعاد توزيع الثروة والأراضي، وألغى الديون التي قصمت ظهورنا، ومنع حياة الرفاهية التي سمح بها أبوه، وانتجت العديد من النبلاء والمرفّهين وأثرت على قوتنا العسكرية، طرد ثمانين من التِجّار، وألغى مجلس الإيفور والذي لم يكن يفعل شيئاً إلا السفسطة، واغتال أربعة عشر من شيوخه، واستعاد مقاليد السلطة التي كانت في أيديهم، وأعاد إلى إسبرطه اسمها الحقيقي، المتقشفة.

بعدها خرجنا للقتال من أجل استعادة أمجادنا، وشاركت في العديد من الحروب، حتى مُنحتَ وسام الفروسية، وأصبحتُ واحدًا من فرسان الخيّالة المشار لهم بالبنان، وشاركت في غارتنا بالشمال على آخيا ضد أراتوس، وحققنا الكثير من الانتصارات التي لم ولن أنساها.

هنا توقفت ذكريات الفارس الإسبرطي، وكما رحل بي اللهب إلى حيث ذكرياته المجيدة، عاد بي إلى واقعي المهزوم، لازال اللهب يواصل رقصته، وألسنته تغيظ بعضها بعضًا، والجو من حولي مفعم بالدفء الذي شربته أوصالي. تستفزني فكرة رؤيتي لذكريات داخل ذكريات، حلقة لا نهائية متداخلة، مثل من يقف بين مرآتين فتتابع صورته داخلهما.

طأطأت رأسي ودفنت كفيّ داخل معطفي الثقيل، وتفاجأت بوجودها حين لامستها، القصاصة التي تحمل خبر مقتل أمي !! كنت قد نسيتها وسط

تراكم الذكريات التي تهدمت فوق رأسي كالعمارة المتهاوية. أخرجتها وفردتها لأقرأها، ولاح اسمه أمامي بوضوح، كأن بقعة من الضوء تتوهج فوق حروفه "نزيه شوقي ". الضابط الذي اكتشف الجريمة، واختفى بعدها في ظروف غامضة، ما فعله أبي هو نفس ما سأفعله أنا، الجريمتان متشابهتان في كل شيء ولا يحتاج الأمر لذكاء مني لأفهم أن الأسباب تقريبا واحدة، لكن ما هو القاسم المشترك بين الحكايتين؟ إدراكي لحقيقة ما جرى ليلتها سيحمل لي الإجابة والحل بالتأكيد، اعتصرتُ عينيّ استخلص عصارة ذاكرتي فلم تمنحني طياتها اليابسة إلّا الفراغ، كل جوارحي تكتم الشهادة رغم مواصلتي دعوتها للنطق، ربما لم أشاهد ما حدث أو كنت نائما، الأطفال تنام كثيرًا، ارتاحت نفسي لهذا التفسير الخادع، وصعدت إلى غرفة النوم لألحق بحنان وقد عرفت أين سأذهب غدًا.

* * *

(٢٥- يناير- ١٩٧٧)

عند التاسعة صباحًا كنت أجوب مديرية أمن الإسكندرية، وأمرُّ بين طرقاتها الكئيبة وبين يدي صورة الخبر، وكانت ملامح العساكر والضباط من حولي متجهمة ويابسة، تكسوها القسوة، وخالية من أي دلالات قد تمنحني بادرة أمل في أن يمد لي أحدهم يد العون، بداية من ذلك الضابط الذي كان يقتاد صفًا من المكبلين بالأصفاد بينما ملامحه تضج بالغضب، ومرورًا بزميله الذي كان يوبخ أحد العساكر ويشتمه بأمه، ووصولاً للرقباء الذين كانوا يهربون لدورات المياه للاختلاء بسيجارة الصباح، وانتهاءً بالرائد الذي كان يصرخ في ثلة من العاهرات المتدثرات بالملاءات وقد أكل البغاء من لحمهم وشرب.

كنت أفكر في الطريقة التي سأستفسر بها عن بيانات ضابط كان يحمل رتبة رائد، ومستقيل منذ ما يزيد عن عشرين عامًا، وكان الأمر جد صعب، الحصول على بيانات مخبر أمر شبه مستحيل وسط هذا الجو المشحون بالتوتر، فماذا عن ضابط! ومستقيل!، لكن المشكلة أنني لا أملك بديلًا ولذلك لم أتراجع، سألت بعض الرواد فأرشدوني لقسم السجلات، وهناك دخلت على الموظف فوجدته محشورًا خلف مكتب صغير من الصاج، يكاد سطحه يبرز للأمام وسط خزانات مرتفعة من الحديد. كان منشغلًا في مراجعة أحد الأوراق المليئة بأختام النسر وأمامه يستقر شاي كالحبر، وبين سبابته ووسطاه تحترق سيجارة رديئة، ودخانها يتصاعد لينساب داخل

الملفات التي تطل من خاناتها فوق رأسه! حدجته بنظرة مقت ولسان حالي يقول لو كان بألمانيا لحوكم هذا الرجل.

عدت لأركز على هدفي، ونحيتُ تقييمي له جانبًا، ثم أخرجت قلم وورقة وتظاهرت بأنني أكتب تحقيقاً صحفيًا عن أبطال الشرطة وسألته: من فضلك احتاج إلى عنوان اللواء نزيه شوقي لزيارته وإجراء حوار صحفي معه.

استقبل سؤالي ببرود وسحب نفسًا من سيجارته بتلذذ، ثم نفثه ومطّ شفتيه قائلًا: ممنوع.

صلت وجلت أنثر على مسامعة عشرات الوعود الزائفة وأحاول إقناعه بأنني سأذكر اسمه بين جنبات التقرير الصحفي، وسأضع صورته، وهو يهز رأسه في بلادة: ممنوع.

كان التفاهم معه بمثابة مناطحة ثور عنيد، متصلّب بشكل مستفز، ولم ينجح المال في إلانة تلك الكتلة الصخرية المستقرة داخل جمجمته، بل كان يزداد جمودًا وكان يرد بذات الكلمة: ممنوع.

خرجت من عنده وقد تملكني الغيظ، لن أحصل على مرادي إلّا بتصرف مجنون وجامح، هذا ما تأكد لدي، قفزتْ إلى رأسي فكرةٌ خطيرة ونقلتها إلى حيز التنفيذ مباشرة، توقفت أمام غرفة بدت تخص شخصية هامة، وسألت العسكري الذي كان يحرسها: أين مكتب اللواء نزيه؟

هز رأسه قائلا: لا يوجد لواء هنا بهذا الاسم. حاولت مجادلته: بل يوجد سأدخل لأسال الضابط المسئول. أمسك بمقبض الباب يمنعني من الدخول ثم تجاهلني، وشدّ قامته فجأة ضارباً الأرض بقدمة وملقيًا التحية العسكرية: تمام يا أفندم.

انتبهت لقدوم أحدهم فاستدرت، وارتطم بصري ببذلة عسكرية، قرأت النجوم التي تزين كتفها فعرفت أن صاحبها ربما مقدم، وانتهزت الفرصة وسألته بثقة وأنا أضع قصاصة الخبر المهترئة أمام وجهه: أريد اللواء نزيه.

ارتاب في أمري قليلاً، ثم التقط الخبر ليمرر بصره فوق سطوره، من المحتمل أن أسلوبي الفظ مرر له رسالة قوية بأنني رجل ذو شأن وربما مبتعث من جهة سرية للتفتيش، ومن المحتمل أنه رجل متعاون، لا أدري، المهم أن خطتي نجحت واستجاب لطلبي، وأنهى قراءة الخبر فقال وهو يهز رأسه: لا يوجد حالياً بالمديرية ضابط بهذا الاسم.

-ربما غادر الخدمة منذ زمن؟

- لم يقابلني ضابط اسمه نزيه شوقي من قبل، ربما أخطأ الصحفي في كتابة الاسم.

قالها وهو يعيد لي الورقة بعد أن نزلت كلماته على رأسي كمطرقة عنيفة، لكني تماسكت وقلت: لا بأس أريد تصريح بالبحث عن بياناته.

أومأ برأسه موافقا، وأشار إلى العسكري ليقتادني حيث قسم السجلات، وعدت للموظف العنيد بظفر، وبحث معي مغتاظًا، ومرغمًا عن ملف ضابط يسمى نزيه شوقي ولم نعثر عليه، أبدا.

غادرت المديرية وبركان الشك يقذف حممه المتأججة ليرجّ صدري ويخصّب تربة الوهم الساكن بأحشائي، كل شيء أصبح سخيفًا، لا يمكن أن يكون كل هذا مجرد ضلال، لابد أن أحدهم يخدعني، يتلاعب بي لهدف ما، يمحو كل أثار وجودي من الحياة من أجل أن ينفذ خطته، مشيت هائماً، أقطع الشوارع مصطحباً متاهات أفكاري، كل الوجوه من حولي كانت تحمل وجه بانتيوس، وكل الملامح هي ملامح نعوم، ولا أحد يشبهني، انغمست أحملق في

قسماتهم وهم يقابلون تحديقي بإشارات الضيق والاستنكار وأيضًا السخرية، يسألونني، فيما تحدق أيها المجنون!؟ كدت أوقفهم، أصرخ بهم جميعًا، من منكم أنا؟ من منكم يحمل ملامحي؟ من!؟ وهكذا قضيت ما تبقى من الصباح في نوبة من التحديق، حتى انتصف النهار، وهبط المطر فتبددت الملامح، وغسلت القطرات الأقنعة التي تكسو وجوه المارة وعادت إليهم هيئتهم الحقيقية، فقطعت مسيري وتوقفت أمام أحد المحلات الزجاجية وتأملت نفسي عسى أن يكون المطر قد غسل قناع الزيف الذي يكسوني إلّا أنه لم يقابلني سوى وجه أحمد.

رجعت إلى منزلي منكودًا لأجد حنان تجلس إلى البحر يحيط كتفيها شالأ من الصوف، ومن تحته يتألق ثوب وردي طويل ذيله يعانق الرمال بينما شعرها يتطاير مع موجات الهواء البارد.

كان المطر قد توقف واستكان الجو، وكانت الشمس تنزلج ساحة السماء مثل كرة تندفع لتسقط في البحر. مشيت نحوها حتى وصلت فحييتها: مساء الخير يا حنان.

التفت لي وقالت مبتسمة: حمد لله على سلامتك يا حبيبي، كيف كان يومك؟

اقتربت منها وقلت: لا جديد.

أمسكت راحتي وقبّلتها ثم حضنت بها وجنتها البادرة وهمست: لا عليك ستصل إلى ما تريد قريبًا إن شاء الله، وستهدأ نفسك، كل البشر يمرّون في حياتهم بأزمات يا أحمد.

ثم مررت أصابعها بين أصابعي وأشارت تجذبني لأجلس: اجلس حتى لا يفوتك كل هذا الجمال.

جلستُ إلى الكرسي المجاور لها، وأراحت رأسها على كتفي تستمتع بعناق أناملها لأصابعي بينما البحر ممتد من أمامنا تتراوح موجاته في تباطؤ كأنما تتدلل إلى الشاطئ، وتغازله دون أن تجرح رماله، تماما مثلما تفعل بي ذكرياتي حينما تشق لنفسها بداخلي مجرىً عميقاً عند الحاجة، ثم تهجرني بنشوز حينما تقرر، تغمرني بالفيضان حينما أكون مرتويًا، وتبث العطش في أوصالي الظمأى حينما أحن لقطعة من الماضي، ومالت حنان على صدري وهمست: أحمد أفتقدك.

وجدت الكلمة عذبة جميلة، فلم يحدث أن افتقدني أحدهم أو سأل عني، ويبدو أن مأساتي أنه لا أحد يفتقدني، ربما لو اهتم أحدهم يوماً لأمري ما ضعت هكذا، ربَتُّ على كفها محاولاً شكرها عن مجرد وجودها في حياتي، وصبرها على حالتي، والتي بدأت أنا أثور على نفسي بسببها.

ولمحت في عينيها بسمة خجولة زادتها جمالا، وتحدثنا عن البحر، واختلفتُ معها فهي حالمة، تراه رومانسيًا بديعًا كما يراه كل الناس، بينما أراه أنا ضلالات لا تطلب التوبة، ومحطة لا تقصد الوصول، ودولة ظلم لا تعرف الرحمة، البحر بالنسبة لي هو شاهدٌ وآثم، قاتلٌ ومقتول، وطنٌ ومنفى.

جذب انتباهي نعيب نورس وحيد يحوم بالسماء فاردًا أجنحته، يصيح وكأنه يبكي، كان بلا سرب، أقرانه رحلوا وتركوه في لحظة غفلة، لابد أنّه يشعر الآن بالغربة مثلي، يملك أجنحة ويطير لكن السماء ضاقت عليه بما رحبت، لا أحد يسمعه، لا أحد يراه، ولا أحد يجيبه، يفتقد العشيرة والرفقة، ويفتقد المأوى، وغابت الشمس وهو لازال تائهًا، وكأنها رسالة يبعث بها لي، وبالفعل قرأتها وفهمت معناها.

وجاء الليل ليطردنا، غادرنا الشاطئ، وحملت الأغراض التي كانت حنان قد جلبتها ورجعنا إلى المنزل لأجد بانتظاري جرس الهاتف يستغيث طالبًا الرد، وضعت الأغراض وجريت ناحيته والتقطه مجيبًا: ألو.

لم يأتني صوت المتصل فعدت أسأل: ألو.

اقتربت مني حنان ورفت رأسها تنظر في وجهي وهمست: من؟

أجبتها شاردًا: لا أعرف، وصعدنا للنوم.

* * *

(٢٦- يناير- ١٩٧٧)

أصبحت على صُداع يضرب جمجمتي بزلزال مقداره عشرة ريختر، قبضت بأصابعي الخمس على دماغي من الألم الذي كان ينخر أعصابي مثل قارضٍ شرهٍ، يأبى عليَّ أن أرتاح ولو لثواني قليلة استعيد فيها توازني، حيرتي بلغت ذِروتها، فليس أقسى على إنسانٍ من أن يجهلَ من هوا، قبل عدة أيام كنت أعرف من أكون، لكني ودون سبب، أصبحت مجهول الهوية، رفعت بصري تجاه الساعة كعادتي فوجدتها تشير إلى السادسة صباحًا، لا زلنا مبكرًا جدًا، لكن أين حنان؟ لماذا ليست نائمة بجانبي؟! تلفّتُ يمينًا ويسارًا فلم أجدها، نهضتُ من سَريري مذعورًا أبحثُ عنها في المنزل ولم أجد لها أثرا؟ أين ذهبتْ؟

غشاني القلق! هل غادرت لتشتري شيئاً أو لتشاهد شروق الشمس على البحر؟ خرجت حافيَّ القدمينِ استطلعُ المكان، فوجدت آثار قدميها الصغيرتين، وأناملها المرتبة قد حفرتا الرمال ببصمة رقيقة أعرفها جيدا، لقد مشت تجاه البحر، لكن أين هي؟ لماذا لا أراها؟ هل ذهبتْ للسباحة وحدها؟ مستحيل أن تفعل ذلك، ليست حتى ماهرة، وحتى لو كانت فلن تسبح بدوني، اقتفيتُ الأثر حتى اقتربت من البحر، فوجدت خطواتها تنقطع قبل شاطِئه بأمتار، هل غَسَل الزبدُ أثر قدميها؟ ربما! لكن البحر منبسطٌ أمامي ولا أرى أحدًا يسبح، حتى موجاته ذات الرغوة تمتد وتنسحب على الشاطئ كالستار بعيداً عن أثار الاقدام أين ذهبت إذًا؟

درت حولَ نَفسي أبحثُ عنها، وأنا أحمي بصري من بقعة الشمس، نظرت إلى السماء بلا هدف، كانت النوارس تصيح وتحوم بعصبية غير معتادةٍ منها، نظرتُ ببقعة البحر أسفَلها فانخلع قلبي، كان قميص نوم حنان الأبيض منتفخ، تنقلب به موجة من موجات البحر خلف نظيرتها، جنّ جنوني، وركضت مندفعاً لأمخر الماء الضحل ثم قفزت بالماء قفزة الافتتاح المقوسة، وغطست لثواني ثم صعدت إلى السطح أنزلق عائماً بمرونة، وبكل ما أوتيت من قوة محاولاً أدراكها، دقائق مرت وأنا أضرب الموج بذراعيّ، وأخترق بساطه بجسدي وأرفع رأسي لأستطلع مكانها وأبتلعُ نَفَساً عميقاً بفمي، ثم أدفنُ رأسي بالماء مرة أخرى وأمدُّ ذراعي بأقصى ما أستطيع حتى أُدرِكها، الثانية كانت فارقة بين الحياة و الموت.

وأدركتُها مستسلمة جسدها رخو وعينيها حمراوين، وصدرها ممتلئ بالماء فتفجّر صدري بالأنين، لم يمنعني من الجنون لحظتها إلّا محاولة إنقاذها، حملتها فوق ذراعيَ الأيسر حتى تطفو، وسبحت متأبطًا جذعها في مجاهدة حتى وصلت الشاطئ، فأرحت ظهرها على الرمال برفق فوق، وجثوت أمنحها قبلة الحياة، وأكررها مرات ومرات واضغط على صدرها بكلتي يدي، وأنا أنازع الألم والوجع، استيقظي أرجوكِ، لا تموتي، كانت بالنزع الأخير، عيناها متحجرتان، وروحها تنسحب من جسدها الذي صار كالثلج، أحسست كأن العمر يضيع بأكمله وأنا أراها تصارع الموت، ما أقسى أن ترى شريك قلبك على شفا الموت يعاني من أجل بضعة أنفاس، بكيت وصرخت وأنا أستجديها للاستفاقة، يا رب، لا تذهبي، أفيقي.

نفضتها مرارًا وتكرارًا ولا أمل، وبكيت بحرقة واستسلمت للألم، وصرخت، حنااااااااااااااااان، حنااااااااااااااان، لماذا تركتيني لمـ... وسعلتُ

تقيَّأت الماء وكأنها أعادتني أنا إلى الحياة، وأغلق الموت بابه في وجهي باللحظة الأخيرة.

قطعت صراخي ورأيت الحياة تنسحب منها مرة أخرى فانخلع قلبي، ثم عاودتها نوبة صحو بأنفاس متهدجة ضعيفة، فاطمئن قلبي، ثم سَعَلتْ ثانية فاطمئن قلبي أكثر، أفرغت ما بجوفها من ماء البحر التي ابتلعته فضغطت على صدرها لتخرج المزيد، وفتحتْ عينيها الملتهبتين، فرأتني أمامها أنظر إليها بمزيج من الفرحة والألم، وأنا أحتضن رأسها بين راحتيَّ في رفق وعيناي ترقصان من الفرحة فسألتني بحلق مختنق وهي تتفرس ملامحي: من أنت؟

كانت صدمة مفزعة لي، فأجبتها بلهفة وأنا أشير إلى صدري: أنا أحمد زوجك.

كانت واهنه، لكنها استنكرت بشدة: زوجي! هذا مستحيل، أنا لم أتزوج، أنا لازلت عذراء.

-عذراء!

-نعم ولا أعرفك.

-أنت حنان زوجتي كيف لا تعرفيني؟

- أنا لست حنان أنا سهام، أريد أمي، أريد أمي ليلى.

وهنا كانت الصدمة من نصيبي، واستيقظت مرتاعاً، على إثر ذلك الحلم الكئيب، انتفضت جالسًا وأنفاسي تتهدج والعرق يتصبب من جبهتي، رغم برودة الجو، حمدتُ الله أنه كان مجردَ حُلم، تحسست الفراش بجانبي فوجدته فارغا، ارتعت ثانية! نفضت الغطاء وقفزت من فوق السرير وجريت نحو الرواق لأبحث عن حنان، وبمجرد أن أصبحت أمامه وجدتها،

كانت تجلس بالبهو مرتدية قميص النوم الأبيض، وتتصفح جريدة الأخبار، وتحديدًا صفحة الحوادث، وحينما سمعتْ صوتي طوت الجريدة سريعًا، ورفعت بصرها ناحية الرواق ومنحتني ابتسامة مرتبكة قائلة: صباح الخير يا حبيبي.

استندتُ إلى درابزين الرواق أتمالك أعصابي وقلت: صباح النور يا حنان.

أسرعت تصعد الدرج ثم لثمتني على خدي وقالت: أعددت لك الإفطار.

كان الذهول يعتريني ولازال خدر النوم لم ينسحب لذلك منحتها ابتسامة جامدة وقلت: لا شكرا سأذهب لزيارة المنارة.

-منارة؟

-نعم منارة الإسكندرية.

لم تفهم مقصدي لكنّي لم أهتم وصعدت لأبّدل ملابسي وغادرت قاصدًا المكان الذي رأيت منارة الإسكندرية تستقر به في ذكريات بانتيوس.

الصباح كان باردًا مدخناً بالغيوم، والشحوبُ يكسو وجوه الناس، والمطر ينتظر المشيئة. استهلكت الطريق في نقض غزل أفكاري حول حنان، هل ما رأيته كان حلمًا أم شرودًا؟ الرعب يجتاحني خوفًا أن يكونَ ما رأيته هو واقع عشته أو مصير ينتظر الحدوث، ما يؤيد فكرة أنه واقع هو أنني عندما استيقظت كانت حنان ترتدي نفس قميص النوم الأبيض الذي انتشلتها به من الغرق، عقلي لا يقبل أبدًا أن ما يحدث هو محض مصادفة، ثم لماذا كانت تقرأ صفحة الحوادث بجريدة الأخبار، هل هي مصادفة أخرى؟ أم أنها تقصد إرباكي لهدف ما! أو ربما تتبعني وتراقبني لأن فضولها يحرق صبرها

ويدفعها للتفتيش ورائي؟ ستكون كارثة لو فتشت في حقيبتي بالدولاب ورأت الخبر الذي يعلن جريمتي المستقبلية في حقها. سأخفيه تماما حينما أعود.

وصل التاكسي بي إلى وجهتي فنزعت برقع أفكاري متبرجًا من كل ضلالاتي التي تكلست فوق عقلي طول الطريق. وبالطبع لم أجد المنارة التي غرقت منذ زمن. وكانت تعد من عجائب العالم القديمة لكنّي وجدت ما لا يقل شموخًا عنها. قلعة قايت باي. تلك الطابية الحصينة التي يحيطها البحر من ثلاثة جهات. ويغسلُ الموجُ نفسَهُ عندَ أقدامِ صخورها. أسوارها شاهقة الارتفاع أظنها تتجاوز السبعة عشر مترا. بينما عرض سورها يصل إلى ثلاثين متراً أو يزيد. بناء متين كالوتد أضلاعه متصلة بأربعة أبراج غليظة نصف دائرية ومحيط شرفاتها أكثر اتساعاً من محيط البرج. وترتفع لثلاثة أدوار في حين على قمة سورها تتدرج تحصينات دفاعية مع فتحات للجنود وشرفات لمراقبة السفن القادمة.

دخلتها وقطعت ممراتها الحجرية أتأمل قوة البناء ومدى عظمته. كانت تضج بالثبات والشموخ. تصلح لأن تكون مدينة صغيرة منيعة. دلفت إلى إحدى الحجرات وتطلعت من خلف نافذتها إلى البحر وبقيت جامداً على حالتي انتظر لحظة الشرود التي قد تأتي وقد لا تأتي.

وبمرور الوقت زاغت قضبان النافذة أمام عيني وأصبحت شفيفة مثل الزجاج. ورحلت بي أجنحة الذكريات محمولاً على صهوة الصداع إلى هناك. إلى سجن القلعة.

ثلاث ليالٍ مضت على زيارةِ ملينيا لي في السجن. سمِنَ فيها هلالُ القمرِ وأصبح مثل رغيف خبزٍ ناصع. ونضِجَ فيها الشغف بداخلي حتى اتقد.

التوتر يعصف بي والانتظار يغذي لهيبه المصطلي، فلم تبق إلّا ليلة واحده على حلول الموعد الذي حددته لفك أسرنا.

جلست منكمشًا في ركن زنزانتي أدفن رأسي بين رجليَّ محاولًا السيطرة على قدمي اليسرى التي كانت تهتز رغم عنها، وذلك حتى لا يرتاب الحرس في أمري، أتلهف لمغادرة هذا السجن الذي يعلّقُ رقبتي كل يوم على مشانقِ العبودية، لم أعد أطيق ظلامه ورطوبته، فلم يمس شعاع النور وجهي منذ أودعت به، كما أن الوقت أصبح بلا معنى وفَقَدَ تدفقه المعهود فلا صباح ولا مساء ولا شيء مختلف.

فهذه الجدران تُضيّقُ عليّ أنفاسي وتخنقني، وحجارتها تجثم على قلبي وتسحقه، ذلك القلب الذي طالما رشف أثير الحرية وحلّق في سمائها مع نسمات العمر الأولى، القلب الذي تعلم أن يمنح حياته كاملة بلا تردد ثمناً للحظة حرة، فالحرية عندي هي معنى وجودي، لقد أهانني ذلك الغادر ليس بسلطانة عليّ ولا بالجلد، ولكن حينما جرّدني من حريتي، فالقيود تستبيح روحي، وتمزق ما تبقى من كياني، زفرات الوجع سجينة بداخلي ودموعي مقيدة، حتى الصرخة تخرج من أضلعي خاضعة ذليلة، تعاني الكبت على حافة حلقي المشروخ، تباً لكل القيود التي تكبلني، وسحقاً لكل الهزائم التي مكّنت ذلك الماجن الفاسد من حريتي ونزعت مني فرصة أن أقتصَّ منه عِوضًا عن شرفي الذى انتهكه، فالحرية هي شرف المرء وعزه وكرامته.

اقتلعني من تربة أفكاري القاحلة صوت زمجرة وزئير عالٍ رج فناء السجن، جفلت، وقفزت من جلوسي قابضاً على قضبان الزنزانة أرهف سمعي لأتأكد مما سمعت، فاخترق أذنيّ صوت زئيرٍ جديد شق سكون الليل وزلزل أركاني، وتبعه ثالث ورابع، كانت زمرة من الأسود تجول بفناء السجن

الخلفي، هلعت، لقد كشف فيلوباتور عن نواياه وسيطعمنا لزمرة من أسودة الجائعة، وسيفعل ذلك الليلة.

كان التوقيت سيئًا وكفيلاً بتدمير كل شيء، الخطة كلها ستفشل، أسرعت أهيل التراب على المخطوطتين اللتين دفنتهما في ركن الزنزانة لأتأكد أن أحدًا لن يعثر عليهما، بينما اندفع الحرّاس يدخلون الممر المقابل للزنازين في طابور وأدار أحدهم عجلة فتح قضبان قفصي من الخارج، فارتفعت عن الأرض بصريرٍ عنيف، وصَنَعتْ قنطرة مرّواً منها إلى الداخل، وبمجرد أن دخلوا قيّدوا معصمي خَلْفَ ظهري بالحبال المفتولة الغليظة، وكمّموا فمي وفعلوا ذلك مع الأحد عشر فارساً والملك.

اقتادونا بعدها إلى الساحة الأمامية وأركعونا صفًا واحداً على ركبنا ومعاصِمنا مقيدةً خلف ظهورنا، كانت أول مرة يرى فيها بعضنا البعض منذ أودعنا فيلوباتور السجن، وكان كليومينس جاثيًا بجواري يبدو عليه الهزال والمرض ومثلي رثّ الثياب، ومن حالته عرفت أنهم لم يعاملوه معاملة الملوك فحزنت بشدة لكن ما خفف حزني هو أنني نظرت في عينيه فوجدت الإصرار يسكنهما، ولم يفقدا بريقهما بعد.

كانت ليلة باردة، هواءها ثقيل يخنقنا، وكنا نرتجف ونحن جاثين نولّي ظهورنا للحراس في انتظار الموت، رفعت بصري أتفرس السور شاهق الارتفاع غليظ الحجر والمضاءة جدرانه بالمشاعل وبدأ اليأس يدبّ في قلبي، أي محاولةٍ لاقتحام هذا السجن ستكونُ انتحارًا ولا شك.

ضجّ السكون بزئير ليث هائج وكأنه يتعجلهم لفتح الأبواب، ارتعدت فرائصي، ولم أعد أسمع إلّا صوتَ خفقات القلوب التي بلغت الحناجر واضطراب الأنفاس المرتعشة.

ثم بدأت الهمهمات ترتفع من الأفواه المكمَّمه مع ابتعاد وقع أقدام الجنود من خلفنا، كانوا ينسحبون، وارتفعت مع رحيلهم حدة الزمجرة واخترق مسامعنا وقع الزئير المرعب وكأن الأسود تزأر داخل آذاننا، التفتنا التفاته رجل واحد فرأينا قضبان القنطرة ترتفع عن الأرض في بطء وزمرة من الأُسُود تندفع منها باتجاهنا وهي تحفر الأرض بمخالبها وتثير رمال الفناء بزفير منخريها المشعرين، بينما اعتلى الحرس الجدران وتحلقوا حول سور الفناء وراحوا يضربون دروعهم بسيوفهم يحمسون الأسود ويتابعون الميدان بشغف ويصيحون ويضحكون.

انطلقنا نفِرّ في عشوائية ناحية الجدران، نحتمي بها ونحاول ارتقائها لكنها كانت شاهقة يستحيل اعتلائها أو حتى تسلقها، التصقت ظهور بعض الفرسان بالجدران في عجز، وانهارت الأعصاب ولم يعد أمامنا إلا المواجهة.

كان مارسياس هو أول من وصلته الزمرة، قفز على رقبته سبعٌ ضرغام وغرز نابيه بها وأسقطه على الأرض، وظل قابضاً بفكه على رقبة المسكين بعنفوان، ومارسياس يحاول رفسه بقدميه حتى ارتخى جسده وتشنج فقضم السبع رأسه وأطاح بها بعيداً ونهشه بأنيابه، كل هذا لمحته بطرف عيني وأنا أجري بكل ما تحتمل أقدامي المتهالكة من قوة ناحية الركن الأبعد، تاركاً زميلنا الأعرج هيبيتاس ينام على الأرض بجمود متصنعًا الموت في تصرف جرئ وأعصاب من فولاذ، وأحد الأسود يتشمم جسده بخطمه و يدور حوله بجنون ملعبًا ذيله، كل ما جال بخاطري وقتها هو أن اقتلعَ مشعّلا من أحد الجدران وفهم إيكاريوس زميلي بالخيّالة فكرتي من نظرة عيني، وكان أسرعنا فسبقني وانحني عند الركن مصوباً بصره تجاه الأسد الذي كان في طريقه إلينا ، قفزت فوق ظهره وطرت في الهواء وأنا أدور بجسدي وقبضت على المشعل بيدَيّ المقيدتين خلف ظهري وبأعجوبة

خلعته، وسقطت فوق إيكاريوس الذي انطلق يبتعد لتشتيت الأسد القادم، بينما دسست اللهب في الحبل الذي يقيد ذراعي خلف ظهري، وتحملّت نارة للحظات مرت كالدهر والموت يقترب مني في كل لمحة منها، وكانت كافية لوصول السبع إلينا، ألهبت النار رسغي، وتلظى جلدي فكتمت ألمي حتى تمزق الحبل ومزعته وأصبحت يداي حرتان فلوحت بالمشعل في وجه السبع في اللحظة التي كان فيها نابيه في اتجاههما لعضّي، ابتعد برأسه خوفاً من النار، وزأر مهددًا وعينه الشيطانية تتأجج بنيران الغضب وخطمه الغليظ يتجعد وشواربه تنتصب كالإبر، ولاذ بي بعدها إيكاريوس وكليومينس وهيبيتاس واثنين من الفرسان ولفّنا الرعب من كل مكان ونحن نرى الأسود قد نشبت مخالبها، وغرزت أنيابها في بقية الرجال المقيدين، وعضاتها تتوالي تنهش اللحم، وتكسر العظم وتمزق الأوصال، وصرخات الفرسان المكممين ترج الفناء وتشق الليل، وظلال الأسود تتراقص على جداران السجن تحت أضواء المشاعل لتبث الخوف في القلوب والحراس يشعلون الموقف ويواصلون طرق الدروع بالسيوف، وقرع السور بأقدامهم حتى تستمر المجزرة.

عيناي كانتا متعلقتان بعيني السبع الذهبيتين، واللتين كانتا تبرقين بالتهديد وهو يمدّ عنقه يزمجر ويلوح بذراعه في وجهي ناشباً برائنه محاولاً إسقاطي، كان يدرس الموقف.

وحسم أمره في ثواني معدودات وهجم، لكن ليس عليّ، بل على إيكاريوس، دار في لحظة و قبض على ساقه بفكه القاطع وجرّه برأسه الضخم إلى تحت قدميه، أطلق إيكاريوس صرخة مكتومة وهو يزحُف على حصى الميدان مجبرًا، لكن السبع لم يمهله، نهش بطنه بعضةٍ خاطفةٍ وقضي عليه، وانفلتُ أنا اهرب على حين غفلة من السبع، جريت عن يساره ودسست

شعلة النار في عُرفه الكثيف وأنا أواصل العدو مبتعداً كالريح، اشتعل عُرف السبع وقفز بالهواء وزئر ألمأ وتراجع عن إيكاريوس – لكن بعد أن كانت احشاء المسكين تندلق من بطنه -ثم طاردني، وكانت النهاية محسومه، كنت أجري ناحية عمق الميدان حيث يحتشد السباع، ولا فرصة واحدة لي في النجاة، لكن شيئاً مفاجئًا حدث، وكأن رسول الموت أبى أن يقطف عمري، هوى جسد أحدهم من السماء وارتطم بالرمال في عنفٍ مدوٍ -ومن بطنه يبرز رأس سهم- ليقطع طريق الأسد إليّ، ويحول بينه وبين افتراسي، تراجع السبع خوفًا من عنف السقطة، ثم عاد ليواصل هجومه على الجسد المسجي على الأرض، ومزّع رقبته بفكيه، كان جسد أحد حراس القصر، وانتهزت الفرصة وعدت أدراجي جريًا ناحية الركن مرةً ثانية حيث كان كليومينس وبقية الفرسان محاصرين هناك. تعجبت حينما رأيت الأسُود تركض بالاتجاه العكسي فرفعت رأسي أطالع السور حيث يتجمع الحراس فوجدتهم يتساقطون والرماح تشق الليل البهيم في اتجاهها لأجسادهم.

ساعتها فهمت، لقد وصلت ملينيا، لا أدري كيف عرفتْ بأمرنا لكنها جاءت ومعها فيلق من الرجال الأشداء، وكانوا يديرون حرباً من خارج جدران السجن ويمطرون الحرّاس بالسهام، وتواصل سقوط الحراس وهاج الميدان وماج، وانقضت الأسود تبقر بطون من تساقط منهم باعتبارهم الفرائس الأسهل، بينما لُذت أنا بالستةِ الباقين منا، نحتمي في ركن من أركان الساحة، وقد هالنا الأمر ونحن نرى سهام النار تشق الظلام بأقواس من الشهب، ثم تسقط بالداخل لتشتعل بالسجن، وقد التهب الموقف وأصبح الليل البهيم قطعة من جهنم، الدماء تتناثر من كل مكان، والسباع تلتهم الجثث والمعركة دائرة بالأعلى، نزعت عن الجميع كماماتهم وقيودهم،

واقتلعنا ثلاثة من المشاعل الأخرى، وحملناها لنحمي أنفسنا إذا ما ساءت الأمور.

وكان حراس السجن يقاتلون من فوق الجدران بنبالهم لكنهم كانوا يتساقطون كالذباب، وكأن من يقاتلهم مدعوم من الالهة، وحتى الحراس المحتمين بنوافذ الأبراج كانوا يسقطون من علٍ وفي بطونهم تستقر الحراب حتى ما تكد أجسادهم ترتطم بالأرض إلّا وتنفذ الحراب فيها أكثر لتحول دون النجاة.

فهمت لحظتها أن من يرشقهم محترف، ولم تمض دقائق حتى سمعنا المرتزقة يصيحون بالخارج وهم يدكّون الباب الخشبي العملاق للسجن بضربات قوية، وتمنيت لو أسرعوا قبل أن تفرُغ الأسود من جثث القتلى وتلتفت إلينا، لكني لاحظت أمرًا مريبًا، أحد الحراس كان يترك موقعه بسطح السجن ويتسلل منبطحًا في خفه باتجاه المنجنيق، في حين توجه آخر زاحفًا لمقالع الزيت التي تعتلي البوابة الضخمة. تأزم الموقف كثيراً، وكان يتحتم علينا أن نتدخل، خاصة أن ملينيا والمرتزقة في الخارج لا يعرفون ما يدبره الحراس بالداخل، اشتد عزمي ووقر في قلبي أن أتحرك وإلّا ستنقلب الأمور رأساً على عقب، ورأى الجميع ما رأيت ونظر بعضنا إلى بعض في حيرة، ماذا نصنع؟ لم يكن أمامنا إلّا أن نحصل على أحد الأسلحة التي تستقر مع الجثامين المتردية بمنتصف الميدان، لكن السباع تقفُ حائلاً بيننا وبين ذلك، ولم أكن أملك إلّا المشعل وهو ما يمنحني فرصة واحدة، أن أشعل حريقًا محدودًا يصرف السباع عن مكان الأسلحة ولو لثواني معدودة، نزعت قميصي الكتان وأشعلته وكذلك فعل ثلاثة من الفرسان، تركنا كليومينس وهيبيتاس وتحركنا بانتظام وفي حذر تجاه الأسُود، أعينهم

الزجاجية كانت تبرق خلف المشاعل التي نحملها لتبث الرعب في أوصالنا ونحن نقترب منهم في جرأة، لكنهم تراجعوا قليلا تفاديا للنار التي أشعلناها.

انتهزتُ الفرصة وسحبت رمحين لي من الفناء بحذر وأنا أعلق بصري بزمرة الأسود، ثم انسحبت وخلفي الفرسان بانتظام إلى البرج الجنوبي، اعتليت كتف أثنين منهم ورفعوني عاليا، وعبرت نافذة الطابق السفلي بالبرج، ثم صعدت الدرج الحجري الذي يقود إلى السطح، وانكشفت لي الخدعة بمجرد وصولي. كان أربعة من الحراس قد اضطجعوا على السطح لإيهام المقاتلين بالخارج أن السجن أصبح خالياً من الحراس لحين رشقهم بالمنجنيق والزيت المغلي، وانطلت خدعتهم بالفعل حيث توقف المرتزقة عن رشق السطح. رأوني مثلما رأيتهم، ولحق بي أثنين من فرساننا وأصبحنا ثلاثة في مواجهة أربعة، اعتدلوا وانطلقنا نحوهم واشتبكنا.

اتجهت نحو أغلظهم لأقاتله، شهر رمحه في وجهي، ونصبت رمحيَّ تجاهه، وانتظرته حتى يبدأ، وبالفعل أخذ وضع الاستعداد للهجوم ثم عاجلني بطعنة قاصدًا ثقب قلبي، ملت إلى اليسار وقاطعت بين الرمحين اللذين أحملهما في حركة مقصيه قبضت بها على رمحه ثم اقتلعته من يده وبينما كان رمحه يطير في الهواء، كان رمحي ينفذ من رقبته التي تصلبت فوراً، سريع أنا في النزال، مثل البرق الخاطف كانت هذه ميزة لي بين أقراني دائماً.

تحجرتْ عينا الحارس وسقط على وجهه، فركلته بقدمي ليتدحرج ويهوي من السطح ناحية الفناء وسمعت الأسود تنقض عليه.

بدأت السماء تنزّ بشح، وتوافدت قطرات المطر رويداً رويداً، واستمر المرتزقة في طرق البوابة من الخارج، وصارت القلعة ترتج وتتزلزل على إثر محاولات الاقتحام، والسباع تلتهم وجباتها بالفناء، تركت الفرسان

مشتبكين مع بقية الحراس وأسرعت أركض تجاه الحارس الذي كان يُشغِل المنجنيق، لكني كنت قد تأخرت، وانطلقت بالفعل كرات الحجارة تشق السماء وتسقط بالخارج، سمعت صراخًا وانخلع قلبي خوفاً أن تكون ملينيا قد أصيبت بسوء، تسلقت الجدار القصير والفاصل بين السطح والبرج الشمالي، وأصبحت أمام الحارس فتفاجئ بوجودي ولم أمهله فرصة للاشتباك عاجلته برمحي في صدره فاخترقه ونفذ من ظهره، ثم نزعته منه بعد أن أرديته قتيلا، والتقطت سيفه وقطعت به وتر المنجنيق لأتخلص منه تماماً، ومن مكاني وعن بعد رأيت الحارس الآخر يجهّز المقلاع لصب جرّات الزيت المغلي على رؤوس المرتزقة بالخارج، وعرفت أن رميةَ الرمح لن تصيبه من هذه المسافة.

التقطت من السطح قوساً وسهمًا، ثبتُ ريشات السهم بالوتر وشددته عن آخره بطول ذراعي، وجهته ناحية الحارس -الذي كان في مرماي بوضوح-ثم حررته. تردد حفيف وتر القوس بعنف، وكما الريح، انطلق السهم ليشق طريقه ممزقاً خيوط المطر، وليصيب هدفه وينغرس بمنتصف ظهر الحارس الذي تأوه وزلّت قدمه وسقط من فوق السور هاوياً خارج بوابة القصر.

ازداد عزم المقتحمين، وكثّفوا ضربهم للباب، وعدت أدراجي لأجد فرساننا قد جَنْدلوا كل الحراس فجمعتهم ونزلنا إلى الفناء لنزود عن البقية وتجمعنا في الركن، ولم تمض عِدّة دقائق حتى اقتٌحمت البوابة بجذع شجرة، وانفرجت على مصراعيها، وعَبَرتها خيولُ المرتزقة ومن بينهم لمحتٌ ملينيا كالبدر في تمامه، تحث فرسها على الإسراع نحوي ورأيت الحراب ترمي ناحية الأسود التي تراجعت وهي تخمش الهواء مهددة الغرباء الذي يقطعون طريق وليمتها، بينما برقت عيون الخيول السوداء خوفًا منهم، لكن

الفرسان طعنوا بعض الأسود فابتعد بقيتهم يفسحون الطريق، وهم يجرّون فرائسهم تحت أقدامهم، وقبل أن أغرق في دهشتي، لمحت زهرتي تتقدم الفرسان بشجاعة في طريقها لي، ولمّا وصلتْ مدّتْ لي كفّها، كنتُ مثل موجة بلا مرفأ حتى رأيت أناملها المنبسطة، وأخيراً التقينا على نسمة حرية من جديد، قالت بأنفاس متقطعة لاهثة: حبيبي هيا بنا.

وجدتني أسالها في اندهاش وأنا أتأملها متناسيًا كل ما حولنا: كيف عرفتي بما سيحدث لنا الليلة؟

-رشوت أحد الحراس لإبلاغي بما يستجد بشأنكم يا حبيبي. قالتها واستعجلتني ملوّحة بكفها: هيا بنا أسرع.

أفقت من دهشتي، ورأيت المرتزقة يحملون الملك وبقية الفرسان على الخيول، ثم عدت اتأملها وكأنني لم أذق لحظة مُرّة في حياتي أبدا، عانقت كفها واعتليت صهوة الفرس خلفها وقلت: أحبك يا ملينيا.

ضحكت بغنج قائلة: إذًا فلتضمني بكل ما تملك من قوة.

-طوقتها حتى غاصت داخل صدري فضحكت ولكزت الفرس بقدمها ليرحل، ملينيا صوتها هو معين الجنة الذي يبحر في دمائي فتعاودني كل رغباتي في الحياة، خرجنا من بوابة السجن نحمل مشاعلنا، فوجدنا قطيعًا من الخيول يتنظر بالخارج، اعتلى كل منّا فرسه، وانسحب المرتزقة بعد أن أدوا مهمتهم، وسلموا كل فارس منا خنجراً، لكن الملك كليومينس رفض الهرب، كانت لدية خطة أخرى مفاجئة، وخطيرة، صاح فينا وهو يدور بفرسة ملهبًا حماسنا: يا فرسان إسبرطة، الكفاح مازال مستمرا، الإسبرطي لا ينسحب فالانسحاب عار، سنكمل رحلتنا، وسنحمل الناس والجموع على الثورة

ضد فيلوباتور وندعو الأهالي للتظاهر ضده، وسيتحيز إلينا جنودنا المرتزقة.

وقرَ بقلبي أن الخطة ستفشل، فليس لدينا رصيدًا كافيًا في قلوب الناس هنا، نعم عشنا بينهم شهوراً عاملونا فيها معاملة الأبطال، إلّا أننا نظل غرباء عنهم، بيْدَ أنّ طاعة الملك واجبة، ولا مناص، ولذلك امتثلنا على الفور، وبادر هيبيتاس –والذي نجا من الأُسُود رغم عرجه-يخطب في الناس كعادته وتبعناه نهتف في المارّة، وندعوهم للثورة على طغيان فيلوباتور، لكنهم أحبطونا، لم يعنونا اهتماماً، بل اتهمونا بالجنون وطار خبر هروبنا كل مطار، وبلّغهُ كشّافَة فيلوباتور للقصر، والذي من فورهِ أرسلَ خلفنا فيلقًا من أشد جنود القصر لإعادتنا.

خطتنا كانت فاشلة، وكان عزمُ أهل البلادِ ضعيفًا، خاضعين في استكانة وخنوع، خاصةً هؤلاء التجّار الذين عارضونا من أجلِ مصالِحهم وأغلقوا أغلب حوانيت السوق وطردوا رسلنا.

أضعنا من الوقت الكثير، نحاولُ حَشْدَ الناس للثورة ولا فائدة، حتى فات أوانَ هروبِنا، ووصل فيلق جنود فيلوباتور، وحاصرونا من كل المداخل والمخارج، أصبح هروبنا شبه مستحيلًا، بعد أن طوّقتنا أسنةُ الرماحِ من كل الطرقات والأزقّة وزمجر الجنود وهم يطلقون صيحات الانقضاض، لكنهم ونظراً لسمعتنا وقدراتنا القتالية أخرّوا هجومهم قليلاً حتى نستسلم كي لا تتضاعف الخسائر، إلّا أنها أيضًا كانت مسألة وقت.

لم يحتمل كليومينس أن تُهان كرامته بهذا الشكل، الفشل يلازمه، والهزائم تبسط أذرع الخيبات نحوه، وكأنها خلقت من أجله بعد أن كان اسمه ملازماً للنصر.

قبضَ على مِقوَد حصانه ونزل من على ظهره، ووقف مطرق الرأس كسير النفس، وانتزع خنجره من غمده وتبعه بقية الفرسان وتحلّقوا حوله، هممت بالنزول عن جوادي لألحق بهم لكنّي تراجعتُ باللحظة الأخيرة. لو نزلت ستقتل ملينيا، وهي لا ذنَبَ لها في كل ما يجري، رأيت عينيها حائرتين، كانت لا تفهم ما يحدث، أنا وحدي فهمت، طأطأت رأسي في لحظة خشوع وسكنت.

وتحت ظلمة السماء الكئيبة، شحيحة المطر، قاسية الرعد، وبين لفحات الهواء الثقيل، والبرد القارس، وفوق الثرى المحروث بحوافر الخيل، المصبوغ بالوحل، ووسط قلوب مزقها الوجع وآلمتها المهانة، طعن الفرسان بعضهم بعضاً بثبات وتساقطوا في مشهد مؤثر اشرأبت له أعناق المتابعين في ذهول، وأدمى قلبي حتى بكيت.

ولأن الوجع لا يكتف منك إلّا بعدما يعض كبدك، ويفطر فؤادك، فقد غارت عينا الملك وخرّ على ركبتيه جاثياً، وأحنى رأسه في استسلام مقهور، ثم أغمد الخنجر بكلتا يديه وعن آخره في قلبه، وترنح وسقط والدم يتدفق من فمه.

فاض دمعي بعد أن نفذت طعنة الوجع الباردة إلى أوصالي، وأنا أرى جثامين الفرسان والملك مضطجعة هنا وهناك هامدة بلا حراك، بعد أن فضلوا كرامة الموت على حياة الذل، وانتحروا جميعاً مثل أي فارس إسبرطي مهزوم.

الكل تجمّد في مكانه يتابع ذلك المشد الحزين، الأنس والجن، الطير والحيوان، حتى المطر توقف عن رشق الأرض لثواني مرت كألف عام، وساد الصمت حتى لم نعد نسمع إلا شهيق الأنفس وزفير الليل، وقبل أن نستفيق

جميعًا من الصدمة، استغلت ملينيا الجمود المحيط، وضربت أظهر الخيول التي ترجل عنها فرساننا الصرعي واحداً تلو الآخر فاندفعت تركض ناحية الزقاق المليء بجنود فيلوباتور صانعة فوضى شديدة، وكان ما فعلته بمثابة طوق النجاة، انتبهت لخطتها، وألقيت بأحد المشاعل على كومة قش فاشتعلت خلف الأحصنة صانعة حاجزين عازلين بيننا وبين الجنود، بعدها أشارت ملينيا إلى حانة مغلقة لبيع النبيذ، واندفعت نحوها واقتحمتها بفرسها محلقة فوق الأواني، وتبعتُها وفعلتُ المثل فاكتشفت أن للحانة مخرجا خلفيًا، ومن حسن الطالع أنه لا يمكن أن يتبعنا إليه إلّا الجنود الذين كانوا يحاصرون المدخل الجنوبي الغربي، وكانوا اثنين فقط وطاردونا.

أفقت على صوت المطر الذي كانت سياطه الفضية تضرب جسد القلعة من كل مكان، وأيضًا صوت هدير الموج وهو ينخر صخورها برذاذه، أنفاسي كانت متقطعة وصدري يتهدج، وكأنني خُضت غمار ما حدث بجسدي بالفعل، احتجت إلى عشرة دقائق كاملة أو يزيد لكي اتماسك وتنتظم أنفاسي، ما رأيته كان قاسيًا وحزينًا أوجعني وكأنني بانتيوس بلحمه ودمه، وكأن كليومينس هو صديق عمري، الإحساس بالعاطفة كان يتدفق من خلاياي مريبًا، ويواصل زرعه للشكوك بداخلي حول هويتي؟ كيف أحزن هكذا على رجل مات منذ دهر كامل، أم هو تأثر فطري برؤية رجل يموت؟ ولم أنتظر الإجابة كعادتي لأنني أعرف أنها لن تأتي، وغادرت القلعة إلى وجهتي الجديدة، القاهرة.

* * *

(نزيه شوقي)

وصلت محطة قطار سيدي جابر عند العاشرة والنصف صباحاً، وقطعت تذكرة السفر ثم جلست إلى مقعد خشبي قاسي انتظر موعد الإقلاع، الأجواء كانت باردة والمسافرون متدثرين بالمعاطف والملابس الصوفيّة، الباعة الجائلون منتشرون بكل مكان، يبيعون المعجنات والعصائر يدوية الصنع، بينما رائحة الفلافل المقليّة تجوب المحطة وتقطعها من شرقها لغربها، والضباب يعبئ الأجواء، لكن أكثر ما لفت انتباهي كان ساقي العرقسوس الذي كان يحمل قُلّةً زجاجيةً كبيرةً وتصطك صاجاته معلنَة للزبائن عن بضاعة ندية تتدلل للمشترين في هذا الجو البرد.

كان مرآه يستجلب شرودي بشراهة ولا أعرف لماذا؟ لدرجة أن عينيّ غارتا فجأة وتكررت صورة الرجل أمامي في ثوانٍ عدة حتى أصبحتُ أري العديد من النسخ منه تدور خلف بعضها البعض، ثم راحت صورته تشحب حتى تلاشت واختفى المشهد كله من أمامي ليحل محله مشهد آخر وأجدني أخرج من منزلي متجها إلى دكاني في الصباح تلازمني حالة شرود تسبب بها تعلق تفكيري بالسرداب والوثائق وعرض الشراكة الذي قدمه لي عميت، بالإضافة لنصيحة موريس.

كان بداخلي سؤال هام يلاحقني، هل يمكن أن تكون تلك هي فرصة عمري التي انتظرها لأجد مكاني بين لائحة أثرياء القُطر؟ هل سأترك هذا العالم إلى حياةٍ أخرى مليئة بالثراء، هل سأشارك يومًا ما فيتوريو جيانوتي أو حتى

روبير رولو وموريس موصيري! لازلت لا أصدق أنني قد أصبح واحدا من هؤلاء، يا له من حلم!

وصلت سوق الذهب بشارع فرنسا، وجلت بعيني أتأمل الباعة الجائلين وبائعات الزبد والطيور واللواتي اصطففن بأقفاصهن على جانبي الطريق عند مدخل السوق، وحولهن ماسحوا الأحذية جالسين ينظفون نعالَ الزبائن ويدهنونها بالأصباغ، وبجوارهم حدّاد السكاكين يكد في عمله مرتديًا سرواله المنتفخ ذا الحجر الساقط حتى ركبتيه، ويضرب برجله الحافية بدّال عجلته فيدور معها سيرّ الصنفرة ويحدّ الشفرات، ناثرًا شذرات من حوافها.

أهملتهم وتقدمت حتى حاصرتني دكاكين الموبيليا المعبّأة برائحة الدهانات وبجوارها دكاكين المانيفاتورة التي يديرها أقراني، وفوق رأسي تتدلى أقمشة الحرير والديباج، وأيضًا الفوانيس، ناثرة خليطًا مميزًا من روائح المنسوجات الجديدة والبخور، ويضج أذني بصيحات البائعين والمنادين غير مفهومة المعنى للفت أنظار رواد السوق.

دخلت سوق المغاربة و غبت داخل زنقة الستّات، وتمشيت قليلاً أمر بين طليعة الزبائن المتنوعة بين الأفندية، الذين يرتدون البنطالون والقميص والطربوش، وبين أولاد البلد ذوي القميص الواسع مقوّس الصدر، ومن تحته تبرز الصدريّة البلدية اللامعة، وفوق رؤوسهم تلتف العمائم حول الطواقي، وحتى النساء اللواتي تنوعن بين أولاد الذوات بملابسهن متعددة القطع وبين بنات البلد بملاياتهن اللف المثيرة، والتي تُبرز حناياهن بجمال، عبرت بجوار دكاكين الصّاغة، حينما كان الباعة يفتحون أبوابها الخشبية وعلى وجهوهم تحوم بقايا آثار باهتة للنوم، وهم يرشون الماء ويضعون الكراسي الخوص أمامها و يصيحون : يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم،

أصبحنا وأصبح الملك لله، ويساندهم في الدعاء ذلك الدرويش ذو اللحية الكثيفة فاحمة السواد، والمتسربل في العباءة البيضاء والقلنسوة المغربية الحمراء، ويدور بالمبخرة حول أصحاب الدكاكين يُعطرهم ويعطر الملابس والبضائع، ويجمع التبرعات لأهالي الحضرة وذوي الخطوة بنشاط وحيوية، حتى ساقي العرقسوس جاء مبكراً يحمل قربته النديّة المعلّقة بها أكواب الشراب والتي لازالت لم تخسر قطرة واحدة بعد، ويضرب صاجاتها ببعضها البعض رغم أننا لا زلنا بالبكور، لكنه ربما توقع أن الزحام سيدفع رواد السوق والبائعين للنهل من عصيرة مبكراً.

دخلت إلى دكاني فوجدت كميل قد بدأ العمل بنشاط، وكان يراقبني بريبة وبلاهة من يدعي العبط، أعذره بالطبع، فبخلاف تغيبي وتأخيري عن الدكان وأحوالي المريبة بالفترة الماضية، ليلة أمس كانت أول مرّة أتغيب عن محاسبته أيضًا، وهو ما أشعل نيران الشغف في قلبه لطرح عشراتِ الأسئلة، لكني قطعت عليه الطريق وأخبرته أنني كنت مريضا، وبالطبع لم يصدق، لكن لا يهم، قريباً سأغادر كل هذا العالم المتدني لأعيش حياة آخري في عالم أخر، عالم مسحور وملئ بالمتع والملذات، لن أشم بعد اليوم إلا رائحة المال ولن أرى فيها هذا الكميل ولا عمال السوق الفقراء.

الشيء الوحيد الذي ينغص عليّ حُلمي هو عميت، فكرة اقتسام محتويات السرداب كريهة ومزعجة، لماذا لا يحصل ذلك النذل على مبلغ صغير نظير مجهوداته في التنقيب، حتى هذا أراه كثيرا! وددت لو جدعت أنفه ذلك الملعون. نفضت رأسي محاولاً التركيز للوصول إلى الحل الأسمى، ومع الوقت اختمرت فكرتي واتخذت قراري النهائي بمشاركة عميت الأفطس، وما المانع؟ سألجأ لغيره في كل الأحوال.

اخترق أذني نفير متواصل ضَجت به المحطة، كانت عربة القطار الرئيسية تدور على القضبان عكس طريق المقطورات لتأتيها من الأمام وتقطرها، وبالفعل تم شبكها سريعًا وخلال عشرة دقائق كنا نستقل القطار الذي زمجر وهو يغلق أبوابه وغادر رصيفة إلى القاهرة.

عدت إلى كمال رشدي الصحفي بجريدة الأخبار ودُهش الرجل حينما رآني أقف أمامه ثانية، بل و أوجهُ له سؤالاً مباشرًا ودون أية مقدمات: هل أنت متأكد من اسم الضابط؟

رد بطريقة مباشرة أيضًا: بالتأكيد يا أستاذ أحمد وعموماً سأريح بالك، وقص ورقة ودون عليها عدة أرقام بالأحمر ومررها لي.

-ما هذا؟ سألته.

-هذا رقم ملف القضية.

تعجبت من رد فعله فعدت أسأله: تتذكر قضية منذ عشرين سنة؟

-بالطبع، هذه كانت أول قضية تحرر باسمي تحت توقيع "كتب" ونلت عليها مكافأة كبيرة يا سيد أحمد.

غادرته بعد حصولي على رقم ملف القضية، وارتاح قلبي قليلاً بعد أن أصبح في إمكاني أن استخرجها من قسم الملفات وبسهولة.

ركبت قطار العودة، وقضيت ساعات السفر أنظر من نافذته القديمة أتأمل ملامح الطريق، الجو رمادي كالح، والبيوت تهرول أمامي بشغف، الأرض تطوى مثل الصحائف المتيبسة والخطوط الحادة تتموه، بينما الحقول الخضراء والأشجار تتبعنا كأنها تسافر معنا. لماذا تسبقني ذاكرتي دائما وكأنها تصرّ على أن ترحل دوني. أطاردها بحثًا عن مكان لي بداخلها ولا

أجد، تماماً مثل ذلك الرجل الذي رأيته يطارد القطار بعد أنه فاته، رحل وخذله مثلماً تفعل ذاكرتي في كل محطات حياتي. في قانون الفيزياء، الأجسام تكتسب سرعتها من سرعة الأجسام الحاملة لها، فلماذا تخالف سرعة ذاكرتي كل قوانين الطبيعة ولا تتوافق مع جسدي، تسبقه دائماً حتى لا يلحق بها أبدا، تقف متلكئة حتى إذا ظن أنه مدركها، هربت كالريح وهي تخرج لسانها له قائلة: لن تعرف ما بداخلي أبدًا أيها المتشرد، تخدعني وتغافلني مثلما يفعل النوم بذلك الراكب الجالس أمامي، يترنح رأسه بين غفوةٍ وأخرى، لابد أن هناك محطة وصول ستجمعني بها يوماً ما، وآمل بالطبع ألاّ تكون تلك المحطة هي رصيف الموت.

قطع شرودي صوت صرير عجلات القطار، كانت مكابحه تجبره على الوقوف وهو ينفض رأسه في عناد معتاد، لكنه بالنهاية انصاع وتوقف مع قليل من التململ والزفير الغاضب، انتزعت نفسي من بين أضلع الكرسي وانتظرت حتى انفتحت الأبواب وهبطتُ منها سريعًا متجهاً إلى مديرية أمن الإسكندرية وتحديداً قسم الملفات، وهناك حصلت على نسخة من ملف القضية باعتباري ابن الجاني والمجني عليها أيضًا، بالإضافة لمقابل مادي مجزي منحتهُ للموظف لكي يتذكر أين وضع الملف.

وبالأخير استقر الملف بين يدي وقرأته بتمعن في طريق عودتي إلى المنزل، وكانت فجيعتي مضاعفة، فبخلاف احتواء الملف على صورة أبي مضرجاً في دمائه، كانت أمي بجواره مضطجعة على الارض وملامحها غارقة في الدماء.

والأدهى أن الجثتين كانتا راقدتين في البهو، تحت أقدام تمثال قرد البابون، لكن بداخلي حدس يؤكد لي ما قاله الطبيب الشرعي عن أن الجثتين نقلتا من مكان مجهول إلى البهو، طاف بمخيلتي مشهدٌ افتراضيٌ لوالدي ووالدتي

مستلقيين داخل القبو وبجوارهما تقف الماكينة النحاسية في جمود، مثل شيطان فعل فعلته ثم ادعى البراءة.

أما التحقيق فبرغم أنه كان مطولاً إلّا أنه لم يحمل لي الجديد، فقط يدور حول أن الزوجَ قَتَل زوجتَهُ عند السابعةِ والنصف مساءًا دون سبب واضح، ثم انتحر بنفس سلاح الجريمة، وانهما انتقلا إلى المنزل منذ فترة قصيرة بعد تنازل الصائغ المهاجر موريس سمعان للزوج عن ملكية العقار، والأكثر غموضًا بالطبع كانت تلك الاستمارة الملحقة بالملف، والتي تشير إلى فقدان سلاح الجريمة من المستودع، لماذا تمت سرقة سلاح الجريمة؟، ولمصلحة من؟ الوحيد الذي يمكنه إجابه هذا السؤال هو ذلك الشبح المسمى نزيه شوقي.

رجعت إلى المنزل ملهوفًا ودخلت مباشرة إلى القبو حيث تستقر الماكينة منتصبة كالصنم، لازلت أصرّ على أن تلك الشيطانة شاهدٌ أخرس على كل ما جري، وددت لو انتزعت من اسطواناتها اعترافاً جبريًا لأنهي معاناتي، لكني تراجعت، فربما كانت تخشى البوح لسبب ما، وتكتم شهادتها بقلب آثم، لأن العدالة تقتضي ذلك، رفعت صورةَ أبي وأمي القتلى، وصوبت بصري ناحية الماكينة طالبًا مجيئه، كانت أول مرة أطلب الصداع باختياري الحرّ، ورغبتي الأكيدة، وانتظرته كثيرًا ولم يأتي، راوغني حتى نضج الشغف بداخلي، ومرّ الوقت حتى ارتفع الشك في قدومه ليحاصر سماء أفكاري، حينها جاء، استدعته ذكرياتي جرًا كمارد كسول يجبره ساحر سفلي على الحضور، ولذلك أتى مفترسًا، نشب أنيابه برأسي التي ضجّت من شدة الألم، فصرختُ مستغيثا من عضته، وأنا أعتصر قبضتي محاولاً تحمل وجعه، كان صداعاً لا يرحم بمعنى الكلمة، طاقته أدارت الماكينة، أو هكذا

توهمت، لكن شدة الوجع أخبرتني أنني أحفر داخل عمقٍ بعيدٍ من ذاكرتي، عمقٌ لم أصل إليه من قبل.

-أمي ي ي ي ي

قلتها وأنا أسير داخل نفق مظلم، أستند إلى جدرانه براحتي الصغيرتين، كان باردٌ كالثلج، وكنتُ خائفًا بدني يرتعش، أرتدى منامة رقيقة، وأحاول اختراق الظلام بعينين تبرقين عن آخرهما ذعرًا، أخوض في دهليز المستودع بخطوات صغيرة وبقدمين حافيتين، حتى وصلت إلى بابها، فتعلقت بالسلم وهبطت منه بصعوبةٍ ولامست الأرض، ورأيت أمي تقف أمام الماكينة مديرةً ظهرها لي، شعرها كان يتطاير ومنامتها ترفرف كأن الهواء يمر منها، ناديتها بنشيج متهدج: أميبي أنا خائف، استدارت نحوي بحدة ورأيت ملامحها، وصرخْتُ، صرخْتُ مرتعباً حتى ضج النفق بصراخي، وعاد بي الصراخ إلى حيث كنت، آه، لا أدري لماذا يتمسك الصداع بصداقتي لهذا الحد يسكن رأسي وكأنه وجد بها ملاذه الأخير.

لم تصحبني الذكريات إلى حيث أردت أنا، بل إلى حيث رغبت هي، من رأيتها لم تكن أمي، بل كانت صاحبة النظرة الحقود، والملامح الشرسة، زوجة موريس، للمرة الثانية أراها في ذكرياتي!! لماذا تصرُّ تلك المرأة على أن تحلَّ محل أمي؟ ما الذي يجمع بينهما؟ صَعدتُ منهكًا إلى غرفة نومي، وفتحتها فأدركتُ حنان تدس شيئاً بأحد الأدراج، ويبدو أنه كان سريًا لدرجة كبيرة جعلتها ترتبك وكلماتها تتلعثم وهي ترحب بقدومي: حمد لله على سلامتك يا أحمد، هل كانت رحلتك موفقه؟

قالتها وهي تخلع عني معطفي المبتل وتعلقه على مشجبه الخاص بالدولاب، بينما أنا معلق بصري بالدُرَج الذي دست فيه سرُّها، يبدو أن لديها ما

تحرصُ على اخفائه، انعقد لساني ولم أرد، فأردفت: لابد أنك مرهقٌ من السفر، سأعُد لك ملابسك بالحمام.

أومأت لها برأسي موافقًا، والشك يبث سمه بأوصالي، وهكذا هو دائمًا، خبيث، إذا حط برحاله فوق رابية قلب لا يتركها حتى تحترق، ولا يرحل عنها إلّا حينما يخمده سيل اليقين.

انتظرت حتى نامت، وقاومت فضولي في فتح الدرج، لكنّ الصراع حُسِمَ سريعا، وفتحته لأجد بداخله دفترًا صغيرًا، تصفحته فإذا به يحمل مفاجأة.

كانت مذكرات حنان، وكان تاريخها يبدأ من اليوم الذي أفقتُ فيه على صوتها عند تلك الآلة العجيبة حينما فقدت ذاكرتي.

رحت أقرأ سطوره بنهم وكانت مثل مقتطفات:

١٢-يناير: "لا أدري ماذا أصاب أحمد، اختفي لساعات ثم عاد وهو لا يعرفني بل يسألني من أنا؟ كم كان قاسياً على نفسي أن أذكِرّهُ بأنني زوجته لكنه زاد وجعي وأنكرني، لا لم يكن يمزح، فالحيرة كانت بادية في عينيه"

١٣-يناير: " ماذا أصابه لا أدري، دائماً شارد الذهن يعلق بصره بأشياء دون أن يخفق له رمشًا، حاضر بجسده وغائب بعقله، والأقسى أنه يناديني باسم امرأة أخرى تدعى ملينيا وحين أسأله هل كان يعرفها في ألمانيا ينكر تماما، الغيرة تقتلني، من هي تلك المرأة؟ وإذا كان يحبها لماذا تزوجني؟"

١٤-يناير:" يحيط نفسه بالغموض ويتعمّد إقصائي، أشعر بوجع شديد كأن يدًا تقبض على قلبي وتحاول أن تنزعه من مكمنه، لقد بدأت أفقده."

١٦-يناير: "يخرج كل يوم من الصباح ويعود في المساء مرهقًا لينام دون أن أعرف أين ذهب وماذا فعل! أشعر بوحدة شديدة هنا."

١٨-يناير: "ملامحه أحيانًا تتغير كفصول العام وتعكس الاضطرام الذي يستعر بداخله، ورغم أنه ينام قليلاً إلا أن نومه مكتظ بالكوابيس "

١٩-يناير: " أصبحت أخاف المنزل، رأيت اليوم شبحًا بالقبو، لازلت أنتفض كلما مررت بجوار البيانو.

٢٠-يناير: "أشعر بالعجز لأنني لا أستطيع أن أساعد أحمد، ولكن هو السبب هو من ينسى وجودي، بل يطلب مني أن أتركه وحده بالمنزل وأغادر لتزداد حالته سوءا، مستحيل أن أتخلى عنه في محنته."

٢٢-يناير: "أخشى ما أخشاه يومًا أن يظل هكذا وينساني إلى الأبد، ما أشد ذلك العذاب، نقتسم نفس العمر وكلانا سابح في ضياعه لقد صارت حياتنا أقرب لجحيم مقيم وأصبحت أنا شريدة أطارد أوهام لا أعرفها لكي أخلص حبيبي منها وهو يطارد طواحين الهواء مثل دون كيشوت."

٢٣-يناير: "ما يعذبني أن أحمد هو كل ثروتي من الحياة وأنا أفقده، يضيع من يدي مثل حفنة ماء هاربة من كفّي طفلٍ مرتعش. "

٢٤-يناير: "يهتم بأخبار الحوادث، صرت أخافه. "

أغلقتُ الدفتر وأعدتُهُ إلى مكانه برفق، وعلى نفس وضعه السابق، بينما عيناي تراقبان حنان بنظرة تفقّد وهي تتململ في نومها، قمت وجلست إلى الكرسي الهزاز وبدأت أقلبُ أفكاري علّها تنضج وتستوي من كل الجوانب، كيف أسبب لها كل هذا العناء، يبدو أنني أجرحها كثيرًا دون أن أنتبه لذلك.

بدأت خطوط الزمن في التداخل أمام عيني، لكنّي هذه المرة لم أغادر إلى زمن آخر بل أصبحت عالقاً في لحظة سكوت، اختراق حنان لحاضري أحدث مزيداً من الثقوب في جدار ذاكرتي المشروخ بعشرات الأحداث

الغامضة، لكنه بذات الوقت نبهني إلى شيء هام، وهو أنني في خضم تمسكي بماضيَّ أخسر حاضري، أصرُ على سجنِ نفسي في لحظة من التيه أصلب فيها ذاكرتي على عقارب الزمن، وأحاسبها على خطيئة النسيان، ظانًا أن دوائي في استدعاء مزيدا من الماضي، فأُحرقُ حاضري وقودا لجر قطاره، ويضيع العمر ولا يأتي. أتمنى أن تنتهي هذه المهزلة غدًا بعد أن نعقد جلسة التنويم، لابد أن أهزم ذلك الشيء الذي يقف حائلا بيني وبين استعادة ذكرياتي المفقودة حتى لو كنت سأحفر إلى الطبقة السابعة من باطني المتكدس وحتى لو كان ذلك الحفر سيؤدي إلى انفجاري الكبير الذي سيتشكل بعده كوني الجديد، المهم ألا أظل عدمًا.

* * *

(٢٧- يناير- ١٩٧٧)

في الصباح احتدّ النقاش بيني وبين حنان، أصرّت على حضور الجلسة الثانية بلا أدنى استعداد للتراجع، وحاولت إثنائها عن ذلك بكل الآراء المقنعة، لكنها كانت مثل طفلة عنيدة يحاول أهلها منعها من رحلة مدرسية، وحسمت حوارنا بكلمة واحدة قالتها لي بعفوية وإصرار جعلني أنصاع لرغبتها وفورًا.

-لقد وعدتني.

لم يكن أمامي إلاّ أن أوْفِ بوعدي لها خاصّة أن إصرارها يرجع لاقتناع شخصي منها بأنني سأستعيد ذاكرتي بذات المكان الذي فقدته فيها، هناك عند الماكينة، وبالطبع حين استعيد ذاكرتي سأتذكر زواجنا وأتذكرها وهذا كل ما يشغلها كأنثى يوجعها نسيان زوجها لها، ولذلك استجبت لطلبها لأن معارضتي الدائمة لها كانت ستؤكد فكرة أنني أحاول طردها من حياتي والتي عبرّت عنها بين سطور مذكراتها التي قرأتها ليلة أمس.

راجعت الصحف كعادتي، واستطلعت الجو بالخارج فوجدته صحوًا والشمس بيضاء شعاعها ناعم، تشجّعتُ وخرجت إلى البحر استهلك ما تبقى من النهار أمامه طلبًا لتنقية ذهني من الشوائب العالقة به، افترشت رماله الطريّة، وأنا أضم قدميّ إلى صدري وأشاهد امتزاجه بالسماء. البحر لازال على قيد الحياة، ينبض ويتنفس، يشهق بالجزر ويزفر بالمد، باطنة فيه الرحمة وظاهره تغشاه الفورة، سألته: متى تعترف؟ متى تبوح بالسر؟

وكعادته تجاهلني ولم يرد، تَصنّع الانشغال بالنوارس التي كانت تمتطي ريحه البارد، وتثقب بساطه بمناقيرها وكأنه لا يراني ولا يسمعني.

لازال يعاملني كأنني غريب عنه، رغم أنه يسبح في دمي، تحتاج نفسي دائماً إليه ليستقرّ اضطرابها، ويحتاج هو إلى أعماقي ليطفئ ثورته، جذوري تنبت من منتهاه، ويدرك أنني من سلالته، لذلك لن يرتاح حتى يجوبَ قرارتي المكيَّنة ويرفعُ رايات قرصنتهِ على ما تبقى من وجودي، ولن تبرد ذاتي حتى تهبَ نفسها إليه، تمتزج به وتبثُّه آلامها، لتطفئ جذوة الحيرة المشتعلة بين أركانها الداكنة.

طاف النهار بي كعابر سبيل، وفرد الغيْمُ مِظلّته السوداء ليمنح الأفق كآبة مقبضة، لكني بقيت أسامره وأعبث برماله حتى أصبحت تفصلني عن السابعة مساءًا عدة دقائق، وهو موعد حضور الدكتور مصطفى لإجراء الجلسة الثانية، الشغف والترقب يتنافسان على حرق أعصابي، والأسئلة تتسابق على حجز مقعد لها داخل قاعة توتري، ربما اليوم سأعرف ماذا حدث لأبي وأمي، وأراه أمامي رأي العين وربما لن أعرف أبدًا.

وفي السابعة تماماً كان الدكتور مصطفى يخطو بقدميه داخل بهو المنزل، فاستقبلته بحوار جانبي وهامس، أقنعته فيه بالسماح لحنان بمرافقتنا إلى الجلسة ووافق على مضض، بعد أن أسمعني الكثير من النظريات العلمية التي تحذر من ذلك وتثبت سوء عواقبه، وأنصَتُّ له مرغمًا وغير عابئ بما يقوله بذات الوقت، ولم تمض دقائق حتى كنّا نجلس جميعاً داخل القَبْو وأمام الماكينة الرابِضة في سكون، وحولنا ثلاثة قناديل تضرب المكان بلون نحاسي مشوب بالحمرة.

تعجب مصطفى من الماكينة، وظهرت عليه أمارات الفضول وهو يسألني عنها، فأخبرته أنها شهدت حادثة أبي وأمي، وأنني لا أعرف الهدف منها فتجاوز ذلك، وعاد إليه تركيزه فيما أتى من أجله وبدأنا نستعد لإقامة الجلسة، وتلا الدكتور مصطفى قائمة شروطه على حنان: سيدتي مطلوب منك الإنصات التام، الجلوس بعيدًا، وعدم التدخل بالجلسة أيًا كان ما سيقال.

-سأفعل، قالتها بثقة. فعدل نظارته السميكة ثم استدار نحوي قائلا: سيد أحمد حاول أن تأخذ نفسًا عميقًا، وترخي أعصابك وتتجنب التفكير في كل ما يشتّت انتباهك، اتفقنا؟

-نعم.

-رائع، في البداية دعني أشرح لك شيئاً هاما، الجريمة كانت حدثًا مثيرًا للانفعال، وهذه النوع من الخبرات يُنتجُ داخل النفس ما يسمى بالذاكرة الحيّة، أي أن الأحداث التي مرّت بك واستثارت عاطِفتك بشِدّة سواءً بالحزن أو الفرح يتم تخزينها بذاكرتك طويلة الأمد وتبقى بها، وكما تحدثنا سابقا أن الصادمة منها يمكن أن تُكبح وتُمنع من الاستدعاء -هذا إن كنت قد شاهدت الحادث بالطبع- وتبقى المُشكلة التي تواجهنا الآن هي إجبار نفسك على استدعاء تلك الذاكرة السلبية رغمًا عنها، وهذا يتطلب منك استسلام تام وخضوع مستكين لطلبات المعالج، لا تحاول مقاومة أي أمرٍ أصدرهُ لك وأنت في حالة اللاوعي، كما أحب أن أشير إلى نقطة هامه، الشيء الوحيد الذي قد يمنعنا من استدعاء تلك الذكريات هو أن تكون قد أصبت بتَلفٍ في دماغك نتيجة تلك الصدمة، وإن كنت أرجح أن ذلك لم يحدث لأنه كان سيؤثر على استجابتك المعرفيّة أيضا، لكنه يبقى عائق محتمل.

-وماذا لو عجزنا؟

-سنبذل قصارى جهدنا، سأعتصر ذاكرتك هذه الليلة قدر الإمكان، ولذلك اطلب منك الانصياع.

-لكنني أكون في حالة من اللاوعي ومن الممكن ألّا أطيعك.

- فقط لا تقاوم تعامل معي بأريحيه على اعتبار أنني صديقك ولست عدوك، اتفقنا؟

-نعم.

-ممتاز.

رفع أمام بصري مباشرة مرآةً مرسومٌ على سطحها دائرة حلزونية بيضاء، يشعر الناظر إليها أنها تتحرك وتشده بين حلقاتها، ثم مدّ رأسه خلفها وبدأ يحدثني بصوت عميق: أريدك أن تسترخي بشكل كامل يا أحمد وتستنفر كل تركيزك للتدقيق بالمرآة التي أمامك.

فتحت عينيّ على اتساعِهما، وحدّقتُ في المرآه لعِدةُ دقائق، رأيت خلالها الدائرة تقطع ملامحي لتشوه جزءًا كبيراً من وجهي، وكأنها تخترق قسماتي وتصنع بها اخدودًا عميقًا، تتبعت مساراتها، فبدأت تدور ببطء مثل مروحة وتسارع دورانها حتى أصبحت لا أرى وجهي على سطحها.

-ماذا ترى؟

-مروحة حلزونية تدور.

-لا بأس دُر معها، دعها تلفّ بك.

قالها وسكت برهة ثم عاد يسألني: ها ماذا ترى؟

-الخطوط أصبحت تتقاطع والفواصل تمتزج، وهناك بقعة من الضوء تطارد ثقباً أسودً.

-حسنا صوب بصرك ناحية الثقب الأسود.

أمسكت بطني وقلت: أشعر بالغثيان معدتي تتقلب.

-ماذا ترى؟

-أرى الماكينة تستقر أمامي وظلام مخروطي قادم باتجاهي.

-سِرْ نحوَه وإن استطعت أن تجري، افعل، حتى تصل إلى قاع المخروط.

- أنا أركض وبسرعة، ألهث، وأنفاسي تتلاحق.

-هل تسمعني الآن، هل تسمعن ... ، هل ت.....

-أنا أترنح جسدي لا يتحمل السرعة التي أدور بها.

ولم يأتني رد الطبيب، غاب صوته، ابتلعه المخروط الأسود، وغبت عن وعيي لفترة لا أعلمها، ثم استيقظت لا أعرف كم مرّ من الوقت، لقيتُني ممدداً على أريكة البهو، اعتدلت منتفضاً لأجد الدكتور مصطفى جالسًا في جمود على الكرسي المقابل لي، يطالعني بوجه شاحب يميل إلى الصفرة، بينما حنان منكمشة على الكرسي الآخر وتجتاحها نوبة بكاء شديدة احمّر بسببها أنفها.

سقط قلبي بين قدمي وسألتهم: ماذا حدث لي؟

ظل الدكتور مصطفى على جموده وكأنه لا يجد ما يقوله، وانفجرت حنان في هيستريا من البكاء والنشيج. خطفت دفتر الجلسة من بين أصابع الدكتور مصطفى وما أن قرأت عدة سطور من الحوار حتى انهرت على المقعد.

----بداية الجلسة----

- أين أنت.

-أنا بالقبو.

-ماذا ترى؟

-الماكينة.

-هل معك أحد؟

-نعم.

-من.

-حنان زوجتي.

-وماذا تفعل أنت؟

-أقتلها.

-ماذا تقول؟

-أقتلها، أغرس بقلبها خنجرًا أثريا.

-من أنت؟

-أنا أحمد.

-تقصد عزت والدك؟

-لا أحمد.

-هل ترتدي ساعة؟

-نعم

-ما هو تاريخ اليوم.

-٢٨-يناير- ١٩٧٧.

-أفق يا أحمد أفق

----نهاية الجلسة-----

لم تجلب ذاكرتي أوراقًا من الماضي إلى الحاضر، بل جرّت المستقبل إلى القَبْو لتكشف عن سوءته، وليخبرنا بالموعد الذي سأقتل به حنان، وكان أمرًا مستحيلاً وصادمًا، أعجز الدكتور مصطفى تماماً، وألجم لسانه، أمّا حنان فحق لها أن تنهار بعد أن علمت السِّر الذي كنت أدفنه مثل جثة مسمّومة داخل قبر أضلعي.

قطعنَا الوقت هذه المرة في حالة من الصمت المشحون بالتوتر، لم نكن نسمع إلّا صوت بندول الساعة، مصطفى منعقد اللسان، وحنان منهارة وتئِنّ بالبكاء، وأنا زائغ أفكر في الخطوة القادمة، ولأنني لم أتفاجأ بالأمر كنت أول من اخترق الصمت وتكلّم، سألت الدكتور مصطفى: والآن ماذا أفعل؟

هز رأسه عجزًا وقال: هذه أول مرة أرى فيها مريضًا يستدعي أحداثًا من المستقبل.

-وكيف أمتلك ذكريات من مستقبلي وأنا لم أعشه؟ وكيف أمتلك ذكريات عن آخرين وأنا لم أعرفهم؟ وكيف أنسى ماضيَّ الذي عشته بالفعل؟ وكيف أجهل حاضري؟

لم أجد لديه رد، فقط أدار عينيه في محجريهما، وهز رأسه كناية عن الحيّرة.

- والحل؟ سألته فقال: أنصح بأن تغادر السيدة حنان المنزل حتى موعد انتهاء ذلك الحدث المفترض، وبذلك نضمن عدم حدوثه.

نقلت بصري إلى حنان مؤيدًا فكرته فقالت بغصّة: لن أتركك وحدك.

كدت أنفجر بها، إلاَّ أنها كانت ضعيفة، وترتجف مما أجبرني على تمالك أعصابي، فقلت بهدوءٍ مُفتعل: اعتبريها إجازة تزورين فيها والدتك حتى يمر ذلك الموعد مرور الكرام.

قطبّت جبينها وزمّت شفتيها وهزّت رأسها في عناد أطلق الغضب الحبيس بداخلي، فقمت من مكاني وصرخت فيها مشيراً بأصبعي نحو مدخل الدِّهليز: ألا تفهمين؟ سأقتلك هنا في هذا المنزل عند الماكينة، سأكرر مأساة أبي.

- لن يطاوعك قلبك يا أحمد؟ هل أهون عليك؟

قالتها وعينها تتفرسان ملامحي وكأنها تبحث عن طوق نجاة لتتمسك به وتطمئن روحها، ولكن كان وجهي هو نصل الخوف الذي مزّق إحساسها، ألقيت نفسي المتهالكة إلى جوارها وشعرتُ بموجة التوتر التي سرت في جسدها لمجرد قربي منها وهي تستجمع شتات نفسها لتحكي كلمة فتخونها الكلمات وبعد وقت ليس بالقصير تكلمت مهزومة: سكوتك يعني أنك قد يطاوعك قلبك وتقتلني بالفعل.

قمت من جوارها وصعدت الدرج الحلزوني قفزًا، ثم أحضرت قصاصة الخبر من حقيبتي المُستقرّة بالدولاب ونزلت مرة أخرى والخبر بين يدي ومررته لها.

سألتني: ما هذا؟

-اقرئي.

ورأيت الفزع ينتزع وهج الحياة من ملامحها وهي تلتقط الورقة بأنامل مرتعشة وتقرأ التفاصيل بعناية وملامحها تزداد هلعًا، وفي معاناة أطلقت سراح كلمة لتهرب من قضبان خوفها: لماذا يا أحمد؟

هنا عرفت معنى العجز فليس لدى إجابة أبرر بها كيف سأهدر روحها وهي التي منحتني قلبها، وحين خانتني الكلمات اقتربت منها، وضممتها إلى صدري وهنا فقط استشعرت براكين الأرق التي فجرتُها في دماءها، فقد كانت صافية لدرجة أن خلجاتها وسكناتها تبوح بما يعتمل في نفسها من إحساس، وتألمتُ لأنني وأدتُ بحديثي هذا كل معاني الأمان في قلبها الذي كان ينتفض بداخلها وكأنما ينضج على الجمر، فقلت بصوت كسير محمول على موجة وجع باردة: هذا هو السّر الذي كنتُ أخفيهِ عنكِ طوال تلك المدة، ولو لاحظتي تاريخ الخبر ستجدين أنه مقطوع منه اليوم، فقط يظهر به الشهر والسنة، والجلسة أخبرتنا أن هذا اليوم سيكون غدًا.

تناول الدكتور مصطفى الخبر وقرأه وملامحه تقتضب في ذهول، وحنان منكمشة كعصفور مبتل، حتى انتهى وأشار بكفه لي بعدم التدخل، ثم أخذ يقنع حنان بترك المنزل ليوم واحد فقط وأن ذلك سيحسن كثيرا من حالتي النفسية.

-وكيف سأطمئن على أحمد؟ قالتها حنان.

-بالهاتف وأعدك أنني سأزوره كل يوم حتى تتحسن حالته.

-هل ستعيدون الجلسة مرة أخرى؟

- من المحتمل.

نظرت لي باستعطاف ثم قالت: عدني أن تعتني بنفسك يا أحمد.

-أعدك بأنني سأفعل.

صعدت بخطوات منكسرة لتحزم حقيبتها وعادت تحملها، ومدّت يدها لي بصورتها قائلة في استجداء: هذه صورتي أنظر إليها بالجلسة القادمة، تذكرني يا أحمد، أنا أحبك، أحبك.

وأجهشتْ بالبكاء فربّتُ على كتفها وهمست: سأفعل.

كنت على استعداد أن أفعل أي شيء حتى تغادر حنان المنزل، وأتخلص من ذلك الحمل الذي يكسر ظهري، ورقص قلبي فرحاً عندما أوصلناها إلى حيث تسكن والدتها بحي جليم، ثم عدنا أدراجنا.

وفي طريق العودة آثر الدكتور مصطفى الصمت ولمحته بطرف عيني يقود السيارة شاردًا ووجهه غارق في الجمود، لا شك أنه كان يفكر فيما حدث، استدعاء ذكريات من المستقبل فكرة تبقى خرافيّة بالنسبة للبشر وتعارضها كل نظريات الكون وتستفز أي طبيب نفسي.

أما أنا فغمرني ارتياح عميق لم يلبث أن تحول إلى شعور جارف بالثقة، بعدما تخلّصتُ من تلك العقبة الكؤود، لم أتصور يومًا أنني قادر على تغيير القَدَر، أو حتى التفكير في ذلك، تمامًا كما لم أتصور أنني سأعود إلى هنا يومًا ما، لكنَ تلك الثقة لم تستمر طويلا، ولم تكن لتفعل، خاصةً أنها وُلِدت داخل نفسٍ مشوّشةٍ مثل نفسي، وعقل موتور مثل عقلي، عادت رياحُ القلق لتُشعل الجمرَ الخامد بداخلي فتوهّج بتساؤل من نار، لا يغير القدر إلّا قدر جديد، إن كان قدر جريمة قتلي لحنان قد تغير فما الذي حل محله؟ أليس من المحتمل أنني قد استبدلت الأدنى بالذي هو خير؟

انقطع السؤال بغتة مع توقف عجلات السيّارة والتفتَ لي الدكتور مصطفى وأخرج من الدرج دفتراً وقلماً وقال بجدية: أحمد حاول أن تقضي أغلبَ وقتك بالأماكن التي تستفِز ذاكرتك ولها خصوصية كما اتفقنا، وأريد

منك شيئًا آخر، سجل ما تراه هنا وأشار إلى الدفتر، أريدك أن تحتفظ بالدفتر والقلم طوال الوقت، حتى تكون مستعدًا لتدوين كل الأحداث والتفاصيل التي تراها حينما تهاجمك حالةَ الصداع والشرود.

تناولت الدفتر والقلم وأومأت له برأسي متفهمًا، ورحل ودخلت المنزل، وكان التيار الكهربي كالعادة مقطوع، فاضطررت لحمل أحد القناديل وصعدت لغرفة النوم وحملت الكرسي الهزّاز وبطانية وهبطت إلى القبو حيث تستقر الماكينة، بعدها دعمتُ القناديل بالزيت استعدادا لرحلة شرود طويلة، ثم جلست إلى الكرسي الهزاز وتدثرت ببطانيتي وعلى قدمي يستقرّ الدفتر ورحت أتلاعب بالقلم بسبابتي ووسطاي.

* * *

(الرحيل)

مرَّ الوقت كما يفعل بالأماكن المظلمة، رتيب وممل وكأن عقاربه هي الأخرى تتحسس طريقها للدوران، أو تخشى الاصطدام ببعضها البعض. تأملت الماكينة التي تستقر أمامي في بلادة، لماذا يبدأ كل شيء هنا، وينتهي أيضا هنا. فتحت الدفتر وانهمكت أرسم دوائر متواصلة من الداخل للخارج ودون أن أرفع سن القلم، ويبدو أن ذلك أغواه، فانطلق يجري على الورقة مسرعًا كأنه هو من يرسم لا أصابعي، ومع تعدد جولاته على صفحة الورقة، تداخلت الخطوط، وتكاثفت الدوائر حتى ملأت الصفحة وصارت مثل عُشِّ طائر خالي.

زاغَ بصري وأنا أدور به متتبعًا الخيوط الشعثاء المتشابكة أمامي، ودوَّخني مدارها الحالك، كانت مثل ليل يحاصر قمرًا تائها عن كوكبه، وهذه المرّة لم أقاوم، استسلمت تماما، وباستسلامي خرج طرف الخيط الذي رسمته من وسط الدوائر بالصفحة، ودار حول رأسي، وبدأ يغزل نسيجه، ويصنع عشًا جديدًا مسببًا لي ضغطًا مؤلمًا، استسلمت له أكثر فارتخى الخيط وفرد نفسه كخط واحد ثم غرز طرفه بجبهتي واخترقها مثل إبرة وانساب عن أكمله داخل جمجمتي، تجعدت جبهتي ألمًا وأنا أشعر به ينسل بين تلافيف مخي ويخيط نفسه حول ثناياه الرمادية، ومع تواصل استسلامي التام له، تبخر الخيط وتحول إلى تيارٍ باردٍ منحني إحساسًا بالانتعاش.

في تلك اللحظة أدركت أن مقاومتي للشرود كانت السبب في آلامي، وأنني يجب أن أطاوعه وأتقبل حضوره، لذلك تركته يجرني جرًا إلى أرض زلقة تجري من حولي.

انطلقت ملينيا بفرسها الذي كان يخبُ الأرض الموحِلة بقوائمه البيضاء وتبعتها بجوادي الأدهم الفتيّ، ومن خلفنا زوج من رجال فيلوباتور يطاردوننا، بقيت خلفها حتى أحمي ظَهرها، فأمانها وسلامتها دائماً هما غايتي ومنايا، كان البرق يظلِّلنا والرعد يدمدم بدويّ قاصف اقتلع قلوبنا حتى بلغت حناجرنا، لكنه كان أجوف بلا مطر، واصلنا الهرب، ننفذ بين الحواري والأزقة نتشعب حينما ينقسم الطريق ثم نعود لنتقابل وخلفنا الجنود يطاردوننا باستماته، مِلنَا بالخيول يمينًا ويسارًا نوجه رقابها ونقفز بقوائمها فوق السلال والأواني الفخارية التي كانت تعترض طريقنا بالشوارع، حتى أدركنا رجال فيلوباتور عند السوق المزدحم ببقايا البائعين والعربات الخشبية، نفذت ملينيا بفرسها بصعوبة بالغة بين عربتين محملتين بالقرع كانتا تقطعان زقاقًا ضيقًا، ثم انحنت وعرجت بالفرس يميناً في اللحظة التي شق فيها سهمٌ ناريّ كومةَ قش خلفها فاشتعلت، عرفت أنهم يرموننا بالنبال، فملتُ بجذعي حذراً، و أرخيت رأسي حتى التصق خدي بعنق فرسي، وتفاديت بصعوبة سهمًا مشتعلاً شق الهواء ولسعَ فروة رأسي، ثم واصل طريقه وابتلعه الظلام، تلاه آخر أنحرف عن طريقهِ واستقر بمظلة كانت تنسدل من بيت مرتفع فشبت بها النيران، بينما كنت أنسل بين العربتين وأسلك الزقاق الأيمن خلف ملينيا، متجاوزًا سهمًا مرّ بجانب أذني كزفير من يُطفئ الشموع، لكنّه لم يصبني وانغرس بحانوت للفخار، لكزتُ فرسي أستحثه لينطلق بأقصى سرعته، بعد أن اتسعت المسافة بيني وبين ملينيا بشكل أقلقني، ومع اقترابي منها هَلعتُ، كان أحد

الجنود قد أتاها من الزقاق الموازي، وانعطف ليتقاطع معها، وأصبح خلفها مباشرة بل وكان يهم بالقفز من فرسه إلى فرسها محاولاً الإمساك بها، وأنا خلفهما لكن على مسافة أكبر، ولم يكن هناك بدٌ من المجازفة، خاصة أن الفارس بتلك اللحظة كان يطير بالهواء، وأصبح هدفًا سميناً وغير متزنًا، سحبت خنجري -الذي منحني إيّاه المرتزقة- من نطاقي وأمسكته من ذؤابته ثم رميتُ به الجندي بطول ذراعي وبكل ما أوتيت من قوة.

شق الخنجر الثقيل الهواء واخترق نصله قفا الجندي فسقط وتدحرج عدة مرات حتى خمدت حركته، وأنا أمر بجواره وأرى الخنجر قد نفذ من حلقه وأرداه صريعاً.

أما الجندي المتبقي فكان ماهراً وعنيداً، ظل يطاردنا باستماته -رغم اتساع المسافة بيننا-وهو يواصل رشق ملينيا بالسهام، كان يعلم أنه لو أصابها سيهزمني لامحالة، حوّلت رأسي للخلف وألقيت عليه نظرةً خاطفةً، فرأيته قد طرح نباله بعيدا واستعدّ ليرمي ملينيا برمحه، وفي لمح البصر أطاح بالرمح في رمية مقوّسة خطيرة، عرفت أنها لن تخطأ هدفها حينما سمعت الرمح يقطع طريقة إلى ملينيا في اللحظة التي جاور فيها فرسي فرسها وهما يجريان بكامل سرعتهما.

-ملينيا اقفزي إليّ. صحت فيها.

-أدارت وجها نحوي وبسَطتْ لي ذراعيها كأنني قارب نجاتها.

قبضت برجليّ على بطن جوادي الحاسر لأتشبث به، ثم انتزعتها وحملتها بذراعيّ القويتين من فوق فرسها، ونقلتها لتستقر خلفي بالوقت الذي مرّ فيه الرمح فوق عنق فرسها تماما، وسقط أمامه بعدة أمتار وانغرس في

الأرض وأخذ يطنّ حتى استقر، والفرس الخالي يواصل الركض بعيداً بعنفوان وهو يصهل بحدة، وأنا أتبعه.

-تمسكي بي بقوة يا ملينيا، صحت بها فطوّقتني، وقبضتُ أنا على لجِام حصاني الأدهم، وأدرت عنقه فصهل ورفع قوائمه عالياً عاضاً اللجام، استدرت به عنوه، ثم انحنيت بجذعي، وخلعت الرمح المغروس وانطلقت تجاه الجندي الذي كان يطاردنا، ذُهل حينما رآني أتدفع نحوه، وهو يوصل انطلاقه نحوي، فامتشق سيفه ولوّح به استعدادا للمواجهة.

تشبثت بي ملينيا وهي تخفي رأسها خلف ذراعي خائفةً، حتى حانت لحظة المواجهة، رماني بسيفه ورميته برمحي، لو كان يحمل رمحاً لأرديته قتيلاً، ولو كان يحمل عشرات الرماح لأرديته أيضا، فأنا فارس لا يشق لي غبار في نزال الرماح، أما وأنه لا يملك إلّا سيفه، فالنزال كان محسوماً لي ولا شك، والمنافسة غير متكافئة، شق رمحي قلبه ونفذ من ظهره فمال وسقط عن صهوة جواده الذي راح يبتعد مهرولًا، بينما لم أتكلف حتى أن أميل لأتفادى سيفه، الذي خَفِقَ في الهواء ودار حول نفسه ثم سقط بعيدًا وصليله يصرخ على إثر الهزيمة.

-هل أصابك مكروه يا حبيبي؟ سألتني ملينيا فأجبت.

-لا يا حبيبتي إلى أين سنرحل؟

-سر غرباً.

أرخيت لجام فرسي، ثم ضربته به فانطلق ينهب الأرض وعبرنا إلى خارج المدينة تجاه الغرب، هربنا من رجال فيلوباتور واستعدنا حريتنا لكن بعد أن ضاع كل شيء وانتحر الملك والفرسان.

قطعت الطريق صامتًا، وملينيا تغمر ظهري بالقبلات الرقيقة، وتمرر راحتها على عضلاتي القوية المشدودة، وتمس عروقي المبرومة وتمسح عرقي، كانت لمساتها تبرّد الوجع الذي أحرق كل مراكب كرامتي، ودون أن تنطق بحرف، وظلّت صامتة توجهني فقط لمكان السرداب حتى جذبتني من قميصي فعرفت أننا وصلنا. توقفنا في مكان منعزل أشبه بالعراء وتنتثر به نباتات شيطانية الهيئة، ونزلتُ من على فرسي الذي راح يزفر بانزعاج، وطوقت خصرها لأعاونها في النزول، ثم وقفت ألتقط أنفاسي. لاحظت أنها تتأملني بحب، وتهيم في ملامحي، عيناها الجميلتان تنهلان من بئري عينيّ في شراهة كأنها تحتفظ بي داخل روحها، تشبع مني، وتضم قسماتي، تختزن من ملامحي زاداً تستعد به لسفر طويل، اقتربتْ مني واحتضنتني بقوة وكأنها تفرغ داخل صدري حرارة اشتياقها لي، أنفاسها اخترقت قلبي كنسمة صيفية رطبة أسرت وجداني وبثت سريرتي الطمأنينة، ثم ضمّت رأسي إلى صدرها بحنان، وأحسست بدفئها يغشاني وتسربت بين مسامي اختلاجاتها كالعبير، حتى دقات قلبها سمعتها تردد معزوفتها داخل قاعي، قَبّلتْ رأسي، مسحتْ شعري براحتها الحريرية، ثم احتضنت رأسي بكفيها الرقيقين ورفعت وجهي لأراها، فوجدت عينيها مليئتين بالدموع، هلعت وسألتها : ماذا بك، لماذا أنت حزينة؟

-أنا لست حزينة.

-إذًا ماذا بك؟

-أتأملك.

طأطأت رأسي قائلا: أشعر بالخزي أمامك بعد أن أصبح الفشل يلازمني.

قالت بشموخ الأميرات، وهي ترفع هامتي بطرف أناملها: ارفع رأسك، أنت فارس والفرسان لا تحزن ولا تنحني.

حَمَلتْ الرياح إلى مسامعنا وقع أقدام لخيول تتجه نحونا. فالتفتنا ناحية الصوت وقلت جزعًا: لقد اقتفوا أثرنا! قالت: لا مفر من القدر يا حبيبي، وأشارت إلى البحر وأردفت في إصرار، بشفاه ترتجف وعيون تتلألأ بالدموع: هناك، وخلف هذا البحر ستعود حاملاً درعك وسيفك وتغرز بقبضتك هذه -واعتصرت قبضتي بأناملها الصغيرة -راية النصر، لحظتها سترى وجهي يضحك لك وسط ربوع لاكونيا، ويترقرق فوق صفحة اليوروتاس، وسأعودُ لأضم رأسك وأحتفظ بها داخل حنايا مهجتي، ضمّة لا تحرم الحنان بعدها يوماً، ولا تظمأ لغيرها أبدًا. ارتعت من كلامها واحتضنت عينيها وقلت وأنا أستجديها : ملينيا لماذا تقولين ذلك؟ هل تخليتي عن وعدك لي، أم تخافين أن تعلقين مصيرك بضائع مثلي؟

قالت بحلق مختنق: لا يا فارس قلب ملينيا، المرأة لا تحب إلا الرجل الذي يملأ أفقها وتشعر أنه الوحيد الذي يستحق أن تضحي بنفسها من أجله، ولا تقبل بأقل من أن تكون ملكة على قلب من تحب وأن تلبسها أنامله التاج، وأنت ملكي يا بانتيوس، ملكي المتوج والذي سأدافع عن بقائه بكل ما تبقى لي من أنفاس.

ودفعتني براحتها بعيداً، وقالت والدموع تفيض منها: السرُّ الذي أخبرتني به الملكة برنيكي يستقر تحت قدميك، سرداب للهروب، به نفق يوصل إلى بقعة مجهولة من الشاطئ، ويستقر بنهايتها قارب مجهز للسفر، اركب البحر، وارحل بعيداً عن هنا، حط برحالك في بلاد الشرق، واجمع ما تستطيع من جنودك المشرّدين، واستعن بالحلفاء حتى تستعيد أرضك المسلوبة يا حبيبي.

صحت بها في إصرار: سترحلين معي، لن أرحلَ دونكِ.

قالت بصوت متهدج: هذا غير ممكن يا حبيبي الملكة برنيكي كتبت في رسالتها الثانية لماجاس ابنها. أنها لعنت السرداب، حتى لا يمر منه غير شخص واحد وإلا هلك الكل.

- تعويذة؟

-نعم، ثم ابتعدت أكثر وسحبت خنجرها وقالت: لقد صدقتْ العرافّة، من أجلك يا بانتيوس، من أجلك يا حبيبي، وطعنت قلبها أمام عيني لينحني صدرها وتخر على ركبتيها. فجُعت وجريت نحوها في جنون وجثيت أُلملم الدم الذي فاض حول الخنجر كالنبع، وصرخت وأنا أرفع رأسي للسماء أعتصر دموع الحرقة: ملينيا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!! لماذا فعلتي ذلك لماذا علقتي مصيرك بمصيري.

ذبلت، وارتعش وجهها، ورأيت الحياة تفر من عينيها، لتترك على شفتيها شبح ابتسامة واهنة، ابتسامة تموت.

أسرعت احتضنها، ألصقها بي، التقط ما تبقى من حياتها، صرخت: آه يا ملينيا!!!!!!!!!!!!!!، أنا المذنب الوحيد يا أميرتي أنا الذي أودع فراشة مثلك دَرَك الجحيم، لململتُ دماءها الزكية في كفيّ كي أُقبل آخر قطرات المسك الغائب فيها، ولامسَتْ أناملي ذلك الخنجر الذي أنقمُ عليه أنه سافر في دِمائها قبلي وناجيتها: أيتها الحبيبة طيفٌ بمثل رِقَتكِ لا يتحمل تلك الحياة القاسية.

سقطت بجذعها المرتخي بين أحضاني، فغمرني الدم واستلقيتها وأنا احتضنها واعتصر دموع الأسى، تفتت عزمي وتمزع قلبي لآلاف القطع وروحها تفارقها وتنساب عبر صدري مرسلةً لفحةً باردة عصفت بكياني.

لقد رحلت ملينيا، صحبها ثاناتوس إلى مملكة الموتى.

أرحتها على الأرض، ودفنت يدي في شعري، انتحب غير عابئ ولا مدرك لما حولي، ومضى من الوقت ما لا أعلمه، حتى هدأت شقيقة نفسي، وتماسكتُ لا أعرف كيف، لكني أفقت من سكرتي على وقع أقدام الخيول التي كانت تقترب، وبرأسي قرار لا رجعةَ فيه، علّقت سلسلة السرداب برقبة الفرس ثم امتطيته وانطلقتُ به فكابد وهو يجرها إلى أن تحركت كتله صخرية ملساء، وانفتحت كوّة السرداب الواسعة واندفعت منها غيمة كثيفة من الغبار، نزلت عن الفرس ومددت رأسي أتطلع داخل السرداب. كان عميقًا كمأساتي له عدة درجات من الحجر ، حررت السلسلة، وضربت بكفي فخذ الفرس فانطلق يركض بعيدًا، باتجاه فرسان فيلوباتور القادمون، ثم حملت ملينيا على ذراعي وقبلتُها وهبطت بها درجات السلم حتى وصلت القاع ثوجدت صندوقاً مستقرًا به ومنقوش بكل تعاويذ الشر.

أرحت جسدها في رفق، ثم أدرت عجلة إغلاق كوّة السرداب فعاد الحجر ليستقر مكانه، ركعت على ركبتي أمامها وسحبت الخنجر من قلبها وكلمّتها بقلب منفطر: سامحيني يا حبيبتي لن أقبل تضحيتك ولا استطيع فراقك، فالحياة دونك موت، اغمدت الخنجر في قلبي وشعرت بالوهن، وسقطت أقاسي آلام احتضاري الممزوجة بفرحة الأمل الذي يحدوني بلقائها، وحضرني لحظتها وجه أمي فبحثُ بصوت كالفحيح وقد أخذ برد الرحيل يغمر أوصالي: لم أعد حاملاً درعي ولا محمولاً عليه يا أمي، أموت الآن عارياً من دروعي ومن كرامتي، سامحيني يا أمي، اغفري لابن مهجتك خطيئته، تجاوزي عن رجل أحب حتى تشبع كيانه، فامرأة مثل ملينيا لا يمكن أن يهدر فدوها، يكفي أنها وهبتني آخر أنفاسها لتمد في عمري.

من أجلك أرفض تضحيتكِ يا ملينيا، صدقتي يا حبيبتي، وصدقت العرّافة.

انتحر بانتيوس وعدت أنا إلى واقعي الحزين المليء بالآلام، أغرق في دموع مالحة فرّت من مُقلتي لتحترق بها شفتي، وبقلبي ينفذ نصلُ الوجع القاسي، حزناً على تلك اللحظة الأليمة من ذكرياتي، لحظة وارى فيها الثرى جثمان حب عميق وصل إلى منتهى ما يمكن أن تصل إليه الروح من عشق، حبٌ طمره الزمن ودفن رفاته في قبر شهد كلمة الوداع الأخيرة، حبٌ لم يكتب له التاريخ حق الإشهار، وقرر أن يحجبه عن العالم ليحتفظ به العاشقان وحدهما دون غيرهما، ثم تراجع وقرر أن يطلعني وحدي على ما جرى لأتعلم منه معنى التضحية والفداء، ضحى كل منهما بنفسه من أجل أن يمنح الآخر السعادة الأبدية، نزف كل منهما عمره من أجل أن يمنح حبيبه قطرة الحياة. بانتيوس وملينيا ماتا هنا تحت تلك البقعة من المنزل، أشعر أن روحهما تحلق بالمكان، وتهيم داخل عتمة القبو الضيق. تأملت دفتري فوجدته قد امتلأ بسطور الحكاية، كنت قد سجلت به ما رأيته تفصيليا لكن بخط سريع يكاد يقرأ مثل خط الوصفات الطبية خط يستحق أن يطلق عليه، نقوش الوجع.

ولأن القلب الموجوع يقهر سائر الأعضاء ويجبرها على التداعي من أجله، فقد بث النوم جرعة من عقاره المخدر داخل رأسي، وجثم الإجهاد على عضلاتي التي استهلكتها ذكرياتي في خوض غمار أحداثها المتلاحقة، وعجزت حتى عن الصعود لغرفة نومي فافترشت البطانيات على الأرض ولم تمض دقائق حتى نمت.

* * *

(٢٨- يناير- ١٩٧٧ اليوم الأخير)

استيقظت وأضلعي تأن وجعًا من نومي بالقبو ليلة أمس، قمت من اضطجاعي بصعوبة، وأخذت القلم والورقة وخرجت إلى بهو المنزل أجرّ قدميّ اليمنى الخَدْلاءُ، تثاءبت من أثر النعاس، وكشفت ستارة النافذة لأشاهد البحر كعادتي، كان مكسوراً هَدّه الحزن، لونه قاتم وصوته مبحوح، موجه يبكي بحرقة، والرمال تواسيه والنوارس تنعيه كالنائحات.

سرحتُ في موجِه المنحني، ولونِه الحزين، كم شهد هذا الخضم من المآتم والجنازات، كم استقبل من موتى واحتضن من غرقى، ربما ولد يوم ولد بقلبٍ من حجر وظل يذوب مع كل ألم حتى خار هكذا وأصبح عاجزًا عن التماسك، أو ربما كان مجرد حفرة فارغة امتلأت بدموع المفارقين وعبرات الموجوعين، وحينما كثر البكاء صار ما ذرفته الأعين موج، امتد ليسافر بين المدن حاملًا البشر من ضفاف الوداع إلى موانئ الغربة.

أشحتُ بوجهي عنه بعدما بثني حزنه وقبَضَ قَلبي، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة أيها البحر ما بداخلي بالتأكيد أشد وجعًا مما بداخلك، تناسيته وجلست مسترخياً على أريكة الاستقبال بالبهو، أُعيد كتابة ما سجّلته بخط أفضل كي يتمكن الدكتور مصطفى من قراءته، وبينما كنت أترجم وأدوّن السطور، دق جرس الهاتف لينتزعني من استرخائي، صوته يخلع القلب هذا الهاتف، يشعرك وكأن اليوم هو نهاية العالم أو أن حدثًا جللا ينتظرك، وضعت السمّاعة الثقيلة على أذني وقلت: ألو.

-ألو مرحباً أستاذ أحمد. كان الأستاذ عبد الله فرحبت به:

-أهلا بروفيسور عبد الله.

-أهلا بك، اعتذر عن التأخير لكني وجدت ما كنا نبحث عنه.

-تقصد حكاية بانتيوس؟

-نعم وجدت شخصية بانتيوس بين سطور تاريخ بلوتارخ. المؤرخ اليوناني، لكنها ذكرت مختصرة وتحكي عن فارس وسيم وشجاع صحب الملك كليومينس إلى مِصر، وقرأت عن نهايتهما.

سخرت من حالي وقلت: أشكرك أستاذ عبد الله وأسف على ازعاجك لكني تأكدت من ذلك بالفعل.

سَكَتَ قليلاً ثم قال: جيد، لكن ثمة شيء آخر أودُ إبلاغك به، شيء خطير يخص تلك الحكاية.

-وما هو؟

-للأسف، لا يمكنني شرحه عبر الهاتف، سأنتظر حضورك هذا المساء لنتحدث.

-حسنا سأحضر.

أغلقت الخط بعد أن أشعل فضولي، ليتني ما رفعت السمّاعة، ما الذي تحمله تلك القصة من مفاجئات جديدة؟ المفترض أنها تنتهي بموت بانتيوس وملينيا.

عدت للتدوين وبالمساء ذهبت إلى زيارته، حسب طلبه، واستقبلني مجددًا

بنفس الترحاب، لكن وجهه كان متوترًا بعض الشيء: أهلا أحمد. قالها مشيراً لي بالجلوس.

-أهلا أستاذ عبد الله.

-بداية أقدم لك اعتذاري عن إثارة فضولك بهذه الصورة، لكن هناك مفاجأة غير سارة تنتظر تلك القصة، لذلك دعوتك لنتحدث وجهًا إلى وجه.

-لا أخفيك سرًا، أنا لست في حالة تسمح لي بمزيدٍ من المفاجآت.

أحضر كتاباً وفتحه على صفحة مطويّة، ثم فردها، وقرأ منها وهو يمرر أصبعه فوق عدة سطور: بعد انتحار كليومينس قرر فيلوباتور إعدام عائلته التي كانت رهينةً لدية، ولم يأت الصباح حتى شنق أم كليومينس وزوجته وأطفاله وأمرَ أيضًا بتعليق جثة كليومينس على الصليب وسط المدينة، وعيّن عليها بعض الحراس ليراها القاصي والداني وتصبح عِبرةً لمن يعتبر، غير أنه وباليوم التالي من تعليق جثة الملك المنتحر، شاهد الحراس ثعباناً كبيراً يلف نفسه حول رأس الجثمان، ويغطي وجه كليومينس بالكامل مثل الحبل وكأنه يحميه من الطيور الجارحة والتي لم تجرؤ على نقره، ورأى أهل الإسكندرية جميعاً تلك الأسطورة تتجسد أمامهم، فتجمهروا حول جثمان كليومينس وهتفوا له باعتبار أنه مكرم من الآلهة، وذلك لأن الثعبان عند القدماء كان يعد رسول الآلهة للحراسة والحماية، حينها أشار الوزير اللئيم سوسيبيوس على فيلوباتور بإعلان أن كليومينس قُتل غدرًا، وأنهم علّقوه على الصليب تكريماً له وليس انتقامًا منه حتى لا يثور الناس ضدهم، وبالفعل أُعْلِنَ كليومينس بطلاً، وابنًا للآلهة، وذكره الفلاسفة من بين الأبطال.

أدهشتني جداً القصة التي رواها لي الدكتور عبد الله، لا لغرابتها فقط، لكن لتصوره أنّ لها صلةٌ بي، فسألته وأنا أنظرُ في عينيه مباشرة: وما علاقتي أنا بالأمر؟

حدّق بي وزمّ شفتيه ثم قال: كل من خَذَل كليومينس أو خانه أو تخلى عنه كان مصيره الموت، حتى فيلوباتور قُتل بعدها بفترة قصيرة وأعدمت زوجته.

-لا زالت لا أفهم.

-كل الأرواح التي جاورت كليومينس وتسببت في موته، هي أرواح ملعونة يا أستاذ أحمد وبانتيوس أحدهم، لا تنس أنه كان أحد الذين أشاروا على الملك بالإبحار إلى مصر حيث مات.

-لكن بانتيوس غادر حياتنا منذ آلاف السنين.

-ولكنّ روحه سكنتك ولو لفترة.

-بروفيسور؟! هل تصدق في تلك الأمور؟

-بحكم خبرتي، ورغم أنني أعرف أنه لا دليل علمي واضح على تلك الأمور، أجدني أقول لك وبكل أمانة، نعم أصدق.

ولأن جوابه كان متوقعًا بالنسبة لي جاريته في حديثه: حسنًا، بافتراض أن ما تعتقد صحيحا، وأن مرور روح بانتيوس داخل جسدي، تسبب في لعني، ما الذي يمكن أن أفعله، بعد أن فاتَ الأوان، وأصبحت ملعونًا بالفعل.

- هناك طريقة واحدة.

-ألا وهي؟

-أن تقدم قربانًا لتفتدي نفسك.

-أذبح حيوانًا مثلا؟

-الإغريق كانوا يقدمون فتاة جميلة كقربان.

-فتاة جميلة!

-ليست أي فتاة، لابد أن تكون ذات صلة قرابة بك.

-قرابة؟

-نعم؟ أختك، ابنتك، زوجتك مثلا.

ونزلت جملته على رقبتي مثل نصل السيف، فانتفضت واقفا وقلت معترضًا: ماذا تطلب مني يا دكتور، أن أذبح زوجتي؟

-اهدأ يا أستاذ أحمد، لم أجن لأطلب منك طلب بهذه البشاعة، أنا أتكلم عن مراسم يمكننا تأديتها كتعويذة مستخدمين بعض من دمائها و ... قاطعته مشيحًا بذراعي: مستحيل، لن أمس حنان بسوء مهما كانت الأسباب والنتائج.

-لن يضيرها شيء يمكننا الحصول على عينة دم عن طريق إبرة محقن و ...

-دكتور أقول لك لن أمسها بسوء، حتى لو أدى ذلك لموتي انس هذا الأمر.

نفض رأسه يأسًا وقال: على أية حال هذا قرارك.

ومضيت والشياطين تلقي الروع في قلبي وتجلس داخل أذني تنفث وساوسها ذات الصدى العميق، كانت تهمس لي بكلمات هي الضلال المبين: "يقتل أحدكما الآخر، يعيش أحدكما حينما يموت الآخر، ويضحي أحدكما ويرفض الآخر"، وتكررها بحماس.

* * *

(الحفر)

لأول مرة أجد سببًا يجعلني أفكر في أن أقتل حنان، ما قاله أستاذ التاريخ خطير وكفيل بقلب الأمور رأسًا على عقب، ويجب ألّا استخف به أبدا خاصة أن لدي ما يؤيده وهو خبر الجريدة، وكذلك نبوءة العرّافة، لابد أن آخذ حذري مهما كانت القصة خيالية أو أسطورية. لذلك وبمجرد وصولي للمنزل بدأت في تنفيذ القرار الذي اتخذته طوال طريق الرجوع، سأعزل نفسي هذه الليلة، ليس عن حنان فقط، بل عن العالم أجمع، سأقضي الساعات المتبقية وحيدًا، وكأنني ضائع على جزيرة مجهولة، سأقطع كل سُبل الاتصال بالعالم الخارجي، وتحديدًا بحنان، لن أستقبل أحد، ولن أخرج لأحد، كما سأنهي صلتي بالزمن أيضًا لكيلا أحترق توترًا، قطعت سلك الهاتف وربطته بالسمّاعة والقرص، وألقيت به من نافذة البهو، خلعت ساعة يدي ورميتها لتلحق به وتغطس بالرمال، صعدتُ إلى الرواق ونزعت وريقات التقويم حتى وصلت إلى ٢٩ يناير، ولم يتبق إلاّ أن أكسر ساعة الحائط لتكتمل عزلتي.

انتظرت خروج العصفور الوقح ليعلن عن الوقت من أجل أن أكسر رأسه، ومرّت الدقائق، وبندول الساعة التي تشبه البيت يتلاعب تحتها مثل ذيل حمار، وأخيرًا فَتَحتْ النافذة الصغيرة دَفّتها وخرج منها العصفور الخشبي ليصيح، وددت لو سألته عن أمنيته قبل الموت، لكنّي خشيتُ أن يطلب مني إحضار وليفةً خشبيةً له فتزداد معاناتي مع صراخهما، تركته ينعب ثمانية

مرات متتالية، وفي التاسعة مددتُ يدي لأقصف رأسه، وعجزت، ترنحت فجأة، ثم ارتعشت أصابعي وأصبحتُ غير قادرٍ على تحديد موقعه من الجدار، ودون مبرر تردد صداح العصفور داخل رأسي مثل الصدى ورأيته يرفرف بجناحيه ويدور حول رقبتي عدة دورات سريعة، بعدها حلق بعيدًا ورأيت عنقي مربوطًا في رجليه، أحلّقَ معه في سماء مظلمة، درنا فيها عِدّة دورات لولبية، ثم عدنا وحطّ بي داخل المنزل لكن في جسد آخر.

-إلى متى يا عميت؟ صرخت به أوبخه، وقد فاض بيّ الكيل.

أجاب وهو يليّن ملامحه: الصبر يا نعوم، الصبر، التنّقيب يحتاج إلى وقت.

-أسابيع ونحن نحفر ولا شيء.

-غيرنا يستغرق سنوات؟

-سنوات! هل تستفزني؟

-على العكس، أثبت لك أننا نحرز تقدمًا كبيراً رغم قصر المدة، ورغم أنني لست متخصصاً في الحفر والتنقيب، ورغم أنك ترفض الاستعانة إلّا بعاملٍ واحد فقط، بل وتصرّ على العمل يوم السبت، هذا أقصى ما بوسعنا.

-ولماذا نستقدم متخصصاً في الحفر ما دورك إذًا؟

-يا نعوم أنا أشارك بعثات التنقيب الترجمة وتحديد المواقع أمّا الحفر فيحتاج إلى محترفين.

-تعني أنك لن تنجح؟

-لا، بل أعني أنني لن أكون بمهارة المحترفين، لكن بالنهاية سنحقق هدفنا.

-متى؟

-عندما يحين الوقت المناسب، وإذا أردت أن نسرع يمكنك جلب عامل آخر و ... قاطعته محذرًا: لن أدفع مليمًا إضافيا.

-لا تكن قتوراً هكذا؟ كن مثلي وفكر بهدوء، المال يصنع المال، وكلما أنفقت أكثر، كلما جنيت المزيد.

-أنا لست مثلك يا عميت أنت مبذر وأنا حريص.

-أنا لست مبذرًا أنا فقط لست بخيلا.

-ماذا تقصد؟

-لا أقصد شيئاً يا نعوم، أنا أشرح لك سبب التأخير.

-وما أدراني أنك حددت المكان بدقة وتؤدي دورك في الشراكة بإتقان يا حبيبي.

-لأنني أشاركك المصاريف، ولن أبدد مالي في شيء أنا غير واثق منه، وأكدت لك مراراً وتكراراً أن عيّنة التربة التي حصلت عليها وفحصتها أثبتت أن عمر الطبقة التي نحفر بها حاليًا يتجاوز الألفي عام.

قالها وتركني أدور كالذبابة في بهو المنزل الذي اشتريناه مناصفةً، بعد أن حدد عميت بقعة الكنز تحته، واكتشفنا أنه مملوك لثلاثة من الورثة فاضطررنا لأن ندفع لهم جميعًا تجنبا للنزاع، وكل هذا بسبب عميت، الغضب يفترسني وشياطين الأرض تعبث بوجهي، وهو هادئ صَبور مثل لوح الثلج.

لا أدري لماذا اختار دهليز المستودع ليفتح في جداره الداخلي بابًا ويشق خلفه ما يشبه الغرفة الصغيرة كأخدود للحفر ومن قاعدة الأخدود حفر

حفرة عميقة وغلّفها بألواح من الخشب حتى لا تتهاوى جدرانها، لماذا لم يحفر من الغرفة العلوية مباشرة؟

لا زلت غير مقتنع بتلك الفكرة الهندسية، فأنا لا أفهم بالهندسة، ولا تعجبني تفسيراته الغثّة التي يبرر بها بعثرة أموالي، كلما سألته عن سبب حفر كل تلك الأخاديد يرد بأن الحفر بعيداً عن نقطة الانتشال المرادة يجنبنا الانهيار فوقها وتشويه معالمها، لا أحب تفاصيله تلك التي تكلفني المزيد من الوقت والمال، ولست معتادًا على تلك الأمور المُلتوية، أريد أن أختصر، أختصر بشدة، ولذلك اتخذت قراري بعد تفكير عميق وعدت أهدده، مشيرًا بأصبعي: عميت سأنتظر أسبوعين إضافيين وإن لم يظهر السِرْدَاب، أو تظهر علامة واضحة تفيد باقتراب العثور عليه سأنسحب وأحملك كل التكاليف.

اقتربَ مني ناصبًا وجهه أمامَ وجهي في تحدي: وإن عثرت عليه بعد انسحابك.

-ساكون شريكك أيضاً.

غضب وقال مستنكراً :بأي حق؟ الانسحاب يعني انسحاباً كاملاً من الأمر برُمته.

غرزت سبابتي بجبهته وقلت: بحق أنني أملك المخطوطات.

ابتعد وقال متهكماً: أية مخطوطات! لم نعد بحاجه لها من الأساس يا نعوم، أم أنها مسمار جحا!

قبضت على معطفه أهدده: لا جحا ولا حماره، سأنتزع حقي منك أيّما شئت وأينما شئت يا لص. دَفَعني وحاول التملص بجسده المترهل، فلكمته في

أنفه، وتأوّه ثم صرخ: أتركني يا غبي. وبينما نحن نتشاجر ارتفع صوت ينادي: خواجه عميت، خواجه عميت.

حوّلنا رؤوسنا تجاه مصدر الصوت فرأيت عامل الحفر سليمان -والذي وعده عميت المأفون بحصة من محتويات السرداب-يطلُ برأسه من الدهليز وينادي في انفعال فسأله عميت بلهفه :ها؟ هل ظهر شيء؟

-نعم يا خواجه. لقد ظهر شيء ما.

ولم ندر ماذا فعلنا بعدها، انطلقنا ندور حول البيانو، ونهب الدهليز نهبا حتى وصلنا بابه ونزلنا على سلم حديدي يهبط لعدة أمتار للأسفل ووقفت داخل الغرفة الصغيرة التي تشبه الخَندق، وبين معاول الحفر بمختلف أحجامها، أتطلع إلى الحفرة المشقوقة تحت قدميّ، تُحفُها دُعامات الخشب رأسيا، وتهبط بعمق خمسة أمتار للقاع، ويتدلى من فوهتها مصباح صغير يعمل بالكيروسين، أنار القاع وكشف عن سطح مزخرف من الخشب، يبرز في الوحل، وسط طبقة كثيفة من الطحالب والكائنات البحرية الميّتة.

قلّبت بصري بقاع الحفرة فلاحظت، ظهور غطاء أسطواني بأحد الأركان أسفل دعامات الخشب، ولم أفهم سبب وجوده، التفسير الوحيد المقنع أنه يستخدم لصرف المياه.

التقط عميت مطرقة صغيرة وإزميل وفرشاة من صندوق الأدوات، وأشار لنا بالانتظار وحشر مؤخرته السمينة بفوّهة الحفرة وتعلق بسلم الحبال المتدلي بداخلها، والمعلّق بجدار الغرفة في خطّافين من الحديد مدقوقين بَرْمًا بالجدار، ثم بدأ يهبط على عوارضه الخشبية بمجاهدة حتى وَصَل القاع، وأخذ ينقب بالمطرقة الخشبية والإزميل حول السطح الخشبي البارز وسط الطين، وبحرص خوفًا من أن يطمس شيئا، كان يبدو وكأنه صندوق،

لكنّ مجموعة من العظام البشرية النخرة ظهرت بجانبه أولًا، وتفاجئ عميت بها وأخذ ينبش حولها برفق شديد، وباهتمام مستفزّ، لا أدري ما المفيد بكومة عظام؟ حتى لو كانت لملك أو إمبراطور.

انتظرته بشغف حتى انتهى وأستخلص خنجراً بدا أثريًا، وبرقت عيناه وهو يتأمله في انبهار، ثم دسّ الخنجر والعظام في جِراب من القماش وعاد ليكمل النبش بحرفيّة فبرزت جمجمتان، ورأيت عيني عميت تجزعان لكنّه استخلصهما بمهارة، ثم بدأ بعدها يُنَظِفُ سطْحَ ذلك الصندوق بالفرشاة، ويزيل عنه التراب والعوالق، وحينما أتم التنظيف نقب حوله من كل الجهات حتى ظهرت كل نقوشه وتفاصيله وهنا انتفض، ارتعد بمجرد أن وقعت عيناه على جوانب الصندوق، تراجع إلى الخلف والتصق بجدار الحفرة وعلى وجهه كل أمَارات الخوف، وانتقلت موجة خوفه إلى سليمان العامل، الذي كان مستلقياً بجانبي يمدّ رأسه المعمم عبر كوة الحفرة ويتابع ما يحدث، وفرّت من بين أسنانه كلمات مذعورة بلكنته الصعيدية: الصندوق ملعون.

-ماذا بك يا عميت أفتح الصندوق، رفع رأسه ينظر نحوي فوبخته: افتح الصندوق يا متردد.

رد بنبرة خائرة: هناك مشكلة بالصندوق.

-وما هي؟

-أظنه مسحوراً بلعنة.

-لعنة!!!!

ساورني القلق مع تأكيد عميت لكلام سليمان، وسكتنا وكأن على رؤوسنا الطير. انتزعت المنظارَ الملقي بين عدة الأدوات، ووضعته على عينيَّ أتأمل الصندوق، كان بطول مترا، وعرض وعمق لا يتجاوزان نصف المتر، مصنوع من خشب السرو، ويحتل أوجهه الأربعة نقشٌ بارز على شكل درع محفور به رأس ما، والدرع نفسه محمول فوق رأس ثعبان أنيابه بارزة، أمّا على يمين الثعبان فرسمت عصا ما، بينما على يساره برَزَ نقش لنبات غريب، حافة الصندوق مزيّنةً بإطارٍ مزخرف من أوراق الغار تلتف حول جِهَات الصندوق الأربعة ومثلها كان يدور إطار زخرفي بغطاء الصندوق والمُصمَمْ على هيئةَ قُبّة مُضلّعَة، وعلى الوجهين الجانبيين للصندوق يمتدّ حاملان من الفضة، وزواياه الأربعة مثبّته بقواعد من الحديد، لم أفهم عن أي لعنة يتحدث وما هو سِّر خوفه من تلك العلبة الخشبية، فعدتُ أسأله: ما هو المخيف في ذلك النقش يا عميت؟

أشار إليه وقال: هذا النقش الكبير البارز هو درع الآلهة محفور به رأس ميدوزا والتي تحيل من يراها إلى حجر ميت، والثعبان هو ثعبان مقدس للإله أوزوريس، إله البعث والحساب عند الفراعنة ولذلك يجلس فوق معبد ويلبس تاج الوجهين البحري والقبلي، أما تلك العصا على يمين الثعبان فهي صولجان ثاناتوس إله الموت عند الإغريق.

-وماذا يعني هذا التفسير الفني السخيف؟

- الصندوق باختصار يرسل تهديداً مباشرًا للمتطفلين أمثالنا ويبعث برسالة مفادها أن الموت هو مصير كل من يتجرأ على فتحه يا نعوم.

كانت لحظة حاسمة في حياتنا جميعا، قلبي يخفق شوقاً لرؤية محتويات الصندوق، لكن عقلي يرفض المخاطرة والمغامرة، وكان الصراع محسومًا

قبل بدايته، لن أتخلى عن حُلمي الأكبر في الثراء من أجل أوهام تدور في رأس ذلك الأشعث عميت، ولذلك حسمت أمري وقلت: افتح الصندوق يا عميت.

تردد فصرخت فيه: قلت لك افتح الصندوق.

مدّ يده تجاه الصندوق، ثم فتحه لينفرج الغطاء كاشفًا عن مفاجأة مذهلة، مجموعة خيالية من الجواهر تلألأت تحت ضوء مصباح الكيروسين ولمَعت أشعتها مخترقة الظلام بنجومها الرباعية المبهرة، وضعت المنظار على عيني أتأملها فذهلت، لم تكن تخلو من أي نوع من الأحجار الكريمة ولا أي حجم، الزبرجد والزمرد بالإضافة لياقوتة حمراء عظيمة يقترب حجمها من حجم الكرة الصغيرة ومصقولة بشكلٍ فنيٍ حرفي وكأنها زَينتْ يوماً تاجًا لإمبراطور عظيم، بالإضافة لتشكيلة فريدةٍ من عقودِ اللؤلؤ الحي النفيسة وأحجار الاسبيندل وأساور منحوتة بفن مبهر.

حجم المفاجأة كان أكبر مما يحتمله كياني، شعرتُ أنني سأسقط مغشيًا عليّ داخل الحفرة وأنا أشاهد عميت قد ابتعد عن الصندوق وكأنما شيء ما اقتلعه ورماه بعيداً من هول المفاجأة بينما جفل سليمان بجواري وتسمّر.

ألجمتنا الصدمة، فالكنز كان خيالياً يفوق كل تصوراتنا، وبقينا على حالتنا طويلاً حتى أخرجنا عميت من حالة الذهول وبدأ في التحرك ونسي تمامًا لعنة الصندوق، ونادى على سليمان: تلقى مني يا سليمان.

هبط سليمان عِدةْ عُقد من السلم المفتول حتى اقترب من عميت وتدلى للأسفل بجذعه في مرونة مدهشة بعد أن عانق بساقيه عارضة سلم الحبال ومدّ ذراعيه إلى عميت وحمل عنه الصندوق في مجاهدةٍ شديدة، ثم

تسلقَ عدة عُقَد لأعلى حتى بدأ السلم يترنح به فمدّ ذراعيه يناولني الصندوق، لكنه كان لا يزال بعيداً عني فصحت به: اقترب أكثر يا سليمان.

انقبضت عضلاته أكثر وعضّ ثوبه بين شفتيه محاولًا رفعه أكثر وقال بصوت مكتوم: الصندوق ثقيل للغاية.

كان عاجزاً عن الصعود به لدرجة أعلى، وذراعيّ الطويلان مازالا لم يتمكنا من الصندوق بعد، لكننا جاهدنا. استهلك سليمان ما تبقى له من قوّة في رفع الصندوق فوق رأسه، ومددت أنا ذراعيَّ عن آخرهما محاولًا أن أقبض على حامليّ الصندوق، لكن وللأسف خاننا التوفيق في لحظة متوترة عجزتُ فيها عن التمكُن من الصندوق، وعجز سليمان عن احتمال ثقله لفترة أطول فسقط من بين أيدينا وهوى من ارتفاع خمسة أمتار وهوى قلبي معه.

ابتعد عميت إلى الركن حتى لا يقتله الصندوق والذي ارتطم بالقاع مصدراً ضجة شديدة وتبعثرت جواهره هنا وهناك، بينما أمسك سليمان رأسه لائمًا نفسه، أما أنا فخرج من عيني شيطان لعين ولاح أمام وجهي في تلك اللحظة الشؤم، ورأيت جدران السرداب تتلظى، والحنق يتوقّد بداخلي كأنه جحيم آت من جهنم.

وسوس لي شيطاني قائلا: هذه فرصتك. وفهمت قصده واستجبت فورًا. انتزعت مقص الحديد من صندوق العدد وقطعت طرف الأنشوطة التي تُعلق سلم الحبال بالخطاف الحديدي، فانقطع طرفه وهبط بسليمان للأسفل مسافة متر. جزع عميت وصرخ وهو يلوّح لي من قاع الحفرة: ماذا تفعل أيها المجنون.

لكنني أغلقت أذنيّ، قررت ألّا أسمع، وقطعت الحبل الثاني للسلم في برود، فهوى سليمان إلى القاع، وارتطم بالصندوق في عنف، وهو يصرخ بجنون ممسكًا بركبته التي انكسرت مصدرة قرقعة عنيفة.

تطلع عميت إلى سليمان في ذهول وغضب وصرخ: عد إلى صوابك يا نعوم.

تجاهلته ومددت رأسي أطل بها من فوهة الفتحة ومنحتهم نظرة شيطانية معبئًا بصري بمحتويات الصندوق المبعثرة بالقاع، ثم لملمت حبل مصباح الكيروسين المتدلي بالفوّهة، فانسحب النور من الحفرة مع تصاعده تدريجياً، في ظل ارتفاع صراخ عميت وأنين سليمان وحينما أظلمت الحفرة تمّاما، أحضرت عدة ألواح خشبية عريضة ومطرقة ومسامير وبدأت أدق غطاءً لمخرج الحفرة حتى انتهيت.

صنعت لهم قبراً، ودفنتهم به أحياءً. تركت صرخاتهم تتوالى وتتصاعد، ولم ألتفت، لم ألتفت أبدًا، بدت لي مثل موسيقى يعزفها جلين ميللر في حفل افتتاح البنك الذي سأقوم بتأسيسه وحدي ودون شريك، حتى أنني جلست داخل الغرفة أتلذّذ باستغاثتهم، وانتظرت وبكامل الصبر رد فعلهم حتى تأكدت من عجزهم عن تسلق ألواح ودعامات الحفرة، وكان أمرًا محسومًا، سليمان قدمه مكسورة وذلك الدُبّ عميت لن يملك الرشاقة الكافية لتسلق خمسة أمتار، ساد الصمت قليلاً ثم سمعتهم يقرضون الحفرة من الجوانب كالفئران ويحاولون شقّ نفقٍ جديدٍ وتواصل نخرهم للجدران حتى عجزوا واستكانوا وتوقف كل شيء.

شعرت بنشوة الانتصار، واطمأنت نفسي، فدسست معولًا صغيراً بمعطفي على سبيل الحماية، وصعدت إلى الدهليز ثم منه إلى بهو القصر ودرت حول البيانو وأنا أطالع العُصفور الذي خرج من عُشّه ليصيح تسعة مرات

متتالية، وحين انتهى من صياحه رأيته يقفز من الساعة ويطنّ مرفرفًا بجناحيه الخشبيين ثم تتباطأ سرعة رفرفته ليفقد الروح ويتحول إلى خشب ويستقر مكسوراً بين راحتي وكأنه أصيب بسهم من نظرات ميدوزا، تقدمت ناحية مرآة البهو لأتأمل ملامحي ومن نصف طلّة عرفت أنني عدت إلى ذاتي، فالمرآة كانت تلتقط صورة حديثة لملامح ذلك الرجل الذي كنت أظنني أعرفه، أحمد.

عدت من شرودي وبين يدي إجابة واضحة عن سرّ ذلك الصراخ والأنين الذي كنت أسمعه في المنزل، لم يكن واقعًا لحظتها بل كانت ذكريات شاردة في رأسي لصراخ عميت وعامل الحفر سليمان، واللّذان دفنا هُنا بالحفرة بعد أن أغلق عليهم نعوم كوّتها وكان هذا تفسيرًا واضحًا أيضا للحلم الكئيب الذي زارني فيه نعوم وأسقطني في الحفرة وغلّفها بألواح ودسر.

القبو الذي كنت أجلس به منذ لحظات، كانَ في يومٍ من الأيّام قبرًا لعاشقيْن ومضى الزمن وأصبح قبرًا لرجلين، ثم قبراً لزوجين ويبدو أن رحلته في ضم الأرواح ستستمر، لكن ماذا عن تلك الآلة؟ لماذا هي هنا؟ ومن الذي وضعها؟

توقفت أفكاري مع لطمة عاتية من البحر للشاطئ، وقرّ بقلبي أنه يستدعيني، يناديني قائلًا: أقبل فلدي شهادة أكتمها منذ زمن وحان موعد البوح بها.

* * *

(ذكرياتي)

تدثرت بمعطفي وحملت دفتري وقلمي وخرجت إلى البحر فوجدته غاضب، يقذف الرعب في القلوب، العاصفة تعربد فوق سطحه، والموجَ يصطخب بين جنباته، هديره يصمّ الآذان ويرجُ الشاطئ رجًا، وسماؤه كئيبة مظلمة وقمرها هارب، ثمة حدث كبير قادم بالأفق لامحالة، يحمل الرعب ويخيف كل شيء هنا حتى الأصداف.

لا أحد يجرؤ على أن يجلس بين ذراعي البحر في حالة مثل تلك إلّا أنا، فالطقس بداخلي لا يختلف كثيراً، وكأنه يستمد أجواءه من حال البحر، تدور بداخلي زوبعة لا تهدأ، تعبث بأوراق ذكرياتي الذابلة، لتسمع اعتراف حفيفها الخفيض تحت أقدام الجذوع المجتثة من عمري، ثم تنثرها في كل اتجاه عقابا لها على جرم لم تفعله،

جلستُ إلى رماله لأناجيه، فالبحر هو خليّ الخائن وعدوي الأمين، ألجأ إليه لتفيض ذكرياتي على شطآن نفسي كما يفيض هو على ضفاف الرمال، حاولت إشعال النار لصنع مَوقد يبثني الدفء لكن الرياح منعتني، ولم تصمد أمام غضبها قدّاحتي التي فركتُها عشرات المرات ولم تستجب، لكني، ورغم ذلك لم أرحل، تأبطت دفتري وقلمي وجلست أمامه منكمشًا مثل الجنين، ارتجف من البرد وأنفث كفيّ كل حين لأمنحهما الدفء.

وبمرور الدقائق تسللت البرودة إلى جسدي حتى تحوّل ارتجافي إلى انتفاضة شاملة جمّدتْ أنفاسي وصار أنفي ينُفثُ بخار الماء كأنه مدخنة، لكنّي بقيتُ

أعاند وبلا هدف، ماذا أنتظر؟ ولما أجلس هنا؟ لا أعرف، ما الذي يحمله البحر لي؟ ولماذا ناداني ومتي سيتكلم؟ أيضًا لا أعرف، انتظرت، وانتظرت، ولم يخبِ ظنّي أتاني زائر الليل وجليس النهار، الصداع، ارتفعت أجراسه تدق داخل رأسي معلنةً عن خطر قادم، فتأهبت في حالة استنفار شاملة لوجداني، وجاءني الشرود بين ثنايا الألم، سمعتُ صوت الدم المتثاقل ينخر عروق دماغي، احتضنت رأسي بكفيَّ الباردين فاشتد وجعي، صار هدير الموج مثل المخدر، وتمكنت جرعة البرد من دمائي، رأيت قطعة من البحر تشبه القرص تغادره وتدور حولي صانعةً أرجوحة دوّارة حملتني وامتطيت أحد مقاعدها السائلة، لا أدري كيف أركبها وهي التي صنعت من رذاذ؟ ولم تعر سؤالي اهتماما، دارت بي حتى رأيتُ منزلي بالأمام والبحر من خلفي، ثم عاد البحر يمتد أمامي وتوارى منزلي إلى الخلف، وباللفة التالية جري المنزل على رمال الشاطئ مسرعًا وتعاظم فاتحًا فمه يريد ابتلاعي، بينما واصلت الأرجوحة دورانها ورأيت البحر يمدّ لي لسان موجه المشقوق مثل آصله عملاقة، من منهما سيلتهمني أولًا يا ترى؟ وحسمت الأرجوحة الصراع حينما دارت دورتها الأخيرة لتلقمني لفوهة المنزل وتطرحني بداخله، لأشاهده وهو يتسلل إلى الحديقة المهجورة متلفتًا كاللص، وكنت أرتكن إلى حافة طاولة الطعام مشبكًا بين قدمي، وراحتيَّ مندستان في جيبي معطفي أراقبه عَبَر نافذة البهو في صمت، وانتظرته حتى عبر من النافذة، وسقط بجسده الضئيل إلى الداخل ليجدني أمامه، فارتعد فزعًا وتفل الكلام من فمه: نعوم!

-كميل! ما الذي جاء بك هنا؟

-انكمش مثل هرّ جبان وقال متلعثما: لقد عرفت.

-عرفت ماذا؟

خفض نبرة صوته ومدّ رقبته نحوي وكأنه يذيع سرًا: عرفت أنكم تحفرون من أجل أثر قديم.

-ومن الذي أخبرك بذلك؟

- المخطوطات التي رأيتك تتفحصها.

-مم، وماذا في ذلك؟ أنا أتفحص العشرات من هذه الأشياء أمامك.

-لكنك بدأت تتغيب ولأول مرة عن الدكان وعن محاسبتي و ...

-وماذا؟

-وتبعتك إلى هنا ورأيت عميت معك.

-ولنفرض! ماذا تريد؟

-أريد حصتي.

-حصتك في ماذا؟!.

-في محتويات المقبرة.

-وما أدراك أنها مقبرة؟

-لأنك زرت موريس بك.

ضاقت حدقتي أسبر أغوار الفتى وقلت: هل كنت تراقبني يا كميل؟

-لا، لكن غرابة أطوارك الفترة الأخيرة أثارت فضولي، وحاولت أن أفهم السبب وقادني ذلك إلى تلك الفرصة.

-فرصة! قلتها مغتاظًا ثم أردفت بلهجة ودودة: كميل نحن لم نعثر على شيء بعد يا صديقي.

-صدقًا؟

-بلى، وربما يكون الأمر كله مجرد وهم، وساعتها سأتحمل وحديّ الخسائر، أرأيت كم أنا متهور.

-حسنا سأساعدكم، أنا نشيط ويمكنني العمل ليل نهار.

داعبت لحيتي الصغيرة قليلاً وكأنني أفكّر ثم قلت: لا بأس لكن بشرط.

-أوافق مقدما.

-ألّا تخبرَ أحدًا بما نفعله، ثم غرستُ سهام نظراتي في ميناء عينيه واستدركت خافضًا نبرة صوتي: أم أنك أخبرت أحدهم بالفعل؟ أشاح بذراعيه نافيًا ومستنكراً: لم أفعل بالطبع هل أنا مجنون لأخبر أحدهم فيأتي إلى هنا ويشاركنا.

تنهدتُ بارتياح وقلت: في هذه الحالة لا مانع لدي أبدًا.

فرح بموافقتي، وطوقتُ كتفه بذراعِي وأنا أصحبه إلى الداخل، وأثناء دورانا حول البيانو ضج البهو بصراخ مكتوم وكان آتيًا من جهة السرداب، فأصاب الذعر الفتى وتساءل وهو يمد عنقه نحوه.

-ما هذا الصوت؟

اشتعل الغضب بداخلي وقلت: هذا صوت عميت وعامل الحفر، أظنهما يرفعان حجراً ضخمًا، برقت عينا كميل بالطمع وقال: لابد أنهما وجدا شيئًا دعني أساعدهما.

-حسنًا سِرْ معي.

توقفنا تحت السلم وأمام الباب الصغير فقلت له: هل تعرف لماذا أحبك يا كميل؟ أحبك لأنك قتور مثلي تمامًا، وربما أفضل وهو ما يجعلني سعيدًا دائمًا بوجودك إلى جواري، كما أن جسدك ضئيل يوفر الكثير من المساحات. قلتها ويدي اليسرى تنسل داخل جيب معطفي لتخرج المعول الصغير الذي احتفظ به، وبمجرد أن قبضت عليه دفعت كميل من ظهره إلى للأمام فارتطم وجهه بالباب وصرخ ممسكًا بأنفه والتفت مستنكرًا، فقابلته بضربة بالمعول وفي موضع حنجرته تماما، انغرس المعول بتفاحة آدم البارزة في عنقه، وبقيت متماسكة للحظة هاربة من الزمن ثم انفجر منها الدم، تعلق الفتى بمعطفي وهو يخرّ أمامي على ركبتيه وروحه تهرع من طرف عينيه الضيقتين، رفعت أنفي لأعلى وهبطت بنظري أتفرسه في ثبات حتى سقط عند قدمي جثة هادمة.

ذلك اللعين ذو الأنف الكبير يريد أن يعض لُقمتي، ويقضم معها أصابعي فليذهب إلى أعمق أعماق الجحيم، بصقتُ في عينيه المتحجرتين وقلت: لم أستفد منك في حياتك يا كميل لكن من حسن حظي أن اليوم هو السابع من آذار، عيد البوريم ويمكنني الاستفادة من جثتك كقربان أهديه إلى يهوه لعله يرضى بذبيحة مقرفة لمهرج مثلك.

جرجرته إلى الشاطئ، وربطّته في حجر ثم خضت به البحر حتى ارتفع الماء إلى رقبتي فخليّتّ جثته لترقد في أحشاء البحر المظلمة بلا سلام، ثم عدت وأحضرت فرشاة لتنظيف البلاط ومسحتُ كل آثار الدم وتبخر كل شيء ولفّني البرد.

-الجمجمة ... الجمجمة.

-أحمد استيقظ.

-الجمجمة التي رأيتها أثناء الصيد، كانت جمجمة كميل، نعوم قلته.

-أحمد ... أحمد.

أفقت وأنا أنتفض كالمحموم، أحاول استجماع كلماتي لأعبر عمّا أفكر به، لكن لساني كان ثقيلاً، وأقصى ما أمكنني قوله كان تساؤلا من كلمتين: أين أنا.

-أنت بمنزلك أمام المدفأة ألا تراني؟

-حوّلت رأسي المترنح ناحية صاحب الصوت ورأيته، كان الدكتور مصطفى وكنت أجلس أمام المدفأة بملابس جافة، متدثرًا بالبطانيّات الثقيلة، وهو جالس بجانبي يواسيني بصوت دافئ: الحمد لله أنني أدركتك قبل فوات الأوان، وجدتُك متجمدًا أمام البحر مثل قطعة الثلج وروحك منسحبة منك، كنت تموت يا أحمد، لماذا فعلت ذلك بنفسك؟ هل تريد الانتحار؟ قلت بصدر متهدج وشفاه ترتجف: البحر رأى كل شيء، ويعرف كل شيء وكان لا بد أن استجوبه.

-حسناً اهدأ يا عزيزي، أنت بخير الآن.

-الحمد لله.

-الأرصاد أعلنت أن أنواءً شديدة ستضرب الإسكندرية الليلة، وجئت لأنقلك لمكان آخر، وجودك بالمنزل يشكلُ خطرًا شديدًا على حياتك يا أحمد ولابد أن نتحرك سريعا.

سكتُ قليلاً حتى استعيد توازني ثم قلت: لن أغادر المنزل يا دكتور حتى لو مت هنا.

-أحمد اسمعني الأمر أخطر من أن تعاند و ...

قاطعته: لن أغادر هذا قراري، ولن اتراجع عنه.

هز رأسه في يأس، ثم قال بعد أن تحطمت محاولاته على جدران إصراري: حسنًا أغلق كل الأبواب والنوافذ ولا تخرج من المنزل أبدًا، وإذا شعرت بأي خطورة على حياتك اتصل بي.

- سأفعل.

رمقني بنظرة من لا يثق بكلامي ثم استقام وقال بصوت رخيم: في أمان الله يا احمد، وغادرني مجبراً لا بطلاً.

تركني لنفسي، وتركته يغادر لأختلي بذكرياتي، أعلنتُ الحرب عليها، الليلة سأنبش كل دهاليزها وأنقب عن هويتي الضائعة بين طبقاتها، سأحفر بها خندقًا لا تقدر على طمره الأحداث ولا الصور ولا يمكن أن يغمره مطر الوهم أو تبعثره رياح الزمن، ولن أتوقف عن طرق جدرانها الغُلْف، وإهالة حجارتها المتكدسة، سأشق طريقي إلى جوفها كي أحرر ذلك النهر الحبيس بين صخور النسيان ليفيض على قلبي بنبع رقراق تتموج على سطحه كل لحظاتي التي عشتها بحلوها ومرها.

لا أدري كم مضى من الوقت حتى استطعت أن أحرّك أطرافي المتغضنة، وكان أول شيء فعلته بعدها هو أن لململت الأغطية وسحبتها معي إلى القبو، حيث تربض الماكينة، القصة كلها بدأت هناك وتنتهي هناك والسر ولد هناك ويعيش هناك وسيموت هناك، أمسكت بالقلم والورقة وألقيت بجسدي الذّابل على الكرسي الهزّاز وتركته يواصل جولاته المكوكية واستسلمت له تماما، وأكرمني، حملني إلى الماضي أو حمل الماضي إليّ لا يهم، غبت عن عالمي، أو غاب عني لم تعد تفرق، جافاني النوم بعد أن تخلّصت من ذلك الحشرة كميل، جَسَدي مازال يرتجف، فالقتل ليس سهلا

كما يظن البعض بل يغلقُ جُرمه بكل شيء من حولك حتى ثيابك، يهاجمك في نومك ويقظتك ويفسد عليك الكثير من المتع، وأنا-وخلال ليلة واحدة- قتلت كميل ودفنت عميت وسليمان.

جلست إلى طاولة الطعام أحاول استعادة تماسكي الهارب، لكنه ظلّ يفلت مني كالزئبق، لازلت أرتعش والوقت يزحف ولا صوت يشق ذلك السكون البهيم إلّا صوت صرخات عميت وسليمان وتوسلاتهم لي بالرجوع إلى عقلي وإخراجهم، لكنّي ورغم ارتجافي لم أعرهم انتباها، انتظرت حتى بزغ الفجر وسكنوا تماما ثم غادرت المنزل، وتمشيت حتى وصلت عند طرف الطريق الرئيسي فوقفت على رؤوس أصابع قدمي أنتظر ظهور إحدى عربات الفول أو الباعة الجائلين.

وبعد برهة بدأ قرص شمس الصباح البيضاء بالصعود وبداخله كان شبح عربة يتنامى، انتظرتها حتى اقتربت مني وتكشفت ملامحها فإذا بها خشبية ذات عجلتين، يجرها بغل فتيّ، وتحمل كومة منتفشه من البرسيم يجلس فوقها السائس محنيًا، استأذنته في الركوب، فأذِنَ لي، قفزت لأعتلي كومة البرسيم معه، وتأرجحت بنا العربة عبر الطريق يمينا ويسارًا وأخذت عجلاتها تصرّ وحوافر البغل تدق الأرض، إلى أن وصلنا المدينة مع احتداد الشمس بالأفق، نزلت من العربة إلى حنطور أوصلني إلى سوق الذهب، وبداخله عبرت أمام دكاني المغلق دون أن أعِرهُ اهتماما لأول مرة في حياتي، فعقلي كان مشغولاً بالأهم. توجهت إلى حيث دكان موريس للمجوهرات والذي كان يقع في أخر زقاق بالزنقة، ودخلته فاستقبلني الرجل بحفاوة، ثم أختلى بي في مكتبة وأحكم إغلاق الباب.

-أهلا نعوم.

-أهلا موريس، أحضرت لك عينة.

-عظيم، أين هي.

شغفه أقلقني فأخذت حذري: ليست معي لكن يمكنني أن أصفها بدقّة.

-مم، لا بأس.

-الحقيقة هي جوهرة أو لنقل عدة جواهر.

-تقصد كنز؟

-نعم. قلتها بضيق من أفشى سر الوجود.

-وما وصفها؟

وصفت له الجوهرة التي رأيتها بالصندوق، لكنه لم يرضى بالوصف اللفظي، وطلبَ منّي أن أرسمها له حتى يستطيع تقدير أبعادها بدقة، وأحضر لي ورقة وبعض الأقلام الملونة، فرسمتها له مضطراً والضيق يزفر من أنفي، ولم أكد أنته من الرسم التقريبي حتى تحول وجه موريس إلى تمثال نُحتت على ملامحه كل تعبيرات الذهول، كانت أولَ مرة أراه منبهراً بهذا الشكل، وهو الذي اعتاد رؤية الجواهر والحلي المرصّعة منذ صباه. رد فعله حدّ أنياب الهواجس بداخلي، وفهم ذلك بدوره فطمأنني مشيراً بكفه: لا تقلق يا نعوم أنا لا أطمع بجوهرتك لكنني عاشق للجواهر وأعاملها معاملة الحبيب لحبيبته، لابد أن تتعود على ذلك حينما تتعامل معي.

أومأتُ برأسي متصنعًا التفهم، ومحاولاً كبتَ غضبي بذات الوقت. كنت مجبراً على التعامل معه، ليس فقط لأنه يستطيع تقدير قيمة الكنز بما لديه من خبرة تنقصني بل أيضًا لما لديه من صِلات قوية بكبار الشخصيات

في المجتمع، كما أن بقاء صندوق مثل هذا في حوزتي، يشكل مخاطرة كبيرة ولن آمن السرقة ولذا يجب بيعه سريعاً.

عاد موريس ليصف الجوهرة كأنه رآها وراح يتغزل بها قائلاً: ياقوته مذهلة، إن صح رسمك يا نعوم فنحن أمام جوهرة لا تقدر بثمن، قطعة فريدة لأثمن الأحجار الكريمة، الياقوت، هذا بالإضافة إلى وزنها والذي أتوقع أن يصل إلى خمسمائة قيراط. ثم ضحك عابثًا وأردف: إنها بحجم رأس ثعبان ضخم حتى انني أفكر أن نطلق عليها هذا الاسم لتسويقها.

-رأس الثعبان! قلتها مقلبًا رأسي أتأمل الرسم واسترجع هيئتها التي انحفرت بمخيلتي، كانت تشبه رأس الثعبان بالفعل حمراء قانية تبرقُ في الظلام وكأنها تهدد من يحاول الاقتراب منها، بالتأكيد ستعشق الكثير من النساء المترفات والهوانم أن يزين صدورهن جوهرة مثلها، رائعة، وثمينة وتدفع الشر.

-حسناً، فلنعقد صفقة إذاً يا موريس، أنا سآتيك بالجواهر وأنت تبيعها نظير مبلغ ما.

-بالطبع أرحب بعقد صفقة مثل هذه يا نعوم، لكن في عالمنا نأخذ نسبة من اجمالي عملية البيع وليس مبلغاً مقطوعاً.

-نسبة! طفرت الكلمة من فمي وكأنما عضني كلب.

-نعم ولن أبالغ في الرقم، سأطلب عشرة بالمائة فقط.

- عشرة بالمائة! لكن هذا كثير!

-على العكس يا نعوم هذا يعتبر الحد الأدنى، وعلى العموم يمكنك أن تلجأ إلى وسيط آخر وتستفسر عن الأسعار في سوق الجواهر وسترى أنني أقلهم سعراً.

فكرت مليًا كعادتي ووصلت إلى نتيجة واحدة، عشرة بالمائة أفضل بكثير من النصف الذي كان سيلتهمه الغبي عميت، فوافقت: حسناً، احسب قيمة نسبتك وأضفها على سعر الصفقة ككل حتى يتكفل بها الزبون بعيداً عن مالي.

ابتسم قائلًا: لا ضير، سأفعل، ولو كان لديك الكثير منها يا نعوم صدقني لن تكترث بنسبتي لأنك حينها ستقفز إلى القمة، ستصبح من أثرياء القُطر وستصبح من الفرع الثري للغاية بعائله منشا، أعجبتني جملته الأخيرة فقلت وأنا أتراجع بالكرسي للخلف راسمًا بأصابعي لافتة مربعًا على جبين الهواء، نعوم روفائيل منشا بك. وسقطتُ من فوق الكرسي ليرتطم وجهي بأرض الغرفة، وتألم رأسي لكني تجاهلت ذلك بسبب ما كنت أراه يحدث للجدران، كانت تتراقص من حولي، وكأن هزّة أرضية تضربها، بينما أسطوانات الماكينة تصنع حول نفسها هالة من الرنين، والكرسي الهزاز منكفئ، اعتدلت بصعوبة مقاومًا هزالي، والتقطت دفتري وقلمي وخرجت من القبو إلى بهو المنزل، رفعت الستائر لأشاهد ما يحدث بالخارج من خلف زجاج النافذة وألجمتني الصدمة.

* * *

(الأنواء)

كان البحر كالجبل، والموج يجري فوق رمال الشاطئ مندفعًا نحوي مثل مقدمة جيش أذِنَ لها قائدها بالالتحام، وبالفعل اصطدم، ضرب المنزل بلطمةٍ عنيفة، وطرح نفسه على زجاج نافذتي التي كانت ترتعش بجنون، شعرت وكأنني داخل سيارة تغرق، زبده غشا النافذة وسال عليها مثل اللبن. ولمحت النخلة اليتيمة التي جاورت المنزل أمدًا وكانت باسقة منذ ساعات، مرتخيةً كالقوس تقاوم الاقتلاع وسعفها مطأطأ الرأس، بينما رغوة البحر البيضاء تغمرها.

الرعود تدمدم، والبروق تصطك في شراسة، المطر يواصل سيله الجارف والمنزل يسبح داخل بحيرة فائرة. لابد أنها الأنواء التي حدّثني عنها الدكتور مصطفى. أحكمت إغلاق عتبة الباب وحواف الشبابيك حتى لا يتسرب الماء إلى الداخل آملاً أن يؤمن ذلك المنزل من محاولات الاقتحام المتواصلة التي يكررها الموج، الأرض بالخارج مُفترشَةٌ بلجةٍ بيضاء وكل ما في الداخل يقعقع ويئز تحت وطأة الإعصار، قوارير القناديل ترتعش، والأثاث يرتجف، حتى التماثيل لاح على وجوهها الصماء شبح الخوف. حوصرت من كل جانب، وصار الخروج مستحيلاً، والبقاء مخاطرة، خاصة مع ارتفاع منسوب الماء بالخارج، بينما داهمت أعماقي موجات باردة لتغتال ما تبقي لي من حيوية وتنزع نبضاتي بشراسة وحقد، حواسي بدأت تنهار، الصدمات التي طافت

بعقلي استمرت تنقل رحاها إلى جسدي الذي أصبح ثقيلاً يرغب أن يتخفف من كل شيء حتى لو كان هذا الشيء هو الحياة نفسها.

ولأن ذكرياتي مثل الموج، ولأنها تنتمي له أكثر مما تنتمي لي، خَلّتْني وانضمت إليه، ساندتْ أعدائي الذين استغلوا ضعفي، الشرود والصداع، والدوران، ثلاثتهم كانوا في طريقهم إلى دك حصوني، ورأيتهم يقتربون فتشبثت بدفتري وقلمي، واستسلمت للماضي حتى لا أتألم أكثر وكان رسول الماضي هذه المرّة أكثر بيانًا.

سبعُ ليالي مرت على إغلاقي الحفرة على ثلاثتهم، عسكرتُ هنا بالمنزل ورفضت مغادرته بعد لقائي بموريس خوفًا من أن يتسلل أحد المتطفلين إليه مثلما فعل ذلك المغبون كميل.

تحملتُ أصواتهم المرعبة التي كانت تدوي بالمنزل ليل نهار، وكأنهم يتناوبون على إفزاعي، خاصة في جنح الليل، لازلتُ لم أنسى ليلة الإثنين الماضي حينما كنت أضع طعامي لآكل والهدوء يسود الأجواء، ولا صوت بالجوار غير صوت البحر ونعيق البوم، فإذا بصرخة تنطلق من حلق أحدهم، وتطير عبر الحفرة وتقطع الممر، وتصلني هنا بالبهو لتنتزعني من جلستي انتزاعاً حتى أن قلبي بلغ حنجرتي. جفلت بعدها وفقدت شهيتي لليلتين كاملتين وجافاني النوم، اللعنة عليهم، دمّروا أعصابي، كدت أصرخ فيهم، لماذا لا تموتون في صمت.

وهكذا اضطررت للبقاء تحت وطأة عويلهم المرعب، واستغاثاتهم المخيفة التي وهنت في اليوم الثالث، وانتهت تماما بالخامس، والآن مرّت جمعة كاملة على دفني لهم أحياء، منذ الليلة الأولي والشغف يعصف بي، ويدفعني لإزالة

الألواح الخشبية والنزول لانتشال الكنز. والآن نفذ كل رصيد الصبر لدي ولم أعد أطيق الانتظار.

انتفخت أوداجي وانتشيت حتى شعرت أن صدري سيمزق ملابسي التي أرتديها، خطوات بسيطة تفصل بيني وبين تحقيق حلمي، تذكرت ذلك المأفون عميت الذي ظن أنني سأسمح له بمشاركتي، كم كان غبيًا، لكن غباءه أفادني كثيراً. إلى قاع الجحيم يا عميت لا أرض نعيم لك ولا للأغبياء مثلك، يكفي إصرارك على إقحام الآخرين في مالي ومنحهم حصة منه مقابل عدة ضربات من المعول، أي أحمق كنت لا أدري.

حملت أحد القناديل، ودرت حول البيانو. وعبرت الباب أمدّ القنديل أمامي مُدّ ذراعي لينير لي جدران النفق حتى وصلت الفتحة فهبطت على السلم الحديدي المعلّق ومنه إلى غرفة الحفر. وحينما أصبحت بداخلها بدأت تتسلل إلى أنفي رائحة بشعة. وضعت القنديل جانباً واستلقيت على الأرض أرهف سمعي عبر الغطاء الخشبي -الذي أحكمت به إغلاق الحفرة بعشرات المسامير سابقا- فوجدت الصمت يسود ورائحة تعفن الجثث تفور من داخل الحفرة إلى خارجها، وكانت أفضل رائحة يلتقطها أنفي منذ زمن، فبرغم عفنها كانت تحمل عبق المال، وبمثابة إعلان نهائي وصريح باستئثاري بكنز العمر. انتزعت كماشةً من صندوق الأدوات ثم شرعت أخلع المسامير واحدًا تلوا الآخر بحماس حتى اقتلعتها جميعاً ثم رفعت الألواح الخشبية التي كانت تسد فوهة الحفرة.

وكما الريح النتن، اندفعت الرائحة في وجهي لأشعر بلسعة نشادر عنيفة تخترق منخاري وتعبر إلى مخي، لم أتحملها فتراجعت وسعلت مكممًا أنفي، كانت عفنة لدرجة لا تطاق، لابد أنها رائحة مخ عميت الذي يشبه الليفة المتعفنة، ألهبت الرائحة حوافَ عينيّ وأدمعتني فأشحت بذراعي أطردها عن

الأجواء من حولي لكن هيهات، لابد أن أتحملها مجبراً حتى انتشل كنزي، فردت سلم الحبال البديل ثم ربطت طرفه الأول في الخطّاف المعلق والمبروم بالجدار في متانة وجذبته بقوة لأتأكد أنه سيتحملني، ولمّا اطمأن قلبي أسدلت طرفه الآخر من فوهة الفتحة فهبط عن آخره، بعدها علّقت الفانوس بحبل غليظ وأسدلته برفق فتدلى كاشفاً لي عن قاع الحفرة، ورأيت جثتي عميت وسليمان هامدتان على الأرض وحولهما تتلألأ الأحجار الكريمة التي سقطت من الصندوق، بينما استلقي الصندوق على جانبه ساكنًا، تهللتْ أساريري وشعرت بفرحةٍ عارمةٍ، ودبّ في أوصالي نشاط مفاجئ، جعلني أقبض على طرف سلم الحبال بأصابعي الطويلة وأهبط بهمةٍ وأنا أتأرجح مع عُقدِه المفتولة مثل جنود الحلفاء، وكان الأمر شاقاً وليس سهلاً كما توقعت، والسلّم يتلاعب بي يمينا ويساراً، لدرجة أنني تعجبت كيف كان الدب عميت يتعامل معه في خفه رغم وزنه؟ تجاهلت اندهاشي ووضعت قدمي على عارضة الدرجة التالية وانخلع قلبي.

زلّت قدمي اليمنى وتدلّت خارج السلم فاختلّ توازني بجِدّة، تشبثت بالعُقَد باستماته لكن بعد أن صدمتُ الحبلَ الذي يحمل المصباح فطار بعيدًا وصدَمَ بدوره الدعامات الخشبية التي تحف جوانب الحفرة وانفجر، هلعت -وأنا أرى قنينته تتفتت إلى عشرات القطع- خوفا من أن تشب نار اللهب المكشوف في الدعامات الخشبية وتتحول الحفرة إلى أتون مشتعل، مددت يدي وجذبت الحبل سريعًا لأبعده عن الجدران لكنّها كانت شدّة عنيفة وغبية حررتْ الحبل عن ربطته المعلق بها في الأعلى، وانفلت يسقُطُ حلزونيًا حتى ارتطم بالأرض وانطفأتْ شعلته وأظلم المكان من حولي في لحظة.

عصفتْ بجسدي قشعريرة باردة وحاصرني الخوف، همست لي نفسي بالتراجع فالموقف ينذر بالخطر، لكن الهدف كان أثمن من أن يثني عزمي عنه مجرد هاجس طارئ، أعدتُ قدمي إلى عارضة السلم بمجاهدة، وأكملت هبوطي في حذر حتى مسّ حذائي الأرض فتنفست الصعداء، لكن أقلقني أن الحفرة باردة كالثلج وأرضها رخوة، درت برأسي أتفقدها، من أين تكتسب تلك اللزوجة؟ لابد أن نقْبَ عميت وسليمان لها كان أعمق من المفترض، وتسربت إليها المياه الجوفيّة بشكل أو آخر، أو ربما ذلك الغطاء الاسطواني المغلق على يمينها يسرب الماء عبر حوافّه، انحنيت أتفحص جدران الحفرة، بعد أن تسرّب لنفسي خوف مجهول بأنها ستنهار، ورأيتها وانتفضت.

ذراع شبه مسلوخة امتدت من الطين وقبضت على عنق حذائي وجذبت قدمي، وكانت شَدّتها مفاجئة، انزلقتُ وسقطتُ على ظهري مرتطماً بأرض الحفرة، والفَرَزْ أم رأسي بقاعها اللّزج وتلّطخ وجهي بالوحل، فانخلع قلبي وأصابني الدوار والغثيان، تَفلتُّ الطين من فمي ومسحته عن عيني ثم فتحتهما محاولًا فهم ما يحدث، وحينها صَدَمَ بصري شبحٌ مخيف يزحف على بطنه باتجاهي مستنداً إلى مرفقيه وهو يجرُّ نصفه السفلي رافعاً رأسه المظلم وعيناه تبرقان بالظلام، حاولت النهوض لكنني لازلت مترنحًا وجسدي ليس تحت طوع عقلي، عجزت عن القيام وهو يواصل زحفه نحوي، وصوت نخر جسده للوحل الرخو يرعبني، ارتعت وأنا أري ذلك الشبح المظلم المرعب يرتفع بجزعه لأعلي وعيناه تزدادان احمرارًا ثم انهرت بعد أن رأيته يقبض بكلتي يديه على خنجر أثري، وينقض به على صدري، صرخت فيه وبكل ما أملك من حرص على الحياة: لاااااااااااااااااااا ارحمني.

ولم يلتفت، دق الخنجر بقلبي وجثم بجسده نصف المتحلل فوقي ورأيت وجهه لحظتها، كان الحارس سليمان، أو ما تبقى منه، دارت عيناي في محجريهما، وصارت الأنفاس شحيحة كأنها تقايضني على حياتي، شعرت أنها أغلى من كل أموالي، التقطُ النَفَسَ لأستبقي الحياة بجسدي، والهواء يدخل رئتي مثل سرب من السهام يتناوب على تمزيقي ويغرس براثنه في أوصالي، وملامح وجه عميت وسليمان تلوح أمام عيني كشعلة من النار تتلوى راقصة بتشفي وأصوات ضحكاتهم الساخرة تخترق آذاني كالنصل، هل سينتظرونني لينتقموا مني بأرض النعيم؟ تناوب على بصري النور بالظلام، صرت أغيب وأعود، سكرات تهاجمني، والآم تصنعها شفرات حادة تسلخ جلدي حياً وببطء، الألم فوق احتمالي، أريد أن أصرخ ولا أستطيع، حتى الصراخ صار شحيحاً، جاءتني لحظة صحو تحمل بين ثناياها الجحيم، لازلت اشتهى الحياة، لكنني الآن معلق بينها وبين الموت، وحتى هو يرفض منحي جواز المرور ويبخل عليّ باستعجال الخلاص، يذيقني العذاب بتلذذ، قطرة بعد قطرة ولحظة بعد لحظة، تهالكت أعضائي و لم تعد تُقاوم، انسحبت الحياة من قدمي وبطني، شعرت بنار تخترق رئتي والأنفاس تغادر صدري مثل ريح مضغوط، ورأيت روحي تُنتزع من جسدي كأنها شبكة يلمّها صياد من قاع ملئ بالأشواك، لقد خسرت الكنز وإلى الأبد، وانتصر الموت لأنه دائما يفعل.

آه ... آه ...

أفقت على وجع الطعنة وكأنها تنفذ إلى جسدي أنا، وليس إلى جسد نعوم، تحسست موضعها لكن لا أثر، تغصّ آلامها في قلبي وتنتشر في دمائي كالنار في الهشيم لكنّي بخير، نعم أرتعش رعشة الموت لكن دون أن تغادرني روحي، دون أن تأتي النهاية، دون أن يحين الأجل، الموت يُغرق كل جزر الحياة في

جسدي لكن على مهل، يغزوها بمكر قائد يناور غريزتي في التمسك بالبقاء فيهد قواي ويغلبني على أمري لحظة بعد لحظة ليأكلني قطعة بعد قضمه ولما العجلة فأنا لعبته المسلية.

لازلت أقف خلف النافذة انتظر نهاية تلك الغضبة الشرسة بتوتر، لم تأتيني النهاية مع خنجر بانتيوس الذي مزق نسيج ذاكرتي، ولا شعرت بدنوها في طعنة نعوم التي اخترقت غشاء روحي، ولكنها تتجلي أمامي الآن تجلي الآيات البيّنات في غضبة البحر المنتفض بحجم الجبال، حاشداً موجه لاقتلاعي عن آخر معاقلي التي أتحصن بها، البيت، ذلك المُسنُ الهرِم الذي لم أعد أدري هل سيصمد ظهره تحت وطأة العاصفة أم سيخرّ أمامها ويدفنني معه.

أنين العاصفة يدوي بالخارج، والموجُ يواصلُ رحلاته المحمومة لضرب الجدران، والمطر يسقي البِركة التي يعوم فوقها المنزل بالسيول، المنسوب يرتفع، وزوبعة مسعورة تدور حول المنزل مثل روح شريرة تحاول إيجاد فرصة للنفاذ إلى الداخل.

وكما تطوّقني الأنواء، تحاصرني ذكرياتي، تلفني بالأحداث، وتفيض عليّ بالوقائع، يبدو أن تلك العواصف تستفزها بشراسه وتحثها على إفراغ المزيد من حمولتها الحبيسة، عاد الصداع ليضرب أرجائي، أو ربما هو لم يرحل من الأساس، أشعر بانتقالٍ وشيكٍ قادم، دار رأسي حول كتفي أو هكذا توهمت، تشبثت بقلمي ودفتري وأصابني الغثيان، وانتقلت إلى ذات البقعة التي أقف بها لكنه في زمن آخر.

كنت أقف أمام أبي في البهو وتحديداً عند تمثال البابون المخيف، وكنت صغيرًا أناملي قصيرة وناعمه، وكان أبي يميل نحوي ويسألني: ما هي الأرقام التي لقّنها لها عمك موريس يا أحمد؟

- لست أذكرها يا أبي.

-فقط حاول؟

- ٤٨٧٣ يا أبي

-لكن يوجد رقم زائد يا أحمد، هل أنت متأكد؟

-نعم.

قلتها وجريت نحو مدخل المنزل ألعب بدرّاجتي، تاركًا أبي يرمقني بحيرة بالغة، وأنا أدير بدّال الدرّاجة عدة مرات للخلف، وظهرت هي، زوجة موريس، لا أدري ما الذي جاء بها؟ ولماذا لم تهاجر مع زوجها، لكنّها كانت تهبطُ الدرج الحلزوني وتتجه نحونا حتى أصبحت بجانبي فانحنت واحتضنتني بحنان الأم، وعاتبت أبي بنظرة وسؤال: ألن تكف عن الولد؟

-الأمر يستحق.

-لكن هذا يضرّ بنفسيته.

-قليل من الصبر وسيتذكر، أثق في مهارته و ... قطع كلامه فجأة، فرفعت عيني أستكشف السبب، فرأيته يجري نحوي بلهفة ويهبط على ركبتيه ويمسك كتفيّ وهو يدير عينيه في كفيّ الصغير الذي كنت أدير به بدّال الدّراجة للخلف، ولثمني قُبلة نديّه وعينه تلمع بالسعادة وفمه يبتسم ملأ وجهه وقال: رائع يا أحمد رائع لقد أوحيتَ لي بالحل دون أن تقصد.

-كيف؟ سألته زوجة موريس.

-الذراع يجب أن يدور للخلف ثلاثة مرات متتالية، وليس للأمام وهذا هو سر الرقم الإضافي يا إيمان.

هنا عرفت أن المرأة لم تكن زوجة موريس بل كانت أمي.

أفقت من تلك المفاجأة الصارخة على مس الماء لأنامل قدميّ، المرأة التي ظننتها زوجة موريس لم تكن سوى أمي، يا الله لم أتصور هذا للحظة، لم أتصور أن تكون أمي هي من رأيتها بالصورة.

تجاهلت ذكرياتي التي كان يجيش بها صدري وتدغدغ مسامي وجريت هنا وهناك، أحاول سدّ كل الثغور التي ينفذ منها الماء للمنزل.

صعدت ركضًا إلى غرفة النوم بالدور الثاني، وضعت الدفتر والقلم في أحد أدراج تسريحة حنان، ثم رفعت مرتبة السرير وجمعت ألواحه وألقيتها على الدَرَج الحلزوني ونزلت إلى البهو ومنه إلى السرداب الذي كانت المياه تنسحب وتجري نحوه لتصبُ نفسها بداخله محاصرة الماكينة الرابضة في لا مبالاة، حملتُ صندوق العدد، وصعدت لأعلى سريعاً أطأ الماء -الذي افترش أرض المنزل-محاولًا استدراك الموقف.

ركبّت الألواح الإضافية عند منافذ المنزل وانهلت عليها بالمسامير، دعمت النوافذ والأبواب، أغلقت كل الشقوق، كتمت كل الحلوق، لكن هيهات، المنزل ظل يُسرّب الماء من عشرات الأماكن والمنسوب بدأ يرتفع حتى غمر نصف ساقي، صعدت مرة أخرى إلى الطابق الثاني هربًا مثل فأر حبيس يهرب إلى سطح سفينة تغرق، وجريت ناحية نافذة غرفة نومي وأزحت ستائرها لأتفقد الموقف بالخارج، فوجدت الماء قد ارتفع لما يقارب المترين، المنزل الآن داخل البحر، أو بمعنى أدق يغرق ببطء.

ندمت على أنني عزلت نفسي عن العالم وتمنيت لو أتى الدكتور مصطفى لإنقاذي مثلما فعل من قبل، الموقف كان عصيبًا، الموج يزأر بهدير مرعب بالخارج، والدخول والخروج إلى المنزل يحتاج إلى قارب. جريت ناحية الشرفة التي تطل على الحديقة الأمامية لأستطلع الحال هناك لعلّه يكون أفضل، لكن ما رأيته كان أسوأ، الحديقة دُمرت تماماً والأمواج كانت تجرف كل شيء، والسيول تمهد لها الطريق، لجج من الماء المالح تحرث الأرض وتصنع بها قنوات عميقة غائرة، لقد استهنت بالأنواء وعقاب الاستهانة هو تجرع كأس الهزيمة المرّ وعن آخر قطرة أمام ما حقرت من شانه، عدت لأتفقد البهو -من فوق درابزين الرواق-فوجدت منسوب الماء قد ارتفع به حتى غطى منتصف الأبواب، وزجاج النافذة البحرية يئن وعلى وشك الانفجار، وبالفعل انفجر تحت وطأة الضغط، واندفع الموج منها يغمر البهو وفي دقائق انهار كل شيء، اقتلع التيار العاتي التماثيل وطفا بها فوق سطح الماء لثواني ثم تركها تغرق في صمت، انتُزعت الكراسي من مكانها ودارت تبحر داخل الصالة وتطوف حول بعضها في دوامة وارتفع منسوب الماء إلى حدٍ مخيف، لدرجة أنه غمر حلوق الأبواب وراح يتسرب من بين حوافها إلى داخل الغرف المغلقة، وانفجرت القناديل وأظلم المنزل تماما.

اشتعل التوتر بداخلي والتهمت ببصري كل تفاصيل الطابق الثاني أحاول أيجاد مخرجا للنجاة، راقبت الماء وهو يواصل الصعود بسرعة جنونية حتى وصل نهاية السلم الحلزوني وطفا عند قاعدة درابزين الرواق، فعرفت أن المنزل أصبح مثل علبة مثقوبة أُلقي بها في النهر، احترت! ماذا أفعل؟ لا شيء حولي أتعلق به ولا ملجأ ولا مأوى، لو انتظرت بالطابق الثاني سأغرق خلال وقت قصير وستتقلص فرصتي في النجاة، لم يعد أمامي إلّا السطح، جريت

إلى سلم الصعود الحديدي المعلق بنهاية الرواق، تسلقت قضبانه بصعوبة وفتحت باب السطح، وطرت.

خلعني الإعصار من مكاني ورماني بعيدًا مثل لعبة، انزلقت على ظهري فوق بلاط السطح المفروش بالماء وانجرفت حتى اصطدمت بسوره وبمنتهى العنف، ارتد جسدي إثر الصدمة، وصرخت بملء حلقي من الألم، لكن عويل الزوبعة ابتلع صرختي، أنا نفسي لم أسمعها، الألم يمزقني إلى أشلاء والمطر يسفعني بألسنته، وصريخ العاصفة متواصل، وأنا أحاول استيعاب الصدمة، فتحت عينيّ لتحديد اتجاهي لكنَّ هبوب الرياح كان عنيفاً يغشي الأبصار، وأهدابي مثقلة بحبات ملحيه ثقيلة تعجزني، ورغم ذلك قاومت، زحفت ببطء نحو الغرفة الخشبية قرب السلم، نعم ضعيفة وواهنة لكنها بالنهاية من الخشب قد أتعلق بها لو غرق المنزل، الإعصار مشتد وأنفي ينزف، سياط المطر تنال من ظهري والخدوش تُسعر الألم جمرًا، وأنا أواصل الزحفَ على بطني مثل جندي يعبر تحت سلك شائك.

الإصرار بداخلي يساوي الحياة، أمتار وأصل والأمل يزداد والماء يسيل عبر سور السطح ويصلني، رفعت رأسي أقيس المسافة التي تفصلني عن الغرفة الخشبية، وانهار الأمل في لحظة، رأيت أمامي الغرفة تُقْتَلَع من مكانها وتطير بعيدًا بالسماء كأن وحشًا ينتزعُها من بين أنامل طفل، اليأس والخوف تملكاني! إلى أين ألجأ وأين ألوذ، لم يبقى شيء، لم يبقى إلا هي، لكن هل تصمد؟ كانت المدخنة، ملاذي الأخير ومأواي المُغبّر تُطِل برأسها بشموخ زائف، تنتظر غمرة واحدة من الملح لتركع في ذلّة غير مأسوف عليها، زحفت مقاومًا الريح حتى وصلتها، فاعتليتها ودخلت فوّهتها أحتمي من عصف الأنواء وتعلقت بحافتها وانتظرت.

وفي تلك اللحظة الحاسمة من عمري، وبينما صريخ الزوابع يلفني، والإعصار يحاول اقتلاعي، وفك الموت ينفتح عن آخره، انتفضت بداخلي عاصفتي الخاصة وراحت تعتصر ذكرياتي محاولةً أن تنز منها آخر قطرة. غرس الصداع أنيابه في جانبيَّ رأسي مثل ثعبان لعين، وقاومته بكل ما أوتيتُ من قوة، فشرودي الآن يعني الموت، لكن رأسي بين فكّيه وقواطعه الحادة لا ترحم ومقاومتي له تُزيده شراسة وجوعًا، ولأن الألم لا يرحم والوجع جائر، انتصر، أعادني إلى طفولتي وقذفني هناك داخل الدهليز، كنت أمرّ منه في طريقي إلى السرداب، أرتجف من الوحشة والبرد، الظلام يحيط بجسدي الصغير والخوف يسكنني، وصلتُ عند الباب لأجد أمي وأبي راكعين بجوار الماكينة والتي كان تنتصب داخل صندوق نحاسي كبير غطاؤه مفتوح عن آخره، وبداخله تبرق قطع من الزجاج الملّون.

انعقد لساني وأنا أراهما في أزمةٍ والموقف مشتعل، أبي كان يبكي وهو يشيح لأمي بكفيّه من بعيد، يتوسل إليها محاولاً إثنائها عن فعل شيء ما، بينما كانت هي توجه إلى صدرها خنجراً حادًا جرحها سِنّه.

-أرجوكِ يا إيمان عودي إلى صوابكِ، لا تتركيني وتيتمي ابننا.

كانت زائغة تردُّ عليه وكأنها لا تسمعه: لا تقلق يا باتيوس سنعيش ويملأ أبناءنا ربوع اليوروتاس مرحاً وتسقيني بكفيك من مائِه العذب، وأنهل على ضفافه من رجولتك وتنهل من أنوثتي كيفما شئت ومتى أشاء، وعندما نموت ستُحكي قصة عشقنا عند سفوح الأوليمب وتُعزف من أجلها أعذب الالحان، لن أخلف وعدي لك حتى لو اضطررت لأن أجرد شموس السماء من ردائها من أجلك يا حبيبي، لا تستهن بامرأة عشقت.

تأملها أبي في حيرة ودموعه تغرق وجهه وسألها: ماذا تقولين يا إيمان ما الذي أصابك يا حبيبتي، أنا عزت زوجك أنظري في عيني، لا تفطري قلبي، أرجوك أرفعي ذلك الخنجر أعطيني إياه أرجوكِ.

مالت برأسها يمينًا تتأمله بعينين غائرتين، ثم فرّت منها دمعة أسيفة وقالت: لقد صدقتْ العرافَة، من أجلك يا بانتيوس من أجلك يا حبيبي.

وطعنت أمي نفسها، وشق الخنجر الحاد صدرها الأبيض وفاض الدم من حوله متدفقاً وصرخ أبي وهو يندفع نحوها ويتلقاها بين ذراعيه:

-لااااااااااااااااااااااااااااا

غارت عيناها لثواني ثم تجمدتا ففاضت دموعه وقال بنشيج متهدج:

سامحيني يا إيمان سامحيني يا حبيبتي، جشعي للمال هو السبب، أنا السبب فيما أصابك من جنون بعد أن فتحت الخزانة واستخرجت ذلك الكنز الملعون، أنا من يستحق الموت لا أنت، أنا من تسبب في كل هذا، لن اتركك، سأدفن اللعنة وأدفن نفسي قبل أن أدفن جسدك يا حبيبتي سيواري الثري جثماني قبلك.

وهنا تحرّر صوتي المكبوت، صرخت وبكيت، لكن أبي لم يسمعني ولم يلتفت لي رغم أنني واصلت الصراخ، أدار ذِراع الماكينة بضربة عنيفة من يده فدارت حول محورها وتبعتها الأسطوانات الأخرى وبدأتْ أركان الصندوق تتحرك للداخل وتجمّعت مثل عين تغلق حتى انطبقت فوق بعضها البعض وانغلق الصندوق، وضم أبي رأس أمي في حضنه وواصل نواحه: لا عيش بعدك يا إيمان، لا عيش بعدك، وانتزع الخنجر من صدرها وطعن نفسه وهبط رأسه فوق ظهر أمي وسقطتُ أنا مغشيًا عليّ.

شيء ما يتهادى بي، أبحر بداخله بحرية وعلى غير هدى، يحتويني بنعومة البلازما، وأشعر بداخله أنني جنين بريء، يدور آمنا بين أرجاء رحم أمه، شعور حالم بالاحتضان الرقيق، هجرة شرعية تحملك فيها أجنحة الطيور

إلى حيث تهفو. حالة من الاسترخاء والاحتواء الشامل لم يكن يعكر صفوها إلا أنني كنت أختنق. تململت بضيق محاولاً التقاط أنفاسي لكن الاختناق زادت حدته. نفضت رأسي أستنجد بصحوة تقيلني من غفوتي، وفتحت عيني على اتساعها في لحظة مخاضٍ انتزعت فيها روحي من غيبوبتها قسرًا لأستدرك ما أنا فيه. وجدتني غاطسًا داخل بهو المنزل، جسدي ينساب إلى العمق، ورأسي ثقيل تجتاحه غفوة مظلمة. فقاقيع الماء تنتشر من حولي وحلقي معبأ بالماء المالح، جوارحي مشلولة، وأعاني سكرات الغرق.

عرفت أنني سقطتُ من حلقِ المدخنة إلى الداخل بالبهو، انتفضت بكل كياني وأنا أخفق الماء بذراعيّ، ضغطه يكاد يمزع صدري والموت على بعد لحظات، اجتررت ما بحلقي و غصتُ بين جنبات الماء المظلم أبحث عن مخرج والألم ينهشني، توجهت عكس اتجاه النافذة التي ينهمر منها الموج، وتحركت نحو باب المنزل، ثم انسبت بجذعي نحو قاعدته، تحسست صندوق العدد وجذبت الكماشة، وبكل ما تبقى لدي من قوة فاترة حاولتُ نزع قفل باب المنزل، عاندني قليلاً لكنه استجاب وانفرج الباب على مصراعيه بفعل الضغط وجرفني الماء الحبيس للخارج كالشلال، وكأنني أسقط في مصب نهر عميق لكن اندفاعتي منحتني أكسير الحياة، سحبتُ دفقة من الهواء شقت صدري مثل طعنة، واستسلمت مجاريًا التيار الذي رماني بعيدًا وظلّ يجري بي وهو يحملني على ظهره حتى اعترض طريقي شيء قاسٍ جدًا، صدمني فدار جسدي حول نفسه وأظلم كل شيء.

* * *

(الوهم)

تجمد المشهد في لحظة سكون مشوش، انقشع الظلام من حولي وعدت إلى بهو المنزل، أقف على بلاطه وأمام الدرج الحلزوني مباشرة، وثمة شيء مثير يحدث من حولي، عصفور الساعة كان يُحلق في طريقة إلى بيته سالمًا وعقاربها تعود إلى الماضي، الفيضان ينسحب إلى خارج المنزل تاركًا الكراسي تغادر قليب الماء وتصطف حول طاولة الطعام، بينما التماثيل ترتفع لتقف كما كانت بين الأركان، والقناديل تنصب ألسنتها الملتوية فتسكب نورها على الجدران، في حين هبّ جمر المدفأة مشعلًا النار ليبث الدفء، وتجمّع زجاج النافذة المنثور ملتحمًا ثم شق مكانه داخل الحلق الخشبي للشباك ليعم الهدوء.

ارتد كل ما تداعي وعاد أدراجه مستكينًا، لم أفهم ما يحدث! تأملت أكمام معطفي فوجدتها تجفُّ، والبخار يتصاعد منها، ونظرت إلى قدمي فوجدت الماء قد تقلّص وأصبح يكسو الأرض مثل غِشاء رقيق أخذ يتمزق في نعومة، وجف كل شيء من حولي كأنما ريح حارة أصابته.

لا أثر للأنواء، ولا صوت إلّا هدير البحر الناعس، والذي كان يقطعه صوت خطوات واثقة وقادمة من أعلى، أحدهم كان يهبط الدرج متهاديًا، رفعت بصري نحوه فرأيتها، كانت تنزل الدَرَج في كاملِ زينتها وكأنها نجمة سينمائية، تتأنق بفستان أسود ساحر، مشقوق الصدر وذيله يجرجر خلفها فوق درجات السلم بنعومة، وكالعادة وجهها كالقمر وشعرها مصفوف على هيئة طبقات ملفوفة لأعلي.

حدقت بها في ذهول، حتى اقتربت مني وأصبحت على بعد خطوة فقلت مندهشًا: حنان! لماذا رجعتي إلى المنزل؟

-لازلت لم تفهم بعد؟

-أفهم ماذا؟

-أن الأشياء ليست كما تبدو عليه.

-كيف؟

لمّت ذيل ثوبها، وجلست على كرسي الاستقبال، وأسندت ذراعيها فوق يديه مثل ملكة واضعة قدمًا فوق أخرى، ثم قالت وكأنما تحاضرني:

-هل تعرف أن أصحاب البصيرة فقط هم من يرون علامات المسيح الدجال؟ وأنهم وحدهم يقرؤون ما تحمله جبهته من إعلان سافر عن كفره؟ هل تعرف لماذا؟ قالتها وسكتت قليلاً لتمنحني فرصة للتفكير، ولم أرد، فاستدركت: لأن أبصارهم تنفذ عبر زجاج الروح العاكس ويرونَ ما خلفه من خبايا النفس.

-ما الذي تقولينه؟ وما علاقته بي؟

-تقصد ما علاقتك أنت به.

-وما الفارق؟

-الفارق هو أنك صنعت ظلمتك بنفسك، عجزتَ عن فِهمِ ما يدور حولك لأنك اعتنقت مذهب "ما تراه جوارحي " لا " ما تراه روحي"، أخذت بظواهر الأمور دون بواطنها، طاردت بريق الزيف وخليّت أصالة الجوهر، فامتلكك الوهم.

-ولماذا أتخلى عن جوارحي، أنا لست مستبصرًا مثل العراف الضرير تريسياس.

-لم أطلب منك التخلي عما أوتيت من نِعَم، بل أثبت لك أنك في غمار اعتمادك على جوارحك عطّلت أهم ما يملكه إنسان، روحك، فصرت مبصرًا لكنك لا تري.

- لا أفهمك؟

- خالتك التي قطعت رحمها ظنًا منك أنها خانت فيك الأمانة، كانت بالحقيقة تحميك، من ظننتها زوجة موريس وجدتها أمك، آلة الزمن التي شَغَلتْ عقلك لم تكن سوى خزانة جواهر تقليدية، والخبر الذي لهثت وراءه كان كاذبًا، وقتلك لي لم يحدث.

-وما الذي يعنيه هذا؟

-يعني أن كل ما يحدث حولك هو وهم صنعه خوائك الداخلي.

-كيف يكون وهمًا وأنا أراه بوضوح؟

-هذا هو ما أحدثك عنه، الجوارح قد ترسل لأعماقنا شعاعًا يحمل ما نراه ونحسه، لكن الروح وحدها تستطيع ان تحدد تلك البقعة من دواخلنا والتي يجب ان يصلها ذلك الشعاع لتتوهج بالبصيرة، وذلك لأن الروح تعي كل معاني الانكسار التي أصابت ضوء أيامنا.

-ولماذا تقولين لي ذلك الآن، لماذا لم تخبريني به من قبل؟

-لأنك رفضت أن تشركني معاناتك، تماماً كما رفضت أن تمنح بصيرتك الفرصة لتدلك على الحقيقة.

-لكني لم أفعل ذلك، بل كنت أدرس وبعمق كل المواقف التي أمرّ بها منذ عدت إلى المنزل، أديرها في رأسي ليل نهار، وأنفعل معها تماما بروحي وجوارحي ببصري وبصيرتي؟

-وماذا عن حياتك قبل أن تعود إلى المنزل؟

-وما علاقة حياتي قبل المنزل بما يحدث لي؟

-لازلت لا تفهم؟

-لا أفهم ماذا؟

-أن تخليك عن جذورك وإنكارك لماضيك هو ما تسبب لك في كل هذا العذاب.

- حياتي قبل المنزل كانت روتينية رتيبة وليس بها ما يدفعني حتى للتفكير في معناها.

-لكنها كانت تخلصًا من الماضي.

-وما المانع؟ كل الناس تهرب من الماضي خاصة إن كان أليمًا.

-لكنك لم تهرب بل ذبحت ذكرياتك، ارتكبت في حق عمرك أبشع جريمة يمكن أن يرتكبها بشر في الوجود.

-وكيف عادت لتنكأ جراحي إن كنت قد ذبحتها كما تقولين؟

- لأن الذكريات لا تموت، تتبدل لكنها لا تمحى، قد تنسحب قليلاً وتتراجع، لكنها تفعل ذلك مدفوعة بغريزة البقاء حتى تبقى وتعيش، تحمي نفسها بالكمُون داخل دهاليز النفس العميقة، انتظارًا لمجيء من يمنحها قبلة الحياة فتطفو إلى السطح مرة أخرى وتهاجمك بشراسة وتقتص منك عقابًا لك على طمسها.

-لكن ذكرياتي لم تلاحقني، ما اتقد بداخلي كانت جَذْوات من ذكريات لآخرين.

-تقصد نعوم وبانتيوس؟

-بالطبع، ذاكرتي هي التي أنكرتني وتخلّت عني وفتحت حصوني لهم.

- ذلك لأن ذكرياتهم كانت بذوراً ضالّة نثرتها رياح الزمن، وجرى بها نهره المتدفق إلى مالا نهاية، وظلت تشق أرض التاريخ باحثة عن ضفاف تؤويها، وطال بها المسير حتى آيست أن تجدها وظنت أنها عقيم واستعدت للذبول، لحظتها جئت أنت لتمنحها طينةَ عمرك الخاوي، فأينعتْ بشراهة العائد من الموت وترعرعت مثل أسلاك شائكة أسرتك داخل حدودها.

-وما علاقة الذكريات بعمري.

- وهل العمر إلا ذكريات، لحظات الضحك والدموع، فرحة اللقاء وألم الفراق، مهد الطفولة البريئة وملاعب الصبا، ضمّة الأهل وحضن الأم وقبلة الحبيبة، أسمار الأصدقاء، خفقات القلوب للحب حين يمسها طيفه الرائق، وذوبان النفس بين لحظات الهنا والحزن المرير، كل المعاني الجميلة التي يحتفظ بها البشر لتؤنس وحدتهم حين تضرب الشيخوخة أركانهم، ويتخلى عنهم الحاضر بقسوته، فيفتح حينها الماضي ذراعيه ويحتضنهم بحنان ليمنحهم بسمة الأمل التي يشح بها الأبناء، ويضن بها الأصدقاء، ويغلق الجيران دونها الأبواب، أتساءل كيف يكون لك عمرًا وأنت روح مهجورة ونِدتْ بداخلها أنفاس الماضي واختنقتْ تحت تربتها أنشودته!؟ روحٌ لم تُعدُ عدتها إلى يوم تحتاج فيه إلى ذكري من بلسم شافٍ يمس ندوبها الغائرة في تجاعيد العمر فيشفيها ويمحنها الإكسير الذي تستمد منه الحياة، روح تركت بالعراء لتعصف بها رياح الزمن وتقرض منها كل يوم قطعة، حتى صارت مهترئة مثل عصف مأكول.

-ماذا تقصدين من هذا الرأي الفلسفي؟

- الذكريات هي المأوى الذي تلجأ إليه الروح حين تضرب الجسد الشيخوخة يا أحمد. وأنت بلا مأوى.

-أنا لست خاويًا ولا بالعراء، أنا ممتلئ بالتفاصيل لدرجة تفوق احتمالي، الجنون يكاد يقتلني وتساؤل مرير يعزلني عن نفسي مثل جزيرة مهجورة، كيف لمن تفيض حوله الأحداث من كل جانب مثلي، أن يموت عطشًا إلى لحظة يلتقي فيها بذاته، ولماذا يبحر بي موج الذكريات إلى صحراء شاسعة من الضياع لا ترتوي أبدا، كلما غمرني فيضه أكثر، أضل طريقي أكثر، حتى أصبح الوصول إلى ما تبقي من عمري مستحيلًا.

-لأنك ألقيت عمرك في بحار العزلة والوحدة، فذاب ملح كيانك هناك وألقاك الموج التائه على شواطئ تستقبلك ولا تعترف بك، وعيونٌ تراك ولا تعرفك.

-كيف تعرفين كل هذا يا حنان.

قامت من جلوسها وقالت وهي تنظر في عيني: أنا لست حنان.

-ماذا تقولين؟ ومن أنت إذًا؟

مرّت من جانبي بخطوات رقيقة، أعلن عنها كعب حذائها، وتبعها ذيل ثوبها فاستدرتُ نحوها أتابعها، وهي تخطر بتؤدة حتى وصلت باب المنزل فالتفتت لي وقالت: أنا الوهم.

وفتحت الباب، فغشيني ضوءُ قاسٍ خطفَ بصري ورأيتها تمر من بين أشعته كالطيف الرمادي حتى ذابت بداخله.

* * *

(مجهول)

أيقظتني آلامي، فتحتُ عينيَّ ببطءٍ متوجِّسٍ، فقابلتني موجةٌ من الوهجِ الأبيض، تحملتها حتى انقشعت، فاصطدم بصري -المتسلل من بين أهدابي- بقدمي اليسرى، كانت ملفوفة بجبيرة غليظة ومُعلّقة بأنشوطة طبية تتدلى من مشجب مربوط بقائم السرير الذي أنام به.

عرفت أنني مستلق بعنبر الكسور الجماعيّ في أحد المستشفيات العامّة، تصطف بجانبي الأسرّة البيضاء ذات الطلاء المقشّر، ومن حولها ينتثر الزوار الذين كانوا يعودون المرضى، ويصنعون ثرثرة مكتومة أو ربما لازلت لم استعد صفاء سمعي بعد ولا أسمعهم بوضوح.

الروائح مزيج بين عرق المرضى والمطهرات، والضوء متسلل من النافذة التي تفتح بالجدار من خلفي، وأشعة الشمس تسقط على أرض الممر الفاصل بين سريري وسرير الحالة المجاورة لي، وتسبح بين أطيافها ذرّات الغبار، ذراعي هزيلان، بالكاد أحركهما، الأيمن حر والأيسر موصول بمحلول طبي، حلقي متيبس وعنقي مشنوق بدعامة بلاستيكية، ورأسي متكلس بالضمادات ووجهي متورم.

مضت قرابة نصف الساعة قضيتها في استكشاف العنبر، حتى دخل أحد الأطباء، وبدأ يفحص المرضى واحدًا تلو الآخر إلى أن حان دوري فاقترب مني وقرأ التقرير الطبي وهو يفحصني بسماعته ثم منحني ابتسامة ودودة وقال: حمدا لله على سلامتك؟

-أين أنا؟

-أنت في مستشفى المواساة.

تحسست رأسي من الألم وسألته: من الذي أحضرني إلى هذا المكان؟

ابتسم الطبيب قائلا: أحد العمال الذين كانوا ينزحون ماء الأنواء.

-منذ متى وأنا هنا؟

-ثلاثة أيام. قالها ثم أردف: نحتاج إلى تسجيل بياناتك لإبلاغ أقاربك بوجودك لدينا ولاستكمال ملف حالتك، لأننا قيّدناك مؤقتًا كمجهول، وأشار للممرضة التي كانت تمسك باستمارة وفوقها يستقيم سن القلم ليخط ما سأنطق به، ابتلعت ريقي، وبصري ينفذ لتلك العيون التي تنظر مباشرة إلى جوفي، تحاول أن تنتزع منه معلومات رسمية، وأنا بالكاد ألتقط أنفاسي، وجوه جافة روتينية، لا تعي ما بداخلي من تيه، لكنّي كنت مضطرًا ولذلك تكلمت: أنا أحمد عزت المصري.

-من تحب أن تراسله ليستدل عليك سيد أحمد؟

- زوجتي حنان توفيق عنوانها في حي جليم، وشرعت أوصف لها الشارع لأنني لا أعرف اسمه ودوّنت الممرضة البيانات وانصرفت بينما تأملني الطبيب مليّا ثم سألني في حيرة بادية: من نعوم ومن بانتيوس؟

أجبت على سؤاله بسؤال غير عابئ باللياقة: كيف عرفتهما؟

-كنت تذكرهما أثناء غيبوبتك؟

-أشخاص من التاريخ كانوا يمرّون بذاكرتي.

-يمرون بذاكرتك؟ كيف؟

-تنتابني حالة من الشرود وأراهم وكأنهم أنا.

تبدّلت ملامح الطبيب من البِشر إلى الارتياب، فعرفت أنني مقدمٌ على ورطة جديدة فاستدركت: الدكتور مصطفى يعرف كل حكايتي.

-ومن هو الدكتور مصطفى؟

-طبيبي النفسي.

بُهت الرجل وأمسك بسماعته الطبية، كأنه يتحفز للفها حول رقبتي وقال:

-تقصد أنك تتعالج عند طبيب نفسي؟

-بالطبع ومنذ فترة.

وكان ردًا غبيًا، ولا يقل سذاجة عن الطريقة التي سار بها الحوار، وظهرت نتائجه فوراً، حينما مال الطبيب نحوي يتفحص ما تبقى من ملامحي المدفونة داخل الضمادات، ثم تراجع وهو يتمم: لا بأس سيد أحمد أو أيًا كان اسمك ستصبح الأمور على ما يرام.

شعرت في نبرته بشيء من المجاراة لم تطمئن إليها نفسي، وتأكدت من شكوكي حينما غرس إصبعه في جرس يستقر فوق سريري، ولم يكد يدقّ حتى جاءت الممرضة فطلب منها بلهجة آمرة: حقنة مهدئة للمريض.

أسرعت تنفذ أوامره وانتظر حتى رجعت تحمل قِدرًا من الصاج الأبيض يستقر به مِحقن زجاجي مغليٌّ في ماء مُقطّر انتشلَته وعبأته بالجرعة، ثم طعنت ذراعي به وبثتني العقار حتى آخر قطرة وجففت مكان الإبرة وغادرت، وغادر من خلفها الطبيب الذي عاد وتأملني من فوق كتفه لثواني، ثم انتقل للمريض التالي تاركاً الجرعة تواصل جريانها في شرياني حتى وصلت قلبي فدفقها لكل حواري وأزقة جسدي وغامت الدنيا أمام عيني.

* * *

(ومَضى العُمر)

مستشفى المعمورة للطب النفسي -٢٠٠٧

اليوم هو أول الأيام الاستثنائية في حياتي منذ ثلاثين سنة، استقبلت الصباح بخبر غريب أبلغني به بهنسي -الممرض البدين الذي يعمل هنا منذ زمن بعيد-وكان مفاده أن زائرا مُهما قد حضر من أجلي.

ثلاثون عاماً مضت دون أن أتلقي أي زيارة، فلا أحد يعرفني حتى يزورني، ثلاثون عاما مرّت أجترُّ فيها خريفاً بعد صيف، وربيعًا بعد شتاء حكايات بانتيوس وملينيا، نعوم وأحمد وحنان ومصطفى، أتلقى الجرعات المهدئة، وأنام واستيقظ في مواعيد منتظمة، ثم أقضي يومي أتريّض في الساحة الأمامية، وأتجول فوق عشبها المقصوص برفقة ذكرياتي أكلمها وتحاورني، حتى تضجر مني وأملها ويحل المساء فأنام، حياة مملة أو لنقل موت ممل.

حينما أودعوني هنا قاومتهم في البداية وحاولت بإصرار مرير أن أثبت لهم أنني عاقل وربما أكثر منهم، لكنهم لم يصدقوني، فكل المجانين يقولون ذلك، وكيف يثقون بكلامي وهم لم يعثروا أبدًا، لا على حنان، ولا الدكتور مصطفى ولا الأستاذ عبد الله! حتى أمينة المكتبة الأستاذة منال لم تتذكرني ولم تعثر على بطاقة عضويتي، أما موظف الشهر العقاري فأنكر معرفته بي تماماً، وبخلاف ذلك لم يجدوا وثيقةً واحدةً تقودهم إلى هويّتي، فحقيبتي غرِقت ومعها جواز سفري وأوراقي الثبوتية واهترأ كل شيء بالمنزل تحت

وطأة الإعصار الذي أكل أخضر حياتي ويابسها، أخبرتهم أنني مواطنًا ألمانيا وأنني أريد الاتصال بسفارتي فسخروا مني، ولم تشفع لي قدرتي على التحدث بالألمانية في إقناعهم بذلك بعد أن طلبوا مني احضار جواز السفر الألماني وعجزت.

وهكذا اختفي أحمد من الوجود، أو ربما رحل الوجود عن أحمد، ورغم ذلك كان من الممكن أن أعيش مجهولاً وسَطَ الناس دون الحاجة لاحتجازي بمستشفى الأمراض العقلية. إلّا أنّ شهادة الطبيب الذي كان يعالجني بعنبر الكسور كانت قاصمة للظهر وتسببت في بقائي هنا، ودعمتها تلك المذكرات التي بدأت أكتبها لنفسي، كانت سطورها بمثابة فيضًا من الهلوسة والضلالات المركّبة وبالتالي رفعتَ درجةَ ارتيابهم وخوفهم مني إلى الحد الأقصى فأودعوني عنبر الحالات الخطرة ودون جناية أو دليل، ولا ألومهم فلهم كل الحق في ذلك، وكيف لا والمُذكرات -التي ساعدتُهم أنا بنفسي على فك طلاسمها في جلسات الاستماع- كانت تحتوي على أحداث مليئة بالجرائم والقتل والانتحار، وبالتأكيد لم يكن من الممكن أن يسمح لي أحدهم بالخروج في ظلّ هذه التركيبة النفسية المعقّدة، والتي تم تشخيصها كحالة فُصام باعتباري أقتنع بشدة بأوهامي المرضية.

بمرور الوقت ونتاجًا لمفعول الأدوية والمهدِئات استسلمت لفكرة أنني مريض نفسي، وذلك لأنني جربت مقاومتهم أكثر من مرّة ولم تجلب لي إلّا عذابات جديدة، وأنا لم أعدُ أحتمل الدخول في صراعات فكرية حادّة معهم لإثبات سلامتي العقلية، فكل محاولاتي كانت تأتي بنتائج عكسية تماما، وكانوا يخرجون من جلسة الاستماع بفكرة أسوأ وهي أنني مصاب بقناعة الاعتقاد، أي أنني أصرّ على أن آرائي الشاذّة هي الصحيحة وآراءهم العقلانية هي الخطأ، وأن مرضي يتفاقم ولابد من زيادة جرعات العقاقير وأيضًا

جلسات الكهرباء التي كانوا يقصفون بها كياني، وهذا بلا شك كان يزيد حالتي سوءًا ويفرم ما تبقى من أوصال حقيقتي تحت مكبس أفكارهم البالية العتيقة.

هذا بخلاف أنه لا أحد ينتظرني بالخارج، لا زوجة ولا أهل ولا أبناء ولا أحد يهمه وجودي على قيد الحياة فلمن سأخرج؟ لو كان هناك إنسان واحد في هذه الدنيا ينتظرني كنت سأقاتل من أجله، لكن، ولأنني لا أملك ذلك الأمل سلكت درب الجنون اللانهائي، أضرب رأسي في جدران الزمن الهلامية وبلا جدوى عوضًا عن مناطحة عنادهم الذي لا يؤمن إلّا بمن يحملون بطاقات الهوية، استسلمت للوحدة تنهش روحي وتمتص كل رغباتي في البقاء، مكتفيًا باستعادة صديقي الوحيد الذي افتقدته كثيرا منذ استلامي تلك الرسالة الغامضة، ألا وهو الانطواء.

فرحتُ بعودته رغم أنني لم أجده كما تركته، تغيّرَ كثيرًا وأصبح يعاملني كصديق غير مقرب، بعد أن أفْسَدَتْ ذكرياتي عن بانتيوس ونعوم علاقتنا، وعادت حكايتهما لتتكرر وتفرغ جرعتها داخل رأسي من جديد، وطوال ثلاثين سنة وحتى الآن، لدرجة أنني كلما كنت ألفظ أنفاس ذكريات نعوم وبانتيوس الأخيرة، كنت أرفع عيني كي أتبعها ببصري، لأتأكد من أن عقلي قد برِئ من رواياتها الضالّة للأبد وأنها ذهبت إلى غير رجعة، لكنّها كانت تعود مع شهيق الصباح لتغمر بعصارتها كل مسام عقلي المنتهك تحت أضراسها، كانت تتكرر مثل فيلم مُعاد حتى أصبحت أحفظها عن ظهر قلب بل وأرسم مشاهدها على الورق غيبًا، لدي مئات الدفاتر المليئة بمشاهد مرسومة بالفحم الذي تدربت على استعماله لأعبر عمّا يجوب عقلي من مشاهد، مثل موت كليومينس وبانتيوس وملينيا، مقتل نعوم وكميل، المسابقات البطلمية، صندوق الجواهر، وغيرها الكثير، ولدي أيضا العشرات من

أشرطة الكاسيت المسجل عليها ما أراه من حوارات وحكايات، كنت حالة ثرية للغاية لكل الباحثين والأطباء، الكل يتسابق على دراستي وقراءة ملفي الذي تجاوز الألف صفحة، ورغم ذلك أبى الحرمان أن يتركني فقض مضجعي وعذبني، وهذا مصير إجباري لكل من هو في مثل حالتي، أعيش مثل كائن مجتث لا أصل لي، لا أعرف أي نبتة كنت وكيف زرعت في رحم أمي، آه، الوجع حينما يمر بالخاطر لحظة يؤلم لأيام، وأنا أتوجع منذ ثلاثين سنة.

طفرت مني دمعة بدت وكأنها هي الزائر الذي ينتظرني فأنا لم أبكِ منذ سنوات، مسحتها لأطهّر بها جرحًا مفتوحًا، ثم لبست قميصي الفضفاض وسروالي الأبيض الناصع وانتعلت الحذاء البلاستيكي المقصوص من الخلف وتبعت الممرض إلى حيث ينتظرني ذلك الزائر الغامض.

عبرنا الممر الهادئ المفروش بسجادة وثيرة وتصطف به أحواض الزهور البلاستيكية ويقود إلى حجرة الإدارة وكان يمشي الممرض يسده بجسده البدين حتى أن الطريق أصبح بصحبته اتجاه واحد وكنت أسير خلفه كبارجة تقطر قاربًا صغيرًا، حتى توقف أمام حجرة نائب المدير وطرق بابها برفق وأشار لي بالدخول.

دلفتُ بخطوات مترددة فوجدت الدكتور جمال نائب المدير يجلس برصانته المعروفة، وأمام مكتبة يجلس شاب وقور وبدا أنهما كانا ينتظران قدومي بشغف، حيث أشار لي الدكتور شافعي بالجلوس فورًا قائلا: تفضل يا أخ أحمد.

جلست وبدأ الشاب يعرّفني بنفسه والدكتور جمال منصت إلينا وبشدة.

- أنا الدكتور طارق موسى طبيب وباحث بالمركز القومي للبحوث.

تفرست ملامحه، شاب يبدو حديث التخرج وذو ملامح شرقية شعره مجعد قصير وبشرته خمرية ووجه نحيف.

-أهلا بك.

-الحقيقة أن ما سأسرده قد يحمل بين ثناياه العديد من المفاجآت والتي لا أعرف كيف سيكون وقعها عليك.

-لا تقلق لم يعد شيئًا يفاجئني.

-حسنًا، مبدئياً أنا أعرف أنك ستفهم كثيراً مما أقول.

-على الرغم من أنني مجنون؟

-سنؤجل الحديث في تلك النقطة إلى نهاية حوارنا.

-لا ضير، كما قلت لك، لا شيء يفرق في حياتي.

-هذا قد يفرق، وربما أكثر مما تظن، منذ سنة بدأت أجري أبحاثًا حول موضوع حديث ومتطوّر يسمي زرع الذاكرة المزيفة False Memory Planting لذلك طلبت من العديد من أصدقائي إبلاغي بأي حالة يشتبه في تعرضها للفصام لدراستها، وبالفعل أبلغني أحدهم بحالتك، كان يتمرن هنا بمستشفى المعمورة وقرأ ملفك الضخم، والذي كتبت أنت بنفسك فيه كل ما جرى لك واعتبره الجميع ضربًا من الجنون وقتها.

-أوليس كذلك؟

تجاوز سؤالي وأكمل شرْحَه قائلا: أبلغني صديقي أيضا أنك تتعرض كثيرًا للصداع وارتفاع ضغط الدم دون سبب طبي واضح، مما أشعل فضولي

فطلبت منه صورة من ملفك وطلبت أيضا إجراء أشعة رنين بالكمبيوتر بالإضافة لسحب عينة دم لك.

وبالفعل حصلت على ما طلبته ثم بدأت أدرس حالتك، لا أخفيك سرًا أن وقع المفاجأة على نفسي كان شديدًا، حتى أنني واصلت العمل ليل نهار بلا كلل أو ملل أحفر وراء أصل حكاياتك التاريخية والشخصيات التي تراها في ذاكرتك، قلّبتُ المكتبات وتجولت في شبكة الإنترنت، وكلما كنت أبحث أكثر كنت أتعثر في معلومة صحيحة أو واقعة تاريخية مؤكده، ولا أذيعك سرًا إن قلت أن كمّ الحقائق كان مذهلا، ومع نهاية بحثي تأكدت أن كل كلمة ذكرتها في مذكراتك وأقوالك كانت صحيحة مائة بالمائة، على جانب آخر خرجتْ صور أشعة الرنين ونتيجة فحص عينة الدم لتحمل لي مفاجأة مذهله، أقسم أن رجفة باردة صعقتني حينما رأيتها تتجلى أمامي، فلقد عاينت بنفسي نموذجًا نادرًا لكائن طفيلي يسكنك.

-طفيلي؟

-نعم طفيلي غير مصنّف بأي من المراجع العلمية، صنعت مزرعة وعزلته، ثم فحصته تحت الميكروسكوب الإلكتروني فعرفت من تركيبه أنه نشأ نتاج التفاعل بين جهتين، الجهة الأولي أنسجه من قشرة المخ ومنطقة قرن آمون التي تشبه حصان البحر والمكتشف حديثًا أنها مركز تخزين الذاكرة الدائمة للإنسان، وبالطبع هذه الأنسجة كانت تخص الجثث التي تحللت داخل الحفرة المغلقة -والتي عرفت عنها من مذكراتك.

أما الجهة الثانية فهي الميكروبات والفطريات السامة التي كان يضعها الفراعنة بسراديبهم ومقابرهم بالإضافة لمزيج من العوالق البحرية التي تملأ

المحيطات وتهيم على وجوهها بلا هدف منجرفة مع التيارات كالبكتريا والعتائق وحقيقيات النوى.

وهذا التكوين أنتج جينًا وراثيًا مشابهًا لجين كيبرا –والمكتشف في معامل سويسرا منذ شهور-داخل الـ RNA الخاص بهذا الطفيلي وجين كيبرا هذا مسئول عن أداء الذاكرة بشكل مباشر.

-طفيلي يعيش منذ ألفي سنة؟ سألته فأجاب وهو يشير إلى بعض الصور الطبية: وما الغريب في ذلك؟ الجدري مثلا عمره يتجاوز الخمسة آلاف عام وكان أول وباء جدري سجله التاريخ هو طاعون أثينا عام ٤٣٠ق.م الذي تفشى إبان الحرب البيلوبونيزية التي نشبت بنين الأثيني بريكليس والإسبرطيين.

-وما هو الضرر الذي سببه هذا الطفيلي؟

-سأشرح لك. هذا الطفيلي تركيبة الداخلي فريد حيث يحتفظ داخل شفرته الوراثية بسجل من ذاكرة العائل الذي سكنه والذي من المفترض أنه كان ملينيا وبانتيوس ونعوم وكل الجثث التي تحللت داخل الحفرة، كما أنه يستهلك كميات كبيرة من هرمون «Adducin أدوسين» والتي تجري الأبحاث حالياً عن علاقته بالحفظ والتذكر، والاحتمال الأكبر أن ذلك الطفيلي أصاب والدتك وانتقل إليك بعد ذلك عن طريق الفيروزة التي كانت ترتديها في صدرها، لأن الفيروزة كانت ملوثة به حين استخرجت من الحفرة، وبذلك دخل الطفيلي إلى جسديكما، بالتأكيد وقتها اعتبره جهازك المناعي دخيل أو كائن غريب وعمل ضده وربما أصبت بالحمى، لكن والدك الطبيب لم يكتشفه لسبب ما ربما لأنك تعافيت بعدها فظن أنه قد أصابك أحد أمراض الطفولة العادية ومر بسلام وتناسى الأمر.

مع الوقت صنع الطفيلي لنفسه ما يسمى «الانحراف المستضد» وهو بمثابة درع يحمي به الطفيلي نفسه من جهازك المناعي إلى أن أصبح وجوده بداخلك طبيعيا. ظل الطفيلي بعدها كامن مثل بذرة رمي بها في أرض خصبة وتنتظر المطر لتنبت. وعندما عدت إلى مصر ثم دخلت المنزل الذي حدثت لك به أحداثًا صدامية في طفولتك. منحته أنت دون أن تقصد قطرة الإنبات وتسببت رؤيتك لأماكن لك بها ذكريات كثيرة في تهييج مناطق الذاكرة بداخلك مما أدى لتنشيط عمل الطفيلي وهذا يفسر وبشدة أن تلك الحالة لم تصبك في ألمانيا لأنك كنت بعيد تمامًا عن نطاق الأحداث.

-تقصد أن وجودي بأماكن الأحداث منحه بيئة خصبه للعمل وأدى إلى نشاطه؟

-بالضبط. كما يحدث عندما تتعرض لموجه باردة وأنت مصاب بالأنفلونزا فتزداد حالتك سوءاً. بعدها نشط الطفيلي داخلك بشكل عنيف وبإيقاع متسارع من النبضات وبدأ يبثك ما يحمله بداخله من أحداث مسجلة في تكوينه. لذلك كنت تشاهد الذكريات بشكل أسرع وأوضح حينما تقترب من مناطق حدوثها كما يحدث لأي شخص طبيعي. وصاحب ذلك بالطبع استهلاك زائد عن الطبيعي لهرمون الأدوسين كما قلت. ودعني أشرح لك شيئًا طبيًا مبسطاً سيوضح كيف كانت تتم آلية عمل الطفيلي داخل جسمك. هذا الطفيلي مادته الوراثية من نوع RNA. وهذه الطفيليات تنفرد بخاصية أنها عندما تصيب خلية تنتج نسخة DNA من RNA الذي تحمله. وتنغرس داخل مادة الخلية الوراثية ومن ثم تتكاثر جنبًا إلى جنب مع DNA. الحمض النووي للعائل. وهذا لا يحمي الطفيلي من هجوم المناعة وحسب بل يضمن بقاءه مدى الحياة داخل الخلية. ويمنحه القدرة في الوقت نفسه على إعادة برمجة أداء جين الخلية نفسها لوظيفته.

لكن المثير أن هذا الطفيلي لم يؤثر على نمو خلاياك وكان مقتصداً في مشاركتك الميتوكونداريا ولم يسبب لك أورامًا ولا تبرعمًا وذلك حتى لا يدمر خلاياك، بل كان أذكى بشكل مبهر بحيث دس نفسه داخل خلايا جهازك العصبي مستخدمًا «إنزيم الدمج» وأصبح جزءا لا يتجزأ من أعصابك، تمامًا كأنك تمد وصلات إضافية وأسلاك إلى شبكة ما فتسري الإشارة بها كأنها جزء لا يتجزأ من الشبكة الأم.

-أفهم من ذلك أن هذا الطفيلي كان يحمل الذكريات داخل مادته الوراثية؟

-بالضبط ولذلك أقول لك أنه شيء نادر للغاية، أما كيف كانت تُعرض الذكريات بداخلك على الترتيب فذلك لأن الطفيلي كان يعمل بمبدأ ما يدخل أولا يخرج أولا، فكانت الأحداث المحتفظ بها بداخله تخرج تباعا وعلى الترتيب الذي وقعت بها ولم يربك عملها الحيوي إلّا تداخل ذكريات نعوم مع بانتيوس وزيارتك لبعض الأماكن بشكل عشوائي غير مرتبط بحدوث الاحداث المتسلسل، ولذلك كان الطفيلي يعرض لك أحداثا متداخلة وذكريات شاردة أحيانا كرؤيتك لمشاهد انتحار والدتك، والقطّ، والصرخات التي كنت تسمعها وبعض المشاهد المرعبة وهكذا.

-لكن هذا لا يفسر أن تتصور والدتي رحمها الله نفسها ملينيا وتنتحر مثلما فعلت؟ ولماذا لم أفعل مثلها وأنتحر مثل بانتيوس؟

-تأثير الطفيلي على الأجساد البشرية ليس واحدًا، بل يختلف من شخص لآخر، طبقًا لجهاز المناعة والشكل الذي عليه الطفيلي، تماماً مثل تأثير أي فيروس، البعض حينما يصاب بالبرد يسقط طريح الفراش لأسابيع والبعض يتأثر تأثيراً طفيفا، والبعض قد لا يتأثر أبدًا، ولذلك السيدة الكريمة والدتك كان تأثير الطفيلي عليها مختلفاً عنك وبشكل كبير، بينما

والدك لم تنتقل له العدوى من الأساس حسب توقعي وربما يكون عمله بمجال الطب واستخدامه الكثير للمطهرات وغيرها حماه من الإصابة.

-ولماذا تصورت أمي نفسها ملينيا وليس بانتيوس أم أن الطفيلي ينتقي ويبث النساء ذكريات النساء فقط.

-لا زالت تحتفظ بذكائك رغم كل ما مر بك، طبيعة ونسبة إفراز الهرمونات تختلف بين الإناث والذكور وما يعمل هنا بكفاءة قد لا يعمل هناك، على سبيل المثال هرمونات الذكورة نسبتها ضعيفة لدى النساء والعكس.

-ولماذا لم يكتشف أيًا من الأطباء ذلك الطفيلي طوال تلك السنين؟

- الطفيلي نادر بشدّة ويعمل بمثابة جزء لا يتجزأ من جهازك الحيوي كما أخبرتك، ويندمج مع المشابك العصبية لك بمنتهي التناغم والتفاعل الدقيق، وذلك حال دون اكتشافه بالإضافة لأن أجهزة ومعامل التحليل في الخمسينات والسبعينات تختلف كثير عن امكانياتها الآن بالطبع.

-هذا عن ذكريات نعوم وبانتيوس فماذا عن حنان ومصطفى وأستاذ التاريخ؟

-ربما -وهو احتمال غير مؤكد-أنك كنت تعيش داخل ذكريات شخص آخر.

- شخص آخر، واسمه أحمد؟ وكان يعيش بألمانيا ويمتلك ذكريات عن أبي وأمي؟ هذه مصادفات يستحيل تكرارها يا دكتور.

- أحمد هو أنت، هذه قضية محسومة، لكن ما أقصده هو أنه من المحتمل أنك عشت ذكريات لشخص آخر ولم تكشف لك ذكرياته عن هويته وهو الذي عاش قصة عبد الله ومصطفى وحنان.

-تقصد أن من تزوج حنان كان شخصًا آخر غيري؟

-في الغالب، لكن أصدقك القول لا أستطيع تأكيد أو نفي تلك الفرضية تحديدًا.

-ولماذا ظلّت الذكريات تتكرر وتعرض نفسها بداخلي مثل شريط يعاد بثه تلقائيا كلما ينتهي ولم تتوقف طوال سنوات طويلة؟

-لأن الطفيلي لازال بداخلك ولأنها أصبحت جزءًا من ذكرياتك أنت.

-تعني أنني أصبحت متعدد الهوية بالفعل؟

-لا أنت لم تحمل أكثر من هوية ولا لحظة من عمرك، ولم تسافر عبر الزمن، الزمن هو من أتى إليك، هو من احتمل أحداثه وسافر في عقلك أشواطا طويلة.

سكتُ قليلا، شعور المفاجأة وحده كان غير معتاد بالنسبة لي ثم قلت بصوت هادئ: تعني أنني لست مجنوناً؟

-لا، وهذا الملف الذي أحمله بين يدي توجد به كل الأدلة العلمية -والمدعمة بالإثباتات التاريخية-على صحة عقلك وسأقدمه إلى اللجنة وكلي ثقة أنها ستوافق على خروجك من هنا.

قالها ونظر إلى الدكتور جمال والذي أومأ برأسه موافقا فسألتُ الدكتور جمال: هل سأخرج حقًا يا دكتور؟

-نعم.

قلت بلهفة: إذًا أرجو أن تتم إجراءاتك سريعًا فأنا أتعجل الخروج.

تعجب الطبيب من لهفتي ثم سألني بكلمات مرتجفة تخشي أن تخدش كياني المهترئ:

-ولكن يا أخ أحمد لما العجلة وأنت ليس لك أهل ينتظرونك ولا منزل يأويك، الطبيعي أن تخشي مصيرك المجهول الذي لا تعرفه وينتظرك بالخارج؟

وكأن سؤال الدكتور جمال خنجر زرعه في صميم روحي، ونكأ به جرحي الذي مازال ينزف، ولكنّي على كل حال كنت بحاجة لأن أتحدث عن معاناتي فقلت له بهدوء:

-تنتظري الحياة التي لم أعشها.

-بعد أن مضى العمر؟

-العمر والحياة ليسا مترادفين.

نظر الدكتور جمال في عيني نظرة قلق فقلت:

- هذا ما تعلمته، فأنا لم أذق الحياة برغم سنوات عمري التي انقضت، الحياة مرّت حول جسدي لكنها لم تمر في أوردتي، عشتُ ظلًا لرجلٍ آخر، لذلك لابد أن أخرج لأعرف من هو ذلك الرجل؟ حتى لو كلفني ذلك أن أجمع رفاته من الفضاء الشاسع أو من بين مناقل الجمر، لن أستسلم أبدًا حتى أراه وأعرفه.

طفحت الحيرة على ملامح جمال وقال: ولكنك الآن شيخ كبير كيف ستستعيد الحياة:

-سيدي أنت طبيب وتعرف أن الشيخوخة تأكل أجساد البشر لكن لا تأكل أرواحهم، فالروح تظل شابّة تغازل الحياة وتتشبث بها لأقصى حدود الأمنيات وحتى منتهى الأحلام، ولكن سرّ حيوية الروح وديمومة شبابها هو الذاكرة، فبضع نسائم من الذكريات السعيدة تعيدنا أطفالًا نمرحُ في أودية البراءة، لنضحك من أعماقنا على ما كان، وبضع نسائم من ذكريات قاسية

تجعلنا نستشعر كم نضجنا على جمة الخبرة، كم تغيرنا، وكيف غادرنا جنة طفولتنا. الذكريات كالندى الذي ينزل على ما جفّ من أرواحنا فيجعلها طرّيةً كالصباح، وليدةً كفجر يبزغ في جوانحنا، لذلك سأخرج لأجمع بعض ذكرياتي حتى ألطف الجحيم الذي يسكنني وأذق في أرذل العمر، حلا الشباب.

وزادت حيرة الطبيب وهو يسألني:

- لماذا تتكلم كمن له خصم سيتفاوض معه على ذاكرته وأنا أعرف أنك لا تمتلك أهلًا ولا مأوى، وبالتأكيد لا تمتلك خصوما، فلماذا تتحدث بتحدي؟

-يا دكتور، خصومتي ليست مع البشر، فأنا شقيٌ لدرجة أن كل العواطف التي أحسست بها في حياتي، عشتها متلصصا على غيري، حتى الحقد والجشع والبخل زاروني رغما عن أنفي، تنفستهم وأحرقتهم بدمائي مكرها، ولذلك لا يهمني البشر لأنهم وهم كبير، خصومتي الوحيدة مع البحر.

-ولماذا البحر!

-لأنه هو من لفظني مثل محارة رخيصة، طرحها على شاطئ منعزل ليعذبها، ولتمرح رياحه بين تجاويفها وتضج بالألم والبرد والصداع، البحر سلبني كل شيء، علم حقيقة ماضيّ وأنكرها ورفض أن يشهد في قضية حاضري، ومنعني بنهاية المطاف من استعادة مستقبلي المسلوب.

-أخ أحمد، أتمنى ألّا تتحدث مع أحد من الأطباء هنا أو حينما تخرج بهذا الأسلوب حتى لا تعود إلى المستشفى سريعًا.

-لا تقلق يا دكتور لن أتحدث مع أحد، لا بهذه الطرقة ولا بغيرها.

أطلق زفرة ارتياح ثم قال:

-حسنًا أخ أحمد، سأتمم لك الإجراءات بأسرع ما يمكن.

قالها وبسط كفّه يدعوني للانصراف وهو يمنح الدكتور الشاب نظرة تساؤل فأومأ له بالاطمئنان وغادرتهما زائغًا، أدركت لغزّ عمري وأنا على مشارف نهايته، لا معني للأشياء التي تحتضر، أنا أسير على حافة السيف كلما أتقدم خطوة أنزف المزيد، غير أنه ليس لدي خيار، السير إلى الأمام هو طريقي الوحيد، حتى لو كانت تنتظرني بنهايته طعنة الموت.

عدت إلى غرفتي وقدّ اتضح لي كل شيء، لا أدري هل أحزن أم أفرح، منحني الطفيلي ذكريات رائعة لن أنكرها عن بانتيوس وفتح لي نافذة في سماء التاريخ وحملني على قارب متحمس لأبحر في نهر الزمن لكنّه أيضا قذف في قلبي الكآبة بذكريات نعوم، وهكذا كل شيء لا سعادة دون ألم ولا ابتسامة دون دموع.

أخرجت أنيسي الوحيد، وجليسي الدائم، دفتري الكبير، فتحته لأكتب آخر فصلٍ في ذكرياتي بهذا المكان ربما يضيفونها إلى ملف حالتي يوما ما، وربما يلقون به بأقرب حاوية قمامة لا يهم، ما يهمني هو أن أسجل ما يفيض بداخلي من إحساس في تلك اللحظة التي لا تتكرر كثيرًا في حياة أي إنسان:

" عشت مثل هيكلٍ خالٍ من الروح، تستجدي ذاكرتي بعضًا من ماضيٍّ، لتنبت الحياة على ضفّتي حاضري، لكنها حين أمطرت، رشقتني بحجارة من سجيل، طمرت آمالي أكثر، وسرى جمرها في مستقبلي فأحاله إلى رماد"
كتبه: أحمد عزت المصري.

* * *

الزهراء- العجمي

ساحل الإسكندرية: ٢٠٠٧

مرّت ثلاث ساعات وأنا أدور بهذا القارب التعيس في البحر، وأكرر الغوص بصبّر ومجاهدة، محاولًا تحديد البقعة التي تقود إلى النَّفق، ولكن دون جدوى، جلست إلى سِياجه ألتقط أنفاسي التي لازالت هاربة منذ غوصي الأخير. الرياح من حولي صاخبة والموج عاتٍ ينفض القارب نفضًا وأسناني تصطك من شدّة البرد، أما القارب فمتهالك مثله مثل صاحبه وأيضا ربّانه، استأجرته فور خروجي من المستشفى من صياد كهل يكبرني بما يزيد عن عشرين سنة، ولولا احتياجه للمال ما وافق على تأجيره، حسبما قال لي وهو جالس على قدميه أمام مصطبة بيته العتيق، يدخّن سيجارة يدوية الصنع، تصورت في البداية أنني سأجد المنزل ينتظرني كما هو، لكنّ هذا لم يحدث، أشياء كثيرة تغيرت هنا، البحر قضم قطعةً كبيرة من الأرض، والمنطقة التي كانت شبه مهجورة أصبحت مليئة بالمباني، بحثت داخل بعض الشاليهات التي أشتبه بها لكني لم أعثر على شيء ولم يعد أمامي إلّا أن أبحث في البحر، وحده النفق سيقودني للمنزل مباشرة إن صح تقديري.

غصت عدّة مرات ولم أجد الأسطوانة التي تغطي مدخل النفق، وكأن البحر أخفاها، أُدرك أنه لازال يحاربني بكل جبروته ليمحو أدلة وجودي، يأبى أن يترك لي ولو فرصة واحدة لألمس ذاتي الذائبة في ملحه، أو لأفتش في قاعه عن محارة قد تخفي ملامحي الحقيقية، رغم أنني لا أبحث وراء كنوزه، كل ما أرجوه هو أن استعيد حقيقتي لأن حقيقة الإنسان هي كنز رحلته، ولهذا جئته، كان لابد أن أعود إليه لأنتزع منه ولو دليلاً واحدًا علي عبوري في ذلك

الكون، أعرف أنني أبحث عن إبرة في كثبان من الظلام، لأنه لا أثر لي كي أتتبعه، وهذه مأساتي، جحيمي الدائم هو أنني لم أترك ما قد يقودني إلى نفسي، أو ما يستدل به الناس على مروري يومًا بالجوار، جُلّ ما تركته كانت عدة بصماتٍ واهيةٍ على الرمال لعقتها ألسنةُ الموجِ ومحتْ أثرَهَا، ولذلك كل الأسباب انتفت، ولم يبقى لي سوى الأمل، الأمل في كشف سرّ حنان ومصطفى وأستاذ التاريخ، الأمل في أن أثبت لنفسي أنني لم أكن واهماً أو مريضًا كما اعتقدت، ولا كنت أعيش ذكريات رجل مجهول كما افترض الطبيب.

يا الله أضعتُ عمري راضيًا بالجنون حتى جاء ذلك الطبيب لينسِفَ كل ثوابت بنياني المشروخ وليصرخ بوجهي قائلاً أفق أنت بخير، عمرك ذوي هباءً أيها المغبون، كلماتُه كانت مثل مبضع الجراح، حملت تحت شفرتها الوجع والعلاج، طعنتني لتستأصل آلامي، على أية حال يجب أن أركز فيما أتيت من أجله، رفعت رأسي نحو السماء فوجدت الغيوم تحتشد بساحة الأفق كأنها تتجمع في موسم التزاوج، سابق معرفتي بلقاءاتها الحميمة ونتاجِها الساخِط يجعلني أسرعُ قبل أن تُولد العاصفة فالسيول قادمة لا محالة.

منحت أصابعي المتغضّنة -والتي تنتشر بها بقع الشيخوخة البنية-نظرة حانية وكأنني أواسيها، وأبثها مزيدًا من ترياق الصبر، نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها تعلن الرابعة والنصف مساءً، ابتسمت بسخرية، ها أنا ذا أحاول أن استعيد ما لا يمكن استعادته إلّا بإضاعة المزيد منه، عمري.

جهّزت أسطوانة الأُكسِيجين وثَبّتُ فيها المنظم وركبّتُ به خرطوم الهواء ثم وضعت معولًا داخل حقيبة ظهري وحَملّت عليها الأسطوانة ولبست حمّالاتها كالقميص وعقدت نطاقها حول خصري. طوّقت رسغي بساعتي المضادة للماء، انتعلت زعانف الغوص بقدمي العجوز المعروقة، شبّكت الخطّاف الموصول في بكرة الحبال –والمعقود طرفها الآخر بالقارب-بحلقة

في حزامي، ثم وضعت خُرطوم الأُكْسِيجين في فمي والتقطت الكشّاف، وحملتُ مطرقة ضخمة مكوّنة من ذراع خشبي ورأس عبارة عن مغناطيس شديد القوة ورميتها في البحر، ورميت خلفها الهلب لأثبّت القارب حتى لا يسحبه التيار بعيدًا.

أصبحت جاهزًا فانقلبت غاطسًا بالماء الذي كان سطحَهُ يُمزّعُ بعضه بعضًا. خضت العمق البارد وأشعلتُ الكشّاف لأنير لنفسي الظلام وغصت للأسفل أبدل بين قدّمي ضاربًا الماء بزعانف الغوص حتى اقتربت من القاع، استعدت مطرقة المغناطيس وسكنت طافيًا لبرهه، ثم درت بالكشاف أسلط بقعة الضوء الكثيفة على الرمال المجعّدة وأفرقُ بين أعشاب البحر بيدي وأنا أحرك المطرقة يمينًا ويسارًا باحثًا عن السلسلة.

هَرَبتْ من حولي العديد من الأسماك بنفضة واحدة من ذيلها، ودفنَ الكثير منها نفسه برمالِ القاعِ في انسيابيه في حين دار البعض الآخر من حولي ورفرف بزعانفه في لا مبالاة.

فتّشتُ في كل المنطقة، حتى لم يعد الحبل الذي يربطني بالقارب يمتدّ لمسافة أبعد، وفي محاولة أخيرة درت مع نهاية طرف الحبل دورة دائرية وأنا أنهب القاع بنظراتي وأحركُ المطرقة يمينًا ويسارًا بعصبية ولا جديد، انقضَتْ الدقائق دون أن أعثر عليها وبالنهاية استسلمت، لا شيء هنا، السلسلة طَمَرتها تبّات الرمال و يبدو أن الأمل ضـ.. انتزع شيءٌ ما المطرقة من يدي ووجدتها تنفلت وتنساب للحظة لتلتصق بالقاع وذراعها منتصب، تحركت نصف خطوة وحفرت الرمال فوجدت الأسطوانة قد اجتذبتها، ورأيتها تستقر تحت المغناطيس، سيطرتُ على فرحتي، وخَلعتُ الحبل المربوط في نطاقي ثم ربطته بالسلسلة حتى لا أفقد مكانها وصعدت سريعاً إلى حيث يستقر القارب.

وعلى عكس الماء المستقر نسبياً بالقاع، كان الموج بالأعلى صاخب شرس، فلم تكد رأسي تطل بالهواء حتى لطمتني موجه قاسية شعرت معها بالدوار

لكني تحاملت، وتعلقت بالقارب وتدحرجت إلى سطحه، ثم تركتُ جسدي الضعيف يستلقي حتى استعيد أنفاسي وأقدِرُ على المواصلة، رأيت السماء قد تراكمت بها السحب والحال ينذر بأنواء قادمة ستأكلني في بطنها لو لم أنه مَهَمَتي سريعًا.

استقمت وركّبت عبوة الغاز الصغيرة المضغوطة في مسدس الشعلة ووضعته داخل حقيبة ظهري وعدت لأكرر الغوص من جديد حتى وصلت إلى القاع، فأخرجت المسدس وفتحت مُنظِم عبوة الغاز فاشتعل لهبه الأزرق المتوهج، صوبته للأسطوانة وانبرى لسانه الناري يأكل حوافها بشراهة مصدراً شذراً حارقًا تناثر في كل الاتجاهات، وبالفعل خلال دقيقتين صنعت بحلق الاسطوانة فجوة واسعة.

حينها أغلقت منظم المسدس فانطفأ اللهب، وجذبت السلسلة واقتلعت الأسطوانة عن حلقها المتآكل، ثم انسللت داخل النفق الذي صدمتني شدة برودته، غصت مستنداً إلى جدرانه واتسع قطرهُ من حولي، حتى وصلت إلى الغِطاء الاسطواني الثاني والذي يفتح من الجهة الأخرى، وسريعًا أشعلت اللهب به وتركته يذيبه، وأنا أتساءل، ما الذي يستقر خلفه يا ترى؟ أرجو أن تكون نظريّتي صحيحة ويقودني هذا النفق إلى المنزل بالفعل، لن أحتمل فشلًا جديدًا.

مرّ الوقت ولم يتأثر الغطاء بالشكل المطلوب، وبدأتْ شعلة المسدس تضعف، أصبحت في مأزق، ولم يكن أمامي إلّا اللجوء لفكرة مجنونة، قد تحمل الموت لكن لا ضير، لم تعد تهمني الحياة، لا يمكنني التراجع عند هذه النقطة أبدا مهما كان حجم المجازفة وأيًا كانت النتائج، خلعت أسطوانة الأكْسِيجِين عن ظهري ثم وضعتها أمام الغطاء الحديدي وأشعلتُ لهَب المسدس في مُنظِمها، المسافة بيني وبين الاسطوانة لم تكن تتجاوز المتر، والمنظم بدأ يتغير لونه سريعًا والموت قادم لا محالة، وفي لحظة ما أنبأني بها حدسي، رميت المسدس من يدي وأبتعدت قدر المستطاع، وحدث الانفجار،

ارتج النفق من حولي في لحظة مباغته ومشوّشة دفعتني فيها الموجة التضاغطية بعيدا ليصطدم ظهري بسقف النفق فشعرت وكان صاعقة تضرب بداخلي، ولمحت الاسطوانة المنفجرة تندفع كالطوربيد من أسفل بطني، وغبت عن وعيي.

البردُ مؤلم، ينهشني، يأكل في كل ثانية قطعة مني، ولا يكتفي بلحمي، بل ينخر عظامي، يقرضها، يوجعها ويؤلما، لماذا أنا عاجز عن مقاومته، شيء ما يقيدني ويجبرني على الاستسلام لعضته، احتاج إلى الدفء وبشدة، لابد أن أحصل عليه، وسريعاً، أفقت من غيبوبتي فزعًا، كنت أشعر ببرودة تفوق كل ما عايَنْتهُ في حياتي، وجدتني طافيًا بالماء وخرطوم الأُكْسِيجين ينساب بعيدا عن أنفي بينما أنفاسي تنسحب مني في صورة فقاقيع متناثرة.

قامرتُ بحياتي ونجحت، كل من يقامرون ولا يعنيهم المكسبُ يفوزون، لكن ورغم أن بقائي على قيد الحياة يعد نصراً إلّا أنه يبقى منقوصًا، فلا زلت لا أسمع إلّا صوت صفير متصل، غصت إلى حيث كنت، فوجدت الغطاء الحديدي في مكانه لم ينفتح، وكانت صدمة تعني الموت، أنا دون أُكْسِيجين، حلقي يختنق ورئتي تتعذب، غرست بصري في حلق الغطاء الذي كشف لي الانفجار ما خلفه، فرأيت اللسان الذي يشبكه من الداخل لازال مغلقًا.

التقطت مسدس اللهب، وأطلقت كل ما تبقى به من شحنه تجاه اللسان الحديدي، فذاب وانفصل عن الغطاء، هنا ملت بظهري إلى الخلف وركلتُ الغطاء الحديدي بقدميّ فانفتح، وهرع الماء للداخل كأنه يهرب وحملني معهُ داخل الحفرة لأجد في استقبالي هياكلَ عظيمة مخيفة، وبجانبها كيس من القماش يطوف منسابا بين جنبات الماء الضحل، أشحتُ بالماء لأبعد الهياكل ورفعت رأسي لأعلى وفتحت حلقي على اتساعه وشهقت بجنون، ابتلعت الهواء العطن وملأت رئتّي عن آخرهما به، كان بشعًا لكنه يساوي الحياة.

نظرت إلى ساعة يدي وانتظرت حتى بدأت أنفاسي تنتظم وبعدها جلت ببصري لا أصدق أنني أصبحت داخل جوف الحفرة التي رأيت نعوم ورفقته يموتون بها. لقد كانت نظريتي صحيحة بالفعل، النفق يقود إلى ما أريد وبدقة. رفعت بصري لأعلي فوجدت سقفها مغلقًا تمامًا بقعر الخزانة، والذي بدا من الفولاذ وليس النحاس. لم تَسر الأمور كما خططتُ لها، كنت أظنني سأجد منفذًا مباشرًا للغرفة من فوهة الحفرة، لكنّي عرفتُ أنني مسجونٌ هنا، من تحت قدمي يرتفع منسوب الماء بجنون، من فوقي سقف من الفولاذ، وتحيط بي جدران الحفرة الضيقة. غمر الماء جزعي فعرفت أنه قطع ما يزيد عن متر، نظرت إلى ساعتي فوجدت أن الماء استغرق ما يقرب من دقيقة ونصف وهذا يعني أن الحفرة التي ترتفع لخمسة أمتار ستغمر بالماء عن أكملها بعد سبعة دقائق ونصف تقريبًا أو ربما ستتقلص المدة مع سرعة التدفق، وحجم الماء المزاح، وأنني يجب أن أتحرك سريعًا جدًا.

نزعتُ حقيبة ظهري وتركتها لتستقر بالقاع المغمور بالوحل، وأخرجت منها المعوَل ثم استسلمت لمنسوب الماء وتركته يرتفع ويحملني معه لأعلي، نظريًا ليس أمامي إلّا أن أشق حفرة بزاوية خمسة وأربعين درجة ويكون عرضها مترا، وعمقها نصف متر، كي تسمح بمروري إلى غرفة القبو القديمة، وبذات الوقت لا تؤدي لسقوط الخزانة فوق رأسي وكل هذا يجب أن أفعله وأنا في حالة طفو وعلى مسافة متر واحد من السقف أي أنني أملك دقيقة ونصف فقط للانتهاء من الحفر قبل أن أغرق بالماء، لكن الخبر الجيّد هو أن الألواح الخشبية منزوعة وجدران الحفرة رخوة لحد ما.

صعدَ الماءُ بي حتى أصبحتُ على بُعدِ ذراعين من السطح أي تقريبًا متر، فشرعت في الحفر سريعًا قبل أن يغمرني الماء، شيخ أنا لكن داخل عروقي تجري عزيمة من يبحث عن جرعة هواء معتقّة بمعاني وجوده الأصيلة حتى يستنشق الحياة مرة واحدة قبل أن يفارقها، كان هذا المعنى هو القوّة التي تدفع معولي للحفر بجوار الخزانة مثل شاب في العشرين من عمره، ولذلك واصلت الحفر، وأنا أتابع بطرف عيني منسوب الماء الذي كان يرتفع سريعًا،

ومع توالي الضربات صنعت مجرىً يفضي إلى قاع الغرفة وبقطر لا يقل عن متر وعمق نصف المتر، لكن لا زالت أرض الغرفة لم تثقب ومرّت اللحظات وأنا أطرقها لأحدث بها كسرًا ومنسوب الماء يرتفع من حول رقبتي حتى أصبح يلامس أنفي ولم تنكسر قاعدة الغرفة. ملأت صدري بالهواء ثم حبست أنفاسي وغمرني الماء.

خمسة دقائق هي عمر قدرتي على كتم أنفاسي تحت الماء، لكن مع بذل المجهود تتقلص إلى دقيقتين فقط، ومع تواصل الطرق وهنت، وبدأت أضعف، وأختنق، وأنهار، ولم يتبقى لدي رصيدي الفقير من القوة إلّا ضربة واحدة، إما تشق لي فتحةً في أرض الغرفة لأمر منها أو أموت.

تركت وزن المعول يأخذ ذراعي للأسفل، قبضت عليه بأصابع هشة تسري بها بقايا عزيمة تحتضر، ثم رفعته وضربت به ليمخر سنه المدبب بطن الماء ويصطدم بالسقف وبكل ما تبقى لي من عزم، لحظتها رأيت وجه الموت المظلم يتموج أمامي، يبتسم بظفر، ويفتح شدقه الذي كان يسيل منه الزبد المالح ليكشف لي عن كل أنيابه وقواطعه. استسلمت له، وبدأت جفوني تسقط، لكنه لم يأت، انفجر وجهَهُ الذي كان يتعاظم وتحول إلى رذاذ منهار، وذاب حول رقبتي حينما اخترَقَته قطعُ الركامِ التي انكسرت من السقف المتصدّع وبدأت تنهال بالماء.

ضربتي الأخيرة كانت تحمل النجاة، فتحت لي ثقبًا في أرضيّة الغرفة من الداخل، وبدأ الماء يتسرب منه للأعلى، عاجلت السقف بضربة أخرى من ذراعي شبه الميت، فانهارت تحت ضربتي الأخيرة كتله كبيرة وسقطت من أمام صدري فمددت رأسي بالأعلى التقط دفقة هواء تحييني من الموت وتسترد روحي التي نهشت أنياب الموت قطعة منها بالفعل، ثم ضربت حولها لأوسع الحفرة أكثر فانكسر منها المزيد حتى سمحت بمروري واعتمدت بذراعي المنهارين على أرض الغرفة وألقيتُ المعول بالداخل، ورفعت جسدي

وصعدت إلى الغرفة وأسجيت جسدي على الأرض مفترشًا ما تسرب إليها من ماء.

منحت أنفاسي ثواني معدودات لتستعيد فيها رحيق الحياة، ثم أسرعت أسدّ الكسر بعددٍ من الألواح الخشبية التي وجدتها بالغرفة حتى لا يتسرب مزيد من الماء للأعلى، وبالفعل خففت حدة التدفق لكنها لم تمنعه تماما.

استندت بذراعي إلى ركبتي لألتقط أنفاسي ثم تلفّت حولي فتلقيت صدمة جديدة، الغرفة كانت مصمتة بلا منافذ خروج على الاطلاق، عزلها أحدهم عن الحياة تماما، لدرجة أنها كانت مثل علبة مغلقة من الحجر ولم يتبق منها إلّا محتوياتها القديمة، ألواح الخشب، الكرسي الهزاز، والبطانيّات التي تركتها منذ زمن بعيد، بالإضافة للخزانة التي تستقر أمامي بينها وبين الحفرة التي صنعتها نصف متر.

وقفت أمام الخزانة والترقب يُصعّدُ من وتيرة أنفاسي اللاهثة، وكعادتها سحرتني، لامستُ جسدها بأناملي العجوز ثم ضبطت التروس على الأرقام وأدرت ذراع التشغيل ثلاث مرات إلى الخلف، صرّت الاسطوانات برنين عالي ودارت حول محورها عدة دورات سريعة ثم أصدرت جلجلة قوية وانفتح الغالق من حول المحور، مثل عيني تتسع كاشفة عمّا بداخل الخزينة من محتويات، ولم يكن بداخلها سوى رسالة طويلة مطويّة التقطتها بشغف ثم فردتها وبدأت أقرأ ما فيها.

لا أعرف من أين أبدأ رسالتي، يكفي أن أخبرك أن هذه الكلمات هي أصعب ما عانيته يوماً، كل ما أعرفه أنك تستحق مني تفسيرًا لكل شيء، نظير إحساسك نحوي واللحظات الرقيقة التي قضيناها سوياً، أعرف أنك لن تسامحني، لكنّي لا أستطيع أن أرحل هكذا وأتركك دون أن أطلب منك المغفرة لعلي أنالها يوماً ما، لا أدري حتى متى ستقرأ رسالتي، بل لا أدري هل ستقرأها أم لا؟ لكني كتبتها، الحقيقة أنا لست زوجتك، نحن لم نتزوج أبدًا، واسمي ليس حنان، حنان هو أسم والدتي رحمها الله، وهي التي كان

المنزل مسجلًا باسمها، وأستاذ التاريخ الذي كنت تزوره هو أبي واسمه ليس عبد الله بالطبع، أمّا الطبيب النفسي والصحفي لم يكونا سوى أولاد خالتي ممثل مغمور ومصور صحفي، وبالطبع اسماؤهم ليست يسري ولا مصطفى، والحكاية كلها بدأت منذ عدة سنوات عندما شرع أبي في تأليف كتاب يسمى (تاريخ بلا تأريخ) يلقي فيه الضوء على المعالم والآثار المجهولة التي وقعت بها أحداث غامضة ولا يُعرف تاريخاً محدداً لبنائها.

وفي رحلة بحثه وإعداده للمادة العلمية وجدَ في طريقة بعض المعلومات المثيرة عن منزل يقف وحيدًا بساحل البحر دون أن يُعْرف من بناهُ ومتى، وكأي باحثٍ مهتم فتش أبي عن أخبارِ المنزل في كل المراجع لكنّه لم يصل إلى شيءٍ واضح، كان كلما قبض على معلومة تسربت من بين كفيه مثل حفنة من الماء، فالمنزل تعرض للتطوير والترميم عدة مرات، لكن لم يُعرَفْ أبداً كيف كانت نشأته.

كان من الممكن أن تنتهي المسألة هكذا ويذكُر أبي المنزلَ في كتابه بشكلٍ عابر، لكن ذلك لم يحدث لسبب بسيط، أنه حينما كان أبي يتفقد مكتبة المنزل عثر على دفتر قديم متهالك، النصف الأول منه مجرد ملاحظات طبية دوّنها طبيب يدعى عزت المصري عن مريض يعالجه يدعى موريس، بينما كان النصف الثاني من المذكرات يخص الطبيب نفسه، يتحدث فيها عن كرم موريس صديقه الثري المهذب الذي أهداه المنزل امتنانًا لوقوفه بجانبه في محنته في الوقت الذي خذله الكثير من الأصدقاء.

وذكر الطبيب أيضًا أن صبيحة يوم سفر موريس، وحينما كانا يوقعان عقود انتقال ملكية المنزل، همس موريس لابنه الصغير أحمد ذو الخمسة أعوام بشيء ما، وأن أحمد أخبره أن موريس همس له بمجموعة أرقام، واستكمل والدك مذكراته بملاحظات أخرى أكثر غموضًا وأهمية بذات الدفتر، وقال أنه وجد تدريجاً رقميًا على الماكينة فعرف أن ابنه الصغير كان صادقا وأن الاحتمال الأكبر أن تلك الماكينة هي خزانة لأن موريس كان

صائغًا، وحاول والدك استخراج كلمةَ السرِ التي تفتح الخزانة الفولاذية من بين ثنايا عقلك عشرات المرات لكنّه عجز عن الوصول للترتيب الدقيق، وبهذه الجملة انتهى دفتر مذكرات والدك تاركاً لأبي لغزاً محيراً بحث وراءه حتى وصل لخبر حادثة أمك وأبيك، لكنه لم يعثر على الفيروزة التي كانت أمك ترتديها -وظهرت في لوحتها المعلقة بجدار غرفة المكتب-ولا على سلاح الجريمة -الخنجر الأثري-والذي اختفي هو الآخر دون سبب من المعمل الجنائي.

فتش أبي وراء الضابط نزيه شوقي والذي كان يحقق بالقضية وعرف أن ثمة شبهات ترددتْ حول نزاهته وقتها، وأنه تم فصله من الخدمة وتكتّمت الداخلية على الخبر كعادتها في تلك الظروف، وأعلنت أنه استقال في حين اختفى أحد معاونيه في ظروف غامضة.

توصل أبي بعد رحلة تحريات طويلة إلى نزيه شوقي، ووجد أن الرجل غارق في الثراء والنعيم، ولم تكن المسألة تحتاج إلى ذكاء لنعرف أنه قد نزع عن عنق والدتك الفيروزة الثمينة، ولم يسجلها ضمن أحراز القضية واحتفظ بها لنفسه، بل وسرق أيضاً الخنجر الأثري وباعه وأن هذا هو سبب ثرائه المفاجئ، وهنا قرر والدي شراء المنزل من عائلتكم، وسّجله باسم أمي ثم بدأنا نفتش عن الخزينة في المنزل ومرّت الأيام ولم نعثر على شيء، وفي أحد الأيام قرر والدي نقل بعض الأثاث القديم إلى المستودع الممتد تحت الدَرَجْ الحلزوني وحينما كان يصُفُّ القطع القديمة بالداخل اصطدمت إحداها بالجدار بعنف وسمعنا ضجة شديدة عرفنا منها أن وراء الجدار يوجد فراغ ما.

أسرعنا نشق بالجدار بابًا فعثرنا على الغرفة، ورأينا الخزينة تستقر بالأسفل وبجوارها رفاة جثة، وفهمنا بالطبع أنها ترجع للمعاون المختفي وأن الضابط قتله ليستأثر بالفيروزة وحده، ثم نقل جثتي أبوك وأمك إلى البهو وسد باب الغرفة ليخفي جريمته.

حاولنا أن نفتح الخزينة لكننا عجزنا، فعلنا المستحيل وجربنا كل الأرقام وفشلنا، حتى كسرها عنوة لم يفلح، قِفلها كان مصنوعاً بشكلٍ هندسيٍ فريد، تدور تروسه مثل عجلة القمار ثلاثة دورات متتابعة لتستقر في كل دورة عند أحد الأرقام، ثم تكمل مسيرتها حتى تنهي دورتها الكاملة، دون أن تصدر قلقلة الفتح، خفنا من فتحها بالنار حتى لا تتلف محتوياتها، وكان من المستحيل أن نغامر باستقدام متخصصين أو لصوص وإلا لشاركونا الثروة أو ربما قتلونا، وفي نهاية المطاف وصلنا إلى حلٍ واحد، ألا وهو: أنت، أو بالتحديد ذاكرتك، والتي أصبحت تساوي ثروة لا تقدر بثمن، ثروة مادية وتاريخية، وعلى الفور سأل أبي بعض الأطباء النفسيين عن إمكانية استدعاء شاب لذكريات حدثت له في سن الخامسة، وأغلبهم نفى إمكانية ذلك عدا طبيب واحد -مشهور وذو خبرة- أكد أن ذلك الممكن إذا كانت تلك الذكريات مقترنة بحدث انفعالي شديد أو صدمة ما، وبناءً على رأي ذلك الطبيب قرر أبي الاستعانة بي وبأولاد خالتي واللذين تعرفهما باسم يسري ومصطفى في وضع خطة متماسكة لدفعك للحضور بشرط أن تقودنا للكنز دون أن تعرف بأنك تفعل، جلسنا إلى طاولة الطعام بالمنزل وبدأنا نعد كل شيء، وزعت الأدوار علينا كما توزع أوراق اللعب، يسري وبصفته مصوّر صحفي أعد لنا خبرَ الجريدة وأضاف له صورتك التي حصل عليها من أحد المجلات العلمية، ثم أرسل لك الخطاب باسم موريس، أما أبي فراقب رحلة الطيران التي كان موعدها باليوم التالي مباشرة لموعد وصول الخطاب كما رتبنا، وبالفعل حضرت أنت على متنها فاتصل أبي بيسري الذي كان ينتظرك لحظتها بجريدة الأخبار من أجل أن يقابلك في صدفةٍ مدبّرة من الأساس، ويؤكد لك الشك الذي بداخلك لأننا كنا نعرف بالتأكيد أن الجريدة ستنفي الخبر.

دفعتك تلك المفاجأة إلى الاتجاه للمنزل على الفور وهنا أتى دور مصطفى في اللعبة حيث كان يقتصر دوره في البداية على إحضار زميله الممثل المغمور جاسر، والذي اعتاد القيام بأدوار البوابين في السينما واستقبلك الرجل -

حينما وصلت إلى المنزل-بالرفض وغمرك بالغموض والألغاز حتى يستفزّ روح العناد بداخلك ويدفعك للاستمرار بخطتنا بإرادتك الحرّة، وبالطبع لم نخبره بموضوع الكنز، أخبرناه فقط أننا نصرف المتطفلين ونخيفهم وأنّ شخصا واحدًا مسموحٌ له بالدخول، ألا وهو أحمد عزت المصري.

أما أنا فكان دوري هو انتظارك بالمنزل، ومحاولة تخديرك حينما تفتح الخزينة، ولذلك أعددنا لك لوحتين عن الماكينة لإرشادك لها، إلّا أننا لم نرسم تصميمها كاملا وخاصّة الجزء السفلي، حتى لا تعرف أنها خزانة وبالفعل أثارك ذلك الرسم الغامض ودفعك لفتحها، لكن حدثت مفاجأة غير متوقعة لنا حينما لم تنفتح الخزانة، وازداد ارتباكنا لمّا أصبت بحالة من الإغماء، ولم ندرِ ساعتها ماذا نفعل! وقعنا في ورطة تطلبت منّا تعديل خطتنا ورسم خطة جديدة بالكامل.

واعتمدت خطتنا الجديدة على أن نسير في نفس الطريق الذي بدأناه لكي تستيقظ مقتنعاً أنك تزوجتني، ويصبح بقاؤك في البيت أمرًا منطقياً حتى نعطيك الفرصة لإجراء المزيد من المحاولات لفتح الخزانة، وتحت مراقبتي بشكل مباشر.

استأجر مصطفى شقه لاستخدامها كعيادة نفسية حتى لا نثير التساؤلات ويكون من المنطقي أن يدخلها الغرباء ويخرجون منها بشكل طبيعي، وبدوري كممرضة أخضعتك للتخدير بها ولمدة تسعة أيام، وكان أمرًا شاقًا للغاية تناوبنا عليه جميعا خوفًا من استيقاظك في أي لحظة، وبالنهاية نجح، وأفقت لتجد البيت قد تم تنظيفه وصبغ بعضه وتجد أمامك زوجتك ومعها صورة عقد مزوّر وممهور بتوقيعك الذي حصلنا عليه من الاستمارة التي وقعتها بأرشيف الأخبار، وأيضًا صوراً مزيّفةً للفرح أعدها يسري، وحكيت لك قصة لقائنا وزواجنا، لكن المشكلة الوحيدة التي قابلتنا هي أن ذكرياتك كانت تخلو تمامًا من أي لحظات تجمعني بك، لذلك كل هذه الأدلة لم

تقنعك لكنها زرعت الشك بداخلك وهذا كان كافيًا لنا بشكل مؤقت حتى نحصل على كلمة السر.

على جانب أخر توقع أبي أن تفتش وراء موريس بالصّاغة وخاف من أن تفهم سرّ الخزانة فسكن هناك لفترة حتى وثق به الكثيرون وأشاع في المنطقة كلها أن شابًا يهوديا يبحث عن إرث أبيه وصدقه الجميع، خاصة أن بعض المحلات امتلكها الناس بوضع اليد عن اليهود حينما هاجروا والكل خاف أن يفتح بابًا للمشاكل لا يرد، فأنكر الجميع معرفتهم بموريس أو نعوم أو أيا من اليهود حينما سألتهم.

كان الهدف هو إحاطتك بدوّامة من الحيرة والشكّ، تفقدك اتزانك وتطيح بك داخل غيوم متراكبة من الارتباك، فتستنفر كل طاقتك وتجوب كل تجاويف ذاكرتك لتلم ما تسرب بين الشقوق من خبايا وتستخرج الأرقام وعلى الترتيب الصحيح، وساعدنا في ذلك ودون أن ندري ما حدث لك ولم نكن نحسب حسابه، غيابك الدائم عن الواقع في رحلات طويلة تعود منها زائغاً ومشوشَ الذهنِ لا تدرك ما حولك، وأصبحت منشغلا وبشكل دائم بذكريات لا تخصّك، ويهاجمك بين الفينة والأخرى ماضٍ لم تعشه، وأخبرت والدي بما تمرّ به فقرر اتخاذ احتياطاته وزار كل المكتبات العامة، وأنشأ علاقات طيبة مع الأُمناء هناك، وباسم مستعار حتى إذا فتشت أنت وراء ذات الأسرار التي بحث هو عنها، يرشدك الجميع إليه ونعرف كل خطواتك أولًا بأول، كنا نركز وبشدة على أن تسير الأمور بشكل غير مقصود، نتركك تختار ما تريد دون أن تعرف أننا ندفعك دفعًا لذلك الاختيار، ونجعلك تسير طبقًا لما خططنا له مسبقًا، ولذلك أجرنا شقة مصطفى في منتصف الطريق بين أقرب مكتبة عامة وبين المنزل، حتى إذا فكرت في اللجوء إلى طبيب نفسي يكون مصطفى اختيارك المنطقي المناسب لعقل علمي مثل عقلك.

ومرّ الوقت دون أن تفتح الخزانة أو تستعيد الأرقام واستغرقت في دوامة ذكريات بعيدة تماما عن مقصدنا، لذلك كان لابد من أن نتدخل، اقترح عليك أبي اللجوء إلى معالج روحاني أو طبيب نفسي وهو يعرف بالتأكيد أنك ستختار الحل العلمي، وهنا أتى دور مصطفى ابن خالتي الممثل المغمور والذي درس قشورًا عن الطب النفسي عندما كان يؤدي أحد الأدوار السينمائية الثانوية، ونجحت الفكرة ولجأت أنت إليه فطلب منك زيارة أقاربك، وهو يعرف أن منزل جدتك تغيرت ملامحه بعد أن تم بيعه دون أن تعرف ذلك، لأن والدتك ماتت في حياة الجدة، وبالتالي لم يكن لك نصيب في الميراث.

أدت زيارتك لجدتك وعدم تعرفك على المنزل لاستنفار عقلك من جديد في البحث عن ذكرياتك الخاصّة، والتركيز عليها وهو ما كان الهدف الأهم لدينا، كما ساعدت أنا في ذلك ببعض المحاولات البسيطة كارتداء ملابس كانت ترتديها أمك أو عزف بعض المقطوعات التي كانت تعزفها ووجدنا لها عدة نوتات موسيقية بالمكتبة، أو عرفنا عنها من مذكرات والدك، كل ذلك من أجل أن ندفعك للتذكر، واقترحت أنا اخضاعك للتنويم المغناطيسي وبالفعل التقطت أنت الطعم وبدأت تسترجع ذكريات قديمة لأن عقلك كان متهيئًا لذلك بالفعل وبعدها بدأت الأسرار تتدفق أمامنا كالسيل.

تابعنا كل حرف وكل كلمة تقولها في جلسة التنويم ودون أن تشعر، كنّا نسجل كل ما تقوله حتى أخبرتنا بالرقم الصحيح في جلسة التنويم الثانية والتي ادعينا فيها أنك رأيت ذكريات من مستقبلك، وكنت فيها تقتلني وذلك حتى تصّر على إبعادي عن المنزل، وأنسحب أنا بهدوء من اللعبة بعد أن أديت مهمتي.

وفي تلك الليلة وقبل أن تفيق من الجلسة، حاولت أنا ومصطفى فتح الخزينة بالأرقام التي انتزعناها منك لكننا عجزنا، ولم نعرف السبب، وانتابنا اليأس، فنقلناك للبهو وجلسنا ننتظر استفاقتك متصنعين الحزن

واضطررنا لإكمال اللعبة، فغادرت أنا لمنطقة جليم حيث استقبلني أبي في شارع خلفي ورحلنا إلى منزلنا الحقيقي، وعاد معك مصطفى وطلب منك أن تسجل كل ما تراه على ورق حتى لا تفوتنا أدق التفاصيل في ظل غيابي عنك، لذلك وفي صباح اليوم التالي تدخل والدي واتصل بك أبي ليدفعك دفعًا إلى اجترار كل ما لديك من بقايا ذكريات قد تكون تائهة في قعر قرارتك، أخبرك بأسطورة كليومينس الحقيقية بالفعل، ومنحك سببًا وجيهًا لقتلي وأثار ذلك جنونك، ودفعك لتنفيذ خطتنا وبدقة، فعدت إلى المنزل وانعزلت وبدأت تتذكر كل شيء وراقبك مصطفى حينما كنت تجلس أمام البحر وأعادك قبل أن يقتلك البرد وفتش فيما سجلته فوجدك لازلت تبحر في ذكريات أخرى لا نحتاجها فاستمر في مراقبتك.

وفي ليلة الأنواء كنا نراقبك من بعيد حتى نتدخل في اللحظة المناسبة وعندما جرفتك الأعاصير خارج المنزل، التقطناك وسلمناك للعمال الذين كانوا ينزحون السيول، ثم عدنا إلى المنزل قبل أن يغرق تماما وبحثنا عن المذكرات لنفتش فيما كتبت، ووجدتها في أحد أدراج تسريحتي بالفعل، وعرفنا سر الرقم الأخير، والذي لم يكن رقم سوي عدد اللفات التي يجب أن يُلف بها ذراع الماكينة للخلف وليس الأمام، وبالأخير نجحنا في فتح الخزينة وحصدنا محتوياتها الثمينة، وهكذا انتهت حكايتنا.

الشيء الوحيد الذي لم أخطط له هو حبك يا أحمد، نعم، أحببتك، رغماً عني، ودون إرادتي، لا أدري كيف هزمتني نفسي أمامك، وكيف أعلنتُ الخضوع لك، لكن هذا هو ما حدث، وهكذا الحب يسلب الإرادة، وتسقط أمامه كل الهامات المرفوعة، وتجثو عند قدميه الكرامة، كنت سأعترف لك بالحقيقة في لحظة ما وأهدم كل شيء، لكن ولحسن حظي، حبي للمال كان ومازال يفوق عاطفتي بكثير، أنا أعشق المال كعشقي لنفسي يا أحمد، هكذا أنا، وهكذا فعلت، وداعًا يا أحمد، وسامحني، وتذكر دائما، أنني أحببتك ربما يخفف ذلك من حدة كراهيتك لي.

انتهت الرسالة وانتبهت للمرة الأولي أن مصطفى أوصلنا لمنزل والدة حنان دون أن يسأل عن العنوان! وأن والدها كان يسكن الحي الذي كان يوجد به دكان موريس ونعوم وأنه اتصل بي في المنزل وأنا لم أمنحه رقم الهاتف، وأن عيادة مصطفى كانت بالفعل في الطريق ما بين المنزل وأقرب مكتبة عامة والتي أرشدتني أمينتها منال إلى عبد الله أبو حنان أو أيًا كان اسمه واسمها، المسألة كلها كانت لعبة، لعبه حقيرة دفعت ثمنها من عمري، ذكرياتي هي العملة التي خسرتها على طاولة قمارهم، نزفت الأيام والسنين من أجل قطع صافية من زجاج.

مؤلمة هي تلك الرسالة، أوجعتني حد الادماء، كيف اختبأ هذا الوحش القاسي وراء تلك الملامح البريئة، وأي الوحوش كان؟ وكيف خدعني بأنياب البراءة والوداعة، وكأن أوجاعي كانت فريسته التي تسد جوعه إلى القسوة، وأنا الغبي الذي كان يخشى أن يخدش محياها النسيم، وأشعر بالذنب لأنني لا أتذكرها، تظنني ربا أو إلهًا لأغفر لها ثلاثين سنة من المعاصي والظلم والجور، لا، ليس للخائنات صكًا يمنحهم نعمة الغفران، بقدر قدسية الحياة ومعانيها تأبي روحي أنت تغفر لك يا حنان، بقدر ضياعي وحيرتي وبحجم عذابي ومرارتي، وبوجع كل لحظة تجرعت فيها الخوف والخذلان والوحدة والعزلة، بكل معاني الأسى يأبي قلبي أن يسامحكِ ويأبى لساني أن ينطقها، وتأبى جوارحي ان تتصورها، لن أغفر لك حتى أموت.

رميتُ الرسالة داخل الخزينة وأدرت ذراعها عدة دورات للأمام فعادت لتغلق شفراتها وتنطبق على بعضها البعض، وبدأت أفكر بالخروج، ضربت الجدران حولي بالمعول في رفق أختبرها، فوجدتها متينة وما وراءها مصمت لا يصدر أي صوت قد يمنحني الأمل في كسرها والخروج من خلفها، وليس أمامي وقت كافٍ لأضيعه أو لأقوم بأي مجازفة، فالماء ارتفع لنصف المتر داخل السرداب، ملأت صدري بالهواء ورفعت الألواح ثم غصت بالحفرة حتى وصلت إلى حقيبتي التي تركتها بقاعها، التقطت الكشاف وأشعلته و ... مهلا، ثمة شيء يبرق في القاع، نبشت الطين بأصابعي وصعقتني المفاجأة،

تلألأت أمامي ياقوتة حمراء بحجم رأس ثعبان ضخم، طافت بمخيلتي لحظتها الياقوتة التي وصفها نعوم لموريس، لابد أنه لم يعثر عليها حينما استخرج الكنز. يا الله، بعد كل هذا العمر أفز بشيء؟ كم أنت حقيرة أيتها الحياة تمنحيننا كل شيء حينما نزهد بكِ، وتحبسين عنّا أبسط الأشياء حينما نعشقك حد العبودية.

التقطت الياقوتة وخبأتها في حقيبة ظهري، ثم لبست الحقيبة وعقدت نطاقها حول خصري بإحكام وصعدت ثانية إلى حيث الغرفة، وضعت المعول في الحقيبة وملأت صدري عن آخره بالهواء لأستعدّ لرحلة الخروج ثم عدتُ لأغوصَ مرة أخرى بالحفرة، ومنها إلى الأنفاق، ومنها إلى بطن البحر لأجد كارثة في انتظاري، لقد بدأت الأنواء، كان البحر يتقلب ويفور بجنون، يقلب الأمواج ويجعل عاليّها سافلها في غضب لدرجة أن السطح بدا لي من الأعماق مثل قِدر يفور به مخلوط من الحبر واللبن.

صعدت سريعًا إلى السطح كي أبث صدري المختنق دفقة هواء تُحييه ثم خضت سطحه مثل جرو صغير متحملاً ضربات المطر والموج لرأسي وجسدي، وكانت لحظات مؤلمة فكل ما حولي كان يصفعني يركلني ويضربني، وكأنني سارق أمسك به في حي من المصارعين، والقارب يتبدى لي عن بعد مثل كرة مطاطية يتلاعب بها الموج كيفما شاء.

عُمتُ حتى وصلت إلى حيث ينتفض القارب، مددت ذراعي المنهك وتعلقت بسياجه في يأس وحاولت أن أرفع جسدي لأصعد إليه لكن الموج رفعه لأعلي ورفعني معه، ثم جرّنا بقسوة وهبط بنا في عنف، ولم أدري ماذا حدث بعدها، كل ما أعرفه أن القارب أثناء هبوطه ارتطم برأسي.

أفقت من غفوتي على مشهد السماء الملبدة بالغيوم السوداء، كانت مُدخّنة وكأن السحب تحترق، وجدتني ابتلعت قدرًا كبيرًا من الماء المالح، وأشعر بخطٍ ساخنٍ يسيل من جبهتي على عيني وأنفي، لقد شج القارب رأسي هذا ما أدركته.

مددت عنقي أبحث عن القارب وأبصرته عن بعد، منكفئًا على سطحه مثل القبة. خلت أنه غرق، لكن الموج كان يعبث به وكما أسقطه، عاد ودار بذيله دورة مقوّسة ثم قلّبه مرة أخرى ليستقر على بطنه.

صارعت الموج حتى وصلت إليه وأسندتُ مرفقيّ إلى مقدمتهِ المحدّبة ثم رفعتُ جزعي وصعدت إلى متنه بعد عناء، لكن وللأسف تبدد أملي في النجاة بمجرد أن دخلته، فقلب القارب كان مغمورًا بالماء وجوانبه متشققة تُسرِّب، والموج يفيض بداخله.

موقفي كان عصيبًا، العاصفة تغشاني بخيوطها الكثيفة، والقارب يرقصُ بي رقصة الموت الأخيرة، وجوانبه تتهشم وعلى وشك الانسحاق، حافظت على اتزاني باستماتة وخلّصته من الحبل المربوط في حلقةٍ ثم رفعتُ الهلبَ لأبحر به إلى الشاطئ قبل أن يغرق بي، وكانت غلطة لا تستدرك، فلم أكد أحرر القارب حتى تَزَلَّجَ ظهرَ الموجِ في حدة وحمله التيار العاتي على كفّهِ ليلقي به بعيداً جداً في العمق، ومع اندفاعنه فقدتُ اتزاني ووجدت جسدي يحلق حرًا فوق القارب لكنّي وباللحظة الأخيرة فردت ذراعيّ عن آخرهما وقبضت على لوح الجلوس الممتدّ بعرض القارب وبكل ما أملك من قوة.

صار موقفي أسوأ، الموت يحيط بي من كل مكان، الرعد يجلجل بالسماء، الموج ثائر، الرياح تصفر في أذني بجنونٍ، وسياطُ المطر تضربُني من كل حدبٍ وصوب، بينما جسدي معلقٌ في الهواء مثل طائرة ورقية، وذراعيٍّ متشبثان بعارضةِ القارب الذي كان يجري حرًا طليقا في عرض البحر.

عرفت أن ذراعيّ الضعيفينِ لن يحتملا ذلك طويلًا، وأنها مجرد لحظات قليلة وتنزعني الرياح عنه وتلقي بي بين فكي الموج، وكان لابد أن أتصرف سريعًا فالموت يمَدُ مخالبه السوداء داخل حلقي لينتزع روحي، حررت ذراعي الأيمن ثم جذبتُ المِعوَل من حقيبة ظهري وضربتُ به الطرف الأيمن لذلك اللوح -والذي أتعلق بهْ بيدي اليسرى -ولعدة مرات حتى انكسر وانخلع عن بطن القارب.

وبتحطمه دَفَعت الرياح جسدي بقوة، فاقتلع وزني الطرف الآخر للّوح مصدرا فَرْقعةً عاليةً، لحظتها أفلتُّه رغمًا عني، وطرتُ بعيدا لأسقط بالماء وأتلقى جلْدةً على ظهري من سوطِ الموج القاسي، وطار معي اللوح المكسور ليسقط في بقعة قريبة مني.

غطستُ قليلا على إثر السقطة، ثم حَمَلني الموجُ الفائر إلى السطح وحينما طل رأسي بالهواء شهقت، وأنا أتَلفتُ حولي بجنون، باحثًا عن اللوح، والذي كان بمثابة أملي الأخير، وبالفعل رأيته على بعد عدة أمتار فمخرت الماء بجهد جهيد حتى وصلت إليه قبل أن يسحبه التيار بعيدا، رفعني الموج عاليًا ثم هبطَ بي لأقترب منه وحينها ألقيت بجسدي فوقه، واعتليته، وكان هذا هو آخر شيء أفعله بإرادتي.

استسلمتُ تماما، وتركت اللوح ينساب بي إلى المجهول، ولم يدّخر جهدًا في ذلك، جرى بي مسرعًا على قمم الموج المُندفع، ومرّ عند بقعة قريبة من قاربي المحطّم، ورأيته يغرق داخل فقاعة ضخمة، تمخض بها البحر قبل أن يبتلعه في بطنه، ويسحبه إلى حيث مثواه الأخير.

وبهذا المشهد انتهت علاقتي بالقارب تماما وواصل اللوح الجريان وحملني إلى مزيدٍ من العمق، وابتعدت كثيرًا عن الشاطئ لدرجة أنني لم أعد أرى إلّا اللون الأزرق نهارًا والأسود ليلًا، لكنني ورغم ذلك لا أشعر بالغربة، ولما أفعل؟ وأنا أسبح في دمائي، فما يثور في عروقي ليس سائل الحياة الذي يعرفه البشر بلونهِ القاني، إنه الموج الأزرق بكل صخبه وتلاطمه، البحر هو ملح تكويني بكل عمقه وسعته وامتداده، بكل قوته واستكانته وعجزه عن التماسك وميله للعازفين عنه و خذلانه للمحتمين به، وبكل تخليه عن خلاصته، وتمسكه بما لا ينتمي له، بل وعجزه عن التمييز بين الغالي والرخيص، يرفع الزبد فوق كفيه ويحط من شأن الدرر الثمينة ويدفنها في قعره، هكذا هو وهكذا أنا، كل منّا مِنَ الآخر، يشبه الآخر، ويكره الآخر، ولذلك لا أعرف هل سأكمل النذر المتبقي من عمري بين رَحِمه أم سيلفظني

ويتخلى عني كعادته. هل سيشتري ما تبقى من أنفاسي أم سيطرحُني حين يجد شاطئًا يقبل برسوّي على ضفافه. هل سأجد بين دفتيه السكن؟ أم سأظل هكذا، رهين الموت، رهين الحياة.

لكني وفي أكثر لحظات حياتي صفاءً وصدقًا، أشعر بالسعادة لأنني أدركت أخيرًا سر الذكريات الكبير. الذكريات هي عصارة اللحظات التي ترتقي كأس العمر، ورغوة العسل التي تُحلّي طعم الأيام، الثريات التي تزرع النور في ليل الروح حين يغيب قمره خلف ركام الغفلة. فلا يكسر عتمة النسيان إلّا مرور أطياف الماضي، تلك الشموس التي تنير لنا شفيفة الروح، وترسم على شفاهنا بسمة بعمق الزمن حين يضرب جذوره فينا فلا ندري أنأويه أم يؤوينا. الذكريات هي زلال المزن الذي كلما نضب معين الروح أرسل غيثه ومنحها ديمة سكوب فتنتعش من جديد، وتعود طفلة تمرح وتحتضن الحياة. هي فتات المسك الذي يمس الروح كالسحر فيحيل جدبها جنة ويعطر جنتها بأريج الصبا الفواحَ. الذكريات هي رضاب العمر ومأوى الروح.

* * *

على قد الموج ما يسافر .. على قد ما يرجع تاني
مسكين عمري يا مسافر .. ضاع شطّك ضاع عنواني
ضاعت أحلام زماني .. من يوم م الغيم رماني
وفاتني للأيام .. ضايع مع سفينتي

على فين يا سفينتي .. على فين هتوديني
كل الطيور فوقك .. بترجع بيتها تاني
حتى هياج موجك .. بيهدى ع المواني
كله بيرسى وانتي .. على فين يا سفينتي
خديني رجعيني .. أحلامي بتناديني

ولامتى يا سفينتي .. لامتى أسراني
شايلاني أنا وحدي .. وياشراع الفراق
تايه وزاد وجدي .. ويا ويلي ما الاشواق
كله بيرسى وانتي .. على فين يا سفينتي
خديني رجعيني أحلامي بتناديني

وليه يا سفينتي .. ليه ناسياني

تفتكري أحزاني .. وأوقات الآلام

وتضيعي في مكاني .. وتسافري للأوهام

كله بيرسى وانتي .. على فين يا سفينتي

خديني رجعيني .. أحلامي بتناديني

المأوى

أمير حسين

المراجع التاريخية والعلمية

-تاريخ بلوتارخ: حياة كليومينس الثالث.

-الموسوعة البريطانية.

- قصة الحضارة - ويل ديورانت -الجزء الثالث -المجلد الثاني.

-موسوعة مصر القديمة -سليم حسن-الجزء الخامس عشر -طبعة نهضة مصر

-خبايا القصور عبر العصور-حبيب جاماتي -دار الكتاب العربي.

-تاريخ الفلسفة اليونانية-يوسف كرم -مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

-مصر أصل الحضارة -سلامة موسى.

-هيرودوت -جينيفر تي روبرتس – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

-الحب في التاريخ -سلامة موسى.

- الفيروسات: مقدمة قصيرة جدًّا- دوروثي إتش كروفورد

-نظام الأتينيين – أرسطو طاليس-ترجمة طه حسين.

-تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية عمر طوسون، مؤسسة هنداوي

شُكْر خاص

مهما قلت لن أوفيكم حقكم

الأستاذة الكاتبة: سمية محمد / (تنقيح وتدقيق الرواية).

دكتور: محمد عبد العزيز.

مهندسة: سارة حسن.

مهندس: عيد علي.

أستاذة: نوال رجب.

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

ن للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

قدرة كبيرة على السرد، وتفتيت اللحظة المتوترة، الرواية هي الأسلوب وليس مجرد قص حكايات، وهذا ما نجده في هذه الرواية، أسلوب مميز يأخذك في خضمه منذ الجملة الأولى، مثلما يأخذك البحر الذي يفتتح به فصله الاول، ومثل الموت الذي يظل يحوم مثل طائر غريب ليقتنص كل المصائر، المأوى رواية تقدم كاتبها الجديد أمير حسين بقوة إلى عالم الدهشة والألم/ محمد المنسي قنديل

المأوى

ولا يأوي الروح مثل رضاب العمر

Bibliotheca Alexandrina
12241407

amir hussien ART WORK

ISBN 9789776436923
9 789776 436923

ن للنشر والتوزيع